

الترجمة الكاملة
(٢)

وصف مصر

ترجمة
زهير الشايب

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

العرب في ريف مصر و صحراواتها



دار الشايب للنشر

اهداءات ١٩٩٩

صندوق التنمية الثقافية

القاهرة

٢
وصف مصر
الترجمة الكاملة

وصف مصر

العرب في ريف مصر
وصحراواتها

ترجمة
زهير الشايب

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

دار الشايب للنشر

١٠ ش سليمان الحلبي - التوفيقية
ت: ٥٧٤١٣٧١ - ٥٧٢٦٨٣٠

حقوق الطبع محفوظة للمترجم

الى
مصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

يسرني أن أقدم الى قراء العربية هذه الطبعة الثانية من هذا المجلد ، وهى مناسبة طيبة لحمد الله ولتوجيه الشكر للقارئ النبيل الذى اولى هذا العمل ثقته واقباله .

ومما له دلالة الطيبة أن تصدر هذه الطبعة فى ظروف هى أفضل بكثير من الظروف التى صدرت فيها الطبعة الأولى ، فقد أصبح لهذا العمل اليوم ناشر يتعهده مشكورا ، هو مكتبة الخانجي العريقة بعد أن كان عبء نشره يقع على كاهلى المثلث ، كما حاز العمل ثقة القارئ والجهات المعنية بعد أن كان يتحسس طريقه وقتها على استحياء يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، وأخيرا فقد نال هذا العمل - وهذا أفضل لدى من أن أقول نلت أنا عنه - جائزة الدولة التشجيعية لعام ١٩٧٩ كما كان موضع ترحيب كل الأعلام الجادة والشريفة .

ويسعدنى أن تصدر هذه الطبعة فى وقت نوثق فيه أن تصدر مجلدين من مجلدات اللوحات هما المجلدان الخاصان بالدولة الحديثة فى شكل فى لائق للغاية يستحق الشكر عليه كل من ساهم فيه . وبذلك يكون هذا المجهود قد خطا خطوة كبيرة الى الأمام .

أما عن هذه الطبعة ، فإنها تختلف عن الطبعة الأولى فيما يلى :

١ - إعادة ترتيب الدرائسات ، فجاء الجدول الخاص بالقبائل العربية فى نهاية الكتاب وليس فى بدايته استجابة للملاحظة القراء غير المتخصصين الذين وجدوا هذه البداية غير مشجعة لهم على القراءة ، مع أننى وضعتها على هذا النحو لاعتبارات أكاديمية .

٢ - اضافة دراسة جديدة اليه تتناول خروج العبرانيين من مصر وهى
احدى دراسات العصور القديمة لمصر ، أما السبب فى اضافتها
هنا ، فهو أن مؤلفها ، دى بوا - ايميه قد قدمها للجنة التى
قامت بنشر وصف مصر باعتبارها متهمة لدراسته عن القبائل العربية
فى صحراوات مصر والتى وردت فى هذا المجلد .

وهذه هى المرة الأولى التى أسمع لنفسى فيها بنقل دراسة من
دراسات العصور القديمة لتتجاوز مع دراسات عن الحالة أو الدولة
الحديثة فى مصر لأننى اقتنعت بأهمية ذلك ، وبعد أن فكرت فى الأمر
مليا ، وقد شجعتنى اعتبارات مماثلة على ضم الدراسة الخاصة
بالموسيقى عند قدماء المصريين للدراسة الهامة أو الموسوعة الكبيرة التى
تناولت الموسيقى العربية على ضفاف النيل والتى سيبدأ صدورها تباعا
اعتبارا من المجلد السابع وهو المجلد القادم الذى سيصدر فى وقت قريب
بمعون الله .

والله نسأل أن يجنبنا العثرات وأن يهدينا سواء السبيل وأن يؤمننا
الى تقديم بعض ماينفع وطننا مصر واخواننا المصريين .

المترجم

مارس ١٩٨٠

مقدمة الطبعة الأولى

صدر منذ نحو عامين المجلد الأول من الترجمة العربية الشاملة لكتاب وصف مصر - وتعنى الترجمة الكاملة هنا أننا ننشر النص الكامل دون تصرف من أى نوع ، أما تقديم ترجمة كاملة لكل وصف مصر فسيظل مطمحاً نرجو أن تساعدنا الأيام فى تحقيقه - مشتملاً على إحدى دراسات هذا المسفر الضخم ، وكان موضوعها « دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين » ، وهى من وضع المهندس الشاب ، ج. دى شابرول ، الذى يشار إليه باسم شابرول دى فولفيك ، والذى شارك فى الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ .

ولقد كانت النية تتجه الى مواصلة نشر أجزاء من وصف مصر تبعاً لكن الظروف لم تكن مواتية ، فتأخر نشر المجلد الثانى منه الى اليوم ، ولا بد أن القراء سوف يلمسون العذر حين يعلنون أن نشر هذه الترجمة ، فضلاً عن الترجمة ذاتها ، يتم بجهود ذاتية .

● وهى مقدمة المجلد الأول ذكرت انه على الرغم من أية دوافع ذاتية ، قد تكون وراء نشر مؤلف كهذا ، الا اننى أحب أن أربط الجهد كله بتلك الحركة التى دبت فى مصر ، منذ يونيو ١٩٦٧ ، والتى زادت بعد اكتوبر ١٩٧٣ ، الذى أعاد لمصر بعض توازنها وبعض ثققتها بالنفس ، فاستمرت فيما بدأت فيه فى محاولتها التفتيش والبحث عن الذات ، ساعية الى استقراء كافة تاريخها ، لاسيما تاريخها الحديث الذى بدأ فى بعض فترات حياتها المعاصرة وكأنه لا يلقى الاهتمام الكافى . وحين أحاول ان اجد ما أقدم به هذا المجلد الثانى ، فاننى أجدنى أكاد أكرر نفس ماقلته آنذاك . أن التاريخ حلقات متصلة ، كل حقبة منه تحمل ظل سابقتها ، كما انها تتشكل على نحو ما ملامح الحقبة القادمة حتى ولو قامت ثورات شاملة ، تسعى لتغيير كل شئ ، فمعطيات الواقع وعناصره ، التى يتشكل منها الحاضر ، الذى يصبح بعد ذلك « تاريخاً » قادرة على التحور ، لتوجد فى أشكال جديدة ، بتسميات جديدة . وأكثر من ذلك فإن ما « مضى » - أى ماحدث وأصبح تاريخاً - هو أكثر أبعاد الزمن صدقاً ،

لأنه تشكل بصفة نهائية ، فى حين يظل الحاضر افتراضا زئبقيا ، يقفز دوما الى الأمام ، أو يتشبث بمعطيات الماضى ، أو يفعل الاثنين فى وقت معا فى أغلب الأحيان . نعم ، قد تضطربنا الظروف لاستقراء الماضى على نحو ما ، كما أن من المشروع — من الناحية الأكاديمية البحتة وليست السياسية العارضة فقط — أن نختلف فى تفسير دروس التاريخ ، ومغزى معطياته ، لكن الوقائع مع ذلك لا بد لها أن تحترم هذا الوازع الأخلاقى ، ليس فقط لأن الصدق مع النفس يقتضى ذلك ، وإنما لأننا — أيضا — إذا ماسلكتنا هذا الدرب — درب عدم احترام الوقائع التى تمت أو تجاهلها — لن نستطيع مطلقا أن نفهم الحاضر الذى نعيشه ، وسيصبح هذا الحاضر مجرد محاولات تتنصل متخبطة ، فى حين يصبح المستقبل نفسه مغامرة غير مأمونة الى أن يأتى اليوم الذى يصبح فيه المستقبل واقعا مبريرا ، أو حاضرا لم تكن نتوقع أننا نسير اليه .

لكن هذا الذى نقر به لا يعنى مطلقا أننا نحبذ الجمود أو ندعو اليه ، فالتطور حتمى شئنا أم أبينا ، والماضى لا يعود مطلقا ، كما أنه ليس خيرا كله ، وفى نفس الوقت ، فلا بد أن تكون لنا أحلامنا وطموحاتنا فى مستقبل أفضل ، نصنعه ، ولا ندع الأيام تصوغنا كما تهوى . ولكن يبقى هناك على الدوام الفرق بين الطموح المشروع وبين الخيال الممض ، وبين الاعتراف بالواقع وبين الجمود ، وفى كلمة ، بين أن نبنى فوق أساس متين ، وبين أن نشيد قصور الوهم العالية فوق الرمال الناعمة ، المتحركة .

لا بد أن هذا كله ، أو بعضا منه ، أو أكثر من ذلك ، هو الذى جدا بالحركة المصرية فى مصر أن تنقب فى تاريخها الحديث ، وأن تتصدى له ، وأن تحاول إعادة النظر فى أمور كادت تعدد من المسلمات . ومن اللافت للنظر أن الذين تصدوا لهذه الحركة الفكرية التى ارتبطت بالتاريخ لم يكونوا كلهم من أساتذة التاريخ ، مما يعنى أن التاريخ كعلم قد أصبح « ثقافة » يحرص المثقفون جميعا ليس فقط على الإلمام بها واستيعابها ، وإنما كذلك على الاسهام فيها ، دون أن يعنى ذلك مطلقا أى مساس بقدر وانجاز أساتذة التاريخ الأجلاء ، الذين ستظل منوطة بهم بطبيعة الحال الانجازات الرئيسية فى هذا المجال .

ومن جهة أخرى فأننى لا أريد أن أقحم رأى هنا ، ولست أريد بالذات أن يكون تقديم هذه الدراسات هو المناسبة التى يقال فيها رأى خاص أو يدور جدل لا ينبغي أن يتحمل هذا العمل وزر خطئه ان كان مخطئا ، أو ينال دعما بسببه قد لا يستحقه ان كان هذا الرأى صائبا . فليسنا هنا على الأقل ازاء مؤلف نضعه فى الوقت الحاضر ، نساهم به فى جدل قائم ، لكنه « ترجمة » لدراسات كتبها « اجانب » عن ظروف بعينها عاشتها مصر فى بعض مراحل حياتها ، كما انها قد كتبت من وجهة نظر هى ليست وجهة نظرنا . وقد حملت وجهة النظر هذه بالطبع بصمات الظروف التى كتبها فيها أصحابها ، كما عبرت أكثر من ذلك عن رغباتهم وطموحاتهم ومتابعيهم هم . . وان كان ذلك لايغنى انكار الوقائع ، كما لا يعنى كذلك أن تصدر حكما قاطعا بموجبها ، فليست هى الحقائق الوحيدة ، أو التى لا يأتينا الباطل من بين يديها أو من خلفها ، وأكثر من ذلك فأننا لا ينبغي أن ننظر الى الحاضر من معطيات ماضى ولى ، بل وتمثلنه مصر وأصبح جزءا منها . بل اننا قد نرى فى هذه اللوحة القائمة التى تقدمها هذه الدراسات التسع فى مجملها - بخصوص علاقة مصر بالقبائل العربية التى كانت تحيط بها وتنفذ الى أعماق واديها ودلتاها وعلى الرغم من كل التحفظات الضرورية التى سبق ابرازها - أمرا ايجابيا ينبغي ابرازه ، الا هو تلك القدرة العبقريّة الفذة التى لمصر ، والتى تمكّنها من استيعاب كل المتناقضات ، واحتواء كافة نواحي السلب ، ثم تمثل ذلك كله بخطو وثيد لكنه واثق ، ثم افرازه فى النهاية كيانا سويا ، متناغما ، وفوق ذلك كله ، مصريا . . كأنما كانت هذه الحركة العنيفة من الشد والجذب بوتقة ينصهر فى اتونها شعب مصر ، ليصنبح واحدا من أكثر شعوب العسروية امتزاجا وتوحدا . . وليس صدفة ان مصر وحدها دون كل شعوب المنطقة ، هى التى لا تشكو من وجود اقلبيات عنصرية فى داخلها ، على الرغم من كثرة من وفدوا اليها . . وبخلاف شعوب أخرى من حولنا .

بل اننا نكاد نقف فى هذا المثال الفذ على درس حضارى ، بل انسانى عظيم فى هذه القدرة على التمثيل والهضم ، فحين تمثلت مصر العناصر الملوكية والتركبة مثلا ، فقد جعلتهم أبناءها ، لا يكاد يميزهم أحد عن سواهم ، ويغض النظر عن بعض التفاصيل الوقتية أو المرحلية ، فقد أصبحوا محض مصريين ! وهكذا ذاب الغالب فى المغلوب ، وأصبح قدره قدره ، وهو نفس قدر مصر ، يجوز عليهم مايجوز عليها .

وإذا ما تركنا كل هذا لنقترب من العمل الذى بين يدينا فإنا نجد
كما سبق القول ، يشتمل على تسع دراسات لثمانية مؤلفين من الذين
شاركون فى الحملة الفرنسية على مصر ، وبالتالى فى وضع وتأليف
كتاب وصف مصر .

وإذا كان من المقبول والممكن أن نقدم الدراسات الكبيرة من هذا
المؤلف الكبير فى كتب مستقلة كما هو الحال بشأن المجلد الأول ، وبشأن
دراسات أخرى كثيرة : كدراسة جومار عن مدينة القاهرة ، ودراسة
ديجينيت ولارى عن الأمراض ، ودراسة جيرار عن الزراعة والصناعة
والتجارة ، ودراسة فيوتو عن الحالة الحالية للفن الموسيقى والغناء عند
المصريين ، فإنه من غير الممكن أو المتصور كذلك أن نقدم الدراسات القصيرة
على نفس النحو ، أى فى كتب مستقلة ، كما لا يحسن تقديمها مجمعة كيما
اتفق . ولكن يكون القارئ فى الصورة معنا ، فإنا أوضح له دون أن
يعنى ذلك أى مأخذ — أن الدراسات فى كتاب وصف مصر تتجاوز فى نفس
المجلد ، قصيرة وطويلة ، دون نسق منهجى واضح . هى إذن أشبه
بكتب وكتيبات مستقلة تتجاوز أو تتلاحق دون رابطة منهجية ، وإن كانت
تدخل كلها بالطبع ضمن إطار « وصف مصر » .

ولقد حاولنا أن نضفى هنا طباعاً منهجياً على هذه الدراسات ،
فحاولنا تجميعها حسب الموضوع الرئيسى الذى تدور حوله . فجاء هذا
المجلد بدراساته التسع التى تدور كلها حول القبائل العربية ودورها
فى مصر .

ومثل هذا المنهج — مع أنه فى تقديرنا أفضل مما يمكن اتباعه —
لا يمكن أن يكون مبرراً من العيوب ، أن لكل دراسة من هذه الدراسات
التسع ظروفها التى كتبت فيها ، كما أنها تختلف باختلاف نظرة كل من
مؤلفيها الثمانية إلى الأمور ، ما بين منصف ومتحامل ومجامل أيضاً . .
وما بين نظرة استعمارية تنشد الإصلاح لغرض بعينه ، وما بين فهم
إنسانى شامل وعميق للأمور .

ومن جهة أخرى فإن معطيات هذه الدراسات تتجاوز فى الحقيقة
الإطار الذى وضعت داخله فى ترجمتنا العربية ، فليسوف تقابلنا فى
ثنائياها :

— أمور تختص بجغرافية مصر وطبوغرافيتها

— وأمر أخرى تتعلق بمسيرة الحملة الفرنسية ذاتها على مصر والمتاعب والصعوبات التي كانت تواجهها .

— وأمر ثالثة قد تدخل في نطاق تاريخ العلم، فالأحداث والاكتشافات اليوم قد تجاوزتها .

— وهناك أمور رابعة تعد من قبيل جغرافية التاريخ . أى تناول التاريخ في مرحلة بعينها بشكل مكنى .

وهذه بالتأكيد عيوب ليست من صنع واضعى هذه الدراسات ، الذين لم يقصدوا وقتها أن يضموا دراساتهم في نفس السياق الذى نضعها نحن فيه اليوم ، وإنما هى نائجة بالتأكد من محاولة اضعاء منهج لامناص من اتباعه فى واقع الأمر — لكنه بالتأكد يأتى من خارجها . وعلى كل فإن مثل هذه العيوب تختفى كلية لو أننا حذفنا العنوان الذى اقترحناه على هذه الدراسات التسع ، واكتفينا بالإشارة الى هذا المجلد باعتباره المجلد الثانى فى الترجمة العربية الكاملة ، وان كان هذا بدوره غير متصور ، الا بعد أن تتم ترجمة ونشر هذا السفر كاملا ، او على الأقل المجلدات الثلاثة الخاصة بالدولة الحديثة .

ولقد شارك فى تأليف هذه الدراسات كما سبق القول ثمانية من علماء الحملة الفرنسية ، وأبرز هؤلاء بالتأكد الرياضى الشهير العلامة مونج ، رئيس الجمع العلمى الذى أنشأه بونايرت فى القاهرة . وتوضح الدراسة التى « يشارك » بها هنا — الدراسة الرابعة « دراسة موجزة عن عيون موسى » — أسلوبه المركز والملىء ، والصارم فى دقته وموضوعيته ، وان كنا نأسف حقا لأننا لم نجد له فى هذا الإطار الذى اخترناه دراسات أكبر وأطول .

وأول دراسات هذا المجلد الذى بين يدينا من وضع أميديه إميليان جوير وهو مستشرق فرنسى ، وعضو مجمع العلوم فى فرنسا ، وقد شارك فى حملة مصر بوظيفة سكرتير أول مترجم للقائد العام بونايرت، وتولى تدريس اللغة التركية محقق عودته الى فرنسا ، ثم قائم ببعض المهام الدبلوماسية فى مارس وتركياء خدمة النابليون . وقد عين بعد عودة الملكية

الى فرنسا سكرتيرا مترجمًا عام ١٨١٩ ، وفى عام ١٨٣٠ عين مدرسا للغة الفارسية فى الكوليج دى قرانس ، وله مؤلفات عن رحلاته الى ارمينيا وفارس ، وعن قواعد اللغة التركية . كما ترجم عن العربية جغرافية الادريسي . وله بالاضافة الى ذلك مقالات كثيرة .

اما الدراسة الثانية فهى لاحد شبان مهندسى وضباط الحملة الفرنسية الذين نصمت كثير من المراجع عن ذكرهم للاسف ، جراتيان لوبير وهو المشيقي الأصغر للمهندس لوبير كبير مهندسى الحملة الفرنسية ، الذى اشرف على الدراسات الهندسية الخاصة بقناة السويس . ومن دراساته فى وصف مصر ، يتضح انه كان من معاونى الجنرال مينو ، وقد أصيب كما ذكر بالطاعون مرتين ونجا من الموت بأعجوبة وتوضح دراساته تشبعه بتخصصه كمهندس اذ يكاد يكون العالم فى نظره اطوالا ومقاييس . فضلا عن ذلك فان نظريته للامور يشوبها — فى بعض الدراسات — نوع من التعالى والتعصب .

اما الدراسة الثالثة فهى من وضع الجنرال أندريوسى (أنطوان — فرانسوا أندريوسى) ، وهو جنرال (عسكرى) وديپلوماسى ، وهو الحفيد الأصغر لأندريوسى المهندس والعالم الرياضى ، كان عضواً فى مجمع القاهرة وبعد عودته الى فرنسا عين سفيراً لبلاده فى لندن ثم فىينا ثم استانبول على التوالى . وخلال المائة يوم عاد الى الخدمة تحت قيادة نابليون ، وبعد واترلو شارك فى المفاوضات لانقاذ ما يمكن انقاذه ، وله دراسات هامة أبرزها دراسة عن تناقص مساحة كوكب الأرض .

اما ج. كوتل مؤلف الدراسة الخامسة فهو مهندس ، ولد فى مائس ١٧٤٨ ومات بها عام ١٨٣٥ ، أى أنه جاء مصر وعمره نحو خمسين عاما ، وقد درس منذ طفولته الفيزياء والكهرباء ، وكان رئيس اركان لجنة السلم العام ، وقد أدت معركة أبى قبر الى ضياع كثير من المادة التى جمعها عن مصر .

والدراستان السادسة والسابعة من وضع مؤلف واحد هو دى بوا — ايميه ، ومن المعلومات القليلة التى تذكرها المصادر عنه نعرف أنه طالب مهندس ، وأنه قدم الى مصر وعمره نحو تسعة عشر عاما . لكننا حين نقرأ دراساته ، وكذا الأعمال الأخرى التى ساهم بها فى وصف

مصر ، سوف نطن أنففسنا بأزاء شفخ كبر عركته الأيام وباحت له بمكنونات سرها وتجارفها . وتجمع أغماله الشامخة بحق بفن غزارة المعلومات ، وسلاستها ، وبفن عذوبة الأسلوب ورقته وشاعرفته . وهو لا فصدر فقط عن روح متصفة وأنما ففجاوز ذلك بكفر ففصدر بحق عن روح انسانية عظفمة ، لاتقف عند حدود الأجناس والحضارات بل تنفداع عنفها الحدود وتنفادل الحضارات ، ونلمس فف كتاباته حبسه العظفم لصر وأنفهاره الشفدفد بها . ومن عجب أنفسا لم نسمع به وأحفا من كبار أءباء فرنسا وعظمائها ، وقد فعود ذلك لأن عمره العففرى كان قصفرا ، فقد مات وعمره لما ففجاوز ٣٦ عاما .

وأفا كانت نفقصنا المعلومات الوففرة كذلك عن ب.م. مارتان مؤلف الدراسة الثامنة ؛ وان كنا ننفرف عفله من خلال دراسته ، ونلفظ أنه كان متشبعفا الى حد ما بأفكار مفنو الاستعمارففة بخصفوص مصر ، مع أننا نحف ففه حقا رغبته الجامحة فف معرفة مصر والوقوف حتى عفى مفعوعة أحجارها ، فماننا ولأنك نعرف الكفر عن جومار أو اءم — فرانسوا جومار مؤلف الدراسة التاسعة عن عرب مصر الوسطى ، وهو مهندس وجغرافف وأركفولوجف. وقد ولد فف فرساى عام ١٧٧٧ ومات عام ١٨٦٢ — أى أنه قد قدم الى مصر وعمره لما ففجاوز ٢١ عاما ، وعلى الرغم من ذلك جاءت دراساته الكفرة لشهد له بالدقة وسعة الأفق واتساع المعارف ، وسلاسة الأسلوب لذلك فقد حل محل مونف عنفما غافز الآخر مصر فف صحفة بونابرت . وقد ساهم ببهد كبر فف نشر وصف مصر ، وقد كانت له مكانة كبرة عند كل من محمد على وسعفد باشا ، وأنعم عفله بلقب بك ، ولما أعفء انشاء المجمع العلمف المصرى أسندت لفه رفاسته الفخرفة عام ١٨٦١ ، وكان معدودا من بفن كبار علماء الجغراففا والآثار القفففة فف فرنسا .

ولقد ترددت كفرا فف أفتفار بعض هذه الدراسات كى أءفلها فف هذا الاطار ، وتكاف الدراساتان الثانية والثامنة تحظفان بكبر قدر من هذا التردد ، خاصة وأننى قد أعددت مفعلا آخر من هذه الدراسات القصفرة بفور حول « وصف بعض المفن والأقالفم المصرفة » ، لكننى فضلفت بعد تفكفر طوفل وضع هاتفن الدراساتفن عفلى الرغم من انتمائهما لكفر الى هذا النسق ، بسبب كبر حجم المفعل الخاص بالمفن من ناحفة ، وبسبب وجود

اشارات هامة ومسهبة حول القبائل العربية فى الدراساتين ، وكذلك بسبب وجود قائمة بالقبائل العربية فى بنى سويف والفيوم ، وهو أمر تتضح جدواه حين تربط هذه الدراسة بالدراسة الأخيرة التى تدور حول العرب فى مصر الوسطى .

ويحتم واجب الأمانة أن أقر بالمصاعب التى واجهتنى فى تحقيق أسماء القرى والأماكن والتبائل ، بسبب الأخطاء الإملائية ، وأخطاء النطق من جهة وتشابه هذه الأسماء نفسها من جهة أخرى، مع غيبة الإرشادات التى تستخدمها اللغات الأجنبية اليوم حين تكتب الأسماء العربية. وقد اقتضى ذلك منى بذل الكثير من الجهد والوقت والاستعانة بالأصدقاء والمراجع وكافة المظان المتيسرة .. ومع ذلك فمأنتى أرجو المصفرة أن كانت قد تسربت رغم ذلك كله بعض الأخطاء فى هذا الخصوص . وهذا قصور لا شك فيه فى حالة حدوثه لا يمكن تبريره وأنتى فى هذا الصدد أتقبل بصدر رحب كل توجيه أو حتى تصويب .

كما يدفعنى واجب الأمانة أن أقر أيضا أننى قد تصرفت فى موطن أو اثنين فى ترجمة عبارتين وجدت من اللائق أن أنصرف فى ترجمتهما . وقد أشرت الى ذلك فى موضعه .

كما أن الأمانة تقتضى كذلك أن أشير الى تلك المساعدات القيمة التى لقيتها فى سخاء وروح علمية عالية من الأساتذة والأصدقاء ، أستأذنا الدكتور عبد الرحمن زكى والأخوين الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن أستاذ التاريخ بكلية البنات الإسلامية والأستاذ رينيه خورى .

كما لا يفوتنى أن أوجه شكرا خاصا للدكتور عبد العزيز الدسوقي رئيس تحرير مجلة البثانة الذى أفسح لهذا الجهد صفحات مطولات من مجلته القيمة ، بشكل يستحق عليه من جانبى كل الشكر ، كما كان لتشجيعه بالكتابة عنه بقلمه أو بأقلام آخرين أفضل الأثر فى نفسى .

وحين اختتم ذلك بإسداء الشكر الى السيدة زوجتى على ما تقدمه من
عون وتشجيع من أجل انجاز هذا العمل فائتى لا افعل ذلك لياقة أو
مجايلة وانما اقرارا لحق واعترافا بواجب ملموس ومشكور .

كما اقدم الشكر لكل من ساهم فى تشجيعى على هذا العمل ولو
بمجرد التشجيع الشفهى - واقدم الشكر سلفا لكل من يتطوع
بالنصح والتوجيه .

وكل ما أرجوه أن يكون هذا الجهد نافعا لوطنى مصر ولوطني
المصريين وسيكون هذا - لو تحقق - هو افضل الجزاء .

والله تعالى هو الموفق ،،،

زهير الشايب

مارس ١٩٧٨

الدراسة الاولى :

جولة في إقليم المريوطية جراتيان توبير

العنوان الاصلى للدراسة هو :

دراسة موجزة عن الجزء الغربى من
ولاية البحيرة والذى كان يعرف قديما باسم
اقليم المريوطية .

(م ٢ — وصف مصر)

حين نتذكر وجود منطقة قديمة لم تتغير طبيعتها (❖) .. لكنها مع ذلك لم تعد كما كانت في الماضي أهلة بالسكان أو مزروعة ، بمعنى ذلك أننا نحاول النظر في امكانية استجلاب سكان جدد إليها ، وبخاصة عندما لا تكون هذه الأراضي قد فقدت العوامل الطبيعية لخصوبتها . ونحن نقصد هنا بهذا الحديث ذلك الاقليم الذي يقع في أقصى الغرب من شمال مصر والذي كان يغرف في زمن الإمبراطورية الرومانية باسم اقليم المريوطية ، والذي لا يحمل اسم مريوط الحالي الا مجرد ذكرى باهتة لوجوده . وهذا الاسم - مريوط - قد أطلقه العرب على مدينة قديمة في هذا الاقليم .

وعلى الرغم من أن هذه المنطقة تقع على مشارف الاسكندرية ، فإنها في أيامنا هذه مهجورة وخالية من السكان حتى أننا لا نكاد نعرف - مجرد معرفة - عدد المدن الخربة الموجودة فيها والتي لا يتردد عليها سوى العربان الرعاة أو الرحل ، الذين يأتون ليقیموا فيها خيامهم في اوقات معينة من السنة . وسوف يساهم الوصف السريع الذي نقدمه هنا عن حالة هذه المنطقة في الماضي وكذلك بعض المعلومات التي نقدمها عن

(❖) في الرابع من جرمينال من العام التاسع بالتقويم الثوري الفرنسي ، الموافق ٤ أبريل ١٨٠١ ، قطع الجيش الانجليزي - التركي جسور ترعة الاسكندرية ، عند الطرف الغربي لبحيرة المعديّة ، على بعد ٧ كيلومترات من باب رشيد ، الواقع الى الشرق من السور القديم لمدينة الاسكندرية ، فتدفقت مياه هذه البحيرة المالحة ، وكذا مياه البحر الذي يتصل بها .. وبعد سبعة أيام أي في نهاية شهر بريريان (١٥ يونية ١٨٠١) امتلأ الحوض القديم لبحيرة مريوط .

ولكى تتبين فرق الجيش المعسكرة بالاسكندرية حقيقة حالها ، وطبيعة الموقف الذي أصبحت فيه ، قامت **تورية** استطلاع من الجيش لمسح هذه المنطقة ، فكانت هذه الدراسة

(المترجم)

حالتها الراهنة في رسم خريطة مصر الجديدة وفي اعطاء افكار دقيقة الى حد ما عن هذا الجزء من أرض مصر (١) .

وقد أطلق الرومان اسم اقليم المريوطية على كل البلاد الواقعة بين بحيرة ماريوتيس « مريوط » والبحر في الشمال . ويحد هذا الاقليم من جهة الغرب : البحر بلا ماء ، ومن جهة الجنوب وادى اقليم نقيوتيس ، ومن الشرق التربة التي كانت تحمل مياه النهر الى البحيرة التي اعطت الاقليم اسمها . وكانت بحيرة ماريوتيس تمتد حسبما يقول سترابون حتى مدينة تابوزيريس على الخليج البلتيني ، وكانت محاطة بالمساكن الفخمة والقرى والمدن وكانت مدينة مازيا عاصمة لهذا الاقليم . وقد عاشت هذه المدينة قبل مجيء تميزز بوقت طويل في العام ٢٢٩ من تأسيس روما أي قبل الميلاد بـ ٥٢٥ سنة . ويقول هيرودوت حول هذا الموضوع : « وعندما شعر سكان مازيا بالنفور من الحفلات الدينية التي كانت للمصريين ، أرسلوا يستلهمون الوحي من جوبتر آمون كي يعرفوا ما ان كان ينبغي عليهم أن يخضعوا لهذه القوانين ، لأنهم كانوا يظنون انفسهم من شعوب ليبيا لكن الوحي أجاب بأن كل البلاد التي يغطيها النيل لمياهه تابعة لمصر ، وان الأقوام الذين يشربون من مياهه انما هم مصريون » . وهذا الاقليم الذي يقع على تخوم الصحراء الليبية هو في الواقع اقليم مصرى ، وكان على الدوام خاضعا لحكم الأمراء المصريين ، فضلا عن ذلك ، فهو يدين بكل مبادئه وزراعاته لمياه النيل . وعلى هذا فان اجابة وحي آمون تبدو صحيحة وطبيعية .

وترجع أسماء أهم المدن والقرى في هذا الاقليم — كما نوردتها هنا — الى المعالم الجغرافية بطليموس الذي يحدد مواقعها الجغرافية على النحو التالي :

(١) مريوط . واسمها القديم ماريوتيس . يقول عنها عبد الرشيد في معجمه : انها مدينة تقع بالقرب من الاسكندرية ، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ، واشتهر عن سكانها أنهم يعمرون هوليلا .

اسم المدينة	خط الطول	خط العرض
شيموفيكس	٣٠° ٥٩'	٦° ٣١'
بلنتين	٤٥° ٥٩'	٠° ٣١'
جزيرة شرسونيسيس ومدينة بورتس	٠° ٦٠'	٦° ٣١'
مونوكامينيم	١٠° ٥٩'	٣٠° ٣٠'
الميرا	٤٠° ٥٩'	٥٠° ٣٠'
تابوريريس	٥٠° ٥٩'	١٥° ٣٠'
كوب	١٠° ٥٩'	٢٠° ٣٠'
أنثيفيلي	٣٠° ٥٩'	٢٠° ٣٠'
هيراكس	٤٠° ٥٩'	٤٠° ٣٠'
فوموئيس	٠° ٦٠'	٤٠° ٣٠'
بالي ماريا فيكس	٠° ٦٠'	١٠° ٣٠'
ماريا بالوس	١٥° ٦٠'	٥٠° ٣٠'
الإسكندرية وراكوتيس	٣٠° ٦٠'	٠° ٣١'
كانوبوس ، مينلاى ، متروبوليس	٤٥° ٦٠'	٦° ٣١'

ويمكن بواسطة هذا الجدول ، أن نستدل بسهولة على الموقع الخاص بأهم الأماكن فى هذا الاقليم القديم ، وأن نرسم خريطة له ، ولكننا سرعان ما نلاحظ عند تمحيص هذا الجدول ، بعض الأخطاء التى تعود بلا ريب ، الى معطيات خطوط العرض ، اذ كيف نجد جزيرة شرسونيسيس ، التى لا جدال فى أنها هى الموقع الحالى لمربوت (العجمى) ، وهو رأس صغير به حصن ، ويقع على بعد فرسخين صغيرين ، على الشاطئ الذى ينحدر الى الجنوب الغربى من الاسكندرية — كيف يمكن لنا أن نجدها مبنية على ارض . الى الشمال من خط عرض هذه المدينة .

ويمكننا أن نقول المزيد بخصوص موقع بلنتين ، التى تبين على نفس خط الاسكندرية ، على الرغم من أنها أكثر ابتعادا ، نحو الجنوب الغربى .

ومع ذلك فان من العسير ان ننقل ان يكون بطليموس - وهو العالم الجغرافى والفلكى الذى ينتمى الى مدرسة الاسكندرية ، والذى كان يقسم بهذه المدينة من عام ١١٧ الى ١٦١ من العصر الحديث - هو الذى يمكن ان يقع فى اخطاء كهذه حول مواقع أماكن شديدة القرب من عاصمة مصر ، كانت تربطها بها علاقات قوية بسبب روابط السياسة والتجارة والدين . . . ولنقل من الأقرب للصواب ان ننسب هذه الأخطاء الى الناسخين والى مترجمى هذا العالم الجغرافى كما يمكن ان ننسبها كذلك الى شراحه كما يرى جوسلان Gosselin (٢) فى كتابه : الجغرافيا عند الاغريق Géographie des Grecs

ويحدد سترابون مواقع المدن الساحلية لهذا الاقليم بشكل مخالف فيحدث عن كينوسيماء وعن تابوزيريس التى يقول عنها بأنها لاتقع مباشرة على شاطئ البحر وأنه كان يحتفل فيها بأعياد كبرى ، ثم يتحدث عن تابوزيريس أخرى تبعد من الاولى بمسافة كافية ، وكان يجرى فيها كل عام - فى فصل الربيع - مسابقة للشعب وبخاصة بين الشبان الذين كانوا يساهمون فى الاحتفالات بالنصيب الأكبر . ونفهم من كلام سترابون انه كانت تحدث هناك كما كان يحدث أيضا فى كانوبى ومنديس Mendis مشاهد شهوانية خلبة كان يغطيها الكهنة بأقنعة من اسرارهم (٣) .

(٢) يقول جوسلان Gosselin فى كتابه : الجغرافيا عند الاغريق ، الذى شرح فيه ملاحه القدماء ان بوزيدونيوس Posidonius قد اقترح على مدرسة الاسكندرية مقياسا جديدا للدرجة الأرضية ، وينقص هذا المقياس الذى أخذ به ، قيمة الدرجة الى ٥٠٠ غلوة ، فكانت الدرجة تقاس من قبل بـ ٧٠٠ غلوة للمسافات التى تؤخذ باتجاه خطوط العرض ، وفى الاسكندرية تغيرت المسارات القديمة ، لكن بعضها قد نسي بلا جدال : وينسب جوسلان الأخطاء التى تسربت الى جداول بطليموس الى هذا التغيير .

(٣) فى كتابه عن تاريخ المصريين ، لا يتحدث هيرودت عن الأعياد السنوية التى كانوا يحتفلون بها فى منديس Mendis الا فى نكتة غامضة عادة كالأسرار المصرية نفسها ، على الرغم من انه قد شارك فى هذه الأعياد ووثقها ، ومع ذلك ، فإذا كان هذا المؤرخ قد استطاع ان يحتفظ بالسمر الذى أقسم على الحفاظ عليه للكهنة المصريين ، وبخاصة فيما يتصل بديانتهم ، فان بطاركة الاسكندرية ، وآباء الكنيسة الاول ، لم يتحرجوا من أن يكشفوا عن خسة وبذاءة هذه الأعياد فى كتاباتهم ، ويمكن الرجوع فى هذا الصدد الى لارشيه Larchet ، الترجمة الفرنسية لهيرودت ، الكتاب الثانى ، ص ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، باريس ، ١٨٠٢ ، (الملاحظات أرقام ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢) .

وبعد هاتين المدينتين اللتين تحملان اسم تابوزيريس تأتي مدن :
بلنتين ، نيسيى ، باجوس ، شرسونيسيى ، والأخيرة عبارة عن رأس
صغيرة بها حصن وحامية ، ولم تكن تبعد عن الاسكندرية الا بـ ٧٠ غلوة
« الغلوة الاغريقية = ٧٦٥٠ قامة وتساوى الغلوة الأولبية ٩٥ قامة » .

وكانت هذه المنطقة تشتهر بجودة نبيذها — وكان من خاصيته أنه
يعيش لوقت طويل — وكانت الاسكندرية تصدر منه كميات كبيرة الى روما
والى بلدان اجنبية أخرى . كما كانت هذه المنطقة ايضا تبتلىء بأشجار
الزيتون وأن كان نوعه هناك أقل جودة من نوع الزيتون الذى كان
يزرع باتليم أرسينويت Arsinoïte حيث يعطى الزيتون هناك كميات
وفيرة من الزيت .

وكان يسكن الجزء الأكبر من هذا الاقليم فى القرون الأولى للمسيحية،
فى عصر اباطرة القسطنطينية ، المسيحيون الذين كانوا يفرون هربا من
اضطهاد وملاحقة الأريوسيين والدوناتيين واتباع المذاهب الأخرى
ليجدوا ملاذا فى صحراوات مصر الغربية وفى الصعيد . وكان وادى
مريوط مزدهما بالسكان ، وبلغ عدد الأديرة التى بنيت هناك حدا
دعا الامبراطور فالون Valens فى القرن الرابع أن يكلف الكونت دوريان
d'Orient حاكم الاسكندرية أن يجرّد حملة على الرهبان الذين يجدهم
هناك قاندين على حمل السلاح (٤) .

(٤) يقول فلورى Fleury فى كتابه ، موجز التاريخ الكنسى
Abrégé de l'Histoire ecclésiastique أن الامبراطور فالون Valens
قد أمر عام ٣٧٦ بأن يجند الرهبان وأن يرغموا على حمل السلاح
كجنود . وعلى الرغم من أنه قد ينظر الى هذا الأمر على أنه صادر عن
حاكم يضطهد الكنيسة ، الا أنه يمكن القول بأن هذه الألوف الهائلة من
الرهبان قد جعلت مثل هذا الأمر ضروريا ، فلقد بلغ عدد الأديرة فى مصر
العليا وحدها خمسة آلاف دير وكانت مدينة أوكسيرينشيس oxycrynchus
الواقعة فى الصعيد الأدنى تضم عشرة آلاف راهب وعشرين ألف راهبة
كما كان دير التبين Tabenne الذى أنشأه القديس باخوم فى الصعيد الأعلى
يضم خمسة عشر ألف راهب ، أما الدير الذى أنشأته أخته والذى يقع فى
مواجهة ديره فكان يضم أربعمئة فتاة ، وكان عدد الذين يحضرون
الاجتماعات العامة السنوية التى تعقد تحت رياسته يصل الى خمسين

وقد بلغ عدد الذين جندوا تسرا في إقليم الجنوب حوالى خمسة آلاف رحلوا جميعا الى القسطنطينية ، حيث الحقوا بجيش الامبراطور . اما الاديرة التى نجدها حتى اليوم في وادى بحيرات النطرون وفي المناطق الأخرى من مصر ، فليست سوى بقايا هذه الألوف من الاديرة التى كانت تغص بها فيما مضى هذه الصحراوات ، كما أن الخرائب التى عثر عليها الفرنسيون في كل مكان في جولاتهم الاستكشافية العسكرية التى قاموا بها في هذا الجزء الغربى من مصر ، تشهد بصحة مايقول به التاريخ عن ازدهار هذه المنطقة المهجورة اليوم بالسكان في الزمن القديم . وسنقدم هنا بعض التفاصيل باعتبارها ذات نفع .

قام اللواء ديستان Destaing قائد منطقة الرحمانية بعد عودة الجيش من الحملة على سوريا ببعض حملات ضد العربان في شهر ترميدور من

الف راهب . وكان عدد الرهبان المقيمين في الاديرة الكبيرة وحدها في مصر يبلغ ٧٦ الف راهب ، أما عدد الراهبات فقد بلغ حوالى العشرين الفا . ولا يتضمن هذا الرقم اعداد الرهبان والراهبات في الاديرة الصغيرة التى لا يحصيها عد ، وكان يخضع لسلطة الأب سيرابيون Sérapion بالقرب من أرسينويه Arsinoé عشرة آلاف راهب .

ويمكن أن نرجع سبب هذا الحماس لحياة الاديرة في ذلك الوقت الى تنشى روح الحزبية التى مزقت الكنيسة في القرون الأولى من انشائها ، أكثر مما يمكن أن نرجعها الى الاضطهادات التى تعرضت لها الكنيسة : فقد كانت الاسكندرية مسرحا داميا لانشقاقات الدوناتييين والاريوسيين ، ذلك ان المسيحية التى انتشرت بعد المسيح في صمت وسلام ، بدأت في عهد قسطنطين (حوالى عام ٣٣٠ م) تنتشر بالاغراء والارهاب وقوة السلاح ، وهنا بدأ الصليب يخضب الأرض بالدماء ، وتسبب آريوس ، الليبى المولد وزعيم الطائفة التى تحمل اسمه ، وانشاس بطريرك الاسكندرية ، بانقسامهما ، في قبام حروب أهلية عديدة في هذه المدينة ، وقد استطاع آريوس ، الذى أدانته مجمع نيس عام ٣٢٥ ، والذى أعاده قسطنطين من المنفى ، أن يضم الى حزيه أكثر من ٧٠٠ فتاة من الاسكندرية ومريوط .

انظر :

L'Histoire des Bas - Empires, t. Ier, liv IV et t. III liv. XVIII
p. 262.

وكذلك :

L'Histoire de la décadence de l'Empire Romain, t. VI. p. 68.

العام التاسع « أغسطس سنة ١٧٩٩ » فاخترق اقليم البحيرة الى منطقة مريوط وقال انه قد شاهد هناك عددا كبيرا من المدن والمساكن المتهمة .

وفي شهر نيفوز من العام التاسع (يناير ١٨٠١) قام فريان Friant قائد حامية الاسكندرية بخملة ضد بعض قبائل العرب ، واندفع بجنوده حتى برج العرب ، الذى يقع على مسيرة تسع ساعات على الشاطئ الجنوبى الغربى من الاسكندرية . وكانت هذه اول مرة منذ الاحتلال الفرنسى لمصر تكتشف فيها هذه البقعة من الساحل المصرى . وقد ابدى هذا القائد فى تقريره العام عن الحملة ، أسفه لأنه لم يصحب معه بعض الأشخاص من العارفين بالآثار القديمة .

وقد قام كبير مهندسى الحملة ، لوبير Lepère — وهو اذى الأكبر — بصحبه السادة فاي Faye وشابول Chabrol ولاكريه Lancret وهم من مهندسى الطرق والسككبارى ، قام كل هؤلاء بجولة فى اقليم رشيد والبحيرة ، كان القصد من ورائها استكشاف ترعة الاسكندرية ، التى تبدأ من الرحمانية ، حاملة مياه النيل الى المدينة ، ومن هناك رحل هؤلاء المهندسون فى الرابع من بليفوز من العام التاسع (٢٤ يناير ١٨٠١) لمشاهدة الآثار الموجودة عند برج العرب . وقد سجلت نتائج هذه الجولة الاستطلاعية تحت رقم ١٠٧ من بريد مصر Courrier de l'Egypte ومنذ نزول الانجليز فى أبى قير ، قام قائد الحامية من سلاح الهجانة ببعض الحملات فى هذا الجزء ، وقد اخبرنى بأنه قد مر هناك بأطلال هامة (٥) وقد تمثلت جيدا كل هذه المعلومات ، وانتهزت فرصة آخر حملة استطلاع كلف بها هذا الضابط من قبل الجنرال مينو ، لكى اتأكد من حجم المساحة التى تغرقها بحيرة ماريوتيس (مريوط) وان كانت كل المنطقة قد غرقت بأكملها فى نهاية شهر بريرال من العام التاسع (يونية ١٨٠١) . وهذا ما سأحدث عنه بإفاضة فى مقالى عن البحيرات فى مصر . وقد كان

(٥) نقرأ فى رحلات جزانجيه Les Voyages de Granger (ص ٢٢٢) انه يوجد على بعد ستة فراسخ الى الغرب من برج العرب ، برج آخر قد تحول الى أنقاض ، وقد لاحظ هذا الرحالة (فى عام ١٧٣٠ — ١٧٣١) وجود كتابات عربية على جدرانه .

القصد من وراء هذا الاغراق الذى تم ، حصار الفرنسيين فى الاسكندرية ،
وذلك بتقطع اتصالهم بفرقة الجيش الموجودة بالقاهرة .

رحلنا من الاسكندرية فى السادس عشر من فلوريال من العام
التاسع (٦ مايو ١٨٠١) ، مع قائد الحامية المسو كفالليه Cavalier
على راس اربعين رجلا من الهجانة ، وكان معنا احد ضباط البحرية
هو المسيو جار Gard الذى تلقى تعليمات بأخذ مجسات فى نقاط متفرقة
من البحيرة ، وبعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف الساعة ، وصلنا الى
اول جزيرتين فى وادى مريوط . كانت المياه بالفعل قد تجاوزتهما بكثير ،
وكانتا فى ذلك الوقت قد خصصتا للدفاع عن هذا الجزء المحصور من
البحيرة والذى يشكل الرأس الشمالية لهذا الوادى . عبرنا الى هاتين
الجزيرتين فى قارب من تلك القوارب التى كانت تتبعنا ، فى الساعة
الخامسة من مساء هذا اليوم ، ووجدنا اكبر عمق لمياه البحيرة الذى يبلغ
٥٠ الى ٦٠ قامة يبلغ عند هذه النقطة ٤ بوصه ، وبعد ان نصبنا
خيامننا بالجزيرة واصلنا فى اليوم التالى ابحارنا داخل البحيرة التى وصلنا
اليها فى الوقت الذى كانت قد وصلت اليها فيه مياه الاغراق .
وتوغلنا لمسافة فرسخين الى غرب الجنوب الغربى ، تتبعنا فرقة الحرس
التى كانت تسير بحذاء الشاطئ الغربى للجزيرة ، وعلى هذا البعد ،
وكنا فى حوالى الساعة الثامنة من صباح السابع عشر من فلوريال ،
وجدنا ان عمق المياه لم يعد يتجاوز اكثر من ٧ الى ٨ بوصات . وعندما
فشلت قواربنا فى التقدم لأبعد من ذلك ، غادرناها لكي نكمل مهمتنا
الاستطلاعية سيرا على الأقدام . وبعد ذلك بحوالى نصف فرسخ انتهى
المدى الذى وصلت اليه مياه الاغراق . وكانت هذه المياه تواصل حركتها
حيثا . وفى نفس الوقت واصلنا صعود الوادى حتى نتعرف على زاوية
اتجاهها وحتى نمنح انفسنا الوقت الكافى للملاحظة الممدى والحد اللذين
سيبلغهما الغرق فى الأيام التالية .

وبعد قليل وصلنا الى ضريح ، كانت المياه ما تزال على مسيرة ثلاثة
ارباع الساعة منه ، ويطلق على هذا الضريح اسم القبة الكبيرة ، وهو
حسب العادة عبارة عن مقبرة لبعض شيوخ العربان ، وهؤلاء ينظرون
اليها بتقديس كبير ، وهى تقع على بعد حوالى مائتى خطوة من شواطئ

البحيرة فى شعب صغير لأحد التلال وتحيط بها أشجار النخيل التى تحميها من رياح البحر مرتفعات هذا التل نفسه والذى يمتد بطول شاطئ البحيرة . وبعد أن عبرنا مرتفعات هذا التل فى الشمال هبطنا الى واد صغير مواز للبحيرة وللشاطئ ، ويمتد بطول البحر ابتداء من الضريح ولمسافة ١٠ - ١٢ فرسخا الى الجنوب الغربى ، ويجد المرء هنا وهناك بعض جذوع النخيل وكثار خضرة وإشارات لم تستغرق علينا تدل على وجود مياه عذبة تحت رمال الصحراء . وتغلق هذا الوادى الصغير من جهة الجنوب سلسلة متصلة من المرتفعات التى تحدثنا عنها والتى تشرف على بحيرة مريوط ، أما من جهة البحر « الشمال » فتحدده سلسلة صغيرة من المرتفعات الصخرية التى تحاذى الساحل بأكمله ، وهى مغطاة برمل أبيض يكونه البحر ويلقى به بلا انقطاع على شواطئه ، فتعبثه الرياح أو تجمعها فى شكل كتبان صغيرة متحركة . وهناك ، توجد مياه حلوة ، ولو أنها تميل للملوحة بعض الشيء وذلك فى حفرات ضحلة حفرها العرب لسقاية ماشيتهم . تتبعنا هذا الوادى من القبة الكبيرة حتى برج العرب حيث وصلنا الى هناك بعد مسيرة ثلاث ساعات .

وبرج العرب ، عمود له قاعدة مربعة تحمل جذعاً مثن الزوايا تعلوه كتلة دائرية ضخمة على غرار عمود مبثور لم يعد يتناسب ارتفاعه مع الارتفاع الذى يفترض له من طول قطره . وهذا المبنى القائم على الشاطئ ، لا يبدو فى الواقع إلا كمود هائل معكوس بشكل جزئى . وفى الخارج ، على أحد وجوه الجزء المثن منه ، وهو الوجه المقابل للبحر ، نجد عدة درجات لسلم لابلد أنه ينتهى الى بداية البرج على عمق حوالى عشرة أمتار تحت سطح الأرض ، وهذا المبنى الذى قام بفحصه مهندسونا فحاصجيدا ، جيد البناء ولا بد أنه كان يستخدم كنقطة مراقبة بحرية شأنه شأن كل الأبراج الأخرى التى تقع بالمثل على الشواطئ قليلة الارتفاع فى مصر وفى هذا الجزء من صحراواتها الغربية .

وقبل أن انتقل الى موضوع آخر ، ينبغى أن أتحدث عن شيء لم ألق عليه سوى نظرة عابرة ، حيث كنت على الدوام متخلفا عن رجالنا لكثرة ما كنت أتوقف لتفحص الأنقاض والمواقع ، أريد أن أتحدث عن ربوة مرتفعة بعض الشيء نلاحظها على نفس السلسلة التى تفصل البحيرة

عن البحر ، فظف هذه الربوة الواقعة على بعد ١٠٠ - ١٢٠٠ متر من برج العرب عند الاتجاه نحو الاسكندرية تلمح أنوارها من النواطير وأجزاء مبنية من الحجارة وأخيرا واجهات مربعة الزوايا ومائلة لتعطي في مجملها شكلا هرميا . وفي أسفل هذه الربوة ، يوجد تاع به أنقش خزان جميل للمياه كما توجد منشآت أخرى . واسم كوم أبوصير (٦) الذي يطلقه العرب على هذا المكان إنما هو مشتق من اسمه القديم ، تابوزيريس ، وهي المدينة التي يحدد مكانها كل من سترابون وبطليموس . وقد سبق أن ذكرنا ذلك فيما سبق عن هذا الموقع ، وإن كان موقعها هذا يتفق في الواقع مع تابوزيريس أخرى كانت كما سبق أن حدد العالم الجغرافي اليوناني تقع على بعد مسافة من مدينة تحمل هذا الاسم (٧) ، والتي نظن أن موضعها كان في نفس موقع برج العرب كما سنوضح فيما بعد .

وبمواصلة السير بحذاء الساحل الى الجنوب الغربي يجد المرء على بعد ٤٠٠ متر من البرج ، اطلال مبنى واسع مربع الشكل تحيط به جدران يبلغ ارتفاعها من ١٢ - ١٥ مترا ويبلغ طول واجهاته حوالي ٢٤ مترا . ويتجه مدخل هذا المبنى باتجاه الاسكندرية . وتعلو هذا المدخل قبتان ويضم المبنى في داخله حجرات بها بعض النوافذ الصغيرة والعالية مما لا يسمح الا بدخول تسدر كاف من الضوء وهذا يعني بوضوح أنها خلوات سرية والحجرات مهيئة البناء كما أنها سهلة ومريحة ، وجدرانها مبنية من الحجارة ولها مظهر جذاب . ويبدو للوهلة الأولى أن هذا المبنى ينتمي

(٦) في رأينا ، أن اسم « أبو صير » يحتفظ بكل معنى الاسم القديم الذي كان يعنى عند الاغريق ، كما لاحظ ديودور ، مقبرة أوزيريس ، وبوزيريس التي يلفظها العرب بوصير هي الاسم الذي كان المصريون يطلقونه على الأماكن التي توجد بها مقبرة لأوزيريس . وتوجد كذلك قرية تحمل هذا الاسم غرب اطلال ممفيس عند سفح الجبال التي أقيمت عندها أهرام ستارة . ويقول المترجم الحاذق لهرودت الميسولارشييه Larchet في شروحه ، أن بو باللغة المصرية تعنى مقبرة . ويضيف هذا المترجم العلامة أن بلو تارك يخبرنا أنه نقل عن أودوكس Eudoxe أنه على الرغم من وجود مقابر عديدة لأوزيريس فإن جسمه كان مدفونا في بوزيريس .

(٧) انظر الوصف الخاص بمدينة تابوزيريس القديمة والذي قدمه سنان جفيس Saint Genis - وصف آثار العصور القديمة ، وصف مصر .

الى العمارة المصرية . لكنه فى واقع الأمر ليس سوى تقليد لها ، وهو مبنى جميل . وتدل انقراض أعمدته المضلعة وقيمتها ذات النمط القوطى التى نجدها فى أطلسال السور ، على أن هذا المبنى يعود تاريخه ، مثل برج العرب ، الى العصر الرومانى ، وفى نفس الوقت ، فإتينا نستطيع وثائق أن ننسب بناءه الى جوستينيان الذى عمل فى حوالى منتصف القرن السادس عشر - كما يذكر بروكوب Procope - على بناء عدد كبير من المنشآت فى تابوزيريس ، الواقعة - كما يقول هذا المؤرخ - على الشاطئ الأريقى ، على مسيرة يوم من الاسكندرية ، والتى كانت تضم كما يذكر مقبرة لأوزيريس ، وليس ثمة شك ، فى أن هذا هو المكان الذى حدد فيه هيرودت ، النقطة الغربية لقاعدة الدلتا ، والذى كانت تقام فيه الأعياد على شرف أوزيريس ، وهى الأعياد التى كانت تجذب كل عام ، أعدادا هائلة من الناس ، وبخاصة الشباب كما ذكرنا ، وكما يذكر سترابون .

وتقدر المسافة بين الاسكندرية وتابوزيريس الواقعة على الخليج البلنتينى حسب جدول تيودستىوس بـ ٢٥ ألف خطوة فى مقابل ٧٥٦ قامة (١٤٧٣ مترا و ٤٧ سم) بالميل الرومانى ، أى ما يساوى ١٨٩٠٠ قامة (٣٦٨٣٦ مترا) ، لكن يبدو أن هذه المسافة ، هى تلك التى تقع بين الاسكندرية وتابوزيريس التى كانت توجد كما سبق القول ، عند كوم أبى صير ، والتى عثرنا على خرائبها على بعد ١٠٠٠ الى ٢٠٠٠ متر ، الى الشمال الشرقى نحو الاسكندرية ، ونحن نقدر المسافة بين أطلال تابوزيريس ، التى تقع على الخليج البلنتينى (ويسمى حاليا خليج العرب) بمسيرة تسع ساعات ونصف الساعة ، أى أنها ، إذا ما قدرنا مسيرة القوافل بـ ٤٠٠٠ متر فى الساعة الواحدة ، حسب ملاحظتنا فى مصر ، تساوى ٣٨٠٠٠ متر .

وفىما بين برج العرب ، والمبنى الذى انتهينا من الحديث عنه ، ترتفع سلسلة من الجبال تخترقها محاجر أدى استغلالها الى انشاء المبانى والمدن التى ذكرناها ، وقد حفرت بعض هذه المحاجر واقتطعت على شكل مغارات . ويمكن أن يبلغ عرض الساحل فى هذه النقطة ابتداء من حافة البحر حتى حافة وادى مربوط والذى يبدو كما لو كان حوضا للجيرة من ١٠٠٠ الى ١٢٠٠ متر ، ويلاحظ فى حوض هذا الوادى

نتوءات أو سدود صغيرة تعترضه وهى التى عملت على تسهيل الاتصال بين الساحل وبين كل البلاد فى الجنوب . وتخترق هذه النتوءات بعض الجسور الصغيرة المخصصة لتصريف مياه المطر فى الشتاء . وتتوقف المياه المتسربة من بحيرة مريوط على بعد حوالى الألف متر الى الشمال الشرقى حسب تقرير المسيو لوجنتى ، ذلك الضابط المهندس الذى قام بالاستطلاعات الأخيرة فى هذه المنطقة . وفى نفس الوقت ينبغى أن يكون من المؤكد - بحسب حالة هذه الأماكن - أن مياه البحيرة قد تتجاوز كثيرا هذه السدود فى الجنوب الغربى حيث كان النيل فيما مضى يصب مياهه فى هذه البحيرة مما أدى الى اتساع مساحتها الى حد كبير كما لاحظ سترابون .

وعلى بعد بضعة ميريامترات « الميريامتر = ١٠٠٠٠ متر » يظل يحتفظ الشاطئ الذى يتبع على الدوام اتجاه غرب جنوب الغرب بنفس طبيعته ، وبنفس تكوينه من الحجر الجيرى والرملى الشديد البياض .

أما عن الوادى الثانى الذى سبق أن تحدثنا عنه والذى تمضى زاوية اتجاهه موازية للشاطئ ولوادى مريوط الكبير فإنه يصبح ابتداء من برج العرب جزءا سهليا محصورا ينتظم اتساعه على نحو كبير بن ٢٠٠٥٠ متر حتى ليبدو وكأنه ترعة حفرتها يد الإنسان . وتنمو الخضرة هناك بوفرة متمثلة فى شجيرات ونباتات بحرية . وقد سرنا فى هذا الوادى لمدة ثلاث ساعات متصلة ، وعند بلوغنا القمة التى يقود إليها الطريق لم أرى سوى امتداد لنفس هذا المنظر . وعندما عملت على حفر حفرة فى هذا الجزء من الشاطئ استخرجت رمال كبيرة الحجم وشديدة الرطوبة ، وعلى عمق قدم واحدة فقط ظهرت مياه ملحية الطعم مما يؤكد أن الأرض فى هذا الوادى الصغير أدنى من مستوى سطح البحر . وقد نصبنا خيامنا فى هذا المكان الذى شكل بالنسبة لنا بلجا آمينا يسهل الدفاع عنه اذا ماحدثت أية مفاجأة لنا من جانب العربان

وفى اليوم التالى ، الثامن عشر من فلوريال . عبرنا الى جنوب وادى مريوط الكبير . الذى يبلغ اتساعه مابين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ متر ، ووجدت نفس الشكل الذى سبق أن وجدته عند برج الغرب ، شكل السهل الواحد ، المكون من رمال كبيرة الحجم ، وإن كانت أقل طينية ، وتعطيه

بعض النباتات ، ومن أعلى سلسلة المرتفعات التى تحد هذا الوادى الكبير ،
والتي تمتد بطوله من الجنوب الغربى وحتى الشمال الشرقى ، لحنا رأسا
يبدو أنها تشكل نهاية للخليج البلقيني القديم ، من جهة الغرب ، فى الوقت
الذى تشكل فيه نهايته من جهة الشمال الشرقى رأس شرسونيوس والتي
تسمى اليوم بالضريح أو الشيخ . ومن هذه النقطة ، لمحت كذلك سلسلة
أخرى من الجبال تتجه نحو الجنوب الغربى لتنتهى بنفس هذه الراس .
وينبغى أن نستنتج أن هذه السلسلة ، تنتهى الى السلسلتين من الجبال ،
اللتين تشكلان حوض البحر بلا ماء .

لم يشأ قائد الحملة ، المسيو كامالييه ، الذى كان يشاركنى نفس
اهتماماتى أن ينهى استطلاعاتى التى كانت قد تجاوزت الغرض من
استطلاعاته هو ، وأن كان قد رفض أن نمضى لأبعد من ذلك بمثل هذه
الحراسة الضعيفة وفى هذه المنطقة من الصحراء التى يتجول فيها عديد
من قبائل العربان . نزلنا الى السهل وسرعان ما صعدنا الى الشمال الشرقى
محاذين سلسلة جبال مريوط . وقد دلتنا الخضرة الواسعة والآثار التى
خلفتها الماشية أننا فى منطقة يتردد عليها العربان الرحل . واستولى
رجالنا على ٦٠ من المعجول والابنار والخراف التى تم حراسها ، وقد
شاهدنا بعض العربان يهربون عدوا نحو أماكن غير مكشوفة تشكل لهم
ولا شك خطوط الرجعة اذ اننا حين تتبعناهم وجدناهم اختفوا فجأة .

وبعد قليل ، وجدنا أطلال مدينة صغيرة ، وبين الانتقاض والأحجار
وجدنا بعض خزانات المياه والكثير من الآبار المبنية المعتبرة بها ، وثمة
جداول مرسوفة تتجمع فيها مياه الأمطار وتحملها بفعل انحناءات محسوسة
فى نفس الاتجاهات المؤدية نحو هذه الآبار . وبعد أن استرحنا بعض
الشيء فى هذا المكان تذوقنا مياهه فوجدناها طيبة فملأنا منها قربنا . وقد
مرت الماشية التى استولينا عليها من العربان بهذا المكان دون أن تشرب ،
ومن هنا نفهم بالطبع أن المياه لا تنقصها .

وبعد مسيرة نصف الساعة الى الشمال الشرقى ، وعلى مسافة
٨٠٠ — ٩٠٠ خطوة من سطح سلسلة الجبال التى سرنا بحذائها وعن
شمالها وجدنا ، بقايا مدينة أخرى صغيرة ، لابد أن مبانها كانت على قدر
من الفخامة ، وشاهدنا هناك أطلال منشآت جميلة من الحجر ومن الطوب

الأحمر وأبراجا وأرصفت تحتية وخزانات مياه .. وبمواصله سيرنا في نفس الاتجاه وجدنا بعد ثلاثة أرباع الساعة خرائب هائلة لمدينة ثالثه حيث تناثرت على مساحة واسعة اكوام من الحجارة الضخمة والمكسرة بشكل مضطرب ينتج عن حال مدينة قلبت رأسا على عقب وأخيرا وعلى بعد مسافة مشابهة وخلال سيرنا الى الامام ، عثرنا على خرائب جديدة لمدينة رابعة . وينبغي أن نلاحظ أن المسافات التي حسبناها ، هنا بالزمن ، انها قد حسبت بحساب السير السريع للجمال .

ونظن أن بإمكاننا أن ننسب الى خرائب المدن الأربع ، الكبيرة منها والصغيرة ، والواقعة في اتساع يقل عن أربعة فراسخ أسماء المدن والقرى البنية بجدول بطليموس بحسب الموقع الخاص بكل منها وهي كما يلي بادئين بأكثرها بعدا : كوبي ، انثيفيلي ، هيراكس ، فوموثيس .

وكل هذا الجزء من الصحراء تكسوه الخضرة والأشجار . ويبدو أن تربتها القابلة للزراعة تحتوى على رمل أقل وطين صالح للزراعة أكثر مما تحتوى سهول البحيرة . وعند صعودنا الى الشمال عبرنا من جديد سلسلة الجبال التي تشرف على جنوب منطقة مريوط ، وعند قممها لحنا على بعد حوالى الفرسخ الى الجنوب الغربى برج العرب . ويكفى هذا لتحديد الموقع الجغرافى بدقة كاملة لخرائب المدن والقرى الأربع التي تحدثنا عنها عند اتجاهنا من جديد نحو الجنوب الغربى .

كان المسيو كامالييه قائد الحملة يجد في البحث عن خرائب أكثر إثارة سبق له أن زارها ويريد أن يرى أياها ، وتوجد هذه الخرائب على الشاطئ الجنوبى لبحيرة ماريوتيس « مريوط » تجاه ضريح أبى الخير الواقع على حافة الشاطئ المقابل والذي سبق أن زرناه منذ يومين ، وهى عبارة عن أنقاض سور مزدوج لمدينة حصينة يبلغ ارتفاعه مترا أو مترين فقط وتعلوه أبراج ، وينتهى فى شماله الشرقى برصيف متقدم داخل البحيرة . ولا يمكن أن يتطرق إلينا الشك للحظة واحدة فى أن هذه الخرائب الهامة والتي تقع على بعد حوالى ٣٠ الفا من الأمتار الى جنوب الجنوب الغربى للاسكندرية ، ليست سوى أطلال مدينة ماريا ، العاصمة القديمة لإقليم المريوطية .

وقبل أن امضى لأبعد من ذلك ، سأحدث عن مبنى هام يقع بأكمله تقريبا وسط حوض البحيرة على مسافة ١٢٠٠ - ١٥٠٠ متر الى الجنوب الغربى من مدينة ماريا ، ومع ذلك فليس بمقدورى أن أقدم عنه إلا مئائيس جزافية اذ كان على - وقد أصبحت وحيدا بعد أن تمت بزيارة بعض الجزر والخرائب الأخرى بالبحيرة - أن أسرع للحاق بالفرقة التى أصبحت بعيدا عنها والتى كانت فى هذه اللحظة قد وصلت الى ماريا ، لهذا لم أستطع أن اتوقف طويلا عند هذا المبنى الهام على الرغم من أننى جئته دون قصد منى ، ذلك أن القارب الذى كنت أركبه قد ساقنى فجأة بينما هو يصارع سهل البحيرة الرطب وانزلق الى هذا المكان .

وهذا المبنى عبارة عن سور مستطيل الشكل يبدو أن طول واجهتيه الكبيرتين يبلغ ٥٠ - ٦٠ مترا بينما يبلغ عرض الواجهتين الصغيرتين ٢٠ الى ٢٥ مترا . وجدرانها مبنية بحذق شديد وعلى هيئة مراعى ماريا التى لم أكن بعد قد زرتها والتى توجهت اليها للحاق بالمسيو كامالييه الذى كان ينتظرنى هناك . ويبلغ سمك هذه الجدران من ٣ - ٤ أمتار ويبلغ ارتفاعها نفس الطول عند قياسه من فوق التربة الخارجبة باعتبارها هراغا خاليا . وكان الموقع المنمزل لهذا المبنى الواقع فى الحوض الجاف للبحيرة مريوط والذى لم تكن مياه الاغراق تسعد عنه فى ذلك اليوم بأكثر من ٤٠٠ الى ٥٠٠ متر ، وكانت الفتحة الوحيدة التى لحتها فيه توجد نحو البحيرة من عرضها . كان كل هذا يجعلنى اظن بأن هذا المبنى لا يمكن أن ينشأ فى هذا الجزء الذى يمكن لمياه البحيرة أن تغرقه الا لى يستخدم فى بناء او ترميم او تلفةطة سفن شراعية حربية وبوارج وأنه كان من الممكن أن يفتح أو يغلق حسب الحاجة للمياه أو لتجفيفه هو والمباني التى بداخله منها . ومن الصعب أن نستنتج غاية أخرى للأفادة من مثل هذا المبنى الذى تبدو ترساناتنا لبناء السفن فى طولون ، وروشل ، وبريست فى فرنسا ، وفى بعض الموانئ الكبرى فى أوربا ، مجرد محاولة للاقتراب من عظمته .

وبعد أن زرنا موقع ماريا عبرنا البحيرة منجهين الى الشمال الغربى نحو ضريح أبى الخير الواقع فى الجهة المقابلة كما سبق أن قلنا ، وقد عبرناها بواسطة طريق صغير مرصوف ، تم بناؤه فى هذه الجهة كما

(م ٣ - وصف مصر)

تم بنشاء غيره فى نقاط أخرى على يد العربان حتى يحصلوا على طرق ميسورة لكى يقوموا بجولاتهم عبر سهول هذه البحيرة القديمة ، الطينية والرطبة .

كانت مياه الاغراق قد وصلت بالفعل الى علو يبلغ ١٠ - ١٢ بوصة على الاكثر وذلك عند النقطة الاولى من هذا الطريق الذى يبلغ طوله - وهو قليل التعاريج - حوالى ٤٢٠ خطوة من شاطئ لآخر من شواطئ البحيرة أى ما يبلغ ٨٠ هامة اذا ما حسبنا خطوة كل من الجنديين اللذين ارسلتهما الى هناك لاجراء هذا القياس باعتبار قدمين ونصف القدم للخطوة الواحدة وكانت مياه البحر تتقدم حثيثا نحو برج العرب الى الجنوب العربى . ويمكننا تصور أن هذه المنطقة يمكن أن تصبح نقطة الاتصال بين الاسكندرية وفرقة الجيش التى لاتزال تحتل الرحمانية وبالتالي مع بقية الجيش فى القاهرة . تلك كانت نقطة هامة وثمينة قد حصلنا عليها ويمكننا تقديمها الى القائد فى الاسكندرية ، فليد كانت هذه هى الهدف من استطلاعنا .

ولذا ، فلكى نتأكد من الارتفاع المحتمل للمياه فى هذه المنطقة ، فى حالة الاغراق الكامل للبحيرة ، فقد تمت بعمل تفدين (أى تعيين الارتفاع النسبى لمختلف أجزاء الأرض) ابتداء من البحيرة وحتى البحر ، مروراً بالضريح ، وكذلك فوق جزء منخفض من الجبل الذى يفصل بينهما ، وأرسلنا لهذا الغرض من يقوم بقياس منسوب المياه فى الجزر الاولى التى تحدثنا عنها ، والتى كنا نقوم عندئذ بتقويتها . وفى اليوم التالى ، تمت بعمل هذا التفدين أولاً من البحر الى البحيرة ، لكى احصل على تقدير مؤكد . واليك ما حصلت عليه من نتائج :

فى التاسع عشر من فلوريال من العام التاسع (٩ مايو ١٨٠١) ، كانت مياه البحيرة تخفض عن مستوى مياه البحر بـ ١٠ لنية ، بوصة ، ٢ قدم ، ومن جهة أخرى ، بلغ ارتفاع المياه فى الجزء الاكثر انخفاضاً من الطريق المرصوف الذى يعبر البحيرة ، فى نفس اليوم ٨ بوصة ، اقدم ، ويؤكد هذان التقديران ، أن عمق المياه فى هذا الجزء من البحيرة ينبغى أن يصل الى ١٠ لنية ، ٢ بوصة ، ٤ قدم ، بل ويمكننا أن نصل بهذا

العمق الى خمسة اقدام ، بسبب اندفاع المياه نحو هذا الطرف من البحيرة ،
وبسبب اختلاف المنوسطات فى مياه البحر الواطئة (٨) .

وتبلغ مسافة الأرض المحفورة من الشطآن ، من البحيرة الى البحر
حوالى ٣٥٢٠ خطوة أو ١٥٦٧ قامة حسب تقديرنا السابق للخطوة ، لكن
هذه المسافة تشتمل على ارتفاع وانخفاض الجبل وهو الأمر الذى يستوجب
منا أن نزيد هذا التقدير بحوالى العشر . وقد جعلنا هذا التفديح نتوصل
الى أن النقطة الأكثر ارتفاعا من سلسلة الجبال التى تشرف على البحيرة
والبحر كما قلنا تصل الى ٦٠ قدما فوق مستوى سطح البحر ، وان أدنى
نقطة فى الوادى الصغير المتاخم والموازى للشاطئ تصل الى ١٠ اقدام
فوق منسوب البحر .

ومن ذلك نستنتج أن المياه المالحة بعض الشيء ، والتى هى برغم
ذلك صالحة للاستعمال ، والتى نجدها على عمق ٢ الى ٣ اقدام فى كل
انحاء هذا الوادى الصغير ، الممتد حتى برج العرب ، حيث يعدل من
طبيعته ، ليتخذ مستوى أدنى ، يبلغ مستوى منسوبها هى الأخرى من ٧
الى ٨ اقدام ، أعلى من مستوى سطح البحر .

واضيف الى هذه التفاصيل أن قائد الحملة المسيو كافالييه وكذلك
ضابط البحرية المسيو جار قد أسعدهما أن مساطر الارتفاع ظلت تعمل
طيلة النهار الذى استغرقته هذه العملية الدقيقة التى زاد من صعوبتها ،
وبالذات من ناحية الرؤية ، كثرة الوقفات والمراحل وشدة الحرارة والتموج

(٨) قلت من قبل ، انه فى اليوم السابق على عبورنا للبحيرة تجاه
ضريح أبى الخير ، كانت مياه الاغراق قد بلغت بالفعل ارتفاعا قدره ١٠
— ١٢ بوصة عند أدنى نقطة من الطريق المرصوف ، وعندما ثبت علامة
على الشاطئ الشمالى للبحيرة فى هذا اليوم ١٨ فلوربال وجدت فى اليوم
التالى ١٩ منه زيادة فى ارتفاع المياه قدرها ٨ بوصات فى مدى أربع
وعشرين ساعة ، مما جعلنى أقدر هنا ارتفاع المياه فوق أدنى نقطة من
الطريق المرصوف بـ ٢٠ بوصة .

الشديد فى طبقات الجو فوق رمال الصحراء (٩) .

وكنت قد لاحظت خلال الأربع والعشرين ساعة التى أمضيها عند ضريح أبى الخير ، أن مياه الإغراق التى كانت قد امتدت بالفعل الى بعد نصف فرسخ ، الى الجنوب الغربى من ماريا ، نحو برج العرب ، قد ارتفعت فى هذه النقطة الى ٤ لنية ، ٨ بوصة ، وعند عودتنا من الاسكندرية ، وجدنا أن العمق عند الجزر الصغيرة التى قمنا بتحسينها ، والتى اجرينا عندها أولى ملاحظتنا منذ أربعة أيام ، قد أصبح ٧.٠ بوصة. إذن ، فقد بلغ الإغراق هناك فيما بين ١٦ ، ٢٠ من فلوريال حوالى ٦ بوصة ، ٨ قدم ، فقد سبق لنا القول بأن هذا العمق لم يكن يبلغ فى السادس عشر من فلوريال الا حوالى ٤.٠ بوصة . وأختتم هذه البيانات ، بأن هذا العمق ينبغى أن يكون قد بلغ اليوم ١٠ اقدام ، فى هذا الجزء من البحيرة ، وخمسة عند قمة ماريا .

(٩) قلة فقط من الفرنسيين الذين أقاموا فى الاسكندرية هم الذين لم يكن بمقدورهم أن يلاحظوا أثر انكسار الأشعة على هذه المنطقة من سواحل مصر ، وعندما ترنو فى هذه المدينة نحو برج العرب فأنك تلاحظ على الدوام نوعا من البخار يرتفع من الأرض والبحر ، مشكلا درحات محسوسة جدا للونين متميزين ، لون يميل الى الشقرة ولون يميل الى الزرقة : وهذا ناتج عن انكسار أشعة الشمس فى الطبقات الدنيا من الجو عند الأفق ، وترسم هذه الأشعة الملونة وتشكل أمام البصر بشكل واضح هذه الألوان ، التى تعود الى تأثير انكسار الأشعة فوق رمال الصحراء ومياه البحر .

وبعد متاعب ذلك اليوم دسج جنودنا فى المساء ، وفى خميتنا ، عند الضريح ، ووسط القطيع الذى استولوا عليه ثورا بإطلاق رصاص البندقية عليه من على بعد خمس عشرة خطوة ، وبقي الحيوان الذى أصيب فى منتصف جبهته لحظة بلا حراك ، ثم ترنح وسقط . أن العبور من الحياة الى الموت ليس سوى وميض ، وأحاط بالحيوان للحظة كل ثوران القطيع ثم أطلقوا جميعا خوارا طويلا ، أخذ بعده البعض منهم فى الابتعاد ، والبعض الآخر فى الهرب ، وقد أصابهم ذهول عميق . ولقد ذكرتني هذه الملاحظة التى هزئتني ، وأرجو ألا يعتبر البعض تدوين ذلك أمرا لأجدوى من ورائه ، بهذا البيت الجميل لفرجيل :

وارتجف الثور بفعل الضربة ، وترنح ، ثم سقط

وقد جاء تذكرى لهذا البيت طبيعيا ، لأن الصورة التى رسمها الشاعر اللاتينى صحيحة وحقة . وقد قام بترجمته ترجمة أمينة المسيو ديليل Delille فى إبادته الفرنسية .

تحركنا من هذه الجزر الصغيرة متوجهين الى الشمال الغربى نحو الضريح عابرين سلسلة الجبال حيث توجد محاجر واسعة لابد أنها قد استغللت فى بناء الاسكندرية . ويتكون الشاطئ فى كل هذه المنطقة من تربة حجرية ورملية تسير فيها الجمال بمشقة بالغة . فى هذه المنطقة، والى الغرب من هذا الضريح نزل الجيش الفرنسى ، أول يولية ١٧٩٨ « . ومن منطقة الضريح توجهنا الى الاسكندرية حيث دخلناها « ١٠ مايو ١٨٠١ » وهو اليوم الخامس لمغادرتنا هذه المدينة .

وفى يوم ٢٣ التالى قمت بتفدين آخر عند قطع فى الساحل يبدو انه كان ترعة قديمة تصل بين خليج الاسكندرية والبحيرة على مسافة ٥٨٥٠ مترا الى الجنوب الغربى للعمود .

ويمكننا ان نرى هناك آثار مجرى هذه التربة القديمة التى لايجاوزا متوسط ارتفاع الجزء الثانى منها ٤ اقدام فوق مستوى البحر ، كما نلاحظ انها لا تتطلب الا جهدا ضئيلا لكى يعود عن طريقها الاتصال القديم بين مينائى الاسكندرية وموانى مريوتيس . وقد لاحظت كذلك ان مياه البحيرة فى الفترة التى قمت فيها بهذه العملية كانت قد ارتفعت الى حوالى ٣ اقدام و ١١ بوصة و ٣ شرطات ذلك ان قياس الارتفاع الأخير قد أخذ بالنسبة لمستوى مياه البحيرة لكى نحصل على مستوى مياه البحر ، وقد ظلت تزايد الأطوال التى تقدمها المجسات التى أدلتها فى البحيرة باتجاه هذه التربة القديمة التى بلغت من ٨ اقدام من المياه الى ٥٠٠ قامة .

وفى الثامن والعشرين من هذا الشهر ، تراوحت الأطوال التى أعطتها المجسات ، بين ١١ قدما و ٧٠٠ الى ٨٠٠ قامة ، بحيث ينبغى ان تصل المياه عند أقصى درجات الاغراق من ١٥ الى ١٧ قدما .

وفى يوم ٢ من بريرال التالى ، حصلنا بالمثل على ٧ - ٨ اقدام من المياه ، فى المسافة بين الجزر الصغيرة المحصنة على الشاطئ الجنوبى للبحيرة من نفس النقطة التى قمنا بقياسها منها ، يومى ١٦ و ٢٠ من ليلوريال .

لم أشأ ان اتحدث عن عدد من الخرائب الأخرى ، كبيرة كانت أم صغيرة وجدها فى كل مكان وبخاصة على الشواطىء الجنوبية للبحيرة ،

فيكفينا من هذه الجولة الاستطلاعية أنها جعلتنا نعرش على موقع سبع مدن أو قرى هامة نعتقد أنها تنتمي الى مدينتين باسم تابوزيريس ، واحدة منهما تقع على الشاطئ والأخرى تقع بالداخل لم مدن وقرى كوبي ، وانتيفيلي ، وهيراكس ، وفوموئيس وأخيرا مدينة ماريا عاصمة هذا الإقليم والتي تقع على شاطئ بحيرة تحمل اسمها .

وقد جعلتنا هذه الجولة ندرك أن كل الشاطئ وكل داخل هذه الصحراء التي تغطيها الخرائب والتي ترح فيها قبائل عديدة من العربان الرحل والرعاة قد ظلت على الدوام صالحة للسكنى ، بحيث يمكننا أن ننزع أى ظل من شك قد يحيط بشهادة المؤرخين الذين يقولون بأن هذه المنطقة كانت فيما مضى منطقة زراعية مزدهرة وآهلة بالسكان . ونرى فى النهاية أنه يكفى لكى تعود هذه المناطق الى حالتها القديمة أن يعمد حفر الترخ المفرعة عن النيل والتي كانت تجلب اليها كل عام مصادر الخصوبة .

أما بخصوص مختلف القبائل العربية التي يبدو أنها وضعت يدها على المنطقة فإنه ينبغي على حكام مصر أن يتركوا لها حرية استغلالها سريطة أن يصبحوا مزارعين مسالين ، والا فعلى هؤلاء الحكام أن يجلوهم عنها بقوة السلاح .

أما القبائل العربية التي تجوب صحراوات مريوط ، والتي تقوم بغاراتها حتى وسط إقليم البحيرة ، فهي قبائل الجومات والطزوات ، بنى عون ، الجوابى ، الهنادى ، أولاد على (١٠) ، ويزرع عربان القبائل الثلاثة الأولى بعض أجزاء من إقليم البحيرة ، وهى الأجزاء المتاخمة للصحراء . وقد استقر عرب بنى أوفوس فى قريتي جوامى والحوش حيث يزرعون الشعير . ولكى نعمل على توطين هؤلاء نهائيا هناك فلا

(١٠) حصلت على جزء من هذه المعلومات عن طريق المسير شابرول Chabrol الذى قام ببحث واسع حول مختلف القبائل العربية التي تجوب هذه الصحراوات ، ومهما تكن هذه اللوحة سريعة ، فمن الأفضل أن نورد هنا ، ذلك أن المسير شابرول قد أخبرنى بأنه يخشى أن يكون قد فقد المادة التي جمعها حول هذا الموضوع .

(جراتيان لوبير)

ينبغي أن نسلك معهم مسلك العنف والقسر بقدر ما ينبغي أن نخلع عليهم
حمايتنا ضد القبائل التي تقف منهم موقف العداء ، فلقد أصبح هؤلاء
يصطنعون شيئا فشيئا عادات الفلاحين وتقاليدهم ، ويبدو أنهم مؤهلون
لكي يصبحوا مزارعين .

وفى الوقت نفسه ، فمن الميسور أن يترك عربان الهنادى حياة
الترحال ، وينبغي على حكام مصر ، حتى يبلغوا بهم هذه الحال أن ينتزعوا
منهم ، عن طريق هجمات خاطفة ماشيتهم ، وبخاصة خيولهم ، ذلك أنهم
سيصبحون مضطرين للاستقرار وممارسة الزراعة ، اذا ما حرموا من
وسائل الهرب السريعة وهو الأمر الذى سيحد من غاراتهم وانتهاكاتهم .
وينبغي حتى نرغمهم على ذلك أن نستولى على الحبوب التى يحصدها
من بعض المناطق التى تساعد مياه الأمطار على زراعتها ، وذلك قبل أن
يقوموا بحصادها وفى النهاية فان وطأة العوز : عندما يصبح هؤلاء
محرومين من كل مصدر دخل — ستضطرمهم الى اللجوء الى طلب عون
الحكومة وحمايتها .

ان هذه الوسائل التى عددناها باعتبارها أساليب يمكن اللجوء اليها
ضد بعض قبائل العربان هذه ، لتتناسب عموما مع نوع الحرب التى ينبغي
دعمها ضد كل القبائل التى تخرب وتروع حدود مصر ، والتى يمكن أن يبلغ
تعداد محاربيها مجتمعين كما يقول الجنرال رينييه Reynier فى كتاب
« الأوضاع فى مصر » Situation de l'Egypte من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠
فارس ، هذا ان لم تفرق المصالح فيما بينهم ، وتجرحهم الى حالة من الحرب
المستمرة بينهم وبين بعضهم البعض .

ويشكل عربان أولاد على بشكل دائم ، حين يراد حماية مصر من
غارانهم عقبات أكبر من تلك التى تشكلها القبائل العربية الأخرى ، فهؤلاء
العربان يأتون كل عام لقضاء عدة شهور على الحدود الغربية لمصر ويعيشون
فى حالة حرب دائمة مع بقية القبائل . ولقد جعلت منهم الأتوات التى
يحصلونها والمصادر التى يحصلون عليها أثناء رحلتهم الطويلة فى الصحراء
الممتدة بحذاء سواحل البحر فى غرب مصر ، بالاضافة الى ما يحصلون
عليه من مكاسب من ماشيتهم وما يستحوذون عليه بفعل القوة ، كل هذا
جعل منهم أعداء أشداء يخشى بأسهم بالنسبة لولايات مصر الغربية ، حيث

يقتربون دائما في موسم الحصاد السنوي كي يقوموا بالانتهاب والسلب
ولكى ييئثوا الرعب والأحزان في هذا الوقت، من العام . لذلك ينبغي أن
تخصص قوة متحركة ، كتلك التي يمتلكونها هم ، لكي يمكن أقتناء شريهم،
ويمكن أن يقوم سلاح الهجانة الذي انشأه قائد الجيش الفرنسي في مصر
بهذه المهمة المرجوة ، والتي لابد أن تصبح الشغل الشاغل لاهتمام الحكومة
الام ، بخصوص هذه المنطقة القديمة والبائسة .

الدراسة الثانية :

رحلة الى وادي النظرون المجلد الثاني

العنوان الأصلي للدراسة هو :

دراسة موجزة عن وادي بحيرات
النظرون وعن النهر بلا ماء ، حسب
المعلومات التي حصلنا عليها من جولة
استكشافية تمت في ٨٧٦٥٤٤ بليفوز
من العام السابع ، (اي ٢٥٢٤٢٣ ،
٢٧٢٦ من يناير ١٧٩٩) .

(المترجم)

يكاد لا يعرف الناس عادة من كل أرض (١) مصر ، الا واديتها الذى يرويه النهر ، ومع ذلك ، فهناك من الاعتبارات الجغرافية والحكايات التى يرويها مؤرخون قدامى ورحالة محدثون ، ما يدفع على الاعتقاد بأن مياه النيل كانت قد افتتحت فى أزمنة ضاربة فى القدم ، أعماق صحراوات مصر الغربية ، وأنها قد تركت هناك آثارا لجراها .

واذا صح أن ملوك مصر القدامى قد أمكنهم — كما يدعى هيرودت — دفع النيل واحتواءه فى حوضه الحالى ، عن طريق قيامهم بأعمال هائلة ، فلا بد أن يعد هذا العمل من جانبهم ، واحدا من تلك الأمور العظيمة التى يمكن لذاكرة البشر أن تحتفظ بها .

ان البحث فى هذا المجرى الابتدائى للنيل ، ينبغى أن يلقى الضوء على الجغرافيا الفيزيائية لمصر ، وعلى تلك الأعمال التى بذلت كى تصبح أرضها خصبة ، كما لابد أن يفضى بنا الى الطريق السوابج اتباعها لاصلاح نواحي الخلل ، التى أحدثتها حقبات الأزمان ، وأدت الى تراكمها ، الهمجية والجهل فوق أرض محرومة من مزايا الأمطار ، لن يكون لها من مصير فى غيبة الفيضانات أو وسائل الرى الصناعى سوى التحولة والعقم .

ويشير الجغرافيون لهذا المجرى القديم للنيل باسم « بحر بلا ماء » ويسميه أهالى البلاد باسم « البحر الفارغ » . ومن المعروف أن هذا المجرى لا يبعد كثيرا عن بحيرات النطرون التى بدىء فى استغلالها من جديد منذ حوالى خمسة عشر عاما ، والتى يشتد الطلب على منتجاتها فى مجالات صناعية عديدة فى فرنسا . ومن المعروف كذلك أنه يوجد بالقرب منه أديرة ومغارات لرجال الدين الأقباط ، أنشئت فى القرن الرابع الميلادى أى فى ذلك الوقت الذى أنجذب فيه الى أعماق صحراوات الغرب ، وبشغل الوله بحياة الأديرة ، رجال يتقنون حمية وحماسة لدينهم أو آخرون هيابون

(١) سبق أن نشرت هذه الدراسة فى *Décade égyptienne* دورية تصدر كل عشرة أيام) التى كانت تطبع فى القاهرة .

آثروا السلامة فابتعدوا عن الغير ، وان كانوا قسد ظلوا مرغمين بفعل احتياجاتهم على الاقتراب من هذا الغير ، نسعيا وراء استئثاره شفتقتهم او تأجيج ايمان ساذج لديهم .

ولقد كان مما يثير فضولنا ، وهو فى نفس الوقت أمر مفيد لاعتبارات عدة أن نتعرف على ذلك الجزء من أرض مصر الذى انتهينا من الحديث عنه. ومن أجل تقدير كل الأمور التى يمكن أن تفيد منها كل من الجيولوجيا وضروب الصناعة المختلفة فلقد دعا لاعداد هذا البحث السادة برتوليه Bertholet وفورييه Fourier وريدوتيه Redouté الشاب (٢) .

ولقد كان لدى انا الأمر ، أثناء قيامى ببعض العمليات العسكرية ، بأن أحمى أبحاثهم فى مناطق تتعرض على الدوام لغارات العربان الرحل، الذين يأتون أحيانا من الصعيد وأحيانا أخرى من أطراف إقليم البحيرة ، الى مشارف هذه الصحراوات لسلب بل ولاغتيل هذا المزارع المسالم. والفلاح البائس . ولقد تجمعنا هناك لكى نحاول تجميع كل الملاحظات التى تبدو لنا على درجة من الأهمية وسأقدم فى هذا الموجز عرضا لتفاصيل الرحلة ، تاركا للمسيو برتوليه مهمة أن يقدم بنفسه نتيجة التجارب الهامة التى قام بها ، لكى يتعرف على طبيعة المادة ، وسوف تكون هذه النتائج ذات فائدة قصوى ، بمجرد أن يبين لنا المجالات التى يمكن استغلالها فيها.

(٢) فنان ماهر فى رسم اللوحات والحيوانات ، وبخاصة الأسماك الملونة ، كما الحق باللجنة المسيو ديشانوى Duchanoy والمسيو رينو Regnault ، تلميذ برتوليه .

الفصل الأول

عن وادى النطرون

رحلنا من الطرانة فى ٤ بليفوز « ٢٤ يناير » الساعة الثانية صباحا، وبعد مسيرة أربع عشرة ساعة لحنا الوادى الذى توجد به بحيرات النطرون .

الحالة الطبوغرافية :

يفصل وادى النطرون عن وادى النيل هضبة فسيحة ، يتدرج سطحها ببطء وتوازى النيل على الدوام ، ويبلغ عرض هذه الهضبة التى تظل على الدوام ، تقريبا محافظة على نفس مستواها ، ثلاثين ميلا ، وتغطى أرضها المثبنة والصلبة بالحصى من مختلف الأحجام ، وبزلط صغير مستدير يتلون بالوان مختلفة ، وبيعض الزلط المختلط بالعقيق .

وقد دفعت الرياح القوية القادمة من جهة الغرب ، الى الجهة الأخرى من التلال التى تحف بالنيل ، وكذلك الى داخل الوادى ، كل الرمال المتحركة ، ويبدو الحجر الجيرى فى بعض المناطق على سطح الأرض . وفيما عدا ذلك ، فان المرء لا يلمح فى هذه الصحراء التى قد يظن المرء بأن الطبيعة قد تركتها نسيا منسيا ، الا ثلاثة أو أربعة أنواع من النباتات الضعيفة والصغيرة والمبعثرة للغاية ، مثل نبات الشوكية (٣) *nitraria* والبنج البنفسجى (٤) أو « الداتورة » .

وسوف يكون من العسير أن يستطيع أى كائن حي أن يجد ما يعيش عليه ، فوق أرض على مثل هذه الدرجة من القحولة ، ومضى نفس الوقت

(3) *Nitraris Schoberi*, Lin.

(4) *Ayoscyamus daturas* Fors.

فاننا لم نجد هناك سوى نوع واحد من الحشرات ، ليس من هذا النوع من الأنواع الشائعة ، ويطلق عليه اسم *mente obocure* ، والصفة التي تحملها هذه الحشرة ، « صفة العتمة » ، تماثل تماما حالة العزلة التي نحياها ، فى أعماق مثل هذه الصحراوات .

وعند الرحيل من الطرانة ، يتخذ الطريق اتجاهه فى البسدية من الشرق الى الغرب . وقبل الوصول الى النطرون بحوالى الساعتين ، وبعد ان يكون المسافر قد اجتاز ممرا جبليا بالغ الانخفاض ، يسميه الناس رأس البقرة ، يضى الطريق نحو الشمال الغربى ، مع ميل أكبر الى جهة الغرب ، وعندما هبطنا ، وجدنا فى منتصف هذا الجنب ، وفوق ربوة ، قصرا أو حصنا مهديما ، بنى سورہ المربع والذى تعلوه أبواب مستديرة عند اثنين من زواياه ، بواسطة قطع صغيرة من النطرون ، مما يدل على أن الأمطار ليست بذات بال فى هذه المنطقة ، كما رأينا فى الانحدار المقابل دير براموس أو دير الأروام ، كما يوجد الى الشمال وعلى نفس المسافة تقريبا دير السريانيين أو دير بيشوى حيث يجاور كل منهما الآخر .

اقمنا مثلثا يربط القصر ودير البراموس ودير السريانيين . وإذا ما اتخذنا كتاعدة ، تلك المسافة التى تفصل بين القصر ودير البراموس ، والنسبة التى بقياسها توجدناها تبلغ $\frac{72313}{4}$ مترا فان ضلعى المثلث الآخرين يبلغان $\frac{7430}{3}$ مترا للمسافة بين القصر ودير السريانيين ، و $\frac{92581}{4}$ مترا للمسافة بين هذا الدير ودير البراموس ، وإذا أردنا الذهاب بين واحد من هذه الأماكن وبين غيره يكون علينا أن نجتاز طريقا هو عبارة عن رمال متحركة أو ثابتة فى بعض الأحيان بفعل بعض الطحالب النباتية ، ويلمخ المرء هناك بعض النباتات ، ويقابل فى كل مكان الجبس وكتل الصخور الجيرية ، كما يرى أجمل الأحجار الطباشيرية بين دير البراموس ودير السريان .

الجغرافيا الفيزيكية للوادي :

يصنع وادى النطرون زاوية ٤٤ درجة الى الغرب مع خط الزوال المغناطيسى أما فيما يختص بالمواقع التبادلية للبحيرات وأطوالها ، فانها تقع فى نفس الاتجاه الذى للوادي ، ويحدد الأرب سيكار حوضها العمودي

بانجاه الوادى ، وهو ما يتعارض بصفة عامة مع الهيدروجرافيا « علم وصف المياه أو طبوغرافيا البحار » . ولم يبين الألب سيكار على خريطته ، سوى بحيرة واحدة كبيرة ، فى الوقت الذى توجد فيه ست منها : ثلاث الى الشمال من القصر وثلاث الى الجنوب منه ، بل أن أهالى الطرانة يذكرون أن عددها سبع . فقد كانت البحيرة رقم ٤ منفصلة بالفعل الى بحيرتين بواسطة سد تحطم فى الوقت الحاضر . ويبين دانفيل — وهو يتفق فى ذلك مع سترابون — بحيرتين ، لكنه يعطيها نفس الموقع الذى يحدده الألب سيكار P. Sicard

وبحيرات النطرون عبارة عن مساحة تبلغ ستة فراسخ طولاً ، ومن ٦٠٠ الى ٨٠٠ متر عرضاً ، وذلك من طرف الحوض الى طرفه الآخر ، وهى منفصلة عن بعضها البعض بواسطة رمال قاحلة ، وتحمل البحيرتان الأوليان منها ، وهما الواقعتان نحو الجنوب اسم بركة الدوارة أو بحيرة الاديرة أما البحيرات ارقام ٣، ٤، ٥، ٦ فتحمل أسماء لا تدل على معنى محدد ، ويقوم عرب السمالو (٥) بتهريب النطرون من البحيرة رقم ٦ وينقلونه الى الاسكندرية .

وتوجد المياه العذبة — وان كانت درجة صلاحيتها تتفاوت — اذا ما حفرنا بطول البحيرات فى الانحدار المتجه الى ناحية النيل ، وتجرى المياه بغزارة على سطح الأرض لمدة ثلاثة اشهر فى العام ، أى فى تلك الشهور التى تلى انقلاب الصيف ، وتزايد المياه عند نهاية ديسمبر ، ثم تبدأ فى الانخفاض تدريجياً ، حتى أن بعض البحيرات يصاب بالجفاف .

وينبغى بصفة أساسية أن نلاحظ الحالة الفيزيائية للبحيرات ، إذ تنقطع شواطئ البحيرات من جهة الشرق الى خلجان صغيرة ، حيث ترشح المياه وتتخذ شكل نافورات عند بداية الوديان الصغيرة ، ثم تتسرب بعد ذلك فى شكل نهيرات صغيرة تتجه الى أعماق الأحواض . أما البحيرة رقم ٣ ، فإن الجزء من الأرض الذى يعلو عن هذه الينابيع — وهذا ما لاحظناه

(٥) عرب السمالو ، شأنهم فى ذلك شأن عرب الجوابى الذين سئناولهم بالحديث فيما بعد ، هم عرب رجل بالغو الكرم ، ولهم ثلاثة رؤساء (مشايخ) ، اكبرهم الشيخ سليمان أبو دمن ، وتكون هذه القبيلة من حوالى ١٠٠٠ رجل ، وتملك أربعين حصاناً .

بصفة خاصة يمتد ليلغ عرضه مائتين وخمسين مترا ، تغطيها بلورات من الملح ، ينهض وسطها وبكميات وقيرة بعض الشيء ، هذا النوع من الغاب المسطح الذى يستخدم فى صناعة الحصر العادية . أما الأرض التى تشغلها هذه الينابيع فيبلغ عرضها ٩٦ مترا ، وتشرف فى شمال البحيرة على شريط من النطرون يبلغ ٣١ مترا . أما البحيرة فيبلغ عرضها ١٠٩ من الأمتار . فى حين يبلغ طولها ٥١٤ مترا ، أما أقصى عمق لها فيبلغ نصف المتر . وتاعها طباشيرى مختلط بالرمال ، والمياه فى هذه البحيرة وحدها لها لون الدم .

تلك هى الحالة الفيزيائية للبحيرة رقم ٣ من جهة النيل ، ويلاصق الشاطئ الأيمن لحوضها رمال قاحلة ، وهناك ينمو بعض الغاب ، ويبدو أن المياه العذبة لا تصل اليه . فهل يمكن القول بأن المياه التى تغذى البحيرات تأتى من النيل مختزنة فى بطء هذه الكتلة أو هذه المسافة التى تبلغ ثلاثين ميلا ، والتى تتصل وادى النيل عن وادى البحيرات ، متبعة فى مسارها تكون الانحدارين اللذين يتجه أحدهما الى الشمال وثانيهما الى الغرب ؟ أم هى بعد أن انفصلت عن النيل بفعل هذين الانحدارين قد جاءت من رأس الوادى — كما سنرى فيما بعد — تلتبس وادى النيل فى الفيوم ؟ وعلى الرغم من كون الرأى الثانى اقرب الى الطبيعة ، الا أنه لا يبدو معقولا ، اذ من المؤكد أن المياه التى تصب فى البحيرات تخرج من انحدارات الشط الأيمن الذى يعلوه . وثمة عدد قليل من الينابيع على الاتحاد المقابل ، وتوجد هذه على عمق كبير . وينهض الرأى الأول على انتظام حركة ارتفاع وانخفاض المياه فى البحيرات كل عام ، وفى فترة تتصل بشكل شبه مستمر بفترة الفيضان .

تحليل مياه البحيرات :

تحتوى مياه البحيرات على أملاح ، تختلف حتى فى أجزاء من نفس البحيرة الواحدة ، مما يدل على عدم وجود اتصال بين مياهها .

وهذه الأملاح هى على الدوام: موزيات الصودا ، وكربونات الصودا ، وقليل من سلفات الصودا .

وتغلب كربونات الصودا فى بعض هذه البحيرات ، بينما تغلب موزيات الصودا فى البحيرات الأخرى .

ويبدو — تبعا للحالة الفيزيائية للأرض — ان كربونات الصودا تعود جاءت الى هذه البحيرات عن طريق مياه النافورات التى تحدثنا عنها، وكذلك عن طريق مياه الأمطار ، وهذا هو مايفسر لنا لماذا يكون الملح الموجود فى جزء من البحيرة يختلف عنه فى جزء آخر منها .

ومياه البحيرة رقم ٤ وجزء من مياه البحيرة رقم ٣ ذات لون أحمر ثان يشبه لون الدم ، ويعود هذا الى أمر مادة نباتية — حيوانية ،وعندما تتبخر هذه المياه يحتفظ الملح البحرى — وهو الذى يتبلور أولا — بهذا اللون الأحمر ويكتسب رائحة الورد الجميلة .

ويرى الميوس برتوليه ان تكون الصودا ، يعود الى تحلل الملح البحرى بفعل كربونات الجير الموجودة فى الأرض الرطبة ، التى يتم فيها هذا التحلل . ووجود الرطوبة أمر ضرورى لحد كبير لتحلل الملح البحرى، وقد رأينا ان هذا أمر متوفر . أما عن الحجر الجيرى ، فانه موجود بكميات كبيرة فيما بين النيل والبحيرات ، وكذلك فى الوادى ، حيث يظهر أما فى شكل صخور أو فى شكل طباشير .

استغلال النطرون

يشكل استغلال النطرون جزءا من التزام الطرانة (٦) التى تدخل حاليا ضمن الحدود الجديدة لولاية الجيزة (٧) .

ويتم نقل النطرون فى الفترة ما بين البذر والحصاد ، وتتجمع القوافل فى الطرانة ، وتتكون القافلة الواحدة من مائة وخمسين جملا ومن ٥٠٠

(٦) تشتمل منطقة الطرانة على ستة قرى منها : كسر داود ، الطرانة ، وأبو نشابة .

(٧) كان يحد ولاية الجيزة تحت حكم المماليك ، من الشمال الجسر الأسود ، الذى كان يفصلها عن ولاية البحيرة ، لكنها تمتد الآن حتى قرية أبو جروة . ويعبر الجسر الأسود الأول ، ابتداء من السكبان الرملية ، حيث ينحدر حتى النيل . وعند طرف هذا الجسر بالقرب من قرية أم دينار ، توجد قناطر لتمرير مياه الفيضان ، أما المياه التى يحجزها الجسر الأسود ، طول الوقت المطلوب ، فانها تخصب السهل ، وتجعل انتاجه بالغ الوفرة .

(م ٤ — وصف مصر)

الى ٦٠٠ حمار ، وترحل مع حراسها عند غروب الشمس ، لتصل الى البحيرات أثناء النهار ، فتكسر النطرون وتحمله ثم تعاود الرحيل .

وفى أثناء العودة تتوقف القافلة فى منتصف الطريق ، وتصنع وقودها من روث حمير وجمال القافلة السابقة (٨) ويشرب رجال القافلة ومرشدوها القهوة ، ويدخنون النارجية ، ويتزودون بقليل من الخبز ، وذلك بعجن الدقيق فى طبق من الخشب ، ثم بانضاج المعجن على الفحم ، ويقيم مرشد القافلة نقط حراسة لى تظل القافلة فى حى ضد العربان ، وتنام بقية القافلة لبضع ساعات ، ثم تعاود السير ، لتعود الى الطرانة فى اليوم الثالث .

ويقدر ما تنقله كل قافلة بستمائة قنطار من النطرون ، كل قنطار منها يزن ٤٨ أنة (٩) .

والطرانة هى مستودع النطرون ، وينقل النطرون بطريق النيل الى هذه القرية ثم يرسل الى رشيد ، ومن هناك يذهب الى الاسكندرية ، ثم يصدر من ثم الى أوروبا ، أو ينقل الى القاهرة حيث يباع لى يستخدم فى تبييض الكتان وصناعة الزجاج (١٠) .

ويقدر الفاقد الذى يصيب المادة عند التفريغ أو الإيداع بـ ١/٨ الوزن .

ويدفع فلاحو قرى الطرانة الست الميرى المقدر عليهم من نقل النطرون ، وإذا ماحدث نتيجة لظهور العربان أو بفعل أحداث أخرى أو

(٨) يؤدى نقص الوقود ، على الدوام ، بالتوافل المتتابعة فى الصحراء ، الى أن تتوقف فى نفس الأماكن التى عسرت فيها سابقتها من قبل .

(٩) تساوى الأنة ٤٠٠ درهم أو رطلين ونصف زنة مارك .

(١٠) يوجد فى القاهرة نوع آخر من النطرون ، يجلبه الجلابة السود فى قوافل دارفور وسنار ، ويستخدم فى تجهيز التبغ المصرى ، إذ يخلط به لإعطائه نكهة نفاذة . وقد قام الميسو رينبولت بتحليل هذا النطرون (١١) ووجد أنه يحتوى على كمية من مريات الصودا أكبر من غالبية العينات التى جلبناها معنا .

عانى استغلال النطرون من بعض التعطيل ، يدفع الفلاحون احدى عشرة بارة (١١) عن كل قنطار كان مقدرا أن ينقلوه .

ويباع النطرون فى مصر بسعر القنطار زنة ٣٦ اقة ، بخردة واحدة تساوى بدورها تسعين بارة .

ويدفع المبتلى أجره الشحن النهري ، ويجهز الملتزم البارود والرصاص لحرس القوافل ، ويبلغ عدد أفراد هذا الحرس ستين رجلا مسلحا ويطلق عليهم اسم الباشات .

ويدفع اليهم الملتزم أجورهم . والتزام النطرون هو ضريبة ملح حقيقية ، وتلتزم القرى التى تملك منشآت تستخدم فيها هذه المادة بشراء كمية محددة منها كل عام .

وقد جعلت صعوبة اختراق وادى النطرون ، من العسير ، فى كل وقت ، دراسة أحوال البحيرات ، فكان استغلالها يتم على غير نظام أو قاعدة . وشواطئ البحيرات كما سبق القول مغطاة بكتل من بلورات الكريستال التى لا يقترب منها أحد ، والتى يمكن برغم ذلك الحصول منها على فوائد جمة ، فهى توجد بكميات وفيرة . ولا يستغل من بين هذه البحيرات فى الوقت الحالى الا البحيرة رقم ٤ . ويدخل الرجال عراة الى المياه ، ويكسرون وينزعون النطرون بكمائة حديدية مستديرة الشكل ، يبلغ وزنها حوالى الستين رطلا ، أحد فكها على هيئة عش الغراب ، أما الآخر فينتهى بسن مدببة من الصلب . وهؤلاء الرجال لا يلتفتون أدنى اهتمام بالنطرون الموجود على سطح الأرض ، والذي يمكن انتزاعه بجهد أقل من الجهد المبذول فى استخراجه من البحيرات بكثير . وانه لمشهد مثير للفضول أن ترى هؤلاء المصريين ، وهم يخرجون من البحيرات فى بياض شاطئ ، بينما هم فى الحقيقة سود البشرة أو برنزيو اللون .

تجارة النطرون :

تعتمد حالة تجارة النطرون بالمثل على تحليلات لم تكن فى وضع يسمح لنا بالقيام بها ، وعلى نوع من النشاط والاهتمام لا يمكن لنا

الاضطلاع به ، فى بلد ظلت فيه مكاسب الصناعة فريسة لمغارم الحكام ومظالمهم . وقد يترك المستغلون فى النطرون خليطا من مختلف الأملاح مع الصودا ، وبالذات الملح البحرى ، الذى يؤدى وجوده الى زيادة مجففة فى وزن النقلة . ومن جهة أخرى يشكو صناع مارسيليا فى أنهم يعانون من أضرار حقيقية وكبيرة ، اذا تتحلل غلاياتهم اثناء غلى الأملاح ، وبدأوا لذلك يقبلون على الصودا القادمة من اليكانتى . وهكذا كانت مصر توشك أن تفقد هذا المصدر لبضاعتها فى أوربا ، لولا أن الحرب قد نشبت فجأة فجعلت نقل الصودا من اليكانتى أمرا أكثر مشقة .

وفى سنوات ١٧٨٨ ، ١٧٨٩ ، ١٧٩٠ ، عندما أمكن لتجار مارسيليا عقد صفقات تجارية جديدة ، فإنهم استوردوا الى فرنسا كمية هائلة من النطرون ، خزنها جزءا كبيرا منها فى محلاتهم .

ويتم تصدير النطرون المصرى الى الخارج ، الى البندقية وفرنسا وانجلترا ، ويكاد ماتستورده انجلترا يساوى نفس الكمية التى تستوردها فرنسا ، أما البندقية فلا تحصل الا على خمس ماتستورده الدولتين الآخرين .

وقد أهتم الميسور رينبولت بموضوع شديد الأهمية ، هو أن يفصل أكبر قدر من الصودا عن النطرون ، بقصد تقديم النطرون الى أغراض التجارة وهو فى أقصى درجات نقائه ، الأمر الذى يؤدى مع زيادة طفيئة فى مصاريف استخراجها الى مضاعفة انتاج وقيمة الصودا ، مع اتباع نفس الأساليب المستخدمة . ويوجد الملح البحرى فى بعض أنواع النطرون بين طبقتين أفقيتين من الصودا ، بحيث يمكن استخلاص الملح بشكل آلى .

وهكذا ، فتجارة النطرون فى مصر ، بعد أن أصبحت هذه المستعمرة ، سوف تعتمد على اعتبارين أساسيين :

الاول : الاستغلال الحر للبحيرات ، وسيصبح هذا الاستغلال فى شكل أفضل ، عن طريق اقامة حرس ، واتخاذ اجراءات عسكرية ، مثل اعادة استخدام وترميم القصر وشغل الأديرة القبطية . . الخ ، لأن العربان فى هذه الحالة — وأمرهم لا يخفى علينا — سيكونون أقل مدعاة للمخاوف .

-الثانى : اختيار وتنقية النطرون . وينبغى أن تقام المنشآت الخاصة بتنقية النطرون فى أماكن أكثر قربا من البحيرات مثل القصر والطرانة .

منتجات الممالك الثلاث « النباتية والحيوانية والجمادات » :

يوجد على شطآن البحيرات البوص والسمار بوفرة شديدة ، كما توجد منتجات أخرى من المملكة النباتية . وتتناقض خضرة هذه النباتات بدرجة تبعد على الدهشة ، مع بياض بللورات الملح شاهقة البياض، ومع اللون الرمادى الكالح لحمى الصحراء .

ونرى بالقرب من البحيرات غاب البوص ذا السيقان العالية (١٢)، والطقق « زهور من فصيلة الرصاصيات » الخالى من الأوراق (١٣)، والائل الفرنسية (١٤) والارطماسية البحرية (١٥) « نبات عطرى » والسمار (١٦) والبوط « أو عصوية المروج » ذات الأوراق العريضة (١٧). وهذا النبات الأوروبى الذى ينمو بوفرة فى فرنسا ، فى البرك والمستنقعات، وهو واحد من أغزر النباتات على شواطئ بحيرة النطرون . وترى هناك الشنجر ذات الأوراق الضيقة (١٨) « هو نبات زينة » ، والجمان أو الطرير ذات الورود البيضاء (١٩) والجنبه أو الحولاي (٢٠) ذات الأوراق الرمادية . وتوجد أيضا السويدا (٢١) وهو نوع من الصودا ويطلق عليه هذا الاسم فى حين يسميه العربان باسم الصهد . ويشاهد هناك أيضا بعض أشجار النخيل قليلة الارتفاع ، وهى تكون غابات كثيفة ، لكنها لا تنتج ثمارا على الإطلاق . وقد وجدنا خلف البحيرة الأخيرة بقليل عشرين نخلة منزوعة من الأرض ، ومجمعة كيها انفق فى شكل كومة ، بحيث يمكن القول بأنها قد انتزعت وحطمت بفعل حركة عنبقة .

-
- (12) *Arundo maxima*, Fors.
 - (13) *Statice aphylla*, Fors.
 - (14) *Tamarix gallica*, Fors.
 - (15) *Artemisia maritima*, Lin.
 - (16) *Juncus spinosus*, Lin.
 - (17) *Typha latifolia*, Lin.
 - (18) *Lithospermum angustifolium*, L.
 - (19) *Zygophyllum album*, Lin.
 - (20) *Fagenia scabra*, Fors.
 - (21) *Suaeda vera*, Fors.

أما أنواع الحيوانات المختلفة هناك فليست كثيرة العدد فتتروى الجص أو القنديد (٢٢) والسرطان بأنواعه المختلفة (٢٣) والنمل العادى والسمل الضخم ذا الأجنحة ونوعا من البعوض الذى تسبب لسعته أوراها هائلة . ومن طبقة الصدفيات نجد القواقع « الحلزون » من النوع الصغير ، ومن ذوات الأربع نجد الحرباء والغزلان ، ويستدل على الأخيرة من آثار أقدامها المشقوقه التى تتركها على الرمال . وقد تعرفنا بين الطيور على دجاجة الماء والبط والشرشير « البط البرى » ، وتوجد هذه الطيور بوفرة شديدة وبخاصة عند البحيرة الأخيرة ، وهى التى يقل تردد الناس عليها .

ولا يوجد فى وادى النطرون أى أثر لمنشآت قديمة ، اذ لم نشاهد فيها وراء البحيرة الرابعة الا أثر مصنع للزجاج ، وقد تعرفنا عليه من انقاض أفرانه المبنية بالطوب الأحمر ، ومن بعض فتات المعادن والزجاج فى أشكال مختلفة . ويزخر الموقع الذى كان يوجد به بالمادتين اللازمتين لصناعة الزجاج ، وهما الرمل الصوانى والصودا ، ولعل الخشب فى ذلك الوقت لم يكن بالندرة التى هو عليها اليوم . ولسنا نعرف الى أية فترة تنتمى هذه المنشأة ، وكان من الممكن أن نستدل على ذلك من نقوش الميدالية أو قطعة النقود التى عثرنا عليها هناك ، لكن هذه النقوش كانت صدئة لدرجة لم يكن من السهل معها أن ن فك أيا من رموزها .

(22) *Pimelia muricata*.

(23) *Carabus variegatus*.

الفصل الثاني

طبوغرافية البحر الفارغ

يقع وادى النهر بلا ماء الى الغرب من وادى بحيرة النطرون . وهذان الواديان اللذان يلتصقان كل منهما بالآخر ، لا ينفصلان الا عن طريق تل مرتفع ، وتستغرق المسافة من الديرين الى الوادى المجاور ساعة ونصف الساعة .

وقد تكدست الرمال فى وادى نهر بلا ماء ، ويبلغ اتساع حوض هذا الوادى من شاطئ لآخر حوالى ثلاثة فراسخ . ويمضى المرء أربعين دقيقة كى يهبط ، عن طريق منحدر منتظم على نحو معقول ، حتى يصل الى قاع الوادى فوق الرمال .

وهذا الوادى قاحل لا تبدو به أية مصادر للمياه . وقد وجدنا به الكثير من الخشب المتحجر ، وعددا من اجسام اشجار بأكملها يبلغ طول البعض منها ثمانية عشر قدما . ولم يكن يبدو أن اجسام الشجر وقطع الخشب التى ظهرت لعيوننا قد مستها يد الانسان (٢٤) . وكانت غالبيتها قد تحجرت تماما اما اقلها فقد بدا اقل تقدما فى تحجره ، لذلك كان مغلفا بطبقة بالغة الكثافة وبالغة الصلابة . اما الجزء الذى يشكل المادة الخشبية « اللباب » فكان متباعدا فى شكل طبقات من الورق . وقد وجدنا كذلك

(٢٤) يؤكد ب. سيكار (P. Sicard) (Lettres édifiantes) أن المرء يجد فى وادى نهر بلا ماء صواري . وانتاض سفن متحجرة ، الا أننا لم نلاحظ شيئا من ذلك ، وان كنا فى الحقيقة لم نر الا جزءا من الوادى : ويدعى جرانجيه Granger فى تقريره عن رحلته الى مصر ، ان ما نأخذه عادة على أنه خشب متحجر ليس كذلك على الاطلاق ، ومع ذلك ، فان المينيات التى أحضرناها لها بالتاكيد خواص الخشب المتحجر، حتى أنها بدت كذلك فى أعين أفراد أقل خبرة ودراية ، كما أن علماء الطبيعة الحاذقين ، الذين فحصوها بعناية ، قد حكموا عليها نفس الحكم .

فى هذا الحوض سلاسل عظام من السمك الجبر الذى بدا لنا متحجرا، وهو ما يضيف احتمالا جديدا — كما سنرى — الى الاحتمال القائل بأن المياه كانت تجرى فى هذا الوادى ، وانها كانت تحتوى على حيوانات تعيش فيها . .

وبخلاف الأخشاب المتحجرة ، يرى المرء ، وبشكل خاص على منحدرات الوادى ، احجار صوان ملفوفة ، جاءت دون شك من مكان جد بعيد ، بالاضافة الى الزلط والجص والبلورات الصوانية المكونة داخل تجويفات ، وأنواع من الجيود « وهو حجر به نجويف ومبطن ببلورات أو بمادة معدنية » وقطع من الدشب « حجر كريم مختلف الألوان » المستدير، وقطعا من الحجارة ذات قاعدة صوانية تميل الى اللون الأخضر ، وبعضا من اليشب المسمى بالزلط المصرى . . الخ وتتنسب غالبية هذه المواد الى تلك الجبال النائية فى صعيد مصر ، ولا يمكن أن تنتقل هذه المواد الى هنا الا عن طريق مياه النيل . اذن فقد كانت هناك صلة بين النيل ونهر بلا ماء ، ونتيجة لذلك فقد كان ثمة صلة بين الواديين ، وليس ثمة ما يؤكد أن مثل هذا الاتصال كان مستحيلا ، لكننا سوف نؤسس وجود هذه الصلة على اعتبارات أخرى .

ان اتجاه وادى نهر بلا ماء هو نفس اتجاه وادى بحيرات النطرون، والرأى الشائع هو أن المرء عند اتجاهه الى الجنوب بين هذه الوديان ، يصل الى الفيوم ، وعند انجاءه الى الشمال منها يترك على يساره اقليم مريوط (٢٥) . وهذا هو الطريق الذى يسلكه العربان عادة للقيام بغاراتهم

(٢٥) تقع مريوط على مسافة أربعة فراسخ الى الغرب من الاسكندرية ، نحو البحر ، وتستطيع سريّة من الفرسان ، راكبي الجمال (الهجانة) أن تصلها فى ساعتين ونصف الساعة ، ويجد المرء فى هذه المنطقة ، ثلاثة آبار عميقة ومعنى بها ، تغذيها مياه الأمطار ، ويلتحق المرء فى المنطقة المجاورة بعض الخرائب ، وكذلك مقابر العربان المزدانة بالتهويذات ، وهذه عبارة عن آيات من القرآن ، موضوعة داخل كيس صغير من الجلد ، معلق فى خيوط فوق المقابر . .

فى مناطق الصعيد . كما أن اتجاه هذين الواديين ، يدفع الى استنتاج أن نقطة تماسهما تقع فى نفس المكان الذى ترسم فيه على الخريطة بحيرة مورييس ، كما أن اتساع وادى النهر بلا ماء بالاضافة الى ما يذكره المؤرخون عن بحيرة (قارون) يدفع الى الاعتقاد بأن هذا الخزان لم يكن سوى رأس لهذا الوادى ، الذى سد بشكل طبيعى بفعل تكدس الرمل ، أو بواسطة يد الانسان ، بطريقة يمكن القول معها بأن بحيرة مورييس قد تكونت ولم تحفر . وهذا الراى شديد الترجيح بحيث أن المرء عندما يفكر فى طبوغرافية هذه البلاد سيجد ما يقنعه بأن خزاننا يحفر تحت مستوى تربة مصر ، سوف يجعل المياه التى ينلقاها بغير ذات نفع لهذه التربة . ولقد أوضحنا أن المياه التى حجزت على هذا النحو ، ستكون بالأحرى فى وضع تجرى معه نحو نهر بلا ماء ، لا أن تجرى الى داخل وادى النيل .

ولكى تكون هذه المياه نافعة للجزء الأدنى من مصر ، كان الأمر يقضى عكس ذلك ، أى إن يكون حوض البحيرة ، بدلا من أن يكون محفورا بشكل طبيعى ، قد يكون عن طريق سدود علوية أقيمت فوق الأرض الطبيعية ، بقصد أن تحجز بعد الفيضان كمية من المياه أعلى من مستوى أرض مصر . أن وجود بحيرة مورييس ، والغرض الذى ينسب اليها عادة ، سيصبحان اذن امرين مشكوك فى صحتها ، وربما يشكلان على الدوام مشكلة تستدعى الحل .

= وتلامس أرض مريوط ، التلال التى تنتهى اليها المرتفعات الليبية ، أما التربة هناك ، فهى عبارة عن أرض رسوبية ، تشابه أرض مصر ، وتبعاً لذلك ، فإنها تدين بنكويتها لمياه النيل ، التى كانت تصل اليها هناك فيما مضى ، وحين تسقط الأمطار ، تتكاثر بعض الأعشاب فى مريوط ، وهذا ما يدفع العربان ، وبخاصة الجوابى ، الى الذهاب الى هناك مع قطعانهم ، ولأن الآبار لا تتزود بالمياه الا عن طريق الأمطار ، فإن مياه هذه الآبار ، تتجدد فى أوقات الجفاف ببطء شديد . ويتردد العربان على مريوط بسبب قربها من الاسكندرية ، ولأنها تقع على طرف خط الآبار الذى يجاور الصحراء عند الاتجاه الى ولاية البحرة . ويؤدى هذا الخط الى بحيرات النطرون ويصل المرء بعد عبوره الهضبة التى تفصل الواديين ، بعد مسيرة يوم ، وعند الطرف الشمالى للبحيرات ، الى مرتفعين متجاورين يطلق عليهما اسم النهدين .

وهذا الجزء ، الذى سمحت لنا الظروف بالتعرف عليه ، هو مفتاح الجغرافيا الفيزيائية لمصر .

وان كان لنا ان نتجاسر على التشبع لراى ، لقلنا ان اتساع وحجم حوض النيل فى الفيوم يعودان الى منفذ بحر بلا ماء الذى يبدو على نحو «اثل . ويحدد الأب سكار ، ويحذو حذوه سترابون ، حوض هذا الفرع القديم للنيل ، بأنه يتجه نحو بحيرة مورييس ، لكنها يتركبان نقطة التلاقى غامضة ، ويعطيان لبحيرة مورييس نسباً وأبعاداً من الضخامة بحيث تتجاوز الحد بالنسبة لاتساع بحر بلا ماء . واذا كان الراى الذى عرضناه ليعود أن يكون الا نوعاً من التخمين ، فإن النتائج التى حصلنا عليها ، وحسب استنتاجاتنا ، من المهمة الاستطلاعية التى قمنا بها ، توضح لنا ، أنه كانت توجد مجارى مياه كبيرة فى داخل الصحراوات . وأنه من المحتمل جداً ان كان النيل ينقسم الى عدة فروع الى الجنوب من بحيرة مورييس ، وان الفرع الحالى كما سبق ان لاحظنا كان يجرى فى قاع الحوض بطول التلال الليبية ، كما تبرهن على ذلك شهادات المؤلفين ، وخطوط مهد أو قاع هائل يستمر بطول هذه التلال ، ويستحيل ان يكون هذا المهد قد تكون الا بواسطة مجرى مياه كبير . وقد وجدت هذا المهد فى كل اتساع ولاية الجزيرة ولمساحة تبلغ ثلاثين فرسخاً ، وثمة مظهر لافت للنظر وهو انه يتوغل الى الأمام متجهاً نحو الجنوب حتى يصل فيما أزعم حتى بداية بحر يوسف ، اى عند النقطة التى يعتقد أن النيل فيها قد غر مجراه ، لى يلقى بثقله على الشط الأيمن ، وفى أعماق هذا المهد تجرى مياه بحر يوسف (٢٩) .

وهكذا يبدو لنا من شهادات التاريخ القديم التى تناولت تربة مصر :

- ١ - أن النيل ، أو بترجيح أكبر ، أن جزءاً من مياهه كانت تجرى داخل صحراوات مصر الغربية عن طريق وادى النطرون ونهر بلا ماء .
- ٢ - أن المياه قد دفعت الى الوادى الحالى ولعلنا نستطيع ان نفسر بهذا ، لماذا كانت مياه الفيضان فى عصر هيروت تترفع الى خمسة عشر ذراعاً بينما لم تبلغ فى زمن مورييس الا ثمانية أذرع فى حين أنها اليوم ، تبلغ ثمانية عشر ذراعاً .

(٢٦) تحمل هذه التربة فى البداية وهى ثمر بولاية الجزيرة اسم ، ترعة اللبن ، ثم ترعة الاسراء ، ثم نستعيد فى ولاية البحيرة اسمها الذى تسمى به فى مصر العليا وهو اسم : بحر يوسف .

٣ - ان النيل بعد هذه العملية قد جرى بأكمله بموازاة التلال الليبية،
وشكل لنفسه المهدي الذي نراه في مصر السفلى ، وفي جزء من
مصر الوسطى .

٤ - ان النيل قد « حمل » على الشط الأيمن وان هذه الفترة قد سبقت
مباشرة الوضع المنتظم للفروع السبعة للنيل وتكوين الدلتا (*) .

٥ - ان الشهادات الجغرافية التي عاصرت الوقائع السابقة ، تؤكد
بالإضافة الى ما قلناه ، ان مياه النيل تميل للاتجاه نحو الغرب ،
وهو ميل يوضحه في مصر ، كما هو الحال في كل بلد آخر ، في أي
موقع آخر ، فعل وتأثير الطبوغرافية العامة للأرض .

ويتبع هذا الرأي الأخير ، أن المشروع الذي كان لدى البوكيرك والذي
كان يرمى الى تحويل مصر الى أرض جرداء ، بتحويل مجرى النيل ، كان
ممكن التحقيق لو أنه قد دفع بمياه النيل الى الصحراء الغربية ، أكثر منه
ممكنا لو أنه دفعها الى اتجاه البحر الأحمر ، كما كان يقضى مشروعه ،

ان وادي النهر بلا ماء ليس هو النقطة النائية في هذه المنطقة ، إذ
يمكن للمرء ان يتوغل من هناك الى داخل أفريقيا ، فسان الطرانة
يذهبون الى ما وراء هذا الوادي لقطع السمار ، الذي تنقله قبيلة عرب
الجوابي من قراهم ، لبيع في منوف (٢٧) حيث يستخدم في صناعة
ارق انواع الحصر ، ولكي نتوجه من وادي نهر بلا ماء الى المكان الذي

(*) انظر دراستنا عن بحيرة المنزلة . (المجلد الثالث من الترجمة
العربية) .

(٢٧) منوف : هي إحدى مدن الدلتا ، وتقع مباشرة امام الطرانة على
بعد فرسخين من فرع رشيد ، وأربعة فراسخ من فرع دمياط ، وعلى
الشط الشرقي لترعة الفرعونية ، التي تعبر ، بالمثل ، الجزء الجنوبي
من الدلتا ، ابتداء من فرع دمياط ، حتى فرع رشيد ويقطعها عن جهة فرع
دمياط جسر يسمى الفرعونية ، وبهذه الطريقة أمكن توزيع عادل للمياه ،
بحيث حصلت الولايات الواقعة الى شرق او الى غرب الدلتا ، على نفس
الامتيازات ، وتستطيع ادارة متنورة ، بأيسر السبل ، أن تعالج الاضطرابات
والتعاب التي نجمت عن جشع وجهالة الحكومة السابقة ، عندما فضلت
ولاية المنصورة ودمياط على حساب ولاية البحيرة ، التي تحول جزء كبير
من أراضيها بسبب نقص المياه ، الى صحراء حقيقية .

تقطع منه السمار ينبغي أن نسير ثلاثة أيام كاملة من شروق الشمس حتى الغروب ، دون أن يكون بإمكاننا أن نعتز على ماء طيلة هذه المسافة ، وحتى نبلغ المنطقة التي ينمو فيها السمار .

زحف الرمال :

قلنا في بداية هذه الفقرة أن وادى نهر بلا ماء قد غص بالرمال . وما يقال بخصوص هذه الرمال هو نفس ما يمكن قوله بخصوص الرمال التي توجد في وادى النيل ، فقد حملتها الرياح من فوق الهضاب الواقعة الى الغرب . وحيث أن وادى النطرون ووادى نهر بلا ماء لا ينفصلان الا بواسطة تل ضيق ، فان الوادى الأول يكاد لا يساهم على الإطلاق في زحف الرمال هذه ، على الرغم من أنه توجد على يمين الوادى أو الى الشرق منه ، تلك الهضبة الواسعة التي تفصله عن النيل . ويدل ذلك بوضوح على تحرك محدد للرمال من الغرب الى الشرق ، وقد كانت هذه الحركة ملموسة منذ وقت طويل ، لدرجه سببت أشد القلق على مصر تلك المنطقة شديدة الخصوبة من أرض مصر ، وهى تلك التي توازى الشاطئ الأيسر للنهر .

ودون أن نخرج كثيرا عن الاطار الذى حددناه لأنفسنا ، نستطيع القول بأن الكتبان التي تقع فوقها قرية منية سلامة والتي تضم اتريس ووردان (١) قد تكونت بفعل انتقال الرمال من الصحراوات الليبية ، عن طريق الرياح القادمة من الغرب ، وتحت هذه الكتبان توجد تربة رسوبية تكونت من طمي النيل أى أنها بمثابة قاعدة لهذه الكتبان ، وترتفع منها أشجار جميل بالغة الجمال ، لتخرج من قلب هذه الكتبان القاحلة . وتصل الرمال في هذه المنطقة ، وفي مناطق أخرى الى النيل ، كما يصل رمال فيزوف الى شاطئ البحر . وتردم الرمال الطريق الموازى للنهر ، وتضطر المسافر الى اجتياز هذه الأرض المرتفعة والمتحركة .

ويؤدي هذا الأمر ، نالاضافة الى ماقلناه في دراستنا عن بحيرة المنزل ، الى أمور نوجزها فيما يلى :

(*) انظر الخريطة الطبوغرافية لمصر .

هناك ثلاثة أسباب مجتمعة عملت منذ وقت طويل على حصر أرض مصر وتدهور خصوبتها . وهذه الأسباب هي : عمل الحكومة وهو فى عمومه ذو أثر مضاد للصالح العام ، تقليل فاعلية مياه النيل وهو الأمر الذى أدى نتيجة للإدارة السيئة للحكومة الى طغيان مياه البحر على الأجزاء الدنيا وغير المستوية من أرض مصر ، وأخيرا ذلك العمل المستمر والدعوب للرياح التى تدفع رمال الصحراوات من الغرب الى الأراضى الصالحة للزراعة والى الترع والنهر . . ومن الممكن تعديل الظروف فيما يختص بالسببين الأولين، لكن ليس ثمة جهد بشرى يمكنه أن يتصدى لزحف الرمال . وفى غيبة العوامل الطبيعية القادرة على ذلك ، فقد أدت السداجة والجهل الى تلمس الخرافات ، فنقرأ مثلا عند مؤلفين عرب (٢٨) ان أبا الهول، الذى يشاهد بالقرب من الأهرام، هو بمثابة تعويذه لايثاف الرمال اللبية، ومنعها من التوغل فى أراضى ولاية الجيزة .

ومع ذلك فإننا نعتقد ان بإمكاننا أن نضيف الى ما سبق ، وكما أمكننا أن نلاحظ ذلك بأنفسنا ، أن غزوة الرمال اللبية تقارب من نهايتها، بالنسبة لمصر السفلى على الأقل ، حيث لا يوجد فى الواقع الا القليل من الرمال المتحركة فوق الهضبة ، الى الغرب من النيل .

وهذه الهضبة من الحجر الجيرى .

وتكاد تكون كل الرمال التى ترى فى وادى النيل من نوع الرمال الصوانية ، فلا يبقى اذن للرياح الا الرمال التى يمكن أن تنتج عن تفتت الأحجار الجيرية .

وبالإضافة الى ذلك ، فإن وادى نهر بلا ماء ، يقوم بدور الحاجز ضد الرمال التى تزحف من داخل أفريقيا نحو النيل ، وبوازى هذا الوادى ولايتى الجيزة والبحيرة ، وفى الحقيقة فإن وادى نهر بلا ماء هذا يفص بالرمال ، لكن الرمال لايزال أمامها الكثير حتى ترتفع الى حواف حوضه،

(٢٨) انظر جغرافية عبد الرشيد ، الذى كتب عام ١٤٠٣ من العصر الحديث (الميلادى) .

بل انه حتى لو حدث ذلك، فسوف يكون على الرمال أن تسد وادى بحيرات
النطرون قبل أن تبلغ الهضبة لتنتقل من هناك الى وادى النيل .

ان عمل الرياح على الرمال الموجودة فى هذا الوادى هو بلا جدال
اكثر الامور مدعاة للاسف ، وهذه الرمال تتحرك وتغير من مكانها ، وسوف
تضل بعد انتقالها من صخرة لآخرى الى النهر ، كما يشاهد ذلك فى الأماكن
التي يضيق فيها وادى النيل ، فى حوض مصر .

ومع ذلك ، فليست الرياح وحدها هى التى تنهض بكل العباء لى
تدفع بالرمال نحو النيل ، فمياه النيل نفسها ، بتحميلها على الشطاليسر،
وينحرها لهذا الشط ، تسعى بنفسها حثيثا نحو الرمال .

الفصل الثالث

عن الأديرة القبطية

أنشئت الأديرة القبطية الموجودة في وادي النطرون في القرن الرابع ، ومع ذلك فيبدو أن هذه الأديرة قد أعيد بناؤها أو ترميمها مرات عدة ، منذ هذا التاريخ . وثلاثة من هذه الأديرة قد بنيت على شكل مستطيل ، يبلغ طولها من ٩٨ الى ١٤٢ مترا ، ويتراوح عرضها ما بين ٥٨ الى ٦٨ مترا ، الأمر الذي يؤدي بمتوسط مساحتها الى ٧٥٦٠ مترا مربعا .

ويبلغ ارتفاع جدران السور ثلاثة عشر مترا على الأقل ، أما سمكه فيبلغ عند الأساس من ٢ إلى ٣ من الأمتار وهي مبنية من خامات جيدة وبشكل معتنى به . وبسبب على الجزء العلوى طوار يبلغ عرضه مترا واحدا . وبالحائط في أعلى الطوار كوات بعضها الى داخل الجدار وبعضها تميل وتنزل الى خارجه حتى يسهل الدفاع عن النفس ضد العربان ، وذلك بقذفهم بقطع من الحجارة حيث أن أنظمة الرهبان تحرم عليهم استخدام الأسلحة النارية . ولهذه الكوات المنزلة الى الخارج ، أقنعة لتأمين الناس من طلقات البنادق .

وليس للأديرة الا مدخل واحد ، وهو خفيض وضيق فلا يبلغ ارتفاعه أكثر من متر ، كما لا يصل عرضه لأبعد من مترين ويفلق هذا المدخل من الداخل باب شديد السمك ، مزود بمزلاج في أعلاه وبثقل خشبي قوى « ضبة » في وسطه ، كما أنه مزود عند أسفله بعارضة حديدية تخترقها مسامير ذات رعوس ، وبخلاف ذلك فان مدخل الدير مقفل على نحو ما وباحكام من الخارج ، وذلك بواسطة رحوين من الجرانيت موضوعتين على جانبى المدخل الضيق ، وقطر كل منهما أقل بقليل من ارتفاع المدخل ويسمح سمكها بأن ينهضا في ثبات . وتشرف على الباب شرفة دفاعية يمكن منها احراق المهاجم والقاء الحجارة فوقه . وعندما يراد الاختباء ،

ببدأ راهب موجود خارج الدير. فى دحرجة واحدة من الرحوين بواسطه عتلة ، ثم يثبتها ، ثم بدحرج الأخرى وينسل الى الداخل ليجر ، نحوه الرحى الأخرى فتأخذ مكانها بشكل طبيعى الى جانب الأولى وعندما تنماسك الرحوان يتفل الباب، ومن طريق الشرفة الدفاعية يكون من السهل اكتشاف أولئك الذين يريدون زحزحة الرحوين .

والى جوار هذه الشرفة ، يوجد الناقوس الذى يتدلى منه حتى يلامس الأرض حبل مصنوع من ليف النخيل . وفى بعض الأحيان يستيقظ الرهبان أثناء الليل على صوت الناقوس ، ومع ذلك فهم على الدوام بلزمون الحذر والحيطه ، حتى ولو تعرفوا بالفعل من حيث هم أعلى الأسوار ، على أنهم يتعاملون مع أناس أصدقاء ، فانهم لا يقررون فتح الباب أمامهم واستقبال الطارق الا بعد أن ينزل راهب عن طريق الشرفة متعلقا فى طرف حبل مربوط فى رحى صغير ليرى عن قرب ما ان كان ثمة من ينبغى أخذ الدير على غرة ، وعندما يأخذ فى فتح الباب يبقى واحد من الرهبان فى أعلى الحائط متجذا وضع الحارس ، حتى يلحظ ما ان كان هناك من يأتى على بعد من العريان .

ولكل دير بداخله برج مربع الشكل ، لا يمكن الدخول اليه الا بواسطة جسر متحرك يبلغ طوله خمسة أمتار ، ويبلغ ارتفاعه فوق سطح الأرض ستة أقدام ونصف القدم . ويرفع الجسر بواسطة حبل أو سلسلة تمر من خلال الجدار ، ويلتف هذا الحبل حول رحى أفقية ، وينتهى البرج بسطح علوى فوق جدار السور .

وللاديرة الثلاثة التى تجاور البحيرات آبار محفورة يبلغ عمق الواحدة منها ثلاثة عشر مترا ، ويوجد بكل بئر حوالى المتر من المياه العذبة التى ترفع بواسطة ساقية ذات قواديس . وتستخدم المياه فى احتياجات الرهبان ولرى حديقة صغرة تنمو فيها بعض الخضروات ، كما تزرع فيها بعض الأشجار مثل النخيل والزيتون والتمر هندى والحناء والجميز . وعند نهاية شهر يناير ، يبلغ ارتفاع مياه الآبار حده الأقصى ، لتتخفض أثناء الصيف .
' سكن الآبار لا تنضب مطلقا .

ويمتلك دير السريان شجرة سانت افرام (٢٩) ، وهى شجرة مقدسة . يبلغ ارتفاعها ٦ امتار ونصف المتر ، ويبلغ محيطها ثلاثة امتار . . . انها شجرة التمرهندي (٣٠) التى يظن الرهبان السريان انهم وحدهم الذين يحوزون مثل هذه الشجرة « أى انها لا توجد عند سواهم » . . . وهذه الشجرة بالغة الندره فى مصر السفلى ، لكنها بالغة الانتشار فى الصعيد . وليس للدير الرابع الذى يحمل اسم دير الانبا مقار الا بئر واحدة ، مياهها مالحة ، ولكن ثمة بئرا محفورة على نحو طيب (٣١) ومياهها بالغة العذوبة تقع خارج الدير وعلى بعد أربعمئة متر منه ، كما يوجد نبع عند الانحدار المقابل لهذا الممر الجبلى ، وللديرين الآخرين بالمثل نبع بجاورهما .

وصوامع الرهبان عبارة عن حجرات ضيقة ، لا يصلها من ضوء الا من طريق المدخل الذى يبلغ ارتفاعه اكثر من المتر . وأثاثهم ليس سوى حصيرة وجرة وقلة (٣٢) . والكنائس منظمة على نحو طيب ، لكنها تزدان بصنور رسمت بخشونة ، وبخلاف ذلك فكل شئ مضطرب ، غير منتظم وغير نظيف وخال من الذوق . وحيث أن فقر الأديرة لايسمح لها بخلقا باتخاذ زينات فاخرة ، فان الرهبان يجدون فى تجهيزها بأشياء

(٢٩) يحكى أنهحدث فى الأزمنة الأولى لحياة الأديرة ، أن شكا الرهبان من ضيقهم بحالتهم ، ومن أنه لا ينمو حولهم فى وحدتهم القاحلة تلك أى نبات . ولكى يقوى القديس افرام من حماستهم ، ويزيد من ايمانهم ، فقد أمر أحد أتباعه بأن يزرع عصاه فى الرمال ، مخبرا اياه أنها ستغدو شجرة ، وبعد فترة تردد أطاع الراهب الشاب . ويقال ان المعجزة قد حدثت وان العصا قد مدت لها جذورا وأنبتت لها فروعاً ، وانها هى نفس الشجرة التى لا تزال تنهض حتى اليوم وتحمل اسم شجرة القديس افرام أو شجرة الطاعة .

(30) *Tamarindus indica*, lin.

(٣١) يبلغ عمق هذه البئر خمسة امتار ، وهى على شكل مربع ، طول ضلعه متر وثلاث المتر ويبلغ ارتفاع الماء بها اقل من المتر بقليل . (٣٢) يقال لها أيضا وبشكل أكثر شيوعا : بردق ، وهذه الكلمة الأخيرة تركية ، والقلل عبارة عن آنية مصنوعة من الطين المعد والمحروق ، بطريقة تسمح بنسوغ خفيف للمياه ، وهى تستخدم فى تبريد الماء ، وذلك بتعريضها ، هى ، لتيار الهواء .

(م ٥ — وصف مصر)

مقلدة .. وهكذا فبدلاً من المصابيح الفضية تجد لديهم مصابيح من بيض النعام لها تأثير جميل لحد لا بأس به .

رجال الدين هؤلاء ، هم فى العادة عور أو عميان ، ولهم ملمح وحشى ، حزين وقلق ، ويعيشون على بعض الدخول ، وبصفة أساسية على العطايا والاحسان ، ويتغذون على الفول والعدس المطبوخ بالزيت ، وينتضى وقتهم فى الصلاة ، ويحترق البخور فى هذه الخطوات التى يحيط بها بحر من الرمال .. ويطلو الصليب القباب عالية الارتفاع .. ويوجد تسعة من الرهبان فى دير براموس وثمانية فى دير السريان ، واثنى عشر فى دير الأنبا بيشوى وعشرون فى الدير الرابع ، ويعنى بطريرك القاهرة برعايا هذه الأديرة الأربعة .

إننا فى الحقيقة لنجهل ما تكون عليه مباهج وملذات حياة هؤلاء الرهبان الوريين والمتوحدين ، فنحن لم نلمح شيئاً يمكن أن يشتم منه أنهم يعنون بتثقيف أرواحهم ، ولا بتنشيط أديهم . والكتب التى بين أيديهم ليست سوى مخطوطات صوفية مكتوبة على رق أو على أوراق من القطن ، وبعضها مكتوب بالعربية ، وبعضها الآخر مكتوب باللغة القبطية ، وعليها فى الهامش ترجمة عربية ، وعندما تصفحنا المخطوطات الأخيرة ، وجدنا أنها ربما تعود الى ستمائة عام . وقد عبرنا داخل هذه الأديرة ، ووقفنا على كل تفاصيلها ، وقد أخذ الرهبان بسرور بالغ استعزازهم لزيارتنا هذه ، وعدوها بمثابة تقدير لهم أرضى كبرياءهم .. وقبل خروجنا تقبلنا خبز القربان (٣٣) الذى قدموه لنا .

ويقوم رجال الدين تجاه العربان بواجب الضيافة الإيجابية . وهم مضطرون أن يكونوا على الدوام فى كنف حراستهم ، ولذلك فهم عندما يذهبون من ملجأ لآخر ، لا يفعلون ذلك الا فى أثناء الليل ، ويمر العربان بالأديرة أثناء جولاتهم ، ويتوقفون ليتناولوا طعامهم ، ولكن يستريحوا ويريحوا خيولهم ، ويقدم اليهم الرهبان واجب الضيافة هذا من وراء الجدران ، ذلك أنهم لا يفتحون لهم الأبواب مطلقاً ، غثمة بكرة موضوعة

(٣٣) يصنع خبز القربان دون خمور ، وهو مستدير ، ويبلغ سمكه سهك الاصبع ، وهو فى حجم كف اليد ، ويغطى سطحه بحروف عربية .

على احدى زوايا السور ، الغرض منها ان تنزل بواسطة حبل قفة الخبز والخضار والشعير المخصص لهم . وهم مضطرون للسلوك على هذا النحو حتى لايتعرضوا عندما يقابلهم العربان خارج الأديرة للنهب بلوالقتل على أيدي هؤلاء . وحيث أنهم يعيشون فى وطاة هذا الخوف والقهر فانهم يتحملون بنفاد صبر متعصبى الديانة المسيطرة . وتلك هى الآفة الرهيبة لهذه الأفكار المسبقة ، التى تؤدى الى أن يكون اختلاف الدين ، بل وحتى اختلاف المذهب سببا فى خلق أعداء متباغضين فى هذه البلاد ، ليس فقط بين أتباع المسيح وأتباع محمد ، بل وحتى فى داخل الاسلام نفسه بين أولئك الذين يتبعون مذاهب مختلفة فى إطار الدين الواحد ، وكان الرهبان يسألوننا — وكأنه امر دينى مقدس وبلهجة لا تخلو من غرض — وماذا سيكون موقفكم من المسلمين (✕) ؟ ولم يكن هذا أول سؤال من نوعه يوجه إلينا ، منذ وطئت أقدامنا أرض مصر .

ومع ذلك فان المصلحة والخرافة تقربان فى بعض الأحيان بين هؤلاء الخصوم الطبيعيين ، فيحدث على سبيل المثال فى مناطق معينة أن يرسل مسلم ، يريد أن ينشئ برجا للحمام ، الى أديرة الصحراء التماسا مصحوبا بهدية مناسبة ، ويتقبل الرهبان الورعون الهدية ، ويعطونه فى مقابلها بطاقة بها عبارات دينية ، من شأنها ، عندما توضع فى البرج وحسب الاعتقاد الشائع ، أن تجعله مزدحما بالحمام ، وأن تجلب له البركة والازدهار .

الفصل الرابع

عن عرب الجوابى وعن البدو

يتردد على شواطئ بحيرات النطرون كل عام عربان الجوابى (٣٤)، وهم أبناء قبيلة عربية رحالة ومضيافة ، وتعسكر هذه القبيلة هناك مع قطعانها في فصل الشتاء . ويعمل هؤلاء العربان في خلال هذا الفصل من العام في نقل النطرون والسمار ، كما يقومون بنقل البلح ، ولكي يحصلوا عليه ، يذهبون في شكل قوافل الى سيوة ، واحدة آمون ، ويستغرقون في رحلة الذهاب الى هناك من ١٢ الى ١٥ يوما . وهؤلاء العربان يعيشون في حالة سلم دائمة (٣٥) ، فهم مسالمون ، يتجولون هنا وهناك بحثا عن المياه والمراعى لماشيئهم . وتحفظ هذه القبيلة أكثر من سواها بالعادات القديمة ، وأبناءؤها رعاة بسطاء لا يميلون لاحتراف الزراعة . وهم رقيقو الحاشية ، لطيفو المعشر ، ولا يحسون بأذى غضاظة من نوع الحياة التي يحيونها . ومع ذلك فعواطفهم متأججة ، وبخاصة عاطفة الحب ، الذي هو صنو للغيرة في كل البلدان ، وخاصة عند الشرقيين . وقد تدفمهم هذه العاطفة في بعض الأحيان الى سلوك متطرف ، بالغ القسوة (٣٦) .

(٣٤) رؤساء قبيلة الجوابى هم الشيوخ : قراميط أو غالب ، وهو شيخ القبيلة الأكبر ، والحاج عيسى أبو على ، والحاج طه أبو ديل ، وتتكون هذه القبيلة من حوالى ألفى رجل ، وقد يصل عدد ممتلك من خيول الى الستين .

(٣٥) أناس مسالمون ، لا يبدأون مطلقا بشن الحرب ، ولا يشتهرون السلاح إلا للدفاع عن النفس ، وهو أمر نادر الحدوث ، وهم ينصرفون عادة لكسب المال .

(٣٦) هواد ، رب لأسرة كبيرة العدد ، وشيخ مسن يحظى بالاحترام ، ومن أتباع الحاج طه ، وذات يوم وجد ابنه الوحيد قتيلا الى جوار زوجته ، وكانت تلك متزوجة من قبل من رجل آخر ، طلقها لبعض التعلات الواهية ، ولما كان هذا الأخير مجنونا بحبها لدرجة التسعار ، فقد اتسم

وملابس الجوابى ، حرام وبرنس وهو نوع من المعطف الذى يشبه الغفارة التى تستخدمها الكنيسة الرومانية عند اقامة قداس ، وهو من الصوف الأبيض . وتستخدم هذه الأقمشة فى صنع ملابس الرجال والنساء ، وهى تصنع فى النوبة ، ويشتريها العربان من القاهرة ، وبصفة خاصة من الاسكندرية . . وتغزل النسوة وبر الماعز ليصنعن منه أقمشة الخيام وبعض البسط العادية .

وتتمثل ثروة الجوابى ، وعموما كل عربان الصحراوات ، فى الجمال وقطعان الأغنام والماعز ، بينما تتمثل ثروات من استوطنوا القرى منهم فى الماشية الكبيرة وقليل من الجمال . ومن ذا الذى كان يدور بخلده أن الثروة فى وسط هذه الصحراوات القاحلة ، شأنها فى ذلك نفس شأنها عند الأمم المتحضرة ، يمكن أن تصنع هذا التمايز وتبتعد بأصحابها عن حياة الفطرة ؟ فليست كل الأمهات العربيات يرضعن بأنفسهن أطفالهن ، اذ تتخذ الثريات منهن لأطفالهن مرضعات . أما أولئك اللاتى لا يسلمن أبناءهن لأمهات ماجورات ، فيعرفن فيما يبدو الأهمية التى توحى بها هذه السن الحنون للشعوب المنحضرة . وعند الهجوم على مخيم عربى ، لم يتخذ احتياطاته الكافية ضد المفاجآت ، يركب الرجال على الفور خيولهم ويهربون سريعا تجاه النيل ، وتبقى النسوة وحدهن مهجورات ، ولكى يبقين بطنس جنودنا وابطاء زحفهم يتسترن على نحو ما بأطفالهن ويضعنهم أمامهن ، وقد يتم هذا من جانبهن بدافع من الغريزة وحدها ، كما قد يتم بعد انعام للمفكر ، لكن مثل هذه العثبات لم تكن لتوقف زحف رجالنا الشجعان ، فكانوا يلتقطون اثناء جريهم هذه المخلوقات البائسة ويحملونها ثم يودعونهم على مقربة من أمهاتهم ويواصلون ملاحقة الأعداء .

هذا المخبول أن يقتل بيده من يتزوجها . وكان عند كلمته ، وحيث لم يستطع هواد أن يتحمل رؤية قتال ابنه ، فقد انسحب الى الصعيد ، فجر معه ، دون قصد منه ، العديد من الأسر ، وحين لاحظ هذا الأب المسكين أن انسحابه قد ادى الى حدوث اضطراب فى القبيلة ، فقد آثر أن يكظم آلامه حتى لا يؤذى الصالح العام لقبيلته ، فعاد الى كنف الحاج طه ، لكنه كان يشاهد على الدوام حزينا وعيناه مليئتتان بالدموع ، وعاش حياة مليئة بالألم والضنى .

ومن العسير ألا تدب الفوضى فى مخيم استولى عليه عنوة ، ففى هذه الحال ترى النسوة العربيات وهن خائفات من أن تطبق عليهن شريعة المتنصر ، ويلجأن كى ينفرن منهن رجالنا ، الى تكتيك شاذ وهو أن يلطخن وجوههن بروت البقر .

ويحمل عربان الصحراء اسم عرب الخيش أى عرب الخيام ، أما الساكنون خلف الجدران ، فقد كانوا فيما مضى عربا رحلا ، وعندما اقتربوا من بلدان مزروعة ظلوا لفترة تحت الخيام ، ثم بدأوا شيئا فشيئا يبتنون لأنفسهم بيوتا مثل بيوت فلاحى مصر .

وليس هناك عقد يربط أفراد قبيلة ما بشيخها ، ويعود هذا الشيخ فى معظم الأحيان الى اصل ضارب فى القدم ، يسر الناس أن يعرفوه ، ومع ذلك فعليه لى يصبح على رأس قبيلته ، أن يستخدم الاتماع والمهارة والمرونة ، وباختصار كل الكياسة المفترضة فى حاكم ماهر ، اذ أن عليه فى الوقت نفسه أن يعتقد السلم أو أن يشن الحرب ، وأن يقضى فى كل مايمكن أن يكون نافعا للقبيلة .

وما أن يعقد سلام مع قبيلة أو ما أن يتم تعامل معها حتى يخلع على شيخها جبة وشال . وعادة تقديم الهدايا أمر مستقر ، حتى أنه لا يتيقن أن الاتفاق قد تم بدون ذلك .

ويتفاوض شيوخ العرب فى كرامة أو مع استخدام العنف ككل المخاطلين . ان مايسمونه اكل العيش والملح مع الحلفاء الجدد ، ذلك الأمر الذى يحظى بالاحترام فيما يقال ، ليس سوى فعل شائع أملهته العادة ، فلقد برهن عربان صفتى النيل أنهم لا يحترمون العهدود ، فهم ينتهكون المواثيق التى وضعوها ذات حين ، حين أملى عليهم ذلك ضعفهم أو مصلحتهم .

وعندما يذهب العربان للقاء شخصية يحترمونها ، فانهم يتركون خيولهم على بعد مائة خطوة ، ثم يتقدمون اليه سائرين على أقدامهم .

ولا يعرف العربان قوانين أخرى غير قانون القصاص ، وحيث لا يوجد قانون رادع ، ولا قضاة يستطيعون تنفيذه فسوف يبقى القتل بلا عقاب

ما لم يات الاغتتيال ، ليقابل هذا الضرب من ضروب استخدام القوة ، وعندئذ فان ما ننظر اليه نحن على اعتباره جريمة او جينا ، يفدو انتقاما مشروعا يتابعه اهل القتل من جيل لجيل .

وتغذى الاغتيالات نوازع الحرب من قبيلة لأخرى ، او بين القبائل والقرى ، ويقال عندئذ ان بين هؤلاء دما . وفى بعض الأحيان يضطر الناس ان يدفعوا ثمنا لاعادة شراء الدم واحلال السلام « الدية » ، وان كان ينظر الى ذلك باعتباره عارا ، وعندئذ يصبح على الضعيف المتخاذل ان يدفع جزية مضاعفة للأقوى . . أما القرى التى ترفض ان تدفع فتتعرض للسلب والنهب ثلاث مرات ، ويصيب مثل هذا السلب القرى بالفرع ، وينظر الفلاحون الى العربان كما ينظرون الى وباء مخيف . سألت مرة احد مشايخ قرية ما : هل حل الطاعون بقريتك هذا العام ؟ فأجاب ، نعم مرتين ، فلقد حل الطاعون والعربان .

والغرام بالمولود الذكر أمر ذو مذاق طيب ومرغوب عند العرب ، كما هى الحال عند كل أمم الشرق .

ويؤدى العربان الصلاة خمس مرات فى اليوم ، ويتناولون الطعام قبل صلاة الظهر وقبل الصلاة الأخيرة « العشاء » عند انتهاء الغسق ، ويكفى طعام اثنين من سكان القرى لاطعام عشرة من العربان ، فهؤلاء يأكلون القليل من الخبز ، ويستخدمون لطحن الحقيق طاحونة ذات ذراع مزودة بشقين صغيرين من الحجارة « رعى » ويأكلون كذلك البلح، ويشربون القليل من الماء ، ويفضلون لبن النوق ، وينامون حوالى ست ساعات فى اليوم . وقلما يأكل العربان اللحم ، ولا يعرف هؤلاء وجبات البذخ: فخروف محمر يقدم بأكمله بعد قطع رأسه ، هو الوجبة الفاخرة لديهم، وهذه ، لا يقدمونها الا ترحيبا بزائر كبير أو شيخ عربى .

ولا يبالى العرب بقياس الوقت الا لمعرفة اوقات الصلاة . ويقدرّون الوقت بقياس طول ظلهم ، ويقيسون هذه الظلال بقدميهم عاريتين، ويضعونها واحدة أمام الأخرى بالتبادل ، ويرون — كتعايدة عامة — ان الظل يتحدد صيفا عندما يبلغ طول الظل قدما واحدة والشمس عمودية . ويتحدد نفس الوقت شتاء عندما يبلغ طول الظل تسعة اقدام . أما الفترة

الفاصلة بين منتصف النهار وغروب الشمس « العصر » فيتفق جلولها
سيفا عند بلوغ طول الظل سبعة أقدام .

ويعتقد العربان بسبب جهلهم وسذاجتهم بأن علاج الحمى وعلاج بقية
الأمراض ، يتم بأن يوضع تحت رأس المريض ورقة تحتوى على بعض
كلمات سحرية ودينية كتبها أحد الدراويش . وهنا ينال المريض وهو
شديد الثقة فى هذه النذكرة « الطبية » ، وأكثر من ذلك فى
قدرة العناية الالهية .

ويجد النسوة العربيات عند نهاية فترة الحمل ، عند بنات جنسهن ،
العون والمساعدة فى عملية الرضاعة ، ويؤكد البعض أن الفتيات أو
النسوة الأرامل اللانى يصبحن حاملات يقتلن على يد أهلهن ، هذا ان لم
يقتلن أنفسهن بأنفسهن .

ويخشى العربان كثيرا وبائى الجدرى والطاعون . ويسارع
الأشخاص الذين لم يصابوا مطلقا بهذين المرضين الى الابتعاد عن أولئك
الذين يصابون بأى منهما . ويترك الجدرى ندوبا **كبيرة** ، وبرغم كل
أفكارهم الدينية المسبقة ، يقوم العربان باحراق جثث الذين ماتوا بالطاعون ،
ويولون ذلك الأمر عناية شديدة .

ويقدر عمر الأطفال بالنسبة الى أحداث أو فترات معينة ، وهكذا
فإن مواليد هذا العام ستقدر أعمارهم بالنسبة الى دخول الفرنسيين
الى مصر . ولدى العربان نوع من التقويم يغطى حوالى ستة أعوام .
وليس ثمة سجلات عامة ، لذلك يكتب تاريخ مولد الطفل على قطعة بالية
من الورق ، أو على صفحة من القرآن (الكريم) كما يكتب تاريخ ميلاد
الأطفال فى القرى على أبواب المنازل أو جدرانها .

ويؤدى بهم نقص الأدوات الطبية الى ممارسات شاذة لعلاج
جروح الأسلحة النارية ، يهدفون من ورائها الى الاستعاضة عن آلات
الجراحة ، لاجراج المقتوفات النارية التى لم تصل لأبعد من اللحم أملا فى
الشفاء ، وهذه الممارسة هى مطابقة شق أحدث فى الجزء الخلفى لضفدعة
بشق الجرح وربط الاثنين برباط محكم ، ويزعم العربان أن الحركة المرتعشة
التي تحدثها الضفدعة وهى تموت كفيلة بجذب المقتوف الى الخارج .

وينظف العربان الجرح بالزيت أو الزبد ، ويكونه بالجنزار ، حتى يبرئوه إن يلتئم قبل الأوان ، ولنفس الغرض ، ولكي يساعدوا المصاب على التحمل الجليل ، يضعون في الجرح زلطة صغيرة ، وهو امر يماثل الكي الذي نستخدمه لهذا الغرض في أوربا .

ويصحب العربان معهم أينما ذهبوا ، الجزء الأكبر من ثروتهم ومئونتهم ، ويحتفظون في مخيمات اقامتهم بالقش المهروس « التبن » والحبوب ، وذلك في تجويفات كبيرة محفورة في الأرض . وتحدد مجاورة الآبار العذبة وبعض قطع الأرض ذات الانتاج الضعيف ، أو البحيرات الملحة التي يقدم استغلالها بعض النفع — يحدد كل هذا اختيار مكان مخيماتهم ، وبالإضافة الى ذلك فللعربان على مبعدة أربعة أو خمسة فراسخ من مشارف الأرض المزروعة ، مخازن مسورة بسور عال ، وإلى الأبعد من ذلك ، في الصحراء ، توجد مستودعات في الرمال توضع عليها علامات لا يعرفها الا أصحابها .

ولكى يحتوى الجوابى من سلب وانتهاب القبائل الرحل لهم ، فأنهم مضطرون لاستضافة هؤلاء في مخيماتهم ولتقديم الشعيير لجمالهم ، ولا يعرف العربان الرحل « البدو » أى نوع من القوانين ، وقد كانوا على الدوام في عداوة مع الحكومة الأخيرة التي كانت قد توصلت ، ورغم ذلك و . . بعض الظروف ، الى تضيق الخناق عليهم لمنعهم من دخول مصر .

ومنذ بضعة أشهر أخذت فتيت الهنادى (٢٧) ينشذن لنا :

ماش الشعب الذى طرد مراد من القاهرة .

ماش الشعب الذى أتاح لنا أن نرى القرى .

عاش الشعب الذى جعلنا نأكل الفطير (٢٨) .

(٣٧) شيخ القبيلة الرئيسية من قبائل الهنادى ، هو موسى أبوعلی، ولهذه القبائل من ٣٠٠ الى ٤٠٠ حصان . ويرتفع الرقم الى ٩٠٠ — ١٠٠٠ اذا ما أضفنا ما تمتلكه القبائل الصديقة والمخالفة معها من خيول ، ولعل الهنادى هم أقدم القبائل الليبية التي يتعرف عليها المرء في مصر .

(٣٨) نوع من الفطائر المورقة والتي غمست أوراقها في السمن ، ويأكلها الناس مغموسة في عسل النحل ، وكثيرا ما تؤكل مغموسة بالعسل الأسود .

ولكنهم منذ تمكنا بفعل إجراءات عنيفة أن نقمع سلبهم وانتهاهم ، قد كفوا عن الترحيب بنا . وينبغي للمرء أن يحترس من العربان بالقدر الذى يحتمى به من اللصوص والسفاحين . وهم لا يوحون بأية رهبة كفرقة مسلحة مادام هناك من يقاومهم أو يزحف عليهم ، وفضلا عن ذلك فلقد توغلنا « نحن الفرنسيين » فى الصحراء التى كانوا يظنون أنفسهم فى منعة فى جوفها ، ولم تعد هذه الرمال القاحلة بغريبة علينا .

والعربان مسلحون بحراب (٣٩) يستخدمونها بمهارة ، ويتذفونها وهم ممتطون خيولهم لكنهم يجحفون بخيولهم الطيبة وذلك بإيقاظها بجبهة على قدميها الخلفيتين ، وهى تجرى بأقصى سرعتها وان كانوا فى نفس الوقت يبذلون قصارهم للعناية بها الى حد لم نسمع به من قبل . ولا يغير العربان مطلقا وهم على هيئة صفوف لكنهم يغيرون متفرقين ، وهم يطلقون صيحات عالية تختلط بسباب بذىء ، وطريقتهم فى الحرب هى الطريقة التى تتبعها الفرق الخفيفة .

والخيول العربية شديدة السرعة . ويطلق الفرسان لها العنان دون أن يتركوا السرج الذى يمسكون بها بيدهم اليسرى ، وهم يحملون على عدوهم ، فإذا قتلوه سلبوه ، وفى بعض الأحيان يحزون رأسه ويحملونها على طرف حرابهم دليلا على النصر ، وعندما لا يحزون النصر يعودون ليحملوا على عدوهم عن ميمنة أو عن ميسرة أو يسعون لتحسين وضعهم بارتقاء الأماكن العالية .

لكن العرب فى العادة مسلحون على نحو غير جيد ، وبارودهم واسلحتهم النارية بالغة الرداءة ، والبارود مغلف بطريقة شسائية . وكمية الفحم به أكثر مما يلزم ، وهم يحملونه فى علب مصنوعة من الخشب ،

(٣٩) الحربة ، قطعة حديد مربعة الشكل ، تنتهى بسن مشحودة ، وتثبت فى عصا يبلغ طولها من أربعة الى خمسة أمتار ودرجة اختراق الحربة أقل من درجة اختراق الرمح ، الذى تكون حديدته مسطحة ، لكن الجروح التى تحدثها الحربة ، بقوا ليها ، تكون أقسى وأخطر من جرح الرمح ، اذ تسبب الإصابة بالتيتانوس ، ويحمل العرب الذين يقطنون حول النيل الحراب والرمح ، فى حين يحمل عربان ليبيا الأسلحة النارية .

كما يحملون الطلقات بشكل منفصل فى حقيبة من الجلد ، ومن النادر أن يعقبوا بنادقهم بالخرابيش .

وكان من عادة العرب المتأخمين لمصر أن يرسلوا الى بولاق جواسيس يتخفون فى هيئة فلاحين ، وكان هؤلاء يتعرفون على نوع وحجم الفرق التى كانت تخرج من القاهرة للزحف عليهم ، ويذهبون لتقديم تقرير عن ذلك ، وعلى الفور كانت القبيلة ترفع خيامها وترسل الى اعماق الصحراء بالنساء والأطفال وكل ثمين لديهم ، ويمشى العرب لعدة أيام حتى ينهكوا خصمهم ، وفى هذه الأثناء تتجمع القبائل المتحالفة ليقرروا ان كانوا سيهجمون ومتى ، أم ان عليهم أن يكتفوا بصد هجوم العدو .

وتقيم المخيمات نقاط استطلاع فوق المرتفعات ، ويضع أفراد هذه النقاط عمائمهم فوق رماحهم ، فان راوا أن من الأفضل أن تقوم مخيمانهم بالهجوم يتجه هؤلاء ناحية العدو أو الضحية التى قرروا الاغارة عليها ، أما فى الحالة المضادة فيعودون الى جهة المخيم .

وعندما يخشى العرب من هجوم العدو عليهم ، يتفرقون فى مخيمات كثيرة العدد ، ويستكشفون العدو عن بعد كبير ، ويحتفظون بالجمال، مقيدة بالقرب من الخيام ليكونوا مستعدين للفرار فى أقرب وقت .

وعندما يشتبك المخيم مع قبائل أخرى ، تظهر الفتيات على مرأى من المتصارعين ، ويضربن على الحفوف ، وترن فى الهواء أغانيهن لنهب الحماسة ، ويستقبل الجرحى بعناية كبيرة من زوجاتهم وحبيباتهم . . . ويقدّر هؤلاء النسوة الشرف حق قدره ، ويزيد تقدير القبيلة لشيخها كلما زادت الذنوب فى وجهه « دليلا على ماتلقى من جروح دفاعا عن الشرف » فهذا الشرف ، الذى هو دعاية الإمبراطوريات ، يقوم بالدور نفسه عند هذه العصب البائسة من اللصوص .

وينظر الى معركة يهلك فيها عشرون أو خمسة وعشرون رجلا على انها معركة دامية ، وتظل ذكراها محفوظة فى تاريخهم .

وعلى الجيش الذى يزحف فى الليل سعيا وراء العربان أن يحذر من خطأ يجعله يتوهم ان ثمة مخيمات حيث لا وجود لأثر لها ، وينتج هذا

الخطأ — وهو يحدث كذلك فى حروب البحار — حين تظن اشعة النجوم
عن بعد على انها نيران العربان .

ولقد اوجبت الطبيعة على الانسان حين وهبته غريزة الشكاثر ، أن
يسمى لبقاء نوعه . ويعيش فى تخوم مصر أربعون ألف عربى لا يجدون
فى رمالهم القاحلة أى مصدر لحياتهم ، وهم ينظرون الى أرض مصر
باعتبارها عقارا لهم . وتحت هذا الادعاء ، يأتون اليها ليمارسوا آلاف
الانتهاكات والسرقات ، ولقد سمعت كل حكومات مصر الى ردعهم ، لكنها
لم تنجح فى ذلك كل النجاح .

وفى خضم هذا الصراع ، وجد الفلاح المسكين نفسه برتعد فرقا من
همال « موظفى » الحكومة ، الذين يعتصرونه وينقلون كاهله ، ومن
العربان الذين ينتهبونه ويسفحون دمه .

لقد كان هذا على الدوام قدر شعب مصر ، وكل ما نأمل فيه أن
يتحسن مثل هذا القدر .

خط سير دائرية الاستطلاع التي مرت ببجيرات النطرون
والنهر الفارغ

المسافة المقطوعة مبيّنة بالأمطار أو مقدرة بالساعات	عدد الأمطار	عدد الساعات	ملاحظات
من الطرانة إلى القصر	—	١٢	بالنسبة للقوافل
من القصر إلى البحيرة رقم ٣	٦٢٨	—	
من القصر إلى الطرف الجنوبي للبحيرات	—	١٣	
من القصر إلى الطرف الشمالي	—	٤	
من القصر إلى دير براموس	٧٢٣١	—	
من القصر إلى دير السريان	٧٤٣٠	—	
من دير براموس إلى دير السريان	٩٢٥٨	—	
المسافة بين دير السريان ودير الأنبا يشوى	٤٤٤	—	
من دير السريان إلى دير الأنبا مقار	—	٣	حسب الاستدلال
من دير براموس إلى النهر بلا ماء	—	١٣	حسب الاستدلال
من دير السريان إلى النهر بلا ماء	—	١٣	مع الاتجاه شمالاً وجنوباً
من دير الأنبا مقار إلى النهر بلا ماء	—	١	حسب الاستدلال
من دير الأنبا مقار إلى وردان عن طريق ميت سلامة	—	١١	

وصلنا في الخامس من بليفوز (٢٥ يناير) إلى الطرف الشمالي
للبحيرات ، ووصلنا في السادس منه إلى دير براموس ، وفي السابع
منه عبرنا النهر بلا ماء .

الزوايا التي سارت عليها بعض اتجاهاتها
بالنسبة لخط الزوال المغناطيسي

الاتجاه من القصر الى دير براموس ١٦٢

الاتجاه من القصر الى دير السريان ١٨٠

الاتجاه العام للبحيرات ٤٤

الجانب الشرقى لوادى السريان ٧

واجهة الدخول الى دير الأنبا مقار شمالا وجنوباً ١٠

اما مداخل الأديرة الثلاثة فتطل جهة الشمال .

الدراسة الثالثة

دراسة موجزة عن عيون موسى
ج. م. م. م.

على الشاطئ الغربى لخليج السويس ، وعلى بعد أربعة فراسخ الى الجنوب من المدينة ، ويكاد يكون فى مواجهة وادى النيه ، توجد منابع مياه رسمتها كل الخرائط ، تعرف باسم عيون موسى ، ولسوف نقع فى خطأ بين اذا ماظننا ان اسم هذه الينابيع يستمد أصوله من العصور المصرية الضاربة فى القدم ، وأنه تد ظل يستخدم بلا انقطاع حتى اليوم ، ذلك ان اسم هذه الينابيع شأنها فى ذلك شأن عين العذراء فى المطرية « هليوبوليس القديمة » ، وشأن عيون غيرها كثيرات ، لا يعود الى ما قبل وقت استقرار المسيحية بمصر ، حيث تحورت أسماء قديمة ، تتصل بديانة تزعزت مكانتها ، الى أسماء أخرى مشابهة ، فى المعتقدات الجديدة .

وعلى الرغم من أن عيون موسى أقل ملوحة من مياه آبار كثيرة حفرت فى مناطق أخرى من الصحراء ، فانها مع ذلك مائلة الى الملوحة ، ونتيجة لهذا الأمر ، فليس من خاصيتها أن تروى من الظم بقدر ماتروى المياه العذبة ، وان كانت تكفى للبقاء على حياة النباتات والحيوانات ، وقد روينا منها لمدة أربع وعشرين ساعة أثناء زحف شاق ، لكننا لم نسغ طعمها . ومن جهة أخرى فحيث أن هذه المياه تجرى وتتجدد بصفة مستمرة ، فانها رائقة على الدوام ، وليست لها لا رائحة ولا مذاق غير مناسبين ، فى الوقت الذى تتعكر فيه مياه غالبية الآبار عادة ، بفعل الاهتزاز الذى تحدثه حركة الاغتراف منها ، والتى لها على الدوام رائحة كريهة مقززة ، وعلى سبيل المثال فان بئر العجود الواقعة على بعد أربعة فراسخ الى شمال السويس ، والمخصصة لسقاية محل مكة — بعد مسيرة ثلاثة أيام من القاهرة ، وهى محفورة على عمق مائتى قدم — تتحلل وتتفنن فيها المواد الحيوانية والنباتية ، التى لا يستطيع أحد ان يتفادى سقوطها فيها ، ولذلك فان لمياهها — بخلاف قدراتها الطبيعية — رائحة كريهة يتحملها المرء بصعوبة .

ولابد أن عيون موسى كانت على الدوام بذات نفع كبير لعرب الطور ، الذين يسكنون ضواحي جبل سيناء . فالعرب مضطرون على الدوام ان يجلبوا من مصر بعضا مما يحتاجونه من مواد تمويئية ومصنوعات أجنبية ،

(م ٦ — وصف مصر)

وعليهم فى مقابل ذلك ان يحملوا اليها منتجات الغابات الصغيرة التى تغطى جبالهم ، ولم يكن هذا التبادل ليتم الا عن طريق قوافل كان عليها على الدوام ان تتخذ من عيون موسى واحدة من محطاتها . وفضلا عن ذلك . فما ان كانت تتم منشآت بحرية فى أعماق الخليج ، وليكن فى السويس ذاتها ، أو فى وادى التيه ، أو على الطريق من البحر الأحمر حتى ميفيس . . حتى يكون من الضروري ان يتردد الناس على هذه العيون ، لانهما مصدر لاغنى عنه ، بعد ان تنضب مياه الخزانات التى تكونها مياه الأمطار اذا ما مرت فترة من جفاف طويل .

لكن الوقت الذى كانت فيه عيون موسى — فيها يبدو لنا — تجذب اكبر قدر من الاهتمام ، هى تلك الفترة التى دارت فيها الحرب ، التى تحالف خلالها البنادقة والمصريون ضد البرتغاليين ، بعد اكتشاف طريق الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح . فمن المعروف أن هؤلاء الجمهوريين ، كى يدافعوا عن صولجان التجارة الذى احتفظوا به حتى ذلك الوقت ، والذى بدا أنهم سيفقدونه ، قد أنشأوا وسلحوا أساطيل لهم فى السويس ، ولكن ليس من المحتمل على الإطلاق ان يكونوا قد قاموا بترسانات لبناء السفن عند عيون موسى ، اذا لا يقدم موقعها أية ميزة فى هذا الخصوص ، ومع ذلك فيبدو أنهم قد أنشأوا هناك موردا تتزود منه السفن بحاجتها من المياه ، لكن لم يبق شيء من آثار هذا المورد على الإطلاق ، لقد تبدد كل شيء أو قل لقد استهلكه العربان ، ولا يجد المرء هناك أية آثار أخرى الا أساسات ، جزء كبير منها تحتى ، وهذه الآثار التى لاتزال هائلة والتى لم نكتشف الا جزءا منها فى ذلك الوقت القصير الذى امكنا ان نخصصه لها ، هى بالدرجة الأولى انقراض خزانات كبيرة شيدت بعناية . وكانت تجلب اليها مياه العيون عن طريق ترعة مغطاة وكانت المياه تنتقل منها بواسطة قناة حتى شاطئ البحر . وقد اكتشف الجنرال بونايرت هذه التربة المغطاة بكل طولها الذى يبلغ من ٧٠٠ — ٨٠٠ قامة* ، وقد بنيت من مواد بنائية جيدة ، وكانت مغطاة فى كل طولها ، وليس لها من انحناء الا عند البلاج الذى تسير تحته ، وبعد توقف استعمال

هذه التربة ، أدت الرمال التي جلبتها المياه الى طمسها فى الخمسين
ثامنة الأولى منها . أما الجزء الباقي ففى حالة جيدة ، بحيث يمكن اعادتها
الى العمل بأقل المصاريف الممكنة . وعلى الشاطئ تنتهى التربة بأكمتين
كونتهما الانقراض ، ولعلهما من آثار المورد الذى تحدثنا عنه ، ويتضح
ذلك من الاسم الذى يطلق عليهما . ولابد أن يكون هذا المورد قد بنى
بطريقة مناسبة ، من ناحية الشكل وطبيعة الأوانى التي كان من المعتاد
استخدامها لنقل المياه أثناء الرحلات البحرية .

وعلى بعد حوالى مائتى ثمانية ، الى الشمال من العين الأخيرة ، يوجد
جبل هائل لحد ما ، وهو يتكون شأنه شأن جبل تستاتشيو Testaccio
فى روما ، من انقاض الجرار وأتية أخرى مصنوعة من فخار سيئ النضج .

وقد اكتشفنا هناك بقايا هى بلا جدال انقاض لأمران قديمة ، اذن
فقد كان هناك فى هذه المنطقة منشأة هائلة لصناعة الفخار ، ولا يمكن أن
يكون غرض هذه المنشأة الا صناعة الانية الفخارية ، التى تكون السواقي ،
التي بواسطتها تنزح مياه الابار لرى الأراضى التى لا يفرقها الفيضان فى
كل أنحاء مصر ، وفى الحقيقة فعندما أصبحت عيون موسى أهلة بالسكان ،
كان كل البلاج الممتد من العيون حتى الشط مزروعا ، وما زلنا نرى فيها
حتى اليوم عددا لا بأس به من النخيل الصغير ، الموزع بنظام لا يمكن أن
يكون قد تم صدفة . وتلك النخلات الصغيرة ، وهى فيما يبدو ليست
سوى سلالات من اشجار قديمة بليت ، إنما هى على الأقل أدلة على
وجود زراعة قديمة فى هذه المنطقة ، ولم تكن هذه الزراعة تتطلب أى
نزع للمياه من أجل الرى ، حيث كان فى مقدور مياه العيون بسهولة أن
تصل ، عن طريق قنوات غير مغطاة الى كل الأجزاء المنزرعة ، لذا لم تكن
السواقي ضرورية . ولذلك فأننا لم نجد بين هذه الأكاداس الهائلة من
الفتات والحصى التى تكون المرتفع ، الا ما يمكن أن يعود الى سواقي لم
يتغير شكلها منذ أزمنة ضاربة فى القدم .

وكل هذه السواقي التى رأيناها كانت مصنوعة من فخار ذى كفاءة
عالية لحد كبير ، ونحن نعتقد أن الغرض من هذه المنشأة الكبرى للفخار ،
هو صناعة الجرار الكبيرة المخصصة لنقل المياه بحرا ، فى بلد أدت
درة الخشب فيه ، بل وربما غيبة الصناعة ، الى جعل صناعة البراميل

أمرا غير عملى . لذلك فقد كان أولئك الذين يقدون لجلب المياه من عيون موسى على تقه بأنهم سيجدون الجرار الى سنسنعوبها . وأنهم سيجدون بنفس الطريقة الآنية الفخارية الأخرى اللازمة لاستعمالهم الشخصى .

وبشكل عيون موسى ظاهره هامة فى الهيدروسنايكا (**) فالينابيع المختلفة التى تكونها ، والتى يبلغ عددها ثمانية ، يوجد كلها على قمم عدد مماثل من مرتفعات مخروطية صغيرة ، ننهى كل منها فى جزئها العلوى بفوهة نستخدم كحوض للعين ، ومنه نسيل المياه على السطح المخروطى بواسطة قنوات طبيعية ، وعلو هذه المرتفعات يختلف فيما بينها ، وأكثر هذه المرتفعات علوا يبلغ ارتفاعه . ٤ قدما من مستوى الأرض المجاورة ، وقد نضبت عين المرفع الآخر منذ وقت طويل ، وفوهتها مليئة بالرمال التى كدستها فيها الرياح ، ولا يزال يرى هناك حتى اليوم، جذع نخلة قطعها العريان بعد أن كانت قد نمت نمو كبيرا .

ولقد كان من السهل أن نتفهم الطريقة التى تكونت بها المرتفعات التى توجد على قممها العيون . فقد أدت الرطوبة التى نشرتها مياه إحدى العيون فى أرض مجاورة ، الى نمو خضرة دائمة حول حوضها ، وأدت أعشاب هذه النباتات الى تقليل سرعة الرياح التى تصطدم بها ، مما جعلها تتخلص من كل حبوب الرمل الكبيرة التى كانت تحملها ، وحيث أن سيقان هذه الأعشاب كانت تحمل تلك الرمال التى تحجزها ، والتى تترسب أسفلها ، فقد بدأت هذه الرمال تتماسك بفعل الرطوبة ، حتى تلتحم ببعضها البعض ، مما جعلها تصمد لهبات الرياح بالغة القوة . وقد أخذت كربونات أو سلفات الجير التى تحتويها مياه النبع متحللة ، والتى كانت تتعرض للهواء بفعل البحر ، أخذت تشكل بللورات بين حبوب الرمل وتشكل جلوتينا تكمل هذا الالتحام . ومن هنا فإن حواف الحوض توجد عالية بعض الشيء . وكان على المياه أن ترفع من منسوبها مع كل ارتفاع للحوض لكى تخرج منه وتسيل الى خارجه ، وحيث أن الظروف التى تؤدى لحدوث ذلك هى من طبيعة يمكن أن تتكرر معها على الدوام، فإنه يمكن القول بأن عملية الارتفاع مستمرة برغم بطئها ، وبعد وقت طويل يصبح النبع الذى يرتفع منسوبه على الدوام ، فى قمة مرتفع

(*) علم دراسة توازن المواضع وضغوطها . (المترجم)

مخروطى ، يتكون من مادة رملية وطباشيرية مالحة كميّاه النبع نفسه ،
تخرج منها شرارات تحت ضربات المعاول .

وحيث أن النبع الذى يعد حوضه أعلى الأحواض ارتفاعاً قد
نضب ، فإن من الطبيعى أن نرى أن ارتفاعاً يبلغ . ٤ قدماً وهو الارتفاع
الذى وصل الحوض اليه — هو أقصى حد ، ويعود هذا الى درجة المقاومة
التي تقدر عليها الجدران الداخلية للقنوات النحتية التي تجلب الماء الى
الحوض ، أكثر مما يعود الى ضخامة قوة الضغط الذى يحدث على قاعدة
المرتفع ، وبمجرد أن تتمكن المياه — وهى تحاول صعود هذا الارتفاع —
أن تحطم جدران قنواتها ، وأن تتخذ لنفسها مخرج جديدة ، فإن عيوننا
جديدة تكون قد تكونت ، وتصبح هى السبب فى نضوب الأولى ، لتكون
بنفس الطريقة ، المرتفعات التي توجد على قممها اليوم هذه العيون .

ومهما يكن الأمر ، فإنه من المحتمل لحد كبير أن عيون موسى لم يكن لها
— فى هذه الفترة البالغة البعد — من نبع الا ذلك النبع الذى نضب منذ
زمان طويل ، وأن الينابيع الثمانية التي تعطى مياهها اليوم ، والتي لها
أحواض أقل ارتفاعاً من حوض ذلك النبع الذى جف ، قد تكونت فى زمن
لاحق ، أو بفعل تحطم القنوات التي كانت تحمل المياه لشدة ضعف
جدرانها ، أو بسبب تنقيبات تمت بقصد انشاء مبان مختلفة ، وقت أن
كان الناس يترددون على النبع ، وحين كانت المناطق المحيطة بهذا
النبع أهلة .

ولابد أن كان من المفيد أن نتعرف على شكل وطبيعة القنوات
الطبيعية التي كانت تجلب المياه الى ينابيع عيون موسى ، خلال سهل
فسيح من الرمال ، تحملت خلاله ضغطاً قوياً ، قادراً على دفعها كي ترتفع
لأكثر من أربعين قدماً فوق مستوى أرض هذا السهل ، ولابد أن كان من
المفيد كذلك ، أن نحاول التأكد مما أن كانت هذه المياه تأتي من سلسلة
الجبال التي تبدأ من سوريا لتنتهى بجبل سيناء ، والتي تلمحها على بعد
حوالى أربعة فراسخ الى الشرق من العيون : لسنا لم يكن لدينا الوقت
للانشغال بمثل هذه الأبحاث التي لم يكن يرجى منها أى نفع قريب .

الدراسة الرابعة

ثمانية وعشرون يومًا في سيناء بج. سكوتل

العنوان الأصلي للدراسة هو :
ملاحظات حول طبوغرافية شبه جزيرة
سيناء . . التقاليد، العادات ، الصناعة،
التجارة ، الشعب والسكان .

يقتسم الخليج العربى أو البحر الأحمر ، عند خط عرض ٢٨ شمالاً ، الى فرعين ، يتجه أحدهما الى شمال الشمال الغربى ، ويتجه الآخر الى الشمال الشرقى ، ويطلق على الأول اسم بحر القلزم أى بحر العرب أما الآخر فيسمى بحر العقبة أى بحر الشرق .

وتشكل مساحة الأرض الواقعة بين هذين الفرعين ، والتي تبلغ مساحتها ١٦٠٠ فرسخ مربع والتي تسمى شبه جزيرة الطور ، أو سيناء ، امتداداً للجزيرة العربية الصخرية (الصحراوية) ، وتمتد من خط طول ٣٠° ٣٠' الى ٣٢° ٣٠' ومن خط عرض ٢٨° حتى خط عرض ٢٩° ٤٥' شمالاً .

وكل أجزاء هذه المساحة الداخلية تغطيها الجبال ، وهى جبال ثديية من الجرانيت والرخام السماتى فى بعض الأحيان ، أو هى تكوينات حديثة من الجبال الرملية أو الحجر الجيرى والجص (الجبس) فى أحيان أخرى .

وتتنجح الوديان التى تسكنها قبائل عربية عديدة ، بخلاف بعض النباتات الشوكية ، عدداً صغيراً من أشجار (المرنج) وبعض أشجار الأكاسيا (الست المستحية) التى يطلق عليها اسم الأثل ، وإذا ما استثنينا بعض أشجار النخيل والنبق وبعض الحقائق التى تنمو فى سفح جبال حوريب وسيناء وفيما حول الطور ، فإننا لن نجد فى كل شبه الجزيرة أى نوع من الزراعة ولا أية أرض يمكن زراعتها .

كنت قد أبديت الرغبة فى الانضمام الى الرحلة الذهابية الى جبل سيناء التى أخذتها لجنة الفنون على عاتقها ، فلقد كان يهم الحكومة الفرنسية أن نعرف بشكل خاص على القبائل العربية ، التى تدفعها الحاجة وتجارة الفحم ونقل البضائع التى تصل الى السويس عن طريق البحر الأحمر ، للمجئ الى القاهرة مرات عدة كل عام . ونتيجة لذلك فقد أوقف كل شئ من أجل الرحلة ، وكانت قافلة الطور قد وصلت منذ بضعة أيام ، وكانت تتهيأ للعودة الى بلادها ، واقترح على المسيو بليار Belliard قائد القاهرة أن أسافر معها ، فتبطلت ، وشاء المسيو روزير ، خبير المعادن ، أن يقتسم معى مخاطر ومتاعب هذه الرحلة ، وكان القائد العام قد سبق أن تعامل مع أهم شسبوخ البلاد وخلق عليهم الجبة ، كما

وعدهم بمكافآت سخية مقابل وفائهم وخدماتهم ، وطلب اليهم تقديم بعض الرهائن ففعلوا دون مشقة .

اليوم الأول .

خرجنا من القاهرة ، المسيو روزيير وأنا ، فى السابع عشر من برومير من العام الثامن (٩ أكتوبر ١٨٠٠) ، مع شيوخنا الأربعة ، ومترجمين اثنين ، أحدهما مصرى والاخر رومى ، وخادمين مصريين ، بالإضافة الى العربان الذين يقودون جمالنا ، وكنائركب نوعا من الجبال يسمى الهجين .

وعلى الرغم من أن الامور كانت نخب اصطحاب حراس ، فقد كان الامر فى الواقع مستحيلا فى بلاد لاتكاد تنتج شيئا ، فمجرد حمل المياله اللازمة لجموعتنا والتي رومى فى كميتها أن تفى فقط بأبسط الضروريات ، لم يتم بلا صعوبات من نوع ما ، كما أن اصطحاب هؤلاء الحراس كان سيؤدى من جهة أخرى الى تبديد الهدف الذى أخذت على عاتقى أن أحققه ، الا وهو دراسة شعب بالغ الفوجس ، لا يولى نقتة لأحد ، ويظن أن أحدا لا يمكنه زيارة الصحراء الا بقصد التمهيد لغزوهم .

لقد بدت لى الثقة التامة هى الوسيلة الوحيدة للنجاح مع العربان ، لذلك لم أشرط عليهم سوى شرط واحد ، هو أن نظل نرتدى ملابسنا الفرنسية ، ذلك أن ارتداء ملابس لم تكن معتادين عليها سيكون بالنسبة لنا أمرا غير مريح ، كما أن هذا التخفى (بارتداء زى غير زينا) قد يستثير شكوك العرب دون أن يزيد من درجة أمننا نحن .

كانت القافلة المسكونة من بعض أبناء شبه الجزيرة ، والتي كانت قد جلبت الى القاهرة الفحم والبضائع التى أفرغت فى السويس ، قد سبقتنا ، وكانت قد عسكرت ولابد فى الصحراء على بعد حوالى اثنى عشر ميلا ، وقد لحقنا بها عند نهاية اليوم بعد مسيرة استغرقت ست ساعات ، ولم يسمح لنا اتساع المعسكر الا بزيارة جزء منه ، وقد بدت على الجميع دهشة مزوجة بالارتياح والسرور ، وبخاصة على الشبان منهم ، عندما رأونا . توقفنا بين جماعات منهم حيث قدموا لنا القهوة ، ويبدو أنه قد أثار إعجابهم أن يشعر اثنان من الأوروبيين بالأمن بينهم .

اليوم الثاني

فى صبيحة اليوم التالى رحلنا ، كانت كل العيون مركزة علينا ، وبدأ العرب أكثر اندهاشنا عندما راونا نازل من فوق الجبال لنمشى بينهم بلا سلاح (١) .

وعندما كنا نريد أن نقدح بعض الزلطات (للحصول على النار) كانوا يجلبون اليها أكثرها شفافية اذ يظنونها أفضل ما يصلح ليستمعمل كقداحات . واذا ماتفحصنا ملابسهم ، كان شكل قبعاتنا ، وملابسنا الضيقة القصيرة ، والجلد الذى كنا نحبس فيه أقدامنا وسيقاننا .. كان كل ذلك يبدو غير مريح ولا نفع من ورائه . وبينما كنت ألتحقص بنادقهم وخناجرهم سألنى أحدهم أين توجد أسلحتى فأجبته على الفور مشيراً لى أسلحتهم : « هذه هى أسلحتى . البست مسلحاً كى تدافع عنى ؟ » فأجابنى : « أنت فرنسى طيب ، اذهب مع أصدقائك الى الطور ؟ » (٢) .

كانت لذى الرغبة فى أن اعرف عدد الرجال والجمال الذين يكونون تافلتنا ، وكان يستحيل على أن اعرف ذلك عن طريق الشيوخ (٣) ، وبعد محاولات عدة لاحصائهم قدرتهم ثمانمائة شخص ، ويضم هذا العدد أطفالاً كثيرين وبعض النساء ، كما كان هناك ٨٠٠ - ٢٠٠٠ جمل من بينهم ٩٤ جملاً محملاً بالبضائع الى سوريا ، وتسير فى صحبة إحدى قبائل الطور وهى قبيلة لم يسبق لنا التعامل معها . ويقود الرجل الواحد ثلاثة جمال . ولكى يمر خمسمائة جمل فإن الأمر يحتاج الى خمس عشرة دقيقة ، وقد انقفت تافلتنا فى ذلك أكثر من ثلاثة أرباع الساعة .

ويحمل كل رجل خنجراً ، لكننى لم احص أكثر من بندقية واحدة لكل ثلاثة رجال .

-
- (١) كنت أحوز سيفاً بالغ الجمال كان لأحد المالك ، وكنت أتركه على الدوام متدلياً من قرونوس برذعة الجمل الذى كنت أركبه حينما كنت أتمشى بينهم .
- (٢) طلب الغرب نفس الشيء من المسيو فولنى Volney أثناء رحلته الى سوريا .
- (٣) لا يعبر أهل الطور عن الكميات الا بكلمات : قليل وكثير ، وهم لا يعدون لا أعمارهم ولا أعمار أولادهم ، وعندما تسألهم عن الأمر يجيبون بأنه شيء لا يحتاجون لمعرفة .

استمر السير طيلة اليوم ، وكان راكبو الجمال منهم يندفعون الى الامام فى بعض الاحيان ، ثم يتوقفون لحظة لتناول القهوة ، ويستحق النظام المنبع فى اقامة المعسكر ، والدقة التى يتم ذلك بها ، وقفة خاصة لتوضيح تفصيله .

يحدد وجود الأعشاب التى تقابلها القوافل فى بعض مناطق الصحراء المنخفضة مكان اقامة المعسكر ، فهذه هى المناطق التى تبقى فيها مياه الأمطار التى تسقط مرة أو مرتين فى العام لوقت أطول مما تبقيها فى مكان آخر مما يجعل البذور تنمو .

ونتوجه القوافل الى هناك لتسريح بعد مسيرة تبلغ ٨-١٠ ساعات . وأول قبيلة تصل الى المكان هى التى تعسكر أولا ثم تتبعها بقية القوافل على التوالى . وينم ذلك دون ارباك أو تخبط . وتشكل القبائل دائرة واسعة ، وتتخذ كل قبيلة مكانها المعتاد فى نفس النقطة من الدائرة ، ثم تنقسم هى بدورها الى زمرات وتتكون كل زمرة من عدة عائلات او من مجموعات تعيش على الشيوخ تتكون كل منها من ستة الى عشرة أشخاص (٤) .

وفى لحظة خاطفة تنزل جمولة الجمال ، وتذهب هذه وحيدة ، أو يقودها طفل ، الى منطقة الكلاً والأعشاب التى تقع فى بعض الاحيان على بعد ميل من مكان المعسكر (٥) وعندئذ يجرى اثنان أو ثلاثة رجال من كل زمرة ليجثوا عن بعض الاعشاب أو النباتات الجافة بينما يتدح واحد ممن بقوا القداحة ويشعل النار ثم يحرك الهواء بذيل رداءه ، وينحنى فى بعض الاحيان ليستقبل الريح بشكل منحرف ويوجه الهواء الى النار ، ويقوم آخر بتحميم البن (٦) ويقوم ثالث بعجن الدقيق وصب الروجا أو الفطير . وهو نوع من الأقراص ، لا خميرة فيه ، يبلغ سمك

(٤) حيث أن القوافل تتكون من نفس القبائل والعائلات فمن المرجح أن يظل نظام المعسكر هو نفسه على الدوام .
(٥) ليس ثمة ما يدل على الطريق ، فأقدام الجمال وأقدام الانسان لا تترك أى أثر فى هذا البحر من الرمال والزلط .
(٦) يحمص البن فى ملعقة حديدية ثم يصحن بعد ذلك بواسطة مصا غليظة فى اناء من الفخار .

الواحدة منها ٥-٧ مم ويتناسب حجمها مع عدد أبناء الزمرة الذين يشاركون فى أكلها . وبعد نحو أقل من ١/٤ الساعة يكون هذا العجين قد نضج بين الرمال الساخنة وقطع الفحم الصغيرة وبعرات الجمال المحترقة والتي تظل فى بعض الأحيان مشتعلة بعد نضوج الفطيرة (٧) .

وسرعان ما تنتهى هذه الأعمال التى تستدعى الابتعاد عن المخيم ، ويجلس الناس من حول النار ، ويتناولون القهوة بينما هم ياكلون الروجا ، ويزيد بعضهم على ذلك بعض الدقيق والأرز المطبوخ مع قليل من الزيت وبعض البصل ، ويضيف آخرون الفول والعدس ، وتنتهى الوجبة على الدوام بتناول القهوة . وتمتد المناقشات فى كثير من الأحيان لساعات طويلة ، فيتحدث الناس عن السفن التى ينتظر قدومها من جدة وينبع ، وعن حمولة الجمال ، وعن المطر الذى طال انتظاره ، وإذا كان ثمة راو للحكايات فأنهم يصغون اليه بانتباه ويضيفون الماء الى ثفل اللبن . ولقد كنت أجلس على مسافة قصيرة من هذه الجماعات متخيلا اننى انصت الى تجمع من أبناء ريفنا .

وعند نهاية النهار تعود الجمال من تلقاء نفسها ، وتسعى نحو المكان الذى أنزلت فيه حمولتها ، فإذا أخطأت الطريق اليه ، فإنها تسرع نحو صوت سيدها ينادىها .

كنت كل ليلة أقوم بجولة فى جزء من المعسكر ، وكانت كل جماعة تدعونى لتناول القهوة وأن استريح على جلد الماعز ، فإذا ما قابلت كانوا يرددون : « طيب فرانسيس ، أنت فى الطور ، سوا سوا » أى : « أنت فرنسى طيب ، قادم الى الطور ، مع أصدقاء لك » .

وفى الغد ، قبل انبلاج النهار ، كان الناس يعملون فى تحميل الجمال ، بينما يضع الآخرون القهوة والروجة ، ويمعد ذلك نرحل ، ويستنتب النظام ، بشكل تلقائى ، وطبيعى .

(٧) اذا كان العدد اكبر مما ينبغى فانهم يصنعون اكثر من فطيرة .

اليوم الثالث

فى هذا اليوم ، عسكرنا فى المعجود ، على بعد حوالى ثمانيسه اميال من السويس حيث وانتنى الفرصة كى اثبين كم سيكون من الطبيعى ، لو اتنا اصطحبنا معنا حراسا ، أن تقل الثقة فينا ، والتي كان من مصلحتنا أن نبثها فى نفوس العرب ، فلقد لحق بنا هناك ضابط مهندس ، لم يستطع الافادة من سفر قافلتنا ليصبحنا الى السويس . وقد أدركنا هناك ، بعد مسيرة يومين ، ومعنا حرسه ، لمح العربان عن بعد فلاحظت على الفور تغيراً فى سحتهم وسرعان ماحدثت السبب . لقد اعتقدوا أنني خدعتهم ، وأن حرسا قد جاء يصحبنا فى جبالهم . وعلى الفور مرت بعدد كبير من خيامهم وأنا أكرر : اننى أثق فى شرف العرب ، ويمكنكم أن تثقوا فى شرف الفرنسيين ، سنذهب وحدنا ، ريثقى وأنا الى جبالكم ، وستصبحونا أنتم الى القاهرة ، فهذا الضابط الفرنسى (الذى ترونه) ذاهب الى السويس . وكرروا بأننا ذاهبون مع أصدقاء . وعسكر الجنود (الضابط وحرسه) بينهم ، وفى اليوم التالى عاودنا السير معها دون قلق أو شكوك .

اليوم الرابع

سرعان ماتركنا القافلة تذهب كى تضرب خيامها فى عيون موسى بعد أن استدارت حول قمة قلزم السويس . كانت الجمال لم تشرب منذ غادرنا القاهرة أى منذ ٧٢ ساعة ، عندما وصلت الى العيون ، وذهبنا مع شيوخنا كى ننام فى السويس .

اليوم الخامس

فى اليوم التالى توجهنا بطريق البحر الى العيون حيث لحقت بنا جمالنا بعد أن دارت حول قمة الخليج ذى المد المنخفض ، كانت قافلتنا قد غادرت العيون فى الصباح ، وتنهياً كل امرىء للعودة الى قبيلته عبر الجبال ، وانزلت حمولة ٩٤ جملا من قافلتنا وهى البضائع الذاهبة الى سوريا ، وظلت البضائع فى حراسة بعض أبناء الطور الذين يتعامل معهم للتجار لنقل البضائع الى هذه البلاد .

بقينا مع شيوخنا الأربعة ومع العربان الذين يثودون جمالنا ، كما قد أصبحنا في شبه جزيرة سيناء ، ولم يعد لدينا مانخشاه من العرب الغرباء الذين قد يكون عليهم دم ينبغي الانتقام له : لكن ماحدث للتجار الذين صاحبونا حتى السويس وذلك المصير المحزن الذى كان من نصيب القائد المساعد « ديلانو » (٨) قد برهن لنا أننا لا ينبغي أن ننسى مخاوفنا في رحلة لم تكن نستطيع أن نعرف موعد نهايتها ، إذ يعتمد ذلك على رجوع القافلة إلى القاهرة وهو الأمر الذى يتبع بدوره الحاجة التى يمكن أن يشعر بها العرب في نقل بضائعهم الى هناك ، والذى يعود كذلك الى استتباب الأمن في الداخل ، ومع ذلك فقد اتبعنا نفس طريقنا في الرحابة والثقة اللتين أظهرناهما عند بداية الرحلة .

وبعد زيارتنا العيون (٩) واصلنا طريقنا ، تاركين البحر الأحمر الى الغرب وكانت تقع الى يميننا الجبال المسماة تيت (أو طيط) التى يسكن في سفحها عربان الطور ، عسكرنا على بعد خمسة أميال من العيون عند خور ضيق يسمى عين ، وهو ثغر ليست به مياه ، ولا تثبت فيه أعشاب ولا أى نوع من الخضرة ، ولم تكن لنستطيع أن نوقد نارا لو أن العربان الذين يعرفون جيدا أحوال المناطق التى سنعسكر فيها لم يعوا أثناء الرحلة أو أثناء الطريق بالحصول على القش اللازم للوقود (١٠) .

اليوم السادس

في اليوم السادس ، وبعد مسيرة ثمانى ساعات رصف ، أحيانا خلال سهل قاحل ، وأحيانا أخرى من خلال كثبان من الرمال والأعشاب الشوكية ، وصلنا الى أبي صويره ، في مكان تغطيه أشجار الأثل والنباتات ، مما ينبئ عن أرض أكثر رطوبة . وفي الواقع فإن المرء يجد هناك عددا

(٨) اختطف العربان القائد المساعد ديلانو ، أثناء ذهابه من الاسكندرية الى القاهرة وقد افقدى الرجل بكيس مليء بالنقود الفضية ، وعندما اختلف العربان على كيفية اقتسام النقود ، وتشاجروا فيما بينهم ، أطلق عليه أحد العربان رصاصة فقتله .

(٩) انظر وصف هذه العيون بقلم المسيو مونج Monge ، الدولة الحديثة ، المجلد ١ ص ٥٥٥ (الدراسة السابقة في هذا الكتاب) .

(١٠) كثيرا ما يتعد العربان أثناء السير ويجرون لمسافة تزيد على الميل كى يلتقطوا بعض الأعشاب اللازمة لسهرة النساء .

كبيراً من الآبار . يبلغ عمق الواحدة منها مترين ونصف المتر تحت سطح الرمال ، وقد تقوض جزء من هذه الآبار ، وعلى الرغم من أن مياه هذه الآبار حبيسة — فيما عدا واحدة منها على الأقل — فإنها أفضل من مياه عيون موسى . ويتردد عرب تراسين على هذا المكان ، وهم يمتلكون المنطقة ابتداء من القاهرة حتى وادى الفرندل على شواطئ البحر الأحمر ، وقد وجدنا كثيرين منهم يرعون هناك ماشيتهم .

اليوم السابع

عند الرحيل من أبى صويرة يقضى المرء عشر ساعات فى سهل شاحل على شاطئ البحر، وبعد ذلك ، وبعد أن يجتاز كثيراً من الشعاب الضيقة، يصل إلى وادى الفرندل . ويمتاز هذا المكان بمياهه المعدنية الحارة التى تسمى حمامات فرعون وتجرى هذه المياه فى سفح جبل يبلغ ارتفاعه ما بين ٢٩٠ — ٣٩٠ متراً (١٥٠ — ٢٠٠ قامة) . وتسيل مياه العين الأولى بعمق يبلغ بوصتين ، وفى هذه المياه يرتفع ترمومتر ريو مور إلى درجة ٥٦ ، وتغطى الأحجار التى تسيل فوقها هذه المياه وكذلك تلك التى تحيط بالترعة بالكبريت المؤكسد . وتجرى مياه عيون كثيرة أخرى خلال الرمال بطول يصل إلى خمسين خطوة .

وعلى ارتفاع أربعة أمتار (حوالى قامتين) فوق مستوى هذه العيون نجد فتحتين : تلك التى تنبع إلى اليمين وتؤدي إلى ما يشبه مغارة يرتفع فيها الترمومتر إلى درجة ٣٤ وسط جو رطب تصحبه رائحة الكبريت القوية : أما الأخرى فتشكل مدخل كهف لا يزيد علوه على نصف المتر (حوالى ١٥ — ١٨ بوصة) ، فوق عرض أكبر من ذلك بقدر طفيف ، ولذلك يضطر المرء كى يبلغ النبع أن يزحف عارباً لمسافة يبلغ طولها ٢٣ — ٢٥ متراً (١٢ — ١٥ قامة) فوق رمل حار ورطب ، وهناك يرتفع الترمومتر إلى درجة ٣٦ . وهذه الحرارة المتزايدة ، بالإضافة إلى هذا الوضع المتعب للجسم والذى يضطر المرء لاتخاذها ، هى السبب فى النصيحة التى تنال للمسافرين هناك والتى مؤداها أن الثور ينطفىء داخل هذه المغارات وأن هناك خشية من أن يختنق المرء هناك فى وقت قصير . لم نبقَ هناك لوقت طويل يكفى للتأكد من صحة هذا الزعم ، لكننى لم أشعر بأن أنفاسى قد ضاقت كما أن رائحة الكبريت فى هذا الجو المشبع بالرطوبة قد بدت لى محتملة .

ويبدو لى أن وادى الغرندل كان فيما مضى مرفأ بالغ الجودة ، إذ سرى فى حمى من رياح الشمال والجنوب لأنه مفتوح الى الغرب ، كما يساعد على الخروج منه رياح الشرق ، وهى التى تسود البحر الأحمر فى معظم الأحيان . وهناك تشكل المياه التى تسقط فوق الجبال مرة أو مرتين فى العام ، أضرارا كبيرة ، إذ تحمل الى الوادى كمية هائلة من الزلط ومن قطع الحجارة . وهذه هى المنطقة التى يزعم كثير من المؤلفين أن موسى قد أتى إليها بعد عبوره البحر الأحمر . وهذا الوادى (الخليج) جاف خال من الماء فى هذه الأيام .

اليوم الثامن

عند الخروج من وادى الغرندل يدخل المرء الى واد ضيق ، أو بالأحرى فى شعب تحيط به جبال عالية شديدة الانحدار ، ويبلغ طوله حوالى أربعة أميال ، وعند طرفه يصل المرء الى ربوة توجد بها بعض اشجار النخيل . وثمة بئر يبلغ عمقها المتر (حوالى ٣ أقدام) توفر كمية ضئيلة من المياه الرديئة وصفها بوكوك Pococke بأن لها مذاق الصلب ، وسرعان ما تنضب مياه هذه البئر ، لكنها تتجدد من جديد فجأة ، ومن هذه المياه يسقى العربان جمالهم . ويطلق على هذا المكان اسم الحوزية وهو يقع على بعد ٢٤ ميلا من أبى صويرة . وعلى الرغم من شدة ارتفاعه فوق سطح البحر ، فهناك سلسلة من الجبال العالية تتحكم فيه وتمتد هذه الجبال باتجاه سوريا . ويمتلك عربان الطور هذه الأراضى .

كان ما يزال علينا أن نمضى اثنتى عشرة ساعة فى الطريق حتى نصل الى مكان المخيم وعلى الرغم من أن هذه المنطقة كانت أفضل مكان قابلناه ، منذ غادرنا القاهرة فأننا لم نبق بها الا لوقت يكفى بالكاد لسقاية جمالنا .

تأدنا واد طويل الى الجنوب ، الى هضبة واسعة تحيط بها جبال تجعلها فى حماية من رياح الشمال . كانت الحرارة هناك ، فى الساعة العاشرة من الصباح ، شديدة الارتفاع ومع ذلك فقد كان الترمومتر لا يتجاوز درجة ٢٥ . وبعد أن عبرنا سلسلة الجبال الى الجنوب الشرقى دخلنا الى وادى اتل ثم فى شعب ضيق دفن به شيخ يسمى ريس الشمالية (م ٧ - وصف مصر)

ويحمل اسمه احد جانبي الوادى ، وهو المكان الذى نوجد به مقبرته . ويودع العربان هناك عند مرورهم من هذا المكان بعض الأغصان أو بعض قطع من القماش ، أما الجانب الآخر للوادی فيجمل اسم شبقية . وبعد ذلك ، وبعد أن نجاوز واديا مزروعا بأشجار الأثل (المن) نلاقى البحر من جديد الى الجنوب الغربى ، وقد توقفنا هناك كي نذهب ، على بعد خمسمائة قامة الى الشمال ، لزيارة جزء من الجبل الذى يستخرج العربان منه الكبريت . وفى واقع الأمر ، فقد وجدنا هناك بعض عينات من الكبريت شديدة الفلكس .

وبمغادرة طريقنا نحو الجنوب دخلنا فى واد بالغ الاتساع ، تحيط به جبال عالية مما يجعله فى حوى من رياح الشمال ، والشمال الشرقى ، والجنوب ، لكنه ، كما هو الحال فى وادى الغرندل ، يكاد يكون مردوما عن آخره . وبعد الالتفاف من حوله خوضا فى المياه لمسافة تبلغ حوالى الميل ، عسكرنا فى سهل المجرى . (أو المجره) وسط الكثبان التى كونتها غابات الأثل أو الطرغاء التى تصد الرمال التى تحملها رياح الشمال . وهناك توجد مياه غير طيبة . كانت مؤنتنا من مياه النيل قد نفدت عند السويس وجعلنا تلك معدتنا نشعر بالفرق بين هذه المياه وبين تلك .

اليوم التاسع

بعد مسيرة ساعة فى هذا الوادى المليء بالشجيرات ، دخلنا فى واد تغطيه كتل من الجرانيت والسماق (الرخام) والزلطات المستديرة التى انصلت عن السلسلة التى تطل على الجبال الجيرية التى اتبعنا اتجاهها ، والتى اجتزناها بعد ذلك لكى نصل الى واد يسمى فيران ، حيث تمنا دون أن نعثر على ماء .

اليوم العاشر

فى اليوم العاشر ، قضينا ثلاث عشرة ساعة فى صحراء جرداء ، وفى وديان نلتى فيها بالكاد بعض الأعشاب الشوكية : هناك ترى الى الغرب سلسلة جبال سيناء . وتوجد الى الشرق جبال من الحجر الجيرى . دخلنا وادى المضارة حيث اكتشفنا وسط أشجار النخيل شجرة دوم ، وهناك حوض مبنى يبلغ عمقه ستة اقدام يوفر كمية من المياه

الجيدة ، وبعد أن عبرنا سهلا فاحلا ، رطبنا مليئا بالمح ، وصلنا بعد مسيرة ساعة الى الطور .

بندر طور أو ميناء الطور

يشكل ميناء الطور خليجا يبلغ اتساعه حوالى الميل ، ويكاد يكون ذا عمق متساوى السطح ، ويقع الخليج تحت خط عرض ٢٨°١٢' وعند خط طول ٣١°٢٠' الشمالى من خط زوال باريس . وقاع هذا الميناء ليس طيبا على الدوام ، فهو يتكون من كتل من المرجان وكتل من الأحجار يغطيها المرجان والقواقع على عمق متر أو مترين (٣-٦ أقدام) بل ان بعض شعاب المرجان هذه تصل لمستوى سطح الماء لتجعل من الجزء الشمالى الغربى نوعا من روضة تنتشر فوق سطحها المغطى الورود . وفى حين يرتفع مد البحر فى السويس من ١ إلى مترين (٤ - ٦ أقدام) فإنه لا يبلغ هنا أكثر من ثلاثة أرباع المتر فى أكثر حركاته قوة . أما فى النوبات العادية ، فإنه لا يتجاوز ثلث المتر (١٠-١٢ بوصة) .

وتقوم سلسلة جبال سانت كاترين وسيناء بحماية هذا الميناء من رياح الشمال والشمال الشرقى ، كما تحميه من رياح الشرق غابات قديمة من أشجار النخيل وبقية قلعة الطور التى أصبحت شبه مهدمة تماما على وجه التقريب وان كان المرء لا يزال يرى بها كوات فى مستوى سطح الماء تغطيها قباب على شكل مشكاة . كانت هذه المباني المحطمة ، ومظهر الأرض ، وتلك الحدائق بالغة السوء ، وهذه الأسوار التى تكاد تكون كلها حطاما ، بالإضافة الى مظهر السكان البائس ، كان كل هذا يعطى صورة للخراب والموت . أما الميناء المفتوح الى الجنوب الغربى ، فتسده فى أكبر اتساع له كتلة صخرية ضخمة ، يبلغ ارتفاعها مستوى سطح الماء .

أما قريتنا الشاذلية ، وبلد النصارى ، اللتان تكونان مدينة الطور القديمة فتضم من ٢٥ - ٣٠ مسيحيا ، ومن ١٠ - ١٢ عربيا مسلما وان كان هذا العدد لا يشتمل النساء والأطفال .

أما قرية الجبل الصغيرة ، الى جنوب قلعة الطور ، فلا تضم الا خبيسة أو ستة صيادين يعملون مرشدين للسفن التى تعبر الطور الى

السويس أو الى جدة ولا يتجاوز سكان كل هذه القرى والنجوع مائة وثلاثين فردا .

ويدير شئون المسيحيين واحد من رجال الدين من دير سانت كاترين فى جبل سيناء ، وهو الذى يتسلم المؤن القادمة من القاهرة عن طريق القوافل والذى يبعث بها الى الدير ، وكذلك السمك الذى يشرف على صيده . ولا يفوق بساطة مسكنه الا بساطة تلك الكنيسة الصغيرة الموجودة فى منائه .

وعلى بعد ميلين من الطور ، الى الشمال الشرقى ، بالقرب من الجبال الجيرية ، يمتلك رجل الدين هذا حديقة واسعة بعض الشئ ، تحيط بها الجدران ، وتزرع بها أشجار النخيل ، وتتفرج فيها عيون مياه معدنية حارة ، تسمى واحدة منها الحمامات . وهناك حوض واسع مسور تظل المياه فيه على ارتفاع ثمانية ديسيمترات وفى درجة حرارة ٢٧ ويبدو الحوض وكأنه قد بنى خصيصا لهذا الغرض . وهناك كمية هائلة من سعف النخيل تغطي سطح هذه الأرض غير المزروعة .

وحيث أن اهالى الطور البؤساء لا يمتلكون على الإطلاق أية جمال ، إذ ليس لديهم ما يحملونه الى القاهرة للمقايسة عليه ، فانهم مضطرون للعمل على جلب القمح عن طريق القوافل ، مما يضاعف فى سعره ، ولهذا السبب فهم يستهلكون منه القليل ، ويعيشون على السمك .

وفى الطور ، تهب رياح الشمال لجزء طويل من العام فيما عدا فصل الشتاء ، إذ تهب الرياح فى هذا الفصل من جهة الجنوب وذلك حتى منتصف النهار فقط ، ثم تستعيد اتجاهها فى بقية النهار .

وتدخل السفن الصغيرة فى الميناء التى يبلغ عمقها ، وكذلك عمق المضيق البحرى من ٦ الى ٨ أذرع ، لكن السفن التى تخشى عادة أن يلتقى بها على الساحل المنحدر الأجرد فلا تتوقف هناك الا للتزود بالمياه ، أما السفن الضخمة فتبقى فى الخليج . ويجد الناس فى الميناء ، على بعد مسافة صغيرة من البحر آباراً مبنية بالحجارة بقدر كبير من العناية ، توفر مياهها بالغة الجودة . وتعلن هذه الآبار ، بالإضافة الى الحصن وبعض بقايا المنشآت القديمة ، أن هذا الميناء كان فيما مضى مطروقا لجد

كبير . لكن فقر السكان الذين لا يستطيعون انتاج أى شىء أو شراء أى شىء ، بالإضافة الى أحداث السلب التى مارسوها مرات كثيرة مع بعض السفن ، قد أبعد التجار عن هذا الميناء (١١) .

ولو أننا اتبعنا الطريق الذى اعتاد المسافرون ، وكذلك العربان المرافقون لنا اتباعه لكننا قد دخلنا الجبل فى الشمال كى نذهب الى جبل سيناء على بعد أربعة وعشرين ميلا من الطور ، لكننا كنا نرغب فى القيام بالدوران حول شبه الجزيرة للتعرف على الموانئ الواقعة على طرفها وللتعرف على بحر الشرق (خليج العقبة) . ولكى نحقق هذه الغاية كان علينا أن نسير لمدة ثلاثة أيام بلا مياه ثم خمسة أو ستة أيام نقضيها وسط الجبال ، وهكذا كان يتعين علينا أن نمر وسط خيام قبيلة مزينة التى لا تشكل جزءا من تحالف قبائل الطور ، والتى لم تكن تربطنا بها أية معاهدة (١٢) ومع ذلك فلم يكن لمثل هذه الصعوبات أن تعرقل مشروعنا .

وقد لقينا أكبر مقاومة من جانب العرب الذين كانوا معنا ، فقد احتجوا بصعوبة نقل المؤن اليهم ونقل المياه الى جمالهم ، وقالوا لنا اننا لم نتفق معهم الا على الذهاب الى الطور ومن هناك الى جبل سيناء، كما حذروا بأننا قد نهاجم من قبل عربان قبيلة مزينة الذين قد يطمعون فى اقتباس ما معنا من خيرات . ذللنا كل العقبات باسترضاء جزء من رفقاتنا ومرشدينا وذلك بتقديم المؤن اليهم والى جمالهم ، وبتوضيح عزمنا الذى لا يلين على القيام بهذه الرحلة حتى وأن لم يبق معنا سوى مرشد

(١١) لم يعد لدى اهالى الطور سوى تسع سفن صيد ، يملك الأروام ثمانى منها. ويرى المرء هناك بقايا سفينة جائحة ، وكانت هذه السفينة قادمة من ينبع ، ودخلت الميناء للتزود بالمياه . ويؤكدون أن مرشد الطور هو الذى جعلها تصطدم بالصخور عن عمد وأنها نهبت بعد ذلك ، وكانت تحتوى على ١٣٠. بالة صغيرة من القماش ، تضم البالة الواحدة ثمانين قطعة ، وثمانين طردا من العدس ، سعة الواحدة نصف أردب ، ومائة وعشرة من الأرز (شرحه) وبالثنتين صغيرتين من النحاس زنة الواحدة ستمائة رطل . ويلقى العرب بمسئولية السلب على الأروام ، وهؤلاء يلقبون بها على العرب ، وقبل مجيئنا الى الطور بخمسة عشر عاما نهبت قبيلة القاراشة احدى السفن ، فحرم عليهم الممالك المجرى الى القاهرة ، وهكذا لم تعد الطور تدخل ضمن نطاق الموانئ التى يتوقف فيها التجار .

(١٢) لعل عربان هذه القبيلة هم الذين نهبوا البضائع التى كانت نأفلتنا قد نقلتها معنا من القاهرة حتى مدخل الجبال .

واحد ، وقتلنا لهم فى النهاية : من حق العربان أن يخشوا قبيلة معادية .
أما الفرنسيون فهم أصدقاء لكل القبائل . وعندئذ قال أحد الشيوخ
المسنين : لا يقول الفرنسيون سوى كلمة واحدة . بسنذهب معك حتى
لا يصيبك سوء .

اليومان الحادى عشر والثانى عشر

لم يخدعنا رجالنا العربان . مشينا لمدة يومين . على مسافة قصيرة
من البحر ، أحيانا فى سهل رملى قاحل نادرا ما تلقى فيه بعض الشجيرات ،
وأحيانا أخرى وسط جبال من الرخام السماقى والجرانيت المرقق (أى
تتكون صخوره من طبقة فوق طبقة وهكذا) .

وكنا فى فصل تتقلب رياحه الجنوبيه والغربية ، أى فى فصل
العواصف ، وهو الفصل الذى يرغبه العربان أكثر من غيره لأنه يهيب
بعض المياه ، لكن الحرارة فى بعض الأحيان كانت أكثر ارهاقا لنا من أعلى
حرارة عانينا منها فى صعيد مصر كما كانت درجة الحرارة أكثر ارتفاعا (١٣)
وبعد أن سرنا طويلا الى الجنوب الشرقى دخلنا الى الجنوب فى واد
طويل أو بالأحرى فى شعب عميق تحف به من الجانبين جبال تتكون حتى
قمتها من أحجار مستديرة ، وكان الطين الذى يثبتها قد اكتسب قدرا من
الصلابة حتى أن قطعا ضخمة منه كانت تسقط مندفعة نحو الوادى دون أن
تفتت . ويقع ميناء رأس محمد عند قمة الساحل ، وهو يشكل فيها يبدو
نقطة انقسام فى شبه الجزيرة .

ويقتل هذا الميناء المفتوح عند شرق الشمال الشرقى ، لسان من
الأرض فهو شبه جزيرة ، قمتها رأس جبل مرتفع بعض الشيء وهذا هو
ما جعلهم يطلقون على هذا المكان اسم رأس محمد . وحيث يقترب الميناء
بشدة من الجبل فانه يكاد يكون مطبوسا فى جزء منه بالرمال والأحجار
التي جرفتها السيول .

ولم نجد هناك أى نوع من المساكن .

(١٣) سجل ترمومتر ريو مور درجة الحرارة فى الظل ٣٢ درجة

اليوم الثالث عشر

فى اليوم الثالث منذ رحيلنا من الطور ، أو اليوم الثالث عشر من بدء رحلتنا ، سافرنا من رأس محمد للذهاب شرقا من خلال الجبال الى ميناء شرم (الشيخ) الذى تقع نحت خط طول ١٠° ٥٨' ٢١ من خط زوال باريس وخط عرض ١٠° ٥٦' ٢٧ حيث وصلنا بعد مسيرة ثلاث ساعات .

وتقسم هذا الميناء ، الذى يقع مدخله الى الجنوب ، قمة جبل يبلغ عرضه حوالى مائة قامة وبانحدار مماثل . ويجد المرء على مسافة قصيرة من الشاطئ آبارا مبنية بكتل ضخمة من الجرانيت . كانت السفن تأتى الى هناك فيما مضى للزود بالمياه ، وعندما كانت تفاجئها رياح معاكسة ، يلوح لها أن مدنها سوف تطول . فانها كانت تفرغ هناك بضائعتها التى كانت تنقل برا الى القاهرة ، وهناك ضريح وكثير من أحجار أضرحة كثيرة ، لعلها نبئنا أن هذا الميناء كان فيما مضى أهلا بالسكان ، وقد شاهدنا هناك بعض الصيادين الذين لا يعيشون الا على السمك ، ابتعنا سمكا منهم ، وأكلوا هم غداءهم بالقرب منا ، وكانت الدهشة تبدو على أطفالهم ، الذين اسمنلناهم الينا ببعض البارات ، من شكل قبعاتنا بشكل خاص .

وتقع شرم (الشيخ) فيما يبدو على بعد ستة الى ثمانية أميال من بحر الشرق (خليج العقبة) الذى ميزناه بدقة بواسطة جباله الواطئة للغاية ، وبدا لنا فى اتساعه يختلف قليلا عن اتساع بحر العرب ، ولحنا جبال الشاطئ الآخر تنخفض وتمتد لتتوغل فى الصحراء الغربية . قطعنا مسافة كبيرة بطول الساحل وكنا نود الذهاب الى العقبة ، قمة نهاية الخليج ، لكن ذلك كان يستوجب منا أن نعبر صحراء خالية لم يكن عرباننا يعرفونها ، فضلا عن أننا كنا سنبتعد عن جبل سيناء الذى كان هو الهدف من رحلتنا . ودخلنا الجبل عن طريق الطرف الجنوبى الشرقى من شسبه الجزيرة .

وبعد ذلك بوقت قصير قابلنا فوق أحد التلال بعض الخيام فاقتربنا منها ، ولم يبد على النسوة الفزع لرؤيتهن لنا بل طلبن الينا اعطاءهن بعض الأبر والبارات .

اتبعنا نفس الوادى باتجاه الشمال الغربى فوجدنا مرة أخرى بعض الأشجار ومخيما أكبر اتساعا ، كان هذا هو مخيم قبيلة مزينة ، لم يخدمنا

أذن شيوخنا ، حيث لم يبد أولئك مسرورين لرؤيتنا فلم يقدموا لنا أى شىء عند مرورنا من أمام خيامهم ، وسأل أحد العربان وهو يصحن بعصاه فى هاون من الخشب خليطا ويصنع منه البارود ، سأل بحدة مترجما « لماذا جئت بهؤلاء الكلاب » ولم يقم شيخ هذه القبيلة بدعوتنا الى داخل خيمته حسب عادة العرب كى لا يجعلنا نقرب من مخيمهم الذى كنا برغم ذلك قد اجتزناه . وعندما مدت مائدة الطعام وسط الوادى لم نبد أى ضيق أو قلق ، واتخذنا مكانا بينهم لنأكل العنزة دون أن نوجه اليها دعوة . وقدمنا اليهم لبن ، ونمنا بينهم فى هدوء .

اليوم الرابع عشر

قدم الينا عرب المهاتنة ، وهى قبيلة صغيرة تنتمى الى عرب العواتمة الذين التقينا بهم فى اليوم التالى فى وادى النصب ، قدموا الينا فكرة أكثر دقة عن الطريقة الأبوية التى يتعامل بها العرب مع الأعراب ، وقدم الينا الشيخ الحاج حسن وأجلسنا الى جواره فى مدخل خيمته وأمر بذبح عنزة وأعطانا ما نفستل به ، وبينما كانت النسوة يعددن الطعام ، وبينما نحن نتناول القهوة قام أحد المغنين ، وبعد أن ابتهل الى الله ، غنى المقاطع التالية مصطحبا آلة ذات أوتار ثلاثة (١٤) ، كان يعزف عليها أنغامه بقوس فى يده .

ينفق الناس كثيرا من مالهم كى يذهبوا الى مكة
ويتركون أبناءهم عاما كاملا كى يذهبوا الى مكة

(١٤) تتكون هذه الآلة من جفنة صغيرة من الخشب مغطاة بجلد جمل ، عليها من أحد طرفيها بمسافة ٢ ديسيمتر (حوالى ٧ بوصات) حديدة مسطحة عرضها من ١٢ - ١٥ مم وطولها ٣ ديسيمتر (١١ - ١٢ بوصة) . ويرفع طرف الجفنة السميك الذى يبلغ طوله ٢ ديسيمتر (٧ بوصات) على الأرض .
وهناك فى الطرف الآخر عصا ذات ذراع يبلغ طولها ٤ الى ٥ ديسيمتر (١٨ بوصة) ويوجد فى أحد طرفيها ثلاثة ملاوى أو أوتاد تستخدم لى شد ثلاثة أحبال مكونة من اتحاد شعيرات عديدة مثبتة فى الطرف الآخر بعد أن تمر على مشط .

أما القوس المصنوع من قطعة من الخشب الخام يبلغ طولها ٤-٥ ديسيمتر (١٨ بوصة) فيحمل حزمة من الشعيرات مثبتة من أحد طرفيه ومشدودة الى الطرف الآخر بواسطة أصبع .

وعندما يزوج شيخ ما ولده يحضر له كل شيخ من شيوخ القبائل الأخرى عنزة ثم ينتهى بما يلى :

اولادى كثيرون ، ويأكلون كثيرا ، وذراعى قصيرتان
(أى أنه قبل الحيلة) فلا أستطيع أن أحصل لهم على الخبز .

وبعد أن انتهى الطعام (١٥) ، استرحنا تحت سقف خيمتنا التى اقمناها فى مواجهة خيمة الشيخ .

ولقد وجدنا نفس كرم الضيافة عند القبائل الأخرى ، ومع ذلك فلا يمكن لأى من شيوخ هذه القبائل أن يكون ندا لهذا الشيخ فى صفاته الكريمة ، فتقاطيعه بالغة التمايز وروحه بالغة التوقر على الرغم مما يبدو عليه من شرود . ولقد كانت له علاقات مع التجار والأغراب كما سبق أن قام برحلة مكة (الحج) مرتين ، ويؤدى فريضة الصلاة بشكل بالغ الانتظام (١٦) .

اليوم الخامس عشر

لم نكن قد قابلنا حتى اليوم سوى أشجار السنط وبعض الأثل (الطرفاء أو المن) وبعض غابات من الأعشاب الجافة ، بالإضافة الى جبال الجرانيت والسماق المورقة (أى التى تتشكل من طبقة فوق طبقة) ولم نكن نلقى المياه الا فيما ندر وبكميات بالغة الصفاء تجرى فى واد الكيد بين كتل ضخمة من الحجارة الجرانيتية ، وها نحن نرى كذلك أجزاء من الأرض تكسوها الخضرة ويغطيها النعناع لمسافة يبلغ طولها حوالى الميل ويبلغ عرضها من ست ثمات الى خمسين قامة . وتنمو فى هذا الوادى أشجار النخيل والنبق ، وهناك بعض الأسوار من الحجارة الصلبة تستخدم كمأوى وأماكن إقامة ومستودعات للعرب الملاك الذين

(١٥) وصفت مائدة الطعام فى مقال عن عادات وتقاليد العربان (فى آخر الدراسة) .

(١٦) بعد أن عدنا الى القاهرة ، ظهرت على هذا الشيخ كثير من علامات الجنون . ومن المؤكد أن مقبرته (بعد موته) ستكون موضع التقديس .

يأتون ليحصدوا ثمارها ، ومع ذلك فإن أحدا لا يقيم فى هذا الوادى الا فى فترة الحصاد ، فضلا عن ذلك فأننا لم نجد به على الإطلاق استراحات مناسبة .

اليوم السادس عشر

لم نكن فى هذا اليوم محظوظين كما كنا فى اليوم السابق ، فقد قضينا النهار والليل فى وديان قاحلة جرداء دون أن نقابل ظلا لنبات أخضر .

اليوم السابع عشر

وأخيرا ، فى هذا اليوم ، وبعد أن عبرنا مع جمالنا جبالا كنا نجد فى معظم الأحيان مشقة بالغة فى تسلقها بأقدامنا ، وصلنا الى دير سانت كاترين .

كان أحد الأخوين اللذين اصطحبانا حتى الطور قد سلك الطريق الأقصر حتى يلتقى بنا ، وكان ينتظرنا بقدر كبير من اللهفة والقلق .

يؤدى الى هذا المكان المنعزل منفذ صغير يعلو الجدران التى يبلغ ارتفاعها من عشرة إلى اثني عشر مترا . وهذا المنفذ هو المدخل الوحيد الى هذا المكان المنعزل (١٧) ، وتغطى هذا المنفذ بكرة يمر فوقها جبل ضخيم يلتف حول اسطوانة مثبتة فى نبيه ردهة وينزل الجبل الذى ينتهى بحلقة من الجبال يدخل فيها الشخص الذى يراد رفعه وندار الاسطوانة بواسطة روافع متشابكة ، تشبه تلك التى تستخدم فى الموانى لانزال الأحجار من فوق السفن .

وعندما جاء الآباء لاستقبالنا ، رأينا ترحيبا حارا يكاد يبلغ مرتبة الملئ واقتادونا الى رواق الأغراب ، ومكثنا هناك خمسة أيام زرنا خلالها الدير والأماكن المقدسة المحيطة به .

(١٧) ومع ذلك فيوجد باب للعربات ولكنه مسور ومغطى جزئيا بالأتربة ، كما أنه لا يفتح الا لاستقبال زيارة البطريك .

ويقع هذا الدير ، الذى تشكل جدران سورته ، المبنية بكتل من الجرانيت يبلغ ارتفاع الكتلة الواحدة منها حوالى نصف المتر (١٨ بوصة) وعرضها أكبر من ذلك بقليل ، مربعا يبلغ طول ضلعه حوالى ١٦٢ مترا (اى ٨٤ قامة والقامة تساوى ياردتين) — يقع هذا الدير عند سفح جبل حوريب أو خوريب .

وبشعر وانت بداخل الدير بعدم انتظام سطح الأرض التى اقيم فوقها ، وهو يتكون من عدد كبير من المباني غير المنتظمة القامة على مسنويات مخرقة ، ويضم كنيسة مكرسة لسانت كاترين ، و ٢٦ كنيسة أخرى لها نفس العدد من المشرفين ، ومسجدا (١٨) ومسارب بسيطة تتصل بدهايز خارجية ومغطاة بالخشب وبعض مصانع يدوية لصنع الأشياء الضرورية لحياة رجال الدين ولصيانة الدير .

ويقوم فى هذا « السجن المقدس » ستة من رجال الدين واثني عشر راهبا . وتتكون الكنيسة من أجنحة ثلاثة تفصلها عن بعضها البعض عواميد من الجرانيت تحمل سقفا خشبيا مطليا بلون أزرق بالغ الجمال تتناثر فيه النجوم الذهبية اللون وتغلق المحراب قطع من الخشب جميلة ، محفورة ومذهبة . أما المذبح فمن زخارف حرسية تشبه جلد السمك ، مطعمة بالصدف ، ومشغولة بشكل بالغ الجودة ، أما المنبر فمن الرخام لكن كرسى المطران مصنوع من الخشب المنقوش والمذهب ، ويزدان القاع بلوحة منقوشة على الخشب نرى فيها فى منظور (١٩) سبيء التنفيذ تفاصيل بالغة الدقة للدير ، وتغطي الجدران لوحات سيئة لحد ما مرسومة فوق الخشب ، أما البلاط فمن الرخام والجرانيت ويتخذ السلم شكلا حلزونيا (٢٠) .

وجدران السور مستننة ، بها استحكامات بارزة ذات زوايا

(١٨) أخبرنا رجال الدين ان هذا المسجد قد بنى فى الفترة التى كان العرب يعملون فيها فى خدمة الدير .

(١٩) انظر اللوحة ١٠٣ ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى .

(٢٠) لا يوجد بالدير جرس ، وينادون هناك على الصلاة وكذلك لبقية الممارسات الدينية بالطرق بواسطة بيزر (مطرقة ذات رأسين) على لوحة طويلة من الزان مغلقة أفقيا من الطرفين .

أربع تحمل كوات تغطي قطعاً صغيرة من السلاح تطلق فذائف من زنة الرطلين ، لكن هذه المدافع لم تنطلق أبداً الا لكي تحدث ضجيجاً في الجبل (أى لم يحدث أمر جدى يستدعى انطلاقها) .

وتشتمل ترسانة الدير على عدد صغير من البنادق ذات المحاور ، اضطر الرهبان لاستخدامها في بعض الأحيان ضد العربان الذين كانوا يأتون بقصد انتهاب حديقة الدير الخارجية التي تحيط بها جدران أكثر انخفاضاً وأقل صلابة من جدران الدير . ويصل سكان الدير الى الحديقة عن طريق ممر سفلى يغلقه باب مزدوج من الحديد ، وهذه الحديقة واسعة بعض الشيء لكنها مزروعة بشكل غير جيد ، ومع ذلك فهي تنتج الخضروات التي تشبه بعضها ما تنتجه نحن من خضار ولكنها أقل جودة ، كما تنبت فيها الكروم وأشجار اللوز والبرتقال والليمون والمشمش والتفاح والبرقوق والزيتون . أما العربان ، أولئك الذين لا يعتنون بزراعتهم ، ولا يظلون أشجارهم بشكل دقيق ونادراً ما يلجأون الى تطعيمها فينتجون فواكه ضئيلة الحجم لكنك تجدها لذيدة الطعم حيث أنت في مكان تندر فيه الفاكهة الى هذا الحد . ولا يعرف رجال الدين التطعيم عن طريق شق القشرة ، وقد علمتهم طريقة التطعيم بالبراعم وكيفية تكاثر أشجار الكروم عن طريق ترقيد العقل (العقل) .

والياه في الدير وفيرة ، ويخترق الحديقة جدول تسيل فيه المياه وبعمق يبلغ أكثر من ثلاث بوصات حتى ولو لم تكن قد سقطت امطار منذ عام كامل ، وعلى الرغم من أن معظم العيون عندئذ تكون قد نضبت .

وحياة رجال الدين شديدة الزهد ، ويقتصر عمل الرهبان على القيام بأعمال بالغة الضالة فيصنعون الزيت وقليلاً من النبيذ من عنب كرومهم ، كما يصنعون الخمور من البلح والتين والعنب المجفف ، ولا عمل لهم بعد ذلك الا أن يأكلوا ويحصل الدير من القاهرة على كل احتياجاته من المؤن التي تجلبها اليه القوافل والتي يرسلها الدير الرئيسى هناك . ويثرى هذا الدير عن طريق صدقات المسيحيين الذين يطمحون في أن يحصلوا بهذه الوسيلة على هبات السماء عن طريق دعوات رجال الدين في جبل سيناء . وإذا ما استثنينا قداس الصبح ، وبعض الصلوات التي تتلى في السماء ، فإن هؤلاء الرهبان الوريين يقضون كل وقتهم في انجاز لا شيء .

وهناك مكتبة جميلة لحد لا بأس به ، تضم عددا كبيرا من المجلدات اليونانية ، ومع ذلك فقد بدا لنا أن احدا لا يتردد عليها . ويتحدث الجميع باليونانية وليس ثمة الا عدد صغير من الرهبان يفهمون العربية ويتحدثون بها . وهؤلاء هم الذين يقومون بالسفر الى القاهرة لتدبير شئون الدير .

اليومان الثامن عشر والتاسع عشر

يشكل جبل خوريب أو حوريب ، الذي يقع الدير فى سفحه ، ربوة تقع الى الشمال ، يمر فوقها الناس وهم ذاهبون الى جبل سيناء (٢١) . وعلى مسافة حوالى ٥٠ قامة (١٠٠ ياردة) الى الجنوب من الدير تقابل عين مياه تسمى بئر الاسكافى تهىء طيلة العام كمية صغيرة من المياه بالغة الجودة ، وعند نقطة الالتقاء توجد كنيسة صغيرة يطلق عليها اسم كنيسة مارى أو كنيسة المفوض . وفوق هذا الجبل يوجد خزان مياه مبنئ وكذلك شئ يشبه حوضا كبيرا للسبك يمتلئ بمياه الأمطار . كان كلاهما — الخزان والحوض — جافين منذ زمان طويل ، وفوق الربوة توجد شجرة سرو تمتاز بجمالها ، وعلى ارتفاع متر ونصف المتر (٤ أقدام) يبلغ محيط هذه الربوة مايقرب من مترين وثلاثة أرباع المتر (٨١/٢ أقدام) مع ارتفاع مناسب (٢٢) . وعلى جزء أكثر ارتفاعا على نحو طفيف من نفس الهضبة توجد كنيستتان صغيرتان تحملان اسمى : ايلى ، ايليزيه ، وجدرانها مغطاة بأسماء أولئك الذين قدموا لزيارة جبل سيناء الذى يبلغ المرء قمته بعد مسيرته ساعتين صعودا فوق سلم يتكون من درجات من الصخور وكتل الجرانيت التى جلبت الى هذا المكان . ويغلق الممر المؤدى اليه بعض الأحيان ويقوم بحراسة الأبواب رجل لايسمح بمرور أحد الا من كان مسيحيا مزودا بكتاب من بطريك سوريا . ويرى المرء أيضا من فوق هذا الجبل أطلال كنيسة صغيرة مبنية بالجرانيت ، كما يرى مسجدا يرتفع فوق مايشبه قبوا صغيرا يبلغ ارتفاعه مايقرب من متر ونصف المتر (٤ أقدام

(٢١) عادة ما نضع على الخريطة كلا من جبل حوريب وجبل سيناء باعتبارهما كتلتين تفصل بينهما مسافة قصيرة ، وهذا خطأ ، فجبل حوريب ربوة من جبل سيناء ، اما تلك الكتلة التى تنفصل عنه فهى قمة جبل سانت كاترين ، وهذه أكثر منه ارتفاعا بنحو طفيف .
(٢٢) يلاحظ وجود ربوة مشابهة داخل الدير .

٧ بوصات) فوق مايمائلها من العرض والعمق . وينظر الى هذا المكان باعتباره المكان الذى أمضى فيه موسى أربعين يوما . ويوجد فى مقابل هذا المكان كهف بالغ الضيق هو ذلك الكهف الذى اختبأ فيه موسى — كما يقال — عندما تجلى له ربه . ويرى المرء بالمثل أطلال كنيسة ثانية خربها العربان لأنها كما يزعمون كانت تمنع المطر من السقوط . وهناك كثير من الآبار المحفورة فى الجرائيت ، لكنها جافة .

كان العرب ينتظروننا عند سفح الجبل ، وهنا وقع حادث طبيعى فى هذا الفصل ، لكنه نادر ، يتلف الناس لحدوثه منذ زمن طويل ، جاء ليضيف الى الاحترام الذى يكنه هؤلاء العرب للفرنسيين ولتقديرهم لنا ، لم تكن قد سقطت أمطار منذ عام ، وكانت القطعان تعانى ، وكانت مصادر المياه تنقص . وسمعنا ونحن فوق الجبل الرعد يزمجر عن بعد، وبدأ المطر يتساقط بينما كنا نهبط ، لم نكن قد شاهدنا مطرا يسقط منذ زمن طويل . فتمتعنا بلذة أن نحس بأنفسنا مبللين ، ولم يكن يخطر على بالنا مطلقا أن ننسب لأنفسنا فيما يحدث فضلا حين سمعنا العرب يهتفون ، وعندما حاذيناهم هبوا جميعا واقفين يهللون : « ماشاء الله ! ماشاء الله ! عظيم غفار ! أيها الفرنسيون الطيبون . لقد صليتم من أجلنا فوق جبل سيناء ! لقد ساعدتم (بذلك) فى أن يهطل المطر علينا ، وهو أثمن علينا من الذهب » كانوا يقبلون أكمامنا وذيل ملابسنا ويبتهلون الى السماء وهم يرددون : أيها الفرنسيون الطيبون ! أيها الفرنسيون الطيبون ! كان الجو مشبعاً للفاية . وكان لون السماء يماثل لونها فى أوربا قبل هطول ثلج كثير . وأبدت هذه الملاحظة لزميلى ثم أجبتهم . « اننا مسرورون منكم ، لقد صلينا على الجبل ودعونا الله من أجلكم ، وسيستجيب على الفور لأمنياتنا وأمنياتكم » . وبالكاد ، كان لدينا الوقت الذى يكفى لأن نحتمى تحت سقف مبنى ردىء من مباني الرهبان ، تدخله الرياح من كل اتجاه ، وظل المطر يسقط بغزارة شديدة ، واستمر بنفس القوة لفترة طويلة من الليل .

رحلنا فى اليوم التالى عند انبلاج النهار لى نذهب لزيارة جبل سانت كاترين ، وأمضينا أربع ساعات لى نبلغ القمة . بادئين من عند السفح ، نسير أحيانا فوق قمم حادة مدببة وأحيانا فوق مسخور من السماق المورقة أو المفتتة بشكل تام . وفى كل لحظة كانت مساقط المياه

والأخوار . والفسعاب التى شكلتها الثلوج التى سقطت فى العشية عند ذوبانها والتى كانت لاتزال تغطى الثلث الأخير من الجبل . . كان كل ذلك يجعل عبور بعض المرات أمرا بالغ الصعوبة . وكانت الرياح تهب من جهة الشمال ، وعلى الرغم من أن الترمومتر لم يكن يشير الى درجة التجمد ، فقد كان الجو جد قارس بالنسبة لنا ، نحن الذين لم نعد نعرف منذ زمن طويل لا البرد ولا المطر . ولا الجليد : كانت السماء صافية فوق رعوسنا ، لكن بحر المياه التى سقطت فوق الصخور الدائقة على الدوام قد شكل من حولنا ، ومن تحت أقدامنا سحابة كثيفة ، كأننا كنا فى داخل جزيرة ، وكأننا قمم الجبال العالية من حولنا تشكل عددا مماثلا من صخور البحر ، وسط هذا البحر من البخار . وفوق هضبة الجبل شديدة الضيق ، ينهض كوخ متهدم بشكل جزئى ، ويغطى صخرة من الجرانيت ، هى موضع تقديس من جانب المسيحيين . وقد شرح لنا الأخ الذى كان يصحبنا والرهبان الذين كانوا معنا ، فى أثناء عودتنا الى الدير سر هذا التقديس .

لقد استشهدت سانت كاترين ، عذراء الاسكندرية ، حسبما يذكر مؤرخو القرن التاسع فى مدينتها الاسكندرية . فى عهد ماكسيمانوس الثانى ، الامبراطور الرومانى فى ذلك الوقت . وفى هذه اللحظة ، وجد الناس على صخرة سانت كاترين هذه جثة لفتاة . وأخبر بعض المسيحيين أحد الرهبان بالامر : وذهب الجميع للتعرف على الجثمان . وأقروا بأنه جثمان لشهيدة . وأنه لابد ان يكون جثمان سانت كاترين . التى نقلت بالتأكيد ، حسب المعتقد الراسخ فى الدير . من الاسكندرية الى هنا بواسطة الملائكة الذين أنزلوا الجثمان عند سفح جبل حوريب (٢٢)

وسرعان ماذا صيت هذه المعجزة ، وتزايد عدد الحجاج القادمين من سوريا ومن القاهرة (كذا) ، وسرعان ما امد هؤلاء الرهبان بوسائل لاقامة كنيسة صغيرة كانت هى أصل منشأ هذا الدير .

وبعد ذلك وضع الجثمان فى صندوق له نافذة من الرخام الابيض

(٢٣) يحدد رجال الدين المحطات التى استراح فيها حاملو الجثمان . وهم يتقدمون كذلك الصخور الأفقية التى وضع الجثمان فوقها .

وحفظ بالطريقة التى يقضى بها الدين ، وفى أيام العيد تعرض الرأس واليد اليمنى أمام النافذة وتنال تقديس الناس ، أما النافذة الموازية فلا تدع أحدا يلح الا أجزاء من الهيكل (٢٤) .

رجونا رئيس الدير أن يسمح لنا بالمشاركة فى هذه الحفلة الدينية، فوافق على تحقيق هذا الرجاء فى الغد ، وعندئذ زينت الكنيسة كما فى أيام الأعياد الكبرى ، وأضيئت كافة الشموع والمصابيح ، وبعد أن خر رئيس الدير والرهبان ساجدين ابتداء من أسفل الكنيسة حتى بلغوا المحراب ، جاء هؤلاء ليقبلوا جبهة القديسة والخاتم الذى يحيط بأحد أصابعها .

ولقد لفت هؤلاء أنظارنا عند هبوطنا من الجبل الى زهور نسرين بالغة الازدهار والنفوح ، يطلق عليها الرهبان اسم شوك النار ، وقد أعجبنا عند مرورنا بالوادي الواقع بين جبل سيناء وجبل سانت كاترين ، بكتل رائعة من الخزف الهولندى تحيط بحوض أسماك واسع . كانت الأمطار قد ملأته أثناء الليل .

وعلى بعد مسافة قصيرة من ذلك ، عند منتصف الوادى ، لفت هؤلاء أنظارنا الى الصخرة التى خرج عندها موسى من الماء (٢٥) .

(٢٤) استرعى رجال الدين انتباهى الى انه اذا كان الملائكة لم يعرضوا الجسد كله ، فقد كان ذلك من جانبهم تقديرا لاعتبارات العفة والفضيلة .
(٢٥) تشكل الأمطار بسقوطها فوق الجبال أخوارا ، تحمل معها ، بينما هى تتبع نفس الاتجاه لوقت طويل ، الطين والاحجار ، والزلط المستدير ، وتشكل بهذه الطريقة صخورا تستعصى على حركة التنقل هذه، كما تحفر جداول يزداد عمقها بقدر ما تزداد رخاوة الحجر ويقدر ما يحدث المزيد من الأخوار ، حتى يحدث أن تندفع هذه الصخور من تلقاء نفسها ، بعد أن تفقد القاعدة التى كانت تنهض عليها بفعل انحراف الأرض من تحتها ، الى الوادى ، ولقد اندفعت كتلة من الجرانيت تبلغ مساحة سطحها ٥٠٠ أمتار مربعة ، (حوالى ١٤ قدما مربعا) الى وسط الوادى ، وثرى اليوم على سطحها جدولا صغيرا يبلغ عرضه ٢٥ ديسيمتر ، وعمقه ٣ ديسيمترا واحدا ، وتقطعه من ١٠ — ١٢ قطعا يبلغ عمق التقع منها ٣-٤ سم (٥-١ بوصة) ، وقد تشكلت هذه بفعل بقاء المياه فى الأجزاء الأكثر رخاوة من هذه الكتلة ، التى يسميها الرهبان والعرب صخرة موسى . ويضع الآخرون العشب فى هذه الإفواه المزعومة ، ويطعمونها جمالهم ، عندما تكون مريضة .

وعلى مسافة عدة أميال من هذا المكان ، تتلاقى عدة وديان وتشكل باتحادها هضبة واسعة مليئة بالرمال وكتل الجرانيت والزلط وتحمل اسم سهل الاسرائيليين . وهناك وسط هذه الصحراء تل قليل الارتفاع يسمى جبل هارون ؛ وقد اكد لنا مرافقونا أن بعض العرب يذهبون الى هناك لذبح العنزات ، وبمواصلة طريقنا ، رأينا صخرة مجوفة ، يزعم الرهبان بأن العجل الذهبي قد صب (صيغ) فيها .

كانت القافلة هي نقطة البدء لعودتنا الى القاهرة ، وكان علينا أن نحرض على انتهاء هذه الفرصة والا فائنا سوف نخاطر بالبقاء في الصحراء حتى يحين موعد سفر القافلة التالية أى لمدة أكثر من ستة أسابيع اذا ما افترضنا - فوفى ذلك - أن حدثا طارئا لن يأتى ليعطل مسيرتها . إذن فقد عدنا الى الدير . وفى اليوم التالى فارقنا هؤلاء الرهبان لكي نعود الى القاهرة عن طريق الجبال . كان شيوخنا فى انتظارنا عند سفح الكهف . وكانت القبائل الأكثر بعدا قد بدأت بالفعل مسيرتها لكي يلتقى الجميع عند مدخل الوادى لعبور صحراء السويس ، لكي يتبادلوا الحماية ضد القبائل المعادية التى قد يصادفونها .

وبينما كنا نشرف على تحميل جمالنا ، جاء احد مترجمينا وأخبرنى ان عربيا قد ابلغه ان الأتراك قد سيطروا على القاهرة وقتلوا الفرنسيين . كان بمكنى استدعاء هذا الأعرابي **وسؤاله** حول صحة هذا الخبر وأن افحمة لو كان الخبر مختلعا لانارة العربان ضدنا . لكن مثل هذه المناقشة سوف تكون لها مساوئها . فقد كان بعضهم حائقا لأن رحلتنا قد عادت ببعض الفوائد على عدد قليل منهم . واعطيت امرى للمترجم ان يذهب ليقول لراوى الخبر ان الفرنسيين اسدفاء للأتراك ، وأنه — هو — لايعرفنا حق المعرفة . ان كان يظن انه بذلك سيخيفنا ، واننى أرسل له حفنة من البارات باعتباره منشدا وراوى قصص . وبعد أن ركبنا جمالنا (الهجين) ، وزعنا البارات على الفقراء ، والقينا بها الى الأطفال

(م ٨ — وصف مصر)

كما كانت عادتنا ان نفعل عندما كنا نغادر احدى القبائل ، ورحلنا
بينما ادميات وبركات الرهبان الطيبين ، تنهال علينا (٢٦) .

اليوم العشرون

بعد مسيرة ست ساعات من وادى الراحة وبعد مسيرة ساعتين فى
وادى الشبخ صالح عسكرنا بالقرب من اولاد سعيد الذين لقينا فى كنفهم
افضل استقبال . قادنا الشيخ الى خيمته ، ودار حوار عنيف اثناء الطعام
بينه وبين جار له كان يود ان يستضيفنا . وفقنا بينهما واعدن الآخر ان
نذهب لنأكل عذرة معه فى الغد قبل رحيلنا .

اليوم الحادى والعشرون

لم يعد امامنا سوى مسيرة ساعتين لى نصل الى وادى فيران
الخصيب والذى تحتله قبيلة القراشة ، وهى اكبر القبائل عددا ، وبعد
شيخها فى نفس الوثقت أقدم المشايخ ويحمل لقب الشيخ الكبير . ويبلغ
طول هذا الوادى ، المزروع بأشجار النخيل وبعض اشجار النبق حوالى
ثلاثة أميال وعرضه حوالى ٢٠٠ الى ٣٠٠ متر (١٠٠ — ١٥٠ قامة) .
ويحتوى على أسوار كثيرة جدرانها من الحجارة الصلبة ، تشكل عددا
مماثلا لعددها من الملكيات التابعة لأكثر أبناء القبائل المجاورة ، مسيرة ،
والذين يأتون ليجنوا هناك بلحهم ، وهناك شخص بعينه يأخذ على عاتقه
الحفاظ على هذه الحدائق التى تحظى بحماية الشيخ الكبير .

وهذا المعسكر كبير فى مساحته وأهميته ، فهو يتكون من حوالى
اربعين خيمة تنهض بين أشجار الطرفاء (المن) ، وهى تضم الجزء الأكبر
من أبناء القبيلة ، ويجد المرء هناك آبارا عديدة تهيىء المياه بوفرة كافية ،
وهم ينزحونها من عمق عشرين قدما ، وقت ان كنا فى رحلتنا هذه .

(٢٦) كانت قطعة من جوار السور قد تهدمت ، ولم تكن لديهم
وسيلة لترميمها ، فوعدناهم بأن نرسل اليهم بنائين سافروا بالفعل مع
اول قافلة تبعا لاتفاق عقدناه مع العربان . وبعد ذلك بسنوات وجد أحد
الرحالة الروس ، الذى سافر برا من سوريا الى جبل سيناء ، اسمنا
مدونا فى حجرة الاغراب ، دليلا على عرفانهم بالجميل .

Extrait du Journal du Monde élégant, Berlin, 1806.

وكان الطعام الذى تقدم لنا هناك هو نفس ذلك الطعام الذى تقدمته
لينا القبائل الأخرى ، لكن تجمعهم الكثير العدد كان يضم من ٤٥ الى ٥٠
شخصا ، أى كل رجال وأطفال القبيلة .

ثمة ما يجعلنا نلمس واقعة هامة . كان بوكوك Pocoke وبصفة
خاصة نيبور Niebhur قد وجدا على بعد مسيرة يوم من وادى فيران أحجارا
تغطيها النقوش الهيروغليفية يبدو أنها تشير الى وجود مقابر مصرية ،
وقد تحدث الناس اليهما كذلك عن وجود مدينة قديمة ، الأمر الذى يتفق
لحد كبير مع ما واثقنا الفرصة مرات عديدة للتعرف عليه فى سعيد مصر ،
اذ من المعروف انك عندما تجد خرائب مدينة فانك على يقين من انك
ستلقى مقابر غير بعيدة من هذا المكان ، والعكس صحيح . ولما كنا
نعيش منذ قرابة شهر مع رجالنا العربان ، ولما كانوا يبذلون شديدا
الثقة بنا للحد الذى لا يقدر أحد أن يحصل عليه من هذه الشعوب
المرتبطة ، فقد كانت لدينا من الأسباب ما يكفى لأن نأمل بمساعدتهم فى العثور
على الآثار القديمة التى رسمها ووصفها نيبور ، وعليه ، فقد سألنا رجال
الدين الذين قاموا بالسفر الى هناك عدة مرات ، كما سألنا الرجال
الطاعنين فى السن ، وأولئك الذين لبس لديهم ما يخفونه حيث لا يملكون
شيئا يخشون من فقده ، ووافق الجميع على أن يدلونا على أطلال مدينة
قديمة تقع فى نفس المكان ، وعلى بقايا أحجار منقوشة فى مكان آخر ،
هو بالتأكيد المكان الذى أشار اليه نيبور ، لكن ، لقد خدعتنا أمانينا ،
سواء كان ذلك بدافع من الجهل أو بدافع من سوء الطوية والظن من جانب
مرشدنا ، فانا لم نذهب الى المكان الذى توجد به الأنقاض القديمة ، التى
كنا نلطف على زيارتها .

اليوم الثانى والعشرون

بعد ساعة من خروجنا من وادى فيران ، اكتشفنا فوق تل يبلغ
ارتفاعه حوالى ثلاثين مترا (١٥ قامة) وجود هضبة تحيط بها جبال
عالية . وقد رايت وسطها كذلك انقاض مساكن قديمة تفنقذ الذوق فى
بنائها . وقد بنيت هذه بكنل من الحجارة غير المشذبة ، كما بنى جزء منها
بالطوب النوى . ويوجد فى أسفل الجبل بقايا جدار سميك يبدو انه كان

قد بنى بقصد دعم التربة ، أو لاستخدامه كسور ، كما توجد ثمة مغارات محفورة فى الصخور ، لكن مداخلها ظلت ناتئة غير مشذبة .

ويؤكد العربان والرهبان ان المباني الموجودة فوق التل وسط الهضبة هى اطلال مدينة صغيرة كان يسكنها المسيحيون ، وخربها العربان الذين طردوهم منها ، ويزعم آخرون ان هذه المدينة قد انهارت فوق سكانها الذين وجدت جثثهم تحت أنقاضها .

وعلى قمم شديدة الارتفاع تسمى رأس الطاحونة توجد أساسات كنيسة قديمة تعود الى نفس الزمن الذى تعود اليه المباني الموجودة فى أسفل ، وكل ما هناك ينبىء ببؤس وجهالة السكان القدامى لهذه المباني التى تهدمت حيث لا شيء منه شبيه بالمباني المصرية فى شكلها ومنازلتها .

وعلى بعد خمسة عشر أو ستة عشر ميلا (مسيرة يوم) مررنا كذلك بسفح جبل تغطيه النقوش مع الأرقام العربية ١١٠ ، ١١١ ، ١٥٠ ، ٥٠٠ ، ٦٠٠ ، وبجوار أكبر هذه الأرقام يوجد عدد ضئيل من الحروف لدرجة لا يمكن منها أن تكون شيئا آخر سوى أسماء يسبق الكثير منها — أو يتبعها — رسم الصليب . وقد رأينا هناك خيولا وجمالاً منقوشة ، ورجالا على ظهر حصان وهناك رجل بين آخرين ، يحمل رمحا تشبه ثمنه رأس السهم .

وتوضع هذه النقوش أحيانا فوق أحجار أفقية ، وأحيانا أخرى فوق أحجار رأسية ، وكان الكثير من هذه الحجارة مقلوب لأنها انفصلت عن الجبل منذ نقشها ، ولا يزيد ارتفاعها مطلقا على مايزيد على ثلاثة أمتار ونصف المتر (١٠ — ١٢ قدما) بل انها نادرا ما تبلغ هذا الحد من الارتفاع . وفى هذه السلسلة من الجبال ، التى يبلغ طولها حوالى ثلاثة أميال ، والتى تقطعها فى أماكن عديدة شعاب أو وديان صغيرة ، لا يجد المرء مطلقا أحجارا منقوشة وان كان ذلك قد يحدث أحيانا عند زوايا المر.

ولا تنبىء أى من هذه النقوش لا عن موهبة — بل ولا حتى عن عادة — النقش فوق الأحجار . وقد حفرت كلها بواسطة أحجار مدببة صلبة أو بقادوم ، فيما عدا عدد ضئيل منها تم حفره بواسطة ازميل .

ومن الصعب الا يدرك المرء الغاية من هذه الكتابات ، بل ومن الصعب أكثر أن نردد حول التفسير الذى ينبغى أن يعطى لها ، اذ هى لا يمكن أن تكون قد تمت الا على أيدي مسيحيين كانوا يذهبون للحج (الزيارة) الى جبل سيناء . ويوجد أكبر عدد من هذه النقوش فى مكان استراحة الليل، وهناك القليل منها فى مكان استراحة النهار فى الوقت الذى لانجد فيه أى نقش على الاطلاق فى أى مكان آخر على الطريق .

وقد نسخنا العديد من هذه النقوش ، ثم دخلنا بعد ذلك الى الشرق فى واد ضيق حيث نصبنا خيامنا بعد أن قطعنا ثلاثة أميال فى سفح جبل جرانيتى وسط قبيلة العوارمة .

اليوم الثالث والعشرون

وفى هذا اليوم ، لم نقطع سوى أحد عشر ميلا فى واد ضيق ، بين جبلين رملين ليس بهما أثر لخضرة من أى نوع ، لكى نصل الى هضبة مرتفعة تسمى وادى الخميعة ، حيث قضينا الليل .

اليوم الرابع والعشرون

باتباعنا الوادى . مع الانحراف قليلا الى الغرب ، عبرنا عدة شعاب مغطاة بصخور رملية وجرانيتية وسماقية (رخامية) ، ثم توقفنا فى وادى النصيب على بعد عشرة أميال من وادى الخميعة ، فى سفح جبل من الجرانيت تغطيه النقوش . وعلى الرغم من أن هذا المكان ليس سسوى استراحة نهائية ، فإنه ينبغى عليك أن ترسل الجمل الى مسافة عدة أميال من هناك اذا كنت تريد الحصول على الماء .

كنا وسط قبائل العليقات ، وقادنا شيخها . الذى كان قد هرع الينا من مخيمه حيث نمنا بعد أن اكلنا العنزة تحت سقف خيمته .

اليوم الخامس والعشرون

فى هذا اليوم ، وجدنا آخر النقوش (٢٧) فى واد يسمى وادى الحمر بعد مسيرة نحو خمس ساعات وبعد أن اجتزنا واديا عميقا ورطبا مليئا بالبوص ، وبه بعض أشجار النخيل ، ويغطيه فى جزء منه الملح والبارود الأبيض بطول يبلغ ثمانية أميال ، وصلنا الى واد عسل ، حيث قضينا الليل .

اليوم السادس والعشرون

وباتباع الوادى ، الى الشمال الغربى ، استرحنا للحظات فى مكان يقع الى الجنوب من وادى الغرندل لكى نذهب لتقيم خيامنا فى خور فرق

(٢٧) لمعرفة كل النقوش أنظر اللوحات A , E المجلد الخامس ،
كما يمكنك أن تجد جزءا منها فى Voyage de Niebuhr en Arabie المجلد الأول .

ومن المرجح أننا ابتعدنا لمسافة قصيرة من الجبل الذى نسخ عنه هذا الرحالة الممتاز الكتابة الهيروغليفية المنقوشة فى مؤلفه ، ولكن سواء كان ذلك عن جهالة أو عن سوء طوية فإن عرباننا قد أكدوا لنا أنهم لا يعرفون أحجارا أخرى منقوشة . وقد اصلنا طريقنا ونهضنا واثقون من أننا سنعرش على النقوش الهيروغليفية ، لأنهم عندما أخبرناهم أنه لاتزال توجد أحجار أخرى ، دلونا على مكان أكثر بعددا لنبحث عنها هناك ، ولم ندرك أننا قد خدمنا الا عندما وجدنا النقوش الأخيرة . كانت القافلة تسير ولم يعد ذلك هو الوقت الملائم لكى نواصل البحث ، بل لكى نعود أدارجنا لنلحق بالركب .

وفى أثناء عبورنا الصحراء ، سببت لنا الكثير من القلق ، احدى القوافل التى كانت تسير على مسافة بعيدة منا ، ثم تعرفنا فيها على قبيلة صديقة .

وعلى مسيرة يومين من القاهرة ، عندما كنا معسكرين ، فوجئت فزالات ثلاث بأنفسها سجيئة داخل المعسكر ، وبدأت تطاردها صيحات العربان ، وكلما فرت قابلتها نفس العقبة (الصياح) وقد اجتازت احدها الشباك ، وأفلتت الاخرى على الرغم من جراحها ، وأسرت الثالثة . كان العربان من قبل قد ذبحوا لنا غزالة كنا قد اشتريناها عشية وصولنا الى دير سانت كاترين ، ويمثل لحمها كثيرا لحم اليجمور (نوع من الأيائل) الباسل اللذة .

على بعد عشرة أميال من الحوزية وذلك بعد أن بلغنا هضبة شديدة الارتفاع وجدنا فيها مياهها بالغة الرداء داخل مايشبه كهفا مكونا من الأحجار الجيرية . اجتزنا وادى الغرندل الذى يغطيه أشجار الطرفاء (المن) حيث يأوى عرب العليقات بصنعون الفحم .

اليوم السابع والعشرون

كنا بعد على بعد أكثر من عشرين ميلا من عيون موسى . وكنا منذ نهاية اليوم الثانى قد تركنا الجبال لكى ندخل صحراء قاحلة قطعنا فيها ستة عشر ميلا ثم نصبنا خيامنا فى وادى الحلزا .

اليوم الثامن والعشرون

فى هذا اليوم وصلنا فى ساعة مبكرة الى عيون موسى . كان المد قد بدأ يهبط وعبرنا ذراع البحر (الخليج) تجاه السويس ، وفى أماكن كثيرة كانت المياه من حولنا تبلغ عمقا يقدر بأكثر من أربعة أقدام . وفى اليوم التالى لحقنا بالقافلة فى العجروود . وكانت القافلة تتكون من ١٢٠٠ جمل ومن ٤٠٠ الى ٥٠٠ رجل وفى اليوم الحادى والاربعين منذ رحلنا ، وصلنا الى القاهرة .

تقاليد وعادات عرب الطور

يسمى سكان شبه جزيرة سيناء الطورة أو عرب الطور . وهؤلاء — شأن كل العربان . ذوو قامة يبلغ طولها فى المتوسط من متر ونصف المتر الى متر ٧٣٢ مم (٤ أقدام وست بوصات) . ولون بشرتهم حائل ، شديد السمرة ، بل يكاد يكون أسود تماما ، وعيونهم حادة سوداء ، تغطيها الجفون بعض الشيء . وهم فى العادة نحيفو الأجسام ، جادو التقاطيع دون أن يوحوا بالكآبة ، وهم على دين محمد ، لكنهم لا يعرفون عن محمد سوى اسمه ، ولا يعرفون عن القرآن سوى شهادة لا اله الا الله ، محمد رسول الله . ولم نقابل من بينهم سوى رجل واحد يؤدى الصلاة بانتظام ، كما قام بالسفر الى مكة (الحج) مرتين .

وعلى الرغم من أن الاقامة الاعتيادية لهؤلاء العربان فى جبال صخرية ووسط أرض قاحلة لا يمكن أن تغرى أحدا على الاطلاق على انتزاع هذه

البلاد منهم ، فقد منحتم هذه الحياة — كما منحنا كل العربان البدو — روحا من الحرية أساءوا استخدامها فى معظم الأحيان . وعلى الرغم من أن الضرورة تفرض عليهم أن يكونوا على الدوام مسلحين لحماية تجارهم وللدفاع عن أنفسهم ، وعلى الرغم من أن حوادث الانتقام (٢٨) التى قد يكون عليهم أن يمارسوها ضد قبيلة معادية قد دعمت لديهم الميل الى السلب حين يكونون منتصرين فان المرء مع ذلك لا يستطيع أن ينكر أنه يجد — رغم ذلك — فى كل القبائل العربية بقايا ثمينة من تلك التقاليد الإبدية التى نقلها الينا سفر التكوين فى قصة ابراهيم ، وكما وصفها المسيو فولنى Volney بقدر كبير من الدقة والعذوبة فى مؤلفه الهام الحالة السياسية لسوريا Etat Politiqu de la Syrie ان مانستطيع أن نؤكد أنه فى خلال الواحد والأربعين يوما التى أمضيها مع عرب الطور لم نستشعر من جانبهم أى نوع من القلق أو أن نتوجس منهم خيفة ، كانت خيمتنا على الدوام مفتوحة بل وكثيرا ما كنا نغادرها ، وكانت أسلحتنا ملقاة كيفما اتفق ، ومع ذلك فلم نفقد شيئا على الإطلاق مهما يكن ضئيلا .

ولقد وجدناهم شديدي التحفظ تجاه الفرنسيين ، ولكى ندعم مواقفهم الطيبة هذه معنا ، فأننا لم نعدهم بشيء على الإطلاق دون أن نكون عند وعودنا ، كما لم نطلب اليهم ما يستحيل عليهم أن يفعلوه . ومع ذلك فقد كنا نفرض مانريد بقدر من الحزم كنا نبدو معه وكأن لدينا من القوة مايجعل الغير يستجيب لارادتنا .

« كلمة الفرنسيين واحدة » ، هكذا كانوا يقولون على الدوام . وقد سألتى كثيرون منهم ، وهم دهشون لرؤيتنا نركب جمال الهجين ونسير بينهم ، نتحمل نفس المتاعب ونفس صنوف الحرمان التى يعانون منها ، سألتونى : ان كان كل الفرنسيين اقوياء مثلى . وكنت أقول لكل سائل انك ذاهب الى القاهرة ، وسوف ترى بنفسك اننى لست واحدا من أكثر الفرنسيين فتوة كما انى لست واحدا من أكثرهم قوة فكانوا يجيبون : لقد خلقتم معشر الفرنسيين للأسفار .

(٢٨) هناك قانون عام عند العرب يقضى بأن دم كل قتيلا لابد من الانتقام له بدم قاتله وهو يسمى بالثأر أو القصاص .

كل ما يرتديه عرب الطور كملبس هو قميص من الصوف الأبيض ينزل الى منتصف الساق ، وأكمامه قصيرة ، وكذلك جلباب من الصوف المقلم بالأبيض والغامق ، مفتوح من الأمام ، وليست له أكمام ، ومشقوق من الجنبين لمرور الذراعين ، وسروال من التيل .

ولا يرتدى الأطفال سوى الجلباب ، وكثيرون منهم عراة ، وفي الصيف لا يرتدى الرجال سوى القميص مع حزام من الجلد أو من قماش صوفى . أما الشيوخ ، وهؤلاء هم أكثرهم ميسرة ، فيرتدون ملابسهم على طريقة المصريين وقد تلقى كثير منهم عبااءات (خلعات) من حكام البلاد .

ويرتدى البعض منهم نعلا تربطه الى قدمه سيور من الجلد أو خيوط من الصوف ، لكن سيقان الجميع عارية حسب عادة المصريين ، ويرتدون غطاء للرأس ، قلنسوة تحت عمامة رديئة من الصوف الأحمر أو الأبيض ، وتكاد تكون رعوس كل الأطفال عارية .

ويحمل هؤلاء العرب كسلاح بندقية ذات سر جلدى وخنجر مقوسا طوله ٥١ ديسيمتر (حوالى ٢١ بوصة) وهو ذو حدين ومزخرف بالفضة فى معظم الأحيان وهم يحصلون على هذا السلاح المصنوع فى فارس عن طريق جدة وهو يوضع فى مقدمة الحزام من الشمال الى اليمين .

وهناك ما يشبه جعبة من الجلد تعلق بالمثلى فى الحزام من الأمام ، وتمتلئ بعلب من البوص أو الخشب ليوضع بها البارود ، وبالإضافة الى ذلك ثمة جراب يتكون من سيور صغيرة من الجلد المجدول ، تنتهى بأهداب مزدانة فى بعض الأحيان بقطع صغيرة من الرصاص ، ومزود به حقيبة من الجلد للصوفان (مادة اسفنجية للجراحة) وفتائل مطلية بالكبريت ، وحقيبة أخرى للحجار . وتعلق به قداحة لها سلسلة صغيرة ، وهناك حقيبة ثالثة صغيرة توضع بها المقذوفات وعلبة كبيرة من الخشب على شكل مخروط تملئ كذلك بالبارود ، بالإضافة الى جعب كثيرة مشابهة تعلق بهذا الجراب ،

وتشبه ملابس النساء ملابس نساء القاهرة ، سروال ضيق من قماش فاتح ، وفستان طويل من التيل الأزرق ، مفتوح عند الصدر ، وله

أكمام واسعة مشقوقة حتى منتصف طولها ، برقع أو رباط من القماش الأسود يبلغ عرضه ٢ ديسيمتر (٨-٩ بوصات) وطوله ٥-٦ ديسيمترات (١٨ - ٢٠ بوصة) ، معقود من جانبى الرأس فوق العينين وعند منتصف الجبهة بشريط صغير تغطيه البارات (قطع النقد الفضية) فى بعض الأحيان . على هذا النحو تتكون ملابسهن ، وفى نفس الوقت ينبغى أن يضيف الى ذلك قناعا من التيل الأزرق وعقودا وأساور من الحلى الزجاجية ، ولبعضهن حلثان كبيرة من الفضة فى أسفل الساق العارية (خلخال) والتي لا يغطيها جراب (شراب) .

الأثاث

تشتهل اثاث عرب الطور على خيمة من قماش من الصوف الغامق يصنعونه بأنفسهم ، ورحى من الحجارة لطحن القمح ، وغلاى أو غلايين للقهوة من النحاس ، وقدر معينة ، وأطباق من الخشب وملعقة من الحديد لتحميم البن وهاون من الخشب ليصحن فيه البن بواسطة عصا — هذا هو اثاث الميسورين من هؤلاء العرب والذين يمتلكون زيادة على ذلك ، حقائب من الصوف لنقل الفحم .

المخيم

نادرا ما يضم المخيم القبيلة بأكملها ، ولا يتجاوز عدد الخيام الخاصة بكل قبيلة والتي توزع هنا وهناك تبعا لوجود الأعشاب والشجر التي يعثرون عليها فى الوديان ، ١٢ أو ١٥ خيمة ، وينبغى استثناء عرب القرارشة الذين يمتلكون ٣٥ الى ٤٠ خيمة لأنهم يقيمون فى وادى فيران الخصيب .

وتنهض الخيام ، وهى مفتوحة من الأمام ، فوق عارضة من الخشب يحملها وتدان يبلغ ارتفاعهما المترين (حوالى ٦ أقدام) ، وتنزل بشكل منحدر لمسافة يتفاوت طولها فوق عارضة أخرى يبلغ ارتفاعها نصف المتر (١٨ - ٢٠ بوصة) وهى من الطين ، وتنهض فوق العارضة الأخرى بشكل عمودى . وتقل الجوانب بنفس القماش أو بقطع عديدة مختلفة الألوان . وفى معظم الأحيان تنقسم هذه الخيام بشريط من القماش يمتد الى الامام قليلا ويستخدم فى عزل المكان المخصص للنساء .

الممتلكات

إذا استثنينا بعض الأراضى فى وديان الكيد وثيران ، وهى المحاطة بأسوار متهدمة ومزروعة بأشجار النخيل والنبق ، وإذا ما استثنينا كذلك الدير وحديقة الرهبان ، فيمكن القول بأنه ليست هناك ملكيات فى شبه جزيرة سيناء ، فجمال أو عدة جمال ، بالإضافة الى بعض العنزات هى ثروة العربى ، وتنتشر كل قبيلة فوق منطقة محددة من الأرض ترعى فوقها قطعانها وتصنع فحمها ، وتقدر الثروة هناك بعدد الجمال ، ويعد فقيرا من لا يملك جمالا : أبو فقير ، مفيشى جمال ، أى انه فقير لا يملك جمالا مطلقا ، فليرعه وليعطه المالك .

الصناعة

تناسب صناعة عربان الطور مع احتياجاتهم بالغة البساطة ، فهم يصنعون ملابسهم ، ويصنعون بأنفسهم أقمشة خيامهم من الصوف ووبر الماعز الذى يغزلونه دون ازالة الشحم منه (٢٩) .

وعلى الرغم من أن بيع الفحم هو مصدر دخلهم الأساسى ، فليست لديهم الوسائل اللازمة لقطع الخشب ، وهم يضغون النار عند جذر الشجرة ، ويكسرونها بقطع ضخمة من الأحجار . وإذا كانت لدى البعض

(٢٩) تحمل الخيوط التى تشكل سداة القماش ، عصوان موضوعتان بشكل أفقى . **ويثبتان** بالأرض من كل من طرفيهما ، وتبتعد كل منها عن الأخرى بمسافته يزيد أو تنقص (حسب الغرض المطلوب) ، وهناك جزء من غزل صوفى مماثل ، ملفوف حول عصا طولها ٣ ديسيمترات (حوالى ١ قدم) تستخدم كمكوك ، وتصنع لحمة القماش بتمرير هذا المكوك باليد بالتبادل خيطا فوق خيط من تحت ، ويكون الصانع فى هذه الحالة راقتدا ، ثم يسحب المكوك ويمرر من جديد حتى يبلغ الطرف الآخر من خيوط السداة ويضمون خيوط اللحمة الى بعضها بضربها بمشط له ، ١ الى ١٢ من الأسنان . وعندما يضم الخيط بأكمله يصنعون المكوك الى الجانب الآخر بنفس الوسيلة . وأعتقد أن الخيط الواحد لا ينسج ولا يضم فى أقل من ١٠ دقائق أو ربع الساعة وتقوم النسوة بهذا العمل ، بينما يصنع أزواجهن الفحم ويحملونه الى القاهرة ،

بلطات صغيرة (قادوم) فهي ضعيفة وبالفئة السوء لدرجة لا يمكن معها أن يستخدموها الا لقطع الأغصان ، وعندما سألتهم لماذا لا يجلبون من القاهرة بلطات أحدث أجابوني : هكذا كان يصنع آبائنا ، وهؤلاء العرب لا يولون أى اهتمام لما يضيع بددا من خشب ماداموا سيظلون يعثرون على الدوام على خشب يستعملونه فهم لا يفكرون مطلقا ان كانوا سيظلون يجدون الكثير منه ولوقت أطول لو أنهم استخدموا وسائل أفضل « ريك يدبرها » ، وهم يصنعون الفحم بوضع الخشب بشكل أفقى وتغطيته بالتراب ، ويكتفون به دون أن يرطبه . ويمكن أن يكون هذا الفحم بالغ الجودة لو أنه كان أكثر سمكا بقليل مما هو عليه . لكنه مع ذلك يكفى لأعمال المطبخ وكذلك فى العدد الأكبر من محلات الحدادة فى القاهرة .

ولكى لا يبذل جهد لا جدوى منه . فان أحدا لا يصنع من الفحم الا الكمية التى تستطيع جماله أن تحملها . ويصنع العرب الفحم فى نفس المكان الذى أسقطت فيه الشجرة . ويملأون منه حقائبهم ويتركون هذه الحقائب على الأرض أو يحملونها الى طريق القافلة لى تأخذها عند مرورها .

التجارة

تشتمل تجارة عربان الطور على الفحم الذى يحملونه الى القاهرة ، وعلى نقل البن والسلع الأخرى التى تصل الى السويس عن طريق البحر الأحمر .

ويباع الفحم بالقاهرة بسعر ٦ بوطاقات أو ١٨ فرنكا للحمولة الكاملة إذا كان من فحم السنط (أو السيل) و ١١/٢ بوطاقات أو خمس بوطاقات إذا كان من خشب الطرفاء (الأزل أو المن) .

ولا يحمل العدد الأكبر من الجمال سوى نصف أو ثلثي الحمولة ، مما يعطى ثمنا يبلغ ٩ ، ١٢ فرنكا .

وعن طريق بيع الفحم يدبر العرب عيشهم وعيش عائلاتهم وجمالهم لمدة ستة أسابيع تستغرتهم الرحلة الى القاهرة ، وعن طريق هذا المبلغ المواضيع أيضا يشتررون البن والدقيق أو القمح والتبغ والتبغيات التى

تمثل احتياجا كبيرا بالنسبة لهم ، كما يمكنهم ان يتزودوا بقطع الملابس ومعدات الجمال التى لايمكنهم صنعها .

وقد يصعب على المرء ان يتصور كيف يمكن بمقدور هؤلاء ان يعيشوا بمثل هذا الدخل الهزيل ، وقد يصعب عليه بدرجة اقل مما سبق ان يتصور ايضا كيف يمكن ان توجد بينهم بعض العائلات الميسورة — اى التى تمتلك جمالا كثيرة — اذا لم يكن لها مصدر آخر للثروة ، او على الأقل ، اذا لم تكن تلجأ الى استخدام اكثر ادارا للربح لهذه الحيوانات (٣٠) .

ويقوم العرب عادةً بعمليات النقل من السويس الى القاهرة ويقوم التجار باخطار شيخ أو عدة شيوخ ، عند مرورهم بالطور ويتعاقدون معهم على نقل حمولتهم التى قد تتطلب من ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ جمل . ويذهب اولئك الذين تعاقدوا الى الجبل ليبرموا صفقات خاصة يحققون من ورائها بعض الارباح ويدفع للحمولة (حمولة الجمل) الكاملة ٨ بوظاقات او ٢٥ بارة مع جزء من البن .

وبخلاف هذه المنافع ، كان عرب الطور يتولون امر الثوافل الذاهبة الى مكة والتى كانوا يمدونها بثمانين جملا تذهب من القاهرة الى العجروء، وكانوا يتلقون من البكوات ٢٤ الف بارة أى ٨٠٠ فرنك وفردا من البن (قنطار يساوى ١٠٨ اقة) و١٢ أردبا من التمح وثلاثة أطقم ملابس .

الطعام

يتمثل طعام العربان فى بعض البصل ، والروجة أو الفطير ، وهى نوع من الأفراس المصنوعة من الدقيق المعجون بالماء بدون خميرة أو ملح ، ويصنعونها مرتين كل يوم ، ويضيف البها الميسورون الفول أو العدس المطبوخ بالبصل وتلبي من الزيت ويكتفى الفقراء بأكل الروجة

(٣٠) تحدد الثروة بعدد الجمال ، واذا سألت ان كان عربى ما غنبا او فقيرا فانك تحصل على هذه الاجابة . ان لديه جملا ، او ان لديه عدة جمال ، ومن يمتلك من بينهم اربعة جمال يعد أكثر نراء بأربع مرات ممن لا يملك سوى جمل واحد .

ولا يذبح عربان الطور العنزات الا ايام الاعياد أو عندما يستضيفون اغرابا ، وعندئذ يأكلون الأرز والبلح ان كان قد تم جنيه .

وقد عوملنا على النحو التالى عند كل القبائل فيما عدا قبيلة مزينة :
تبسط أمام مدخل الخيمة قطعة من السجاد أو بعض جلود الماعز ، ويجلس الشيخ أولا ثم قدامى القوم وشيوخهم بترتيب السن ، ويشكل كل أبناء القبيلة دائرة كبيرة وتوضع النار فى الوسط ، وعندما يكون آخر من يصل ، كانت القبيلة بأكملها تنهض واقفة ويجلسوننا بجوار الشيخ ، ويصبون على يدينا الماء بعد ذلك لنغتسل . وكانوا يدفئون الماء عندما يكون الطقس باردا ، وتقدم القهوة ، ثم يحضرون أمام الأغراب وكبار السن طبقا كبيرا من الخشب مليئا بالبلح ، ويمرر هذا الطبق بالتوالى فى نقاط كثيرة من الدائرة الكبيرة حتى يستطيع كل امرئ أن يأخذ منه ، ويظل شيخ القبيلة واقفا بالقرب من الفاصل الذى يشكل عازلا للحريم اللاتى يمرر اليهن الطبق بعد انتهاء الطعام .

وتغسل الأيدي مرة أخرى ، ثم نسلم النسوة الى الشيخ قطعة من العنزة المسلوقة فى ماء بدون ملح فوق قطعة من الفطير ، ويسلم الشيخ هذه القطع بادنا بالكبر سنا ، ثم الى الشبان والى الأطفال . وزيادة فى اكرامنا كانوا يرسلون اليها فى طبق من الخشب قطعاً كثيرة من العنزة مع عدد مماثل من قطع الفطير .

ويعيد الشيخ بقايا الطعام التى ترد اليه . بعد ان يأكل هو نفسه . ويظل هذا الرجل واقفا طيلة تناول الطعام ليكون على اتصال بالحريم ولكى يخدم المجموع .

ونغسل أيدينا للمرة الثالثة مع تمرير قطعة الصابون من يد لأخرى . وفى الفترات الفاصلة اثناء الأكل نتناول القهوة ، وأخيرا يصل الأرز المطبوخ بالدقيق وقطع من الفطير وقليل من الزيت وبعض البصلات ، ويقدم هذا كله فى طبق كبير من الخشب بحمله شخصان فوق قطعة من السجاد أو بالأحرى فوق جلباب . ويوضع الطبق أمام أوائل الجمع . ويأكلون هذا النوع من العجين شأنه شأن غيره بالأيدي ، ويمرر الطبق على التوالى حول الدائرة . ويحصل الأطفال الذين لم يستطيعوا أن يعثروا لأنفسهم على مكان فوقفوا الى الخلف جزءا من هذا الطعام فى أيديهم ، ويعود

الطبق أمام الشيخ الذى يمرره بعد ذلك الى النسوة . ولا توجه الى اى واحد من هؤلاء الاكلين دعوة الى الطعام ، فكل جائع يأكل ، ويتعدى عن المائدة فور شعوره بالشبع . وفى أثناء الطعام يتحدث كبار القوم (شيوخهم) وحدهم ويتناقشون ، وهو أمر نادر ما يحدث من قبل الشبان ، كما لا يصدر مطلقا عن الأطفال ، وفى كل القبائل كان العرب يشعرون نحونا بالامتنان الشديد لأننا نعيش ونأكل على طريقتهم دون أى تمييز سوى أننا كنا نتصدر المكان فى مدخل الخيمة حيث كنا نجلس على جلد عنزة ، أو فوق قطعة من القماش .

الرقص

لا يستسلم العربان فى أيام الأعياد لرح يكون أكثر صخباً مما اعتادوا ، ويقوم الشبان وحدهم ، وفى يدهم سيف أو خنجر ، بعمل بعض حركات الجسم والأعضاء التى تقلد شكل معركة بطريقة منفرة وخشنة . ولا يشبه رقص النساء فى رقص العوالم (عالمية) فى مصر ، ولا يحدث هذا الرقص الا فى الليل .

نجمع رجال كثيرون فى شكل نصف دائرة متماسكين باليد وهم يهتزون ، أو يغنون بعض العبارات التى تتفق مع المناسبة (٣١) والتى يصحبونها من وقت لآخر بتصفيق منغم بالأيدى .

وفى أثناء الغناء تقبل امرأتان كل واحدة منهما من أحد طرفى الدائرة ، ويبسطان الذراعين ، ويمران بالتبادل قدما أمام الأخرى ، ويقومان ببعض الانحناءات للتحية والتبجيل ، وهما يهزان جسميهما حتى تبلغاً وسط نصف الدائرة وعند كل انحناء احترام ينحنى المنشدون ثم ينفذان نصف الدائرة وهما يصنعان نفس الحركات ، وتمثل مكانهما اثنتان أخريان ، وعند انحناء الاحترام الأخيرة ينحنين ، وهم يطلقون صيحة من الحنجرة ، هى تلك التى

(٣١) اليكم بعض هذه الجمل : شكرا لله وللرسول لأن رجالنا قد وصلوا — كل القبلة فى فرح منذ وصول مسالم مع صحبه — مسالم يترك خيمه مفتوحة لكل الناس — الذين طردوا المالك كتبوا الى مسالم لى يحظر — نرجو الله ورسوله ان يظل الذين يحكمون مصر الآن ، فهيا الى الأبد — كنا فى انتظار عودة مسالم لى نحر رأس الخروف .

تستخدم فى اناخة الجمال ، وكان احد شيوخنا ويسمى كريزات داخل الدائرة فغنين له :

كريزات يحسن تحميل جماله .

وقد ارسلنا الى الراتصات بعض قطع من الذهب وبعض البن فغنين لنا :

قدم الينا الفرنسيون البن مع السكر فى فناجين جميلة .

العادات

عندما يموت شيخ يحل ابنه محله طالما كان هذا الابن شهما وطالما كان لبق الحديث وكانت خيمته مفتوحة امام كل الناس . وفى الحالة التى لا يكون للشيخ المتوفى فيها ابن ، يعين اقرب اقربائه اليه او الشخص الذى تتوفر فيه هذه الشروط ، ويجمع الناس عليه ، ويعترف به دون أدنى اعتراض .

وتتشابه بعض وظائف الشيخ مع وظائف قاضى السلام Juge de Paix عندنا . وفى حالات المنازعات يأتى الناس لالتماس حكمه ، ويسلم اليه كل الأطراف المتنازعة وكذلك الشهود خناجرهم فيرشقها فى الأرض أمامه ، وعندما يتحدث اليهم يمسك بيده عدة خناجر يلوح بها . وينحدث الجميع ، او عدد كبير منهم ، فى وقت واحد ، فيحدثون بذلك ضجة كبيرة ، وإذا لم يتفقوا فان الشيخ يصدر حكمه ، ويبعد اليهم أسلحتهم ، وتهدا الضجة فى لحظة ثم نسحبون .

اما الجرائم ، مثل القتل ، فيقتص لها بالدم ، أو تفتدى مقابل مبلغ كبير ، وتدفع دية الجرح بحسب حجمه ، ويقاس ذلك بحبات القمح .

وإذا ما تشاجر رجل مبسور مع آخر فقير ، ترجح كفة الرجل الفقير .

وحيث تختلط القطعان ، وحيث الخيام مفتوحة ، فان العرب فى حاجة شديدة لى يجعلوا من السرقة فيما بينهم أمرا يوحى بالذعر الشديد . ويقصون فى هذا الصدد ، وهم يمتدحون ، حكاية اب سرقته ابنته احدى

عنزاته ، فقد تابع الأب المذنبه فى الجبال ، ووجدها تشوى قطعة من لحم العنزة ، فقيدها ويديها وألقى بها فى النار .

وتعاقب بنفس العقوبة الزوجة الخائنة والبنت التى تفقد شرفها ، ويتم التنفيذ علنا ، اذ يقود الأب ومعه الكثيرون من الأهل المخطئة الى الجبل .

ولا ينفذ الأب أى شىء كتابة ، اذ ليس من بينهم أحد يقرأ أو يكتب ، ولديهم قوانين وقواعد انتقلت اليهم عن طريق التقاليد ويتعلمونها بالممارسة (أى من وقائع الحياة) .

وترغم البنت على الزواج من الزوج الذى يقدمه لها أهلها . لكن الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة للولد ، وعادة يفضل العرب أن يتزوجوا من نفس عائلتهم .

ويمكن للولد أن يتزوج من ابنة عمه أو خاله لكنه لا يستطيع أن يتزوج أخت زوجته ولا أخت أبيه . ويدفع عند الزواج ١٠ بوطاقات على الأقل من ذات التسعين بارة (حوالى ٣٢ فرنكا) الى أهل البنت ولا يعطى شىء للبنت نفسها ، ولكن اذا طلق الزوج زوجته فانه يعطيها مائة قطعة من ذات الثلاثين بارة ، (حوالى ١٠٦ فرنك) أما اذا كانت هى التى طلبت الطلاق فانه لا يستطيع أن تطلب شيئا .

واذا مات أب وترك ابنا وابنة ، يحصل الابن على ثلاثة أرباع القطيع ، أما اذا ترك ابنا وعدة بنات ، فيحصل الابن فى هذه الحالة على النصف فقط .

واذا ترك الزوج زوجة لا أبناء لها ، يكون لأهله الآخرين فى ميراثه نفس الحقوق التى كانت ستؤول الى أبنائه ، وتؤول الأسلحة التى كانت للابن الأكبر (المتوفى) الى أخيه أو ابن أخيه أو ابن عمه .

واذا ترك هذا الزوج زوجة ثانية لا أبناء لها ، وله أبناء من الزوجة الأولى فان الزوجة الثانية هذه لا يستطيع أن تفرض كحق لها الا ما أعطاه الزوج لها بموجب وصية أوصى بها أمام شهود .

(م ٩ — وصف مصر)

١٣٠

ويتكفل باليتامى أحد الأقارب من الميسورين . ويتكفل كذلك بالقطعان
التي سيقدم عنها الحساب عندما يكبر الأطفال .

وإذا كان الأطفال بلا قطيع فنان الله يرعاهم ، ومن لديه يعطيهم .
والأمراض الشائعة عند العرب قليلة للغابة ، على الرغم من أن
غالبيتهم ينامون عراة ، وقد لاحظت أن عددا كبيرا من بينهم يصابون
بالسعال في نهاية نوفمبر وأن أطفالا كثيرين هناك يصابون بما يشبه
السعال الديكي .

ويستخدم العرب الكى في حالات كثيرة ، ويجلب بعضهم من القاهرة
أدوية يبيعها لهم المشعوذون بسعر رخيص . وهم يشربون الماء المغلى
فوق بعرات الحمير كعلاج لأوجاع الرأس .

عن شبه جزيرة سيناء

السكان

يبلغ تعداد عرب الطور حوالى ٩٠٠ الى ١٠٠٠ رجل يستطيعون
حمل السلاح ويدخل في هذا العدد سكان منطقة الطور ورجال الدين .

وللبعض من هؤلاء أكثر من زوجة نسكن كل واحدة منهم في خيمة
مستقلة . وثلثا عدد السكان على الأقل متزوجون ، وهم يسكنون الجبل
على النحو التالى :

اسم القبيلة	عدد الرجال القادرين على حمل السلاح
الحليقات	١٥٠
العوارمة	١٢٠
القرارشة	١٠٠
أولاد سعيد	١٣٠
مزينة	٢٥٠

وبالإضافة الى ذلك هناك خمس قبائل صغيرة أخرى أو عائلات .
تنتمى الى تلك القبائل ، وهى الرزيدات ، العتسايمية ، الجريزات ،
ألدرامة ، الحمادى .

وأخيرا ، يشكل الجبالية ، الذين كانوا فى الماضى يقومون بخدمة
دير سانت كاترين الواقع بالقرب منوم ، خمس قبائل صغيرة لكل واحد
منها شيخ . ويبدو أنهم كانوا مسيحيين فيما مضى وأنهم كانوا يدخلون
الدير ، ولكنهم منذ اعتنقوا الاسلام أو منذ حل محلهم العربان ، لم يعودوا
يترددون على الدير أو يقومون بخدمة رجال الدين بأفضل مما تفعل بقية
القبائل . وهؤلاء الجبالية هم أكثر هذه القبائل بؤسا، وهذه هى أسماؤهم:

اسم القبيلة	عدد الرجال القادرين على حمل السلاح
السلامة	٣٠
الحمايدة	٢٠
الوعيبات	١٥
أولاد جندى	٣٠
أولاد رزين	٤٠
المجموع	١٣٥

وعلى الرغم من أن الوقت والظروف لم تسمح لنا برسم خريطة
ومسار الطريق فإننى دونت مذكرة دقيقة بكل نقاط هذا الطريق . وقد
قست المسافات عن طريق الوقت الذى كنا ننفقه للذهاب من نقطة الى
أخرى مع تقدير ميلين لكل ساعة للمسافة التى تقطعها الجبال محملة أو
التي تسير فى قافلة دون أن يسرع بها قائدوها . وقد تبين لى أنك لست
تذهب من القاهرة الى طرف شبه جزيرة سيناء مرورا من جهة البحر
بالنقاط التى توجد بها المياه ، ولكى تعود من خلال الجبال فإن عليك أن
تنفق مثلنا ٢٣٦ ساعة ، وأنا نستطيع على هذا النحو أن نفترض أن هذا
الطريق يبلغ ٤٧٢ ميلا أو ٢٣٦ فرسخا بالقياس الفرنسى .

١٣٢

واليكم واقعة تؤيد هذا التقرير .

وجد العالم الفلكى المسيو نويه Nouet عن طريق عملية حساب
مثلثات ان السويش تبعد عن القاهرة بـ ٢٨ فرسخا مقدارها ٢٢٨٢
قامة (القامة = ٢ ياردة) اى ٦٣ ميلا و ٨٩٦ قامة . وقد قطعنا هذا
الطريق مرتين مع نفس القافلة ، وانفقنا فى كل مرة ٤٢ ساعة (مع فارق
بضع دقائق زيادة أو نقصانا) ، الأمر الذى يعطينا تبعا للتقدير السابق
٦٤ الف قامة أو ٣٢ فرسخا ، طول الفرسخ الفاقامة .

ومن هنا نرى انه ليس هنالك سسوى فارق بين النتيجةين يبلغ
١.٤ قامة .

الطريق من القاهرة الى طرف شبه جزيرة سيناء عن طريق السويس
مع اشارة الى الأماكن التي توجد بها مياه

ترتيب أيام المشى	أسماء الأماكن والاستراحات	المسافة بالميل	نوع
الأول	من القاهرة، في الصحراء	١٢	بدون ماء
الثاني	"	٢٠	شرحه
الثالث	الى العجرو	٢٤	شرحه
الرابع	الى بير السويس	٦	مياه ملحجية
	الى السويس	٤	بدون ماء
الخامس	الى عيون موسى	٦	مياه كبريتية وجبسية
	العين	٥	بدون ماء
السادس	أبو صيرة	١٥	مياه جبسية
السابع	وادي الغرندل	٢٠	بدون ماء
الثامن	وادي الخوزية	٤	مياه جبسية
	وادي إتل	٢٤	" "
التاسع	وادي المغارة	٢٦	مياه جيدة
العاشر	الطور	٢	" "
الحادى والثانى عشر	في الجبال	٣٢	بدون ماء
	شرم (الشيخ)	٦	جيدة
الثالث عشر	قبيلة مزينة	—	بدون ماء
الرابع عشر	وادي نصيب	٢٠	شرحه
	وادي المنندار	٢	مياه جيدة
الخامس عشر	وادي الكيد	١٨	" "
السادس عشر	في الجبال	١٤	بدون ماء

ترتيب أيام المشى	أسماء الأماكن والإسراحات	المسافة بالميل	نوع المياه
السابع عشر	إلى دير سانت كاترين	٦	مياه جيدة
الثامن والتاسع عشر	في جبال سيناء وسانت	١٢	جيدة
	كاترين وسهل الإسرائيليين والعودة إلى الدير	٨	—
العشرون	وادي الشيخ صالح	١٥	جيدة، تنضب في الصيف
الحادي والعشرون	وادي فيران	٤	جيدة
الثاني والعشرون	في واد ضيق	٦	بدون ماء
الثالث والعشرون	وادي الخيلة	١١	شرحه
الرابع والعشرون	وادي نصيب	١٠	جيدة
الخامس والعشرون	وادي عسل	١٦	بدون ماء
السادس والعشرون	الحوزية	٨	—
	خور فرق	١٠	كلسية
السابع والعشرون	وادي الخلوا	٦	بدون ماء
الثامن والعشرون	عيون موسى	٤	—
التاسع والعشرون والثلاثون	إلى القاهرة	٧٢	—
والحادي والثلاثون	بمجموع المسافة	٤٧٩	

الدراسة الخامسة :

رحلة الى بنى سويف والفيوم ب.م.م. مارتان

✳ العنوان الاصلى للدراسة هو :

وصف هيدروجرافى لولايتى بنى سويف
والفيوم .

(والهيدروجرافيا هى علم وصف المياه او
طبوغرافيا البحار . اما الكوروجرافيا فهى
علم وصف البلدان . المترجم)

تغير ولايتنا الفيوم وبنى سويف ، الواقعتان فى ذلك الجزء من مصر ،
الذى كان يشار اليه فيما مضى باسم هبتانوميد ، والذى يعرف اليوم باسم
الوسطانى ، أو مصر الوسطى . اهتماما كبيرا من ناحية كوروجرافيتهما ،
التي لاتزال حتى يومنا هذا موضوعا لجدل ، لم تلق حولها الآراء ، بين
أكبر وأشهر جغرافيينا . ذلك أن الأوصاف التي خلفها لنا الأقدمون لهذين
الانقليمين ، تخلف أشد الاختلاف عن تلك التي يقدمها لنا عنها ،
الرحالة ، وأشهر النقاد المحدثين ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وحين
نريد النوفيق . بين هذه الاختلافات ، نجد أنفسنا فى كثير من الأحيان .
عرضه للوقوع فى اشد الأخطاء خطوره .

وعند وصولنا الى مصر ، كان لابد أن تهدف لجنة العلوم والفنون
الى العمل على ازالة كل هذه الشكوك ، والى أن تؤكد فى النهاية ،
وبطريقة لاتقبل الجدل ، ذلك الراى الذى لابد لكل امرئ أن ينوصل اليه ،
بخصوص عظمة وعبقريّة قدماء المصريين ، كما توضحهما مؤلفات تحظى
بدرجة عالية من الاحترام ، مثل مؤلفات هيرودوت وسترابون ، وديودور
(الصقلى) ، وبطليموس . الخ ، وهى مؤلفات يستحيل على المرء مطلقا
أن ينحيا جانبا أو حتى أن ينظر اليها نظرة استخفاف ، ونتيجة لذلك ،
لقد توجّه عديد من أعضاء هذه اللجنة الى بنى سويف والفيوم ، فى كل
مرة كانت تسنح فيها الفرصة لأى منهم للقيام بمثل هذه الجولات ، وقد
إبدى الأستاذان : جومار Jomard ، وجيرار Girard حماسة لاتعرف الكلل
فى أبحاثهما التي قدمت نتائجها الى مجمع القاهرة .

لقد أخذ أولهما على عاتقه أن يتأكد من حقيقة الأوصاف التي قدمها
كل من هيرودوت ، وديودور ، وسترابون لبحيرة مورييس ، وبرهن بشكل
شديد الوضوح على أن هؤلاء المؤرخين ، يعنون فيما دونوه فى مؤلفاتهم ،
تلك البحيرة التي تعرف اليوم باسم بركة قارون ، اذ هى البحيرة الوحيدة
التي تنطبق عليها الأحوال التي أوردتها كل من هؤلاء (١) .

(١) انظر دراسة حول بحيرة مورييس ، تأليف جومار ، المعصور
القديمة ، دراسات المجلد السادس . وصف مصر (الطبعة الثانية) ،

أما المسيو جيرار ، فقد اهتم بشكل خاص بوصف الفيوم بوضعها الحالي ، بينما هو يعالج أمور الزراعة والتجارة ، لكنه ، على الرغم من ذلك النفاذ المعروف عنه ، والمعارف العميقة والغزيرة التي تميز كل مؤلفاته ، قد ظل عند مناقشته لهذه الموضوعات بعيدا عن مناقشة الطبوغرافية القديمة لهذا الاقليم .

وفى الواقع ، فإن الدراسة العميقة البنى قام بها المسيو جومار قد ازالت كل لبس ، فقد أصبحنا الآن على ثقة من الموقع الصحيح لبحيرة موريس ، واللابرننت ، واقليم أرسينويه . لقد كنا نعرف ضعف الأسس التي تنهض عليها افتراضات دانفيل d'Anville وجيبير Gibert ، ولم يعد بمقدور أحد أن يرى بحيرة موريس لا فى تلك الحقول المزروعة على الدوام، مثل حقول الباطن (أى الداخل) ، ولا فى هذا الفرع المتعرج للنيل والذي يحمل اسم بحر يوسف ، ذلك الذى يكفى بالكاد لملاحاة بعض القوارب الخفيفة ، ومع ذلك فإن المسيو جومار لم يكن قد استطاع حتى الآن أن يدحض دانفيل وجيبير ، الا ببراهين من شأنها أن تقدم بعض افتراضات، تثبت عدم قدرتها على الاقتناع ، إذ كان دانفيل قد أنشأ ، دعما لرايه ، وبينما هو يعبر عن فكرته بخصوص حقول الباطن تبعا لما زعمه الأب سيكار P. sicard ، خريطة ترك الأهر فيها معلقا ، حين يطلق على هذه الحقول اسم بحيرة موريس تبعا لما يذكره هيرودوت وريودور ، ثم يعود فيطلق فى الوقت نفسه اسم بحيرة موريس على بركة قارون تبعا لما يورده سترابون وبطليموس . وللوصول الى يقين حول هذه النقطة ، كان من الضروري عبور الجزء الشمالى من البركة ، والا نظل نحدد اتجاهها وانساعها تبعا لأوصاف مبسطة الى هذا الحد ، وغير دقيقة ، ولقد كان لسوء الحظ ، مستحيلا على السידين جومار وجيرار أن يتقوما بهذا الاستطلاع . وفى الفترة التي عبر فيها هذا الاقليم . لم تكن مصر ، غير الواثقة حتى ذلك الحين من مصيرها ، لتسمح للفرنسيين الدارسين أن يتجولوا فى ربوعها ، الا فى أعقاب فرق من الجيش ، أوكلت اليها مهمة تأكيد السلطة الجديدة . ولأنهما ، والحال كذلك ، لم يستطعا أن يديرا حركتهما بالحربة اللازمة لعمليات تتسع على هذا النحو ، فانهما لم يشغلا نفسيهما فى هذا الوقت ، الا بالجغرافيا الفلكية ، فى دراسة المنشآت وطبوغرافيتها . وفى النهاية ، فلقد أدى الانتصار الباهر ، فى معركة

هليوبوليس ، واستعادة القاهرة عام ١٨٠٠ ، الى اعادة الهدوء الى مصر ، ويبدو ان السهولة التي امكن بها تحطيم جهود العثمانيين ، الذين ينظر اليهم في هذه البلاد ، باعتبارهم الأعداء الوحيدين الذين يخشى بأسهم (بالنسبة لنا) ، قد جعلت المصريين يألّفون فكرة أن ينظروا الى الفرنسيين منذ الآن ، باعتبارهم حكما يستحيل ردهم على أعقابهم ، فتأقلموا منذ ذلك الوقت معنا بتقاليدهم اللطيفة وطباعهم الودودة ، وكظموا أمانهم ، وازالوا العقبات التي كانت تعترض سبيل الفرنسيين ، وبدأ هؤلاء يجوبون أنحاء مصر ، وحدهم ، في أمان .

وقد سارع أعضاء لجنة العلوم والفنون باقتناص هذه الظروف المواتية ، فانتشروا في الأماكن غير المأهولة وغير المعروفة كي يضيفوا جديدا الى اكتشافاتهم ، ولكي يطابقوا نتائج أبحاثهم السابقة على الواقع ، عندئذ حدث أن قامت رحلات الى جبل سيناء ، ووادي التيه ، وبرج العرب ، وأقر مشروع لزيارة الواحات ، والذهاب الى الحبشة ، وأمكن باختصار أن نعمل بنجاح بالتفاصيل الكوروجرافية لمصر .

أما مهندسو الطرق والكبارى ، الذين أوكل اليهم بشكل خاص كل مايتصل بنظام الري ، الذى ينهض عليه وجود مصر ، فقد شغلوا معظم أوقاتهم بدراسة نظام النيل ، وترع الملاحة ، والري ، والتجفيف ، وكان من نصيبى ولايتا البهنسا والفيوم ، وتوجهت الى بنى سويف . قرب نهاية شهر ميسيدور من العام الثامن (منتصف بوليه ١٨٠٠) .

كنت أعى تمامها كم ستكون مهمتى ضخمة وعسيرة بالنسبة لقدراتى ، لكننى تدفعنى ، أهمية نتائج هذا العمل ، قد افترضت أن الحماسة المتأججة والشجاعة ستعوضان عدم كفايتى ، واتخذت قرارى الحازم باجتياز هاتين الولايتين من كل أجزائهما ، وأن أنشئ لهما الخرائط التفصيلية على قدر استطاعتى ، وعزمت على وجه الخصوص أن أقوم بدورة حول بحيرة موريس هذه ، وهو عمل لم يَقم به حتى اليوم رحالة قديم ولا رحالة محدث ، وإن أصل بذلك الى فكرة محددة حول شكلها ، وامتدادها ، وحقيقة الأغراض التي كانت تستخدم فيها في العصور القديمة .

ويذكر التاريخ بأعجاب ، العصور والرجال الذين نفذت بمقتضى أوامره ، تلك الأعمال التي ازدهرت بفضلها الزراعة في مصر . ان شاء

هذه البلاد لمدن لأسماء هؤلاء بالعرفان والمديح الواجبين . وكنت أقول
لنفسى : يا لها من ميزة ستتحقق لوطنى ، فرنسا ، إذا ما أصبحت مصر ،
بعد تحقيق أعمال كهذى ، مستعمرة فرنسية ! واى مجد يمكن أن يكون
للفرنسيين إذا خصصوا أعمالهم لخير البشرية .

واقدم هنا تفاصيل أبحاثى ومجهوداتى كى أتوصل الى تحقيق الهدف
الذى وضعته نصب عينى ، وسوف تستخدم هذه التفاصيل كنص لتفسير
الخرائط التى رسمتها ، والننى تشكل جزءا من الأطلس الجغرافى (٢) .

وتنقسم هذه الدراسة الى قسمين :

فى القسم الأول ، قدمت وصفا لولاية بنى سويف ؛

وفى القسم الثانى ، قدمت وصفا لولاية الفيوم ،

(٢) انظر الخرائط أرقام ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ فى الأطلس الجغرافى ،

القسم الأول

ولاية بنى سويف

بدأت بعد بضعة أيام من وصولى الى بنى سويف ، حيث وجدت فى شخص الجنرال زيونشيك قائد الولاية ، صديقا متحمسا للعلوم ، سارع فوضع تحت تصرفى كل الوسائل اللازمة لتسهيل عمليائى — بدأت بإقامة عدة مثلثات كبيرة ربطت فيها — تبعا لقواعد علم حساب المثلثات — قرى بنى سويف وبوش (❖) بأعلى قمة لجبل المقطم ، الذى ينهض على الضفة الشرقية للنيل ، وكذلك بالهرم الذى يرى عند مدخل الفيوم ، وبعد ذلك وباستخدام الوسائل الطبوغرافية المعتادة عينت تفاصيل شمال الولاية ، وربطتها بهذه البنية المثلثية ، التى يمكن رؤيتها من كافة الجهات على وجه التقريب .

يجرى النيل ، كما يحدث فى كل بلاد الصعيد تقريبا ، عند سفح الجبل الغربى بطول ولاية بنى سويف ، وينقسم الشط الغربى من هذه الولاية ، من ناحية عرضه ، وهو الشط الوحيد القابل للزراعة ، الى قسمين متميزين وذلك بخصوص الرى . والقسم الاول ، وهو يبدأ من عند حافة النيل ، اكثر ارتفاعا عن المياه العالية باتساع يبلغ حوالى الكيلومتريين ، وترويه عدة ترع صغيرة ، تختص كل ترعة منها بقرية واحدة ، ويلجأ الناس الى الأذرع (الشواذيف) ، والمكينات (السواقي) لرفع المياه حتى تغمر الأرض . أما القسم الثانى ، وهو الذى يمتد بعد ذلك الى سفح الجبال الصحراوية التى تنصل مصر (الوادى) عن الفيوم ، فهو يشكل ، تبعا لأحداره ، فى نمطين ، يصنع اتجاه كل منهما مع الآخر شكلا شبه عمودى ، أما النمط الاول فيتجه نحو الغرب أما الثانى فيتجه نحو الشمال وفق اتجاه مياه النهر . ولن آخذ على عاتقى مطلقا أن أفسر سبب هذا التباين فى ارتفاع هذين الجزئين من أرض الوادى ، فقد عولجت

(❖) احدى قرى بنى سويف [المترجم] .

هذه النقطة بما فيه الكفاية فى دراسة المسرو جيران عن الزراعة فى مصر العليا (٣) .

وهذان الانحناءان محسوسان لدرجة أن المياه العالية تظل تغمر الأرض بارتفاع يبلغ المترين ، ويبدو الريف فى هذه الفترة من الفيضان فى شكل بحر مترامى الأطراف ، ومثل هذا الموقع المواتى يغنى تماما عن الأعمال الميكانيكية فى الري ، لكنه مع ذلك يتطلب أعمالا ضخمة للاحتفاظ بالمياه أثناء الوقت اللازم للزراعة ، لأن الانحدار الى الشمال ، ذلك الذى يسحب المياه بنفس سرعة النهر أثناء تناقص الأخير ، يحول دون بقىء المياه فترة طويلة كافية فوق الأرضى .

ولعلاج هذه السوءة ، أقامت السلطات المحلية باتساع هذا الجزء من أرض مصر ، وعلى مسافات محددة ، جسورا تلامس الجبال ثم يظل ارتفاع هذه الجسور يتضائل ليلبغ مرتبة الصفر عند الأرضى المرتفعة على ضفاف النيل ، وتسبب هذه الجسور انحسار المياه حتى مستوى الأجزاء العليا ، وتظل على هذا النحو حتى تسمح لها الأرضى ، وقد تشبعت بالمياه ، أن تنصرف بواسطة قطوع أعدت فى هذه الجسور .

وهذه الأعمال كما نرى ، ذات أهمية قصوى فى نظام الري ، ولابد أن وجودها الذى بدأ مع بدء وجود الترع على مر العصور ، قد أثار اهتمام الحكام ، ونميز من بين هذه الجسور : الجسور الكبيرة ، والوسطى والصغيرة . أما الجسور الكبرى فقد بنيت باتساع الوادى كله ، وبوجود منها أحد عشر جسرا فى كل ولاية بنى سويف ، أكبرها وأكثرها أهمية هو ذلك الجسر الذى يحمل اسم الوكشيشى ، ويقع على بعد حوالى ٢ ميريامتر (٢٠٠٠ م) شمال بنى سويف ، وهو يبدأ عند النيل ، الى الجنوب من قريتى الزاوية والمصلوب ثم يمضى الى شمال قريتى قمن العروس وأبجيج ثم يمضى جنوب الصحراء مارا بالقرب من قريتى أبويط ، وكوم أبو راضى ، أما السهل الذى بنى من أجله فينتهى عند قرى بهبشين ، ودلاص ، والزيتون .. الخ ، ويشمل مساحة حوالى ١٠٠٠ هكتار ، تناثرت عليها ١٨ قرية .

أما الجسور الكبرى الأخرى فهي جسور : بهبشين ، صفاتية ، صفط ، راشين ، النويرة ، الشوبك ، اهوة ، تدهل أو الشسنتور ، سمالوط ، منبال ، بزدنوها .

أما الجسور المتوسطة ، والتي لاتخدم الا بعض الاراضى ، فيبدأ بعضها من ضفاف النيل ، ويبدأ بعضها الآخر من الجسور الكبرى نفسها ، وينتهى كلاهما بالاتحام بأحد المرتفعات التى بنيت القرى فوقها .

ومن جهة الثالثة وأخيرة ، فإن الجسور الصغرى جسور مطيصة ، تنشأ لصالح عدة قراريط أو أجزاء من القرية .

وقد اقتضى نفس وضع الانحدارات العرضية للوادی وجود نوعين من الترع . . الترع الكبرى ، وتحمل المياه الى أعلى ، أى الى الجزء الواقع الى اقصى الغرب حتى سفح الجبل ، والصغرى ، التى تبدأ اما من النيل نفسه ، واما تشكل فرعا من الترع الكبرى ، وتنتهى عند سفح المرتفعات المتناثرة فوق رقعة الأرض العالية ، الشديدة الاقتراب من النهر .

وقد يظن البعض ، نتيجة لذلك ، أن الاراضى الواقعة بالقرب من الجبال يمكن على الدوام أن تروى بشكل طبيعى بواسطة الترع الكبرى . مهما يكن ارتفاع فيضان النهر ، حيث أن منسوبها أدنى من منسوب اقل الفيضانات علوا ؛ لكن الأمر ليس على هذا النحو ، اذ لا يلقى لكى تروى هذه الاراضى أن يبلغ الفيضان نفس مستوى ارتفاعها ، بل لابد أن يتجاوز الفيضان ارتفاع قاع الترع التى ينبغى أن تحمل المياه الى هذه الحقول الشاسعة . ولا يمكن أن يتحقق هذا الشرط الا بالعناية المستمرة من جانب حاكم عاقل مستنير ، وتلك ميزة لم يعرفها المصريون منذ قرون طويلة لهذه الاراضى الواقعة الى الغرب ، والتى حبتها الطبيعة الى هذا الحد ، والتى ينبغى أن تنهض عليها دوما آمال بقية مصر ، هى اكثر المناطق بؤسا ؛ فالمياه تنقصها كلية اثناء الفيضانات الضعيفة ، ولا تصل اليها الا بكميات ضئيلة اثناء الفيضانات العالية اذ يتسبب ارتفاع قاع هذه الترع نتيجة للاهمال الطويل فى الحيلولة دون تدفق المياه الى هذه الأجزاء المنخفضة ، ويحدث فقط عندما يتجاوز الفيضان ارتفاع قاع الترع أن تنزل المياه كشلال هادر ، لتغطى الأرض فى لمح البصر ، ولقد شاهدت هذه الاراضى جافة

فى ٢٤ ميسيدور من العام الثامن (١٢ أغسطس ١٨٠٠) ، وفى العاشر من مريكتيدور الذى يليه (٢٨ أغسطس) وجدت المياه تعلو بنحو مترين ونصف المتر ، الى ثلاثة أمتار ، عند سفح الصحراء فى حين لم يبلغ الفيضان الفعلى فى ذلك الوقت الا مترا واحدا و ٢٥ سم .

وقد أدى ارتفاع فيضان العام السابع (١٧٩٩) ، الذى لم يستطع أن يتجاوز ارتفاع قاع العدد الأكبر من هذه الترع ، الى ترك مايقرب من ثلاثة أرباع الأراضي دون زراعة ، مما جلب الشقاء والأسى لعدد لا حصر له من العائلات فى حين كان ارتفاع منسوب المياه ، مع ذلك ، أعلى بدرجة كبيرة من ارتفاع هذه الأراضي التى كان يمكن أن تنتشر فوقها الحياة والرءاء ، لو انهما قد وجدا للوصول اليها سبيلا .

ينبغي اذن الا ننظر الى ترع الرى الكبرى فى مصر باعتبارها مجرد خزانات للمياه ، حفرت لنفسها بطول مجراها فروعاً لها ، فهى وسائل أو قل « خراطيم » تجلب المياه الى المناطق النائية : وعلى هذا ، فيأله من أمر بالغ الأهمية الا تسد هذه الطرق ، وان تستطيع المياه أن تتجاوزها دون عوائق ما أن تبلغ واحداً من أطرافها ، وهكذا فالهدف الذى يجب العمل فى سبيل بلوغه عند اعداد الترع فى مصر ، هو أن تحرص على أن تكون اطراف هذه الترع عند النهر على أدنى درجة ممكنة من الارتفاع ، وأن يكون هذا الارتفاع على مستوى أقل المناطق الداخلية ارتفاعاً ، وهذا على وجه التقريب هو ما توصل اليه بطليموس ابيفان وحرص على تنفيذه ، فى الأعمال الكثيرة التى قام بانجازها ، ومن أجل هذا بالتحديد ، سجل حجر رشيد ذو النقوش الثلاثة اسمه كواحد من أبرز الذين قدموا لمصر الكثير من الأعمال النافعة .

أما أولئك الحكام الهمج والجشعون الذين تعاقبوا على مصر منذ ذلك الوقت ، ونحن لانستثنى من ذلك الرومان ، فقد أهملوا هذا الفرع الهام من فروع الاقتصاد السياسى ، وأى حظ ذلك الذى سيكون للفرنسيين ، لو أمكنهم ، كما كانت لدبهم النية ، أن يضعوا فى سجلات التاريخ ، ذكراهم الى جانب ذكرى ذلك الحاكم الخير ، الذى ذكرته للتو .

تقطع شمال ولاية بنى سويف عديد من الترع الصغيرة التى تتفرع عن النيل ، والتى لا نجد من بينها سوى ترعة واحدة كبيرة تسمى ترعة

بنى عدى ، باسم القرية الى تجرى هذه التربة بالقرب منها ، ويبلغ انساع هذه التربة فى العادة ٢٥ مترا ، وقد لست ان ارتفاع المياه بها، فى الحادى والعشرين من ترميدور من العام الثامن (٩ أغسطس ١٨٠٠) ، وبعد اليوم الذى اجتزناها فيه ، يبلغ المترين و ٥٠ سم ، وتنبع هذه التربة من النيل مباشرة ، على بعد ١٥٠ كم من بنى سويف وتستطيع القوارب أن تعمل بها لمدة تقرب من ستين يوما ابتداء من ١٥ أغسطس حتى ١٥ أكتوبر ، ويتفرع من جانبي هذه التربة عديد من القنوات الصغيرة لرى أول جزء مرتفع من ارض الوادى ، وبالقرب من طنسا تنقسم التربة الى فرعين : يضى أولهما الى هذه القرية حيث توجد قنطرة من القرميد لها ثلاثة أقواس ، تشكل الحد الذى تنتهى عنده الملاحه ، وبعد ذلك تضى المياه لتفترش الاراضى الواقعة عند سفح الجبل : اما القسم الثانى فيقوم ببعض الالتفافات ، ويمر بالقرب من قرى الحافر ، أبو صير ، انفسط ، أبويط ، فمن العروس ، وبعد ان يغطى بمياهه كل السهل الواقع بين جسر وكثيش فى الشمال ، وجسر بهيشين فى الجنوب، يذهب مايفيض من مياهه ، عن طريق قناة تقع بالقرب من قرية معصرة الخليل (✽) ، الى منخفض غير مزروع ، بين جبلين فاصلين وصحراويين ، تجرى منه المياه نحو بحر يوسف ، لتمضى بعد ذلك ، حيث تصب فى الفيوم ، مارة تحت قناطر هواره .

ويوجد بالجزء الجنوبى من الولاية ، عدد اقل من الترع المتفرعة عن النيل ، وذلك بالمقارنة مع العدد الموجود بالجزء الشمالى ، لكن الجزء الجنوبى ، يحصل على حاجته من المياه بنفس السهولة التى يحصل عليها بها الجزء الشمالى ، حيث تشقه باتجاه عرضه عديد من الترع الكبرى المتوازية مع مجرى النهر ، فتغطى حتى فى حالات الفيضانات الضعيفة شرائح الارض الواقعة بينها . واهم هذه الترع : ترعتان يشر اليهما الجغرافيون باسمى : بحر يوسف ، وبحر الباطن . وقد ضللتا الاكاديميين

(✽) يورد الشاموس الجغرافى للاسناذ محمد رمزى اسماء عدة قرى فى هذه النواحي تحمل اسم معصرة ليس من بينها اسم معصرة الخليل . ولا بد انه يقصد واحدة من هذه القرى . [المترجم]

(م ١٠ - وصف مصر)

دانييل ، وجبر Gibert اللذين نظرا اليهما باعتبارهما نفس بحيرة
موريس .

أما بحر يوسف ، الذى ترسمه على الدوام الخرائط الحديثة لمصر ،
وهو ترعة تسير فى خطوط مستقيمة لمسافة تصل الى حوالى ٣٦ فرسخا ،
ابتداء من ملوى حتى دخوله الى الفيوم ، فليس سوى فرع قديم من
فروع النيل ، متعرج بقدر ما يتعرج النيل نفسه ، ويبلغ اتساعه اليوم
حوالى المائة متر ، ويبلغ أقصى اتساع له فيما بين قريتي Hezè (*)
ومنقطتين ، وقد قسسته بنفسى ، ١٤٠ مترا . ويحاذى هذا الفرع من
فروع النيل سفح الهضبة الليبية (الغربية) كما يحاذى النيل نفسه
سفح الهضبة العربية (الشرقية) ، وينقل بحر يوسف مياه النيل الى
الفيوم ، ومجراه على الدوام أدنى من مستوى السهل الذى يعد ، كما
ذكرت من قبل ، أدنى من منسوب مياه النهر ، ومع ذلك فإن بحر يوسف
يتصل وقت الفيضان ، بالترع المتوازية معه ، فتغطى المياه الأرضى التى
تقع بينه وبين النيل .

أما اسم الباطن ، الذى أطلق على سبيل الخطأ على احدى الترع ،
فليس على الإطلاق اسم علم ، ذلك أنه تسمية تطلق بشكل عام على
معظم الترع التى تعبر الأرض الداخلية باتجاه من الجنوب الى الشمال (٤)
ويطلق اسم باطن كذلك على ذلك الجزء من الأرض الواقعة بين النيل
والهضبة الليبية . وتشق هذه الكلمة فى العربية من بطن بمعنى
وسط ، أو البطن نفسها ، وعلى هذا النحو أطلق العرب اسم بطن البقرة
على قمة الدلتا التى يفصل عندها فرعاً دمياط ورشيد .

وهناك اسم آخر أكثر خصوصية ، على الرغم من أن عديداً من
الترع تحمله ، هو : فياض : ويميز هذا الاسم البواطن الكبرى عن
البواطن الصغرى . وأكبر هذه الفياضات الباطنية ، وهو الوحيد الذى

(*) لم استطع التحقق من هذا الاسم فأثرت أن أوردته بحروفه
اللاتينية كما ورد بوصف مصر . [المترجم]
(٤) انظر دراسة عن بحيرة موريس ، تأليف جومار ، العمور
القديمة ، دراسات ، المجلد السادس .

امكنه ان يضلل كلا من جرانجية Granger والاب سيكار ودانفيل ويوتعمهم فى الخطأ ، لا يزيد طوله عن ستة فراسخ ، ويتفرع من النيل عند قرية الشيخ زياد ، على بعد حوالى ١٢ فرسخا الى الجنوب من بنى سويف ، ثم يواصل بعد ذلك مجراه ، باتجاه الشمال الغربى ، ليمر على بعد فرسخ واحد الى الشمال من الفشن ، جنوب قرية بنى صالح ومن هناك يمضى لتفيض مياهه فى الاراضى حتى يحجزها جسر صفط راشين . وفى خلال الفيضان ، يتم اتصاله مع بحر يوسف ، الى الشمال قليلا من قرية مزورة ، ويبلغ أقصى عمق له ٣٦ مترا ، وعندما قمت بعمل مجسات له فى العشرين من فريمر من العام التاسع (ديسمبر ١٨٠٠) لم يكن عمق مياهه لتبلغ أكثر من ١٥٠ سم وكان اتساعه يبلغ ٢٦٠ سم تحت مستوى سطح السهل .

والى الجنوب ، لأبعد من ذلك ، يوجد فياض باطنى آخر ، ينبع من النيل بين قريتى النزلة وقلوصنا ثم يمضى بالقرب من قرية مطاى حيث يتفرع الى قسمين ، يصبح أحدهما ، وهو الواقع الى الشرق ، باطننا صغيراً ينتهى على بعد فرسخين من هناك ، فى اراضى أبو جرج ، أما الآخر ، الواقع الى الغرب فيتصل أثناء الفيضان ببحر يوسف عند قرية اهوة . لكن طوله لا يبلغ أكثر من ثلاثة فراسخ .

وهكذا فان رى اراضى ولاية بنى سويف ، يتم ، كما يتم فى كافة أنحاء مصر العليا عن طريق كل من الرى الطبعى ، والرى الصناعى ، مع فارق واحد هو أن الرى الطبعى يتم حتى سفح المسلسلة اللبية فى الجزء الشمالى للولاية ، حيث يستمر الانحدار حتى هناك ، فى حين يشكل المقطع الطولى للوادي ، فى الجزء الجنوبى من هذه الولاية ، شكل منحدرين ، أولهما يبدأ من ضفاف النيل ، ويبدأ الثانى من شطالفرع المسمى بحر يوسف ، بحيث يشكل هذان الانحداران عند التقائهما داخل الاراضى منخفضا او ترعة صغيرة تحمل اسم البحر الباطن أى النهر الداخلى بسبب احتفاظها بالمياه وقتا اطول مما تحتفظ بها الاجزاء الأخرى ، وبسبب هذا الوضع كذلك فان الرى الصناعى لا يتم فى الجزء الشمالى الا فى شريط الأرض القريب من النيل فى الوقت الذى يتم فيه فى جميع أنحاء الجزء الجنوبى على شواطئ كل من النيل وبحر يوسف .

والطرق التى تتبع فى هذا الرى الصناعى بسيطة للغاية ، ولا تختلف الا حين يستوجب الأمر رفع المياه بعلو يتفاوت قدره . وهذه الطرق ، هى على وجه التقريب نفس الوسائل المستخدمة فى كل انحاء مصر ، والتى وصفها عديد من زملائى . لكننى أجريت بنفسى تجارب لا أرى بأسا من أن أورد هنا نتائجها .

ان أبسط كل هذه الوسائل ، هى تلك التى رسمت فى الصورة رقم ٤ من اللوحة ٦ — الدولة الحديثة ، المجلد الأول . وتمثل هذه الصورة رجلين ينكثان فوق أكمة من الأرض يحملان ويؤرجحان ، بواسطة أربعة حبال ، سلة من اغصان الصفصاف ، مصنوعة على شكل قلنسوة كروية ومغطاة بالجلد . ويفترق هذان الرجلان الماء ، بواسطة هذه السلة « على الطائر » ويفرغانها بنفس السرعة على الأرض ، وتنتظم حركة تشغيل السلة ، وعب الماء وصبه بأغنية خاصة ، يمكن ان نجد نصها فى دراسة المسيو فيوتو Villoteau عن الحالة الراهنة لفن الموسيقى فى مصر (٥) ، وتكاد لا تستخدم هذه الطريقة فى مصر العليا لأنها لا تفترض سوى فرق طفيف فى مستوى ارتفاع الأرض عن سطح المياه . ولهذا السبب فهى أكثر ملائمة لمصر السفلى حيث تستخدم بكثرة ، وفضلا عن ذلك فناننا نرى أنها هى نفس الطريقة المستحدثة فى أوروبا تحت اسم baquetage التى بلجأ اليها الناس فى عملية نزع المياه .

اما الوسيلة الثانية ، والتى تتطلب فرقا أكبر فى مستوى ارتفاع الأرض عن سطح الماء ، فهى الشائعة فى كل انحاء مصر العليا : وهى عبارة عن أداة تسمى « دلو » ، رسمت فى الصور رقم ١ ، ٢ ، ٣ — اللوحة السادسة ، الدولة الحديثة . المجلد الأول ، وهذه عبارة عن رافعة من الخشب ، طولها ثلاثة أمتار وتبعد نقطة ارتكازها بمسافة متر عن أحد طرفيها . وتعلو مستوى الأرض بـ ١٢٠ سم ، ويتصل بالطرف الأطول قضيب متحرك طوله ٢٦٥ سم . تتعلق بطرفه ، كما فى الوسيلة الأولى ، سلة من اغصان الصفصاف مغطاة بالجلد ، وتتحرك حول محورها ، وفوق الطرف الآخر من الرافعة يثبت ثقل (المقاومة) من المطين

(٥) انظر الدولة الحديثة ، الدراسات ، المجلد الرابع عشر (الطبعة الثانية) .

الجاف الهدف منه سهيل حركة صعود السلة . ويقوم الشخص المكلف بإدارة هذه الرافعة باغتراف المياه ، وصبها على الأرض ، أو فى قنابة نحملها الى الأراضى التى يراد ريها . ويبلغ قطر السلة ٤٠ سم ، ويبلغ عمقها ٢٥ سم ، ونرفع حوالى ١/١٠٠ من المنر المكعب من المياه . وقد تابعت عدة مرات ، حركة اثنين من هذه الدلاء : كانت المياه فى حالة الدلو الأول تبعد عن الأرض بنحو ٢٣٠ سم ، وكان العامل يرفع الدلو ٦٤ مرة كل ٦ دقائق : أما فى الحالة الثانية ، فكانت المياه تبعد عن سطح الأرض بـ ٢١٠ سم ، لكن العامل لم يكن يرفع الدلو الا ٥٠ مرة كل ٦ دقائق . ولا يستطيع العامل أن يعمل لأكثر من ساعتين فى اليوم الواحد ، ثم يستبدل به آخر ، ليعمل لنفس المدة ، وهكذا ، فإذا ما افترضنا وجود رجلين يعملان بشكل منتظم منذ شروق الشمس حتى غروبها ، فانه يلزم لرى الفدان الواحد أن يعمل لمدة خمسة أيام : وتبلغ مساحة الفدان ٥٧٢٤ مترا مربعا .

ويستخدم الدلو للرى بالنسبة للأراضى التى تزرع بالشعير والذرة والحنطة وبقيّة البقول والحبوب الزيتية ، وان كان قد يصعب استخدامه فى زراعة الارز وقصب السكر وحبوب صبغة النيل ، وغيرها من المحصولات التى تتطلب كميات كبيرة من المياه .

وتروى الأراضى التى تزرع بهذه المحاصيل بوسيلة ثالثة ، عبارة عن دولاب ذى قواديس (الساقية) ورسمها مبين فى اللوحتين الرابعة والخامسة ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، الفنون والحرف .

وفى هذه الآلة ، يعلق ثوران فى طرف رافعة يبلغ طولها ٢٩٠ سم ، تدار بواسطتها شجرة موضوعة بشكل رأسى ، تحمل بشكل أفقى مدارا مسننا يبلغ طول نصف قطره ٨٠ سم ، ومزود بـ ٣٦ سنّة يبلغ طول الواحدة منها ٢٠ سم ، وتحمل تلك الشجرة التى تدور حول نفسها ، وألّتى يبلغ طولها ٢٧٠ سم ، فى طرفها الآخر ، دولابا آخر يبلغ طول نصف قطره ١٢٠ سم ، تتحرك حوله ، بفعل دورانه سلسلة من الحبال تحمل ١٨ قادوسا من الطين (الفخار) دائرية الشكل ، يبعد كل واحد عن الآخر بـ ٥٠ سم ، وهذه القواديس تحمل المياه الى أعلى الدولاب

بارتفاع يبلغ ٣٢٠ سم فوق مستوى سطح النهر ، ثم تصبه في حوض ،
نمضي منه الى الأراضي المراد ريها عن طريق مسقاة صغيرة .

ويبلغ محيط الطريق (المدار) الذى تدور فوقه التيران ١٨ مترا
و ٨٦ سم ، وتدور التيران ١٥٠ دورة في الساعة الواحدة . وبشكل
متواصل يعمل ثوران لمدة ثلاث ساعات ، وفي نهاية هذه المدة يستبدل
بهما غيرهما ليعملا ثلاث ساعات أخرى ، وهكذا يعمل بالساقية أربعة
تيران ، يبلغ اجمالى المدة التى يعمل خلالها كل اثنين منهم ست ساعات
فى اليوم الواحد ، أى أن الدولا يعمل لمدة ١٢ ساعة يدور خلالها ١٨٠
دورة ، وحيث تبلغ الأسنان الخشبية للمدار الأفقى (القنفذ) ٥٦ سنة،
حيث تبلغ اسنان الدولا الرأسى الصغير ٣٦ سنة فقط فان الدولا الأخير
يقوم بدورة كاملة و ٩/٥ الدورة كلما أكمل القنفذ الأفقى دورة واحدة ،
وهكذا فان الدولا الرأسى الصغير يكمل ٢٨٠٠ دورة فى مقابل ١٨٠٠
دورة التى يدورها القنفذ فى اليوم (١٢ ساعة) . وحيث يبلغ قطر الدولا
الذى يحمل القواديس ٢٤٠ سم ويبلغ محيطه ٧٥٤ سم فى حين أن محيط
الحزام الحامل للقواديس ١٩ مترا فان عدد دورات الأخير يكون عكس محيطه .
أى أن حبل القواديس يعمل ٨٣٧٧/٩ دورة كلما قام الدولا بـ ١٠٠٠
دورة : وقد سبق أن رأينا أن الدولا الرأسى الصغير . يقوم بـ ٢٨٠٠
دورة فى اليوم ولهذا فان الحزام الحامل للقواديس يتم ٢٣٤٦ دورة خلال
نفس المدة . ويبلغ قطر القادوس حوالى ١٦ سم بعقب يبلغ ٢٦ سم،
وهكذا تبلغ سعته ١/٣ من المتر المكعب (أى ٥٠٠ سم^٣) مما يبلغ
بسعة الـ ١٨ قادوسا الى ٩/١٠٠ من المتر المكعب (أى ٩٠٠٠ سم^٣)
فى كل دورة ، أى ٢١١ مترا مكعبا و ١٤ سم^٣ من المياه خلال ١٢
ساعة من عمق يبلغ ٣٢٠ سم .

واذا أردنا أن نعقد مقارنة بين الدلو والدولا ذى القواديس حسب
التجارب التى انتهت من ذكرها فسئرى اذا أخذنا الدلاء أساسا ، أن
العامل الذى رفع بواسطة الدلو ٦٤ سلة مليئة بالمياه خلال ٦ دقائق
على ارتفاع يبلغ ٢٣٠ سم لم يكن ليرفع سوى ٤٦ سلة على ارتفاع ٣٢٠
سم وخلال نفس المدة . وحيث أن سعة السلة تبلغ ١/١٠ من المتر المكعب
(١٠٠٠ سم^٣) ، فلن بمقدور هذا العامل أن يرفع ٦٠/١٠ من
الأمتر المكعبة فى الساعة الواحدة ، أى ٥٥٠ سم^٣ و ٢٠ سم^٣ من المياه

خلال ١٢ ساعة . وهكذا فان انتاج الدلو بالنسبة لانتاج الدولاب ذى القواديس بالأرقام ٥٥٢٠ الى ٢١١١٤ ، وعلى هذا النحو يمكن أن نضع أربعة دلاء فى مقابل دولاب واحد لكن بسهولة القصوى فى استخدام الماكينة الأولى بالإضافة الى سهولة انشائها ونقلها والحصول عليها فى كل مكان ، تجعلنا نفضل استخدام الدلو ، الذى نراه منتشرًا على ضفاف النيل وترع الرى ، فى كل أنحاء مصر .

وفى هذا الوصف الهيدرولى الذى انتهيت من تقديمه لولاية بنى سويف ، لم نر شيئًا على الإطلاق يمكننا منطقيًا من أن نزن أن بحيرة مورييس وملحقاتها تستطيع أن تجد لنفسها مكانًا ، فى هذه الولاية ، والآن ، سندخل الى ولاية الفيوم ، وهناك سنرى كل الصعوبات قد اختفت دون جهد ودون عوائق ، وسوف نعرف فى النهاية ، أن التفاصيل التى قدمها القدماء ، تنطبق تمام الانطباق على هذه الولاية ، حتى أنها لتفريينا على الدوام ، وفى كل خطوة ، أن نطلق على الأماكن الحالية، نفس الأسماء القديمة ، التى وصلتنا عنها ،

القسم الثاني

ولاية الفيوم

على الرغم من أن الأبحاث التى أخذت على عاتقها القيام بها فى الفيوم ، كانت هى الهدف الأساسى من وراء رحلتى الى هذه المناطق ، فأننى لم أتمكن من النفاذ الى هناك الا فى الأيام الأولى من شهر نيفوز من العام التاسع (نهاية ديسمبر ١٨٠٠) ، ذلك أننى وجدت نفسى ، بعد أن انشغلت فى بداية رحلتى برسم خريطة مساحة لبنى سويف التى كان على أن الحق بها خريطة لولاية الفيوم ، غير قادر على القيام بالذهاب الى هذه المناطق ، وبأية وسيلة ، بسبب فيضان للنهر غير عادى ، أوقف كل أعمالى لأكثر من ثلاثة شهور . كان فيض بحر يوسف قد أوقف بشكل تام ، الاتصال بين بنى سويف والفيوم ، وتنتسب عزلة الولاية الأخيرة فى كل كارثة كبيرة تصيبها ، ذلك أن العرب الغرباء لا يترددون مطلقا فى اغتنام هذه الفرصة كى يأتوا لينتهبوا السكان . وقد حدث ذلك خلال الفترة التى تحدثت عنها ، وحين قام قائد بنى سويف بانفاذ قوات النجدة التى أرسلها الى المدينة (✽) ، فقد اختفى العربان ، الذين تلقوا تحذيرا بالأمر فى الوقت المناسب ، ومعهم أسلابهم ، قبل أن تصل الفرق الفرنسية . وقد يكون من الضرورى للغاية ، كما سبق أن أوضحت رأى ، أن ينشأ طريق من بنى سويف الى تريتى هواره (✽✽) واللاهون ، اللتين تقعان عند مدخل الفيوم .

وقد رحلت أخيرا فى الثالث من نيفوز من العام التاسع (٢٤)

(✽) يقول الأستاذ محمد رمزى فى قاموسه الجغرافى : « وذكر صاحب كتاب الفيوم وبلاده ، أن اسمها المدينة ، وهو اسم يطلق فى الفيوم على مدينة الفيوم تمييزا لها عن الاقليم المسمى باسمها » ، ومنذ الآن سنشير اليها فى الترجمة العربية باسم مدينة الفيوم فى حين يعنى الفيوم الاقليم بأكمله ، [المترجم] .

(✽✽) هناك أكثر من قرية تحمل هذا الاسم ، ولعله يقصد هواره عدلان ، حيث يذكر القاموس الجغرافى للبلدان المصرية ، للأستاذ محمد رمزى عن هذه القرية انها « من القرى القديمة ، وكانت تسمى قديما دموه اللاهون لأنها واقعة بجوار قناطر اللاهون » . [المترجم]

ديسمبر ١٨٠٠) مع رفيقى ، المسيو كاريسى Caristie ، وذهبنا لننام فى هواره الكبيرة وهى قرية كبيرة تقع على الشط الأيسر لبحر يوسف عند الفتحة التى يأخذ منها هذا الفرع من النيل مياهه، وقبالتنا على الشط الأيمن ، رأينا قرية اللاهون الصغيرة ، وينم الاتصال بين هاتين القريتين عن طرق قنطرة مبنية بالحجارة ، وتتكون من ثلاثة أقواس ، نبلغ فتحة كل منها ، فيما بين قوائمها البحتية المستقيمة ، ٢٨٠ سم ، ولا تهدف هذه القنطرة الى مجرد تحقيق الاتصال بين هادين القريتين ، لأن كلا من هذه الإمواس الثلاثة ينتهى بقناة نستخدم فى تنظيم كمية المياه التى ينبغى أن تحصل عليها ولاية الفيوم . بحيث لا تسيل المياه إليها ، أثناء الفيضانات الضعيفة بوفرة أكثر مما ينبغى ، أما فى حالة الفيضانات العالية ، فتفتح أمام المياه فتحة أكثر اتساعا وتتخلص منها بذلك أرض مصر ، التى قد يصبح مكث المياه فوقها ، لمدة أطول من اللازم ، مجحفا وضارا .

وعند الحاجز الشرقى رأينا أثرا لثلاثة أحجار منتزعة اكد لى الملوك كاشف سليمان ، الذى كان يرافقنا ، أنه قد رأى عليها كتابات عربية تبين أن هذه القنطرة قد شيدها السلطان سليمان بن محمد ، فى القرن السادس الهجرى ، ومما تجدر ملاحظته أن هذه الفترة هى نفس فترة حكم الأسرة الفاطمية ، التى أصبحت مصر من جديد تحت سيطرتها، مملكة مستقلة (كذا !) ، وفى هذه الفترة كان السلاطين الحاكمون ، نتيجة لذلك ، يعملون لصالح مصر ، ولتحقيق منافعها الخاصة .

وفىما بين قنطرة وقرية اللاهون ثمة قنطرة تحتجز المياه التى تجلبها ترعة بنى عدى الكبرى ، والتى تمضى بعد سقوطها ، عن طريق قناة المعصرة ، فى ذلك المنخفض الواقع عند سفح جبل أبى صير ، لتروى بعض الأراضى حول ترعة اللاهون ، ثم تذهب بعد ذلك ، عن طريق بحر يوسف الى الترعة التى تصل إلى طامية ،

وتشيع بين أهالى الفيوم فكرة متواترة عن الحالة القديمة لهذه الولاية ، اعتقد أن ليس خروجا على الموضوع أن نوردها ، وقد علمت هذه الفكرة عن طريق رجلين وجدت فيهما درجة عالية من الذكاء ،

بالنسبة لمواطنيهما ، أحدهما هو سيد أحمد الشيخ الأكبر لمدينة الفيوم ، أما الآخر فهو الملوك الكاشف سليمان ، الذى سبق أن تحدثت عنه ، والذى كان يقطن الفيوم منذ مدة طويلة . وقد أكد لى هذان الرجلان : أن ولاية الفيوم تبعا للحكايات الماثورة ، والموانرة من زمن الى آخره ، لم تكن قبل عهد يوسف بن يعقوب ، الذى يعودون به الى عصر ضارب فى القدم ، سوى بحر واسع ، جاءت مياهه عن طريق النيل ، وان يوسف قد أمر ببناء جسر فى اللاهون كى لا يتسدفق المزيد من المياه الى هذا الخليج ، وان المياه التى بقيت قد انصرفت الى البحر ، مما أدى لحدوث عملية جفاف كبير للأراضى ، وعندما بلغ ارتفاع المياه (فى هذا الخليج) الى مستوى السرير الذى تجرى فيه ، ظلت المياه الزائدة فى المناطق الواطئة ، وكونت بركة قارون وبركة العرق اللتين أصبحتا مستودعين لمياه الاقليم ، وبدأ يقل ارتفاع مياههما بفعل البحر .

ان هذا الراى ، الذى يبدو بشكل واضح ، فوق مستوى المصريين المحسدين لحد كبير ، لا يمكن ان يكون نتيجة لخيالهم ، لكنه يحمل ملحما من رواية ماثورة قديمة ، ولعلنا لو تفحصناه عن قرب لوجدنا فيه تفسيراً لهذا الاتساع الكبير للغاية والذى أعطاه الأقدمون لبحيرة موريث ، وكذلك على وجه الخصوص ، لملك المنافع التى يقولون ان المصريين كانوا يحصلون عليها من هذه البحيرة ، حين كانوا يستخدمونها ، المرة بعد المرة بمثابة وعاء وحوض وخزان . وتتفق هذه الرواية مع ملاحظته حول بحيرة قارون ، كما أن النتائج التى سوف أحصل عليها ، سوف تنفى كذلك الى نفس معطيات هذه الرواية ، وربما بمزيد من الدعم ،

وعندما نجتاز الفتحة التى يتركها الجبل بين هواره وبين اللاهون نرى سهلا واسعا يشكل ولاية الفيوم ، وليس لهذا السهل من مستوى واحد ، وانما هو يشكل تكوينين ينحدران على نحو خفيف ، يتجه أحدهما الى الشمال ، ويتجه الثانى الى الجنوب ، وفوق الخط الفاصل بين هذين المنحدرين توجد ترعة تبدأ من قنطرة هواره ، لتمر بعد ذلك بمدينة الفيوم ثم تعبر المدينة وتنقسم عند الطرف الغربى الى تسع قنوات صغيرة ، تمضين حاملات للمياه لأراضى القرى المختلفة ، وتحدد فتحة المياه الخاصة بكل واحدة من هذه القنوات بواسطة قنطرة روعى ان

يكون مستواها أعلى من مستوى سطح الأراضى التى تمر بها وأعلى كذلك من منسوب الأرض التى ستروىها .

وتسمى أول هذه القنوات ، أى تلك التى توجد الى أقصى الشرق ، بحر نقاليفة ، وتمر بقريتى نقاليفة ، وسيلة .

أما الثانية فتحمل اسم بسنهوور وتصل الى قرية تحمل هذا الاسم .

ويطلق على الثالثة اسم سينيرو وتتجه الى قرية فيديمين .

وتعبر الرابعة قرى العجميين ، أبشواى ، أبو جنشو ، أبو كساه .

وتسمى الخامسة ترعة ثلاث . وتذهب الى قرية تسمى بهذا الاسم .

وتمر السادسة بقرية السنباط .

وتحمل السابعة اسم بحر دسيا ، وتنقل المياه الى أراضى قرى :

دسيا ، جردو ، طهار ، المناشى (مناشى الخطيب حاليا) .

وتروى **الثامنة** أراضى : موتود ، وريد ، أبو دلشى (※) .

وأخيرا فان القناة التاسعة التى تبدأ من أحد أقواس منطرة جامع

الحاج حسن ، نروى أراضى قرية الزاوية .

ومن جهة ثانية ، غثمة ترع أخرى عند الطرف الشرقى للمدينة ،

تحصل على مياهها ، شأنها فى ذلك شأن الترع التى انتهينا من ذكرها ،

من القناطر والخزانات : وتتجه أولى هذه الترع — وهى تقع قريبا

من باب النورية — الى قرية ترسا وذلك بعد أن تدور حول خرائب

أرسنويه .

أما **الترعة الثانية** وهى تحمل اسم بحر سنورس فتمر بقرى :

الكعابى ، بيهو ، خنفشة ، أبويط . . .

وتحمل **الترعة الثالثة** والأخيرة اسم بحر المعصرة وتروى قرى

الزربى ، كفر فزارة ، منشأة الأمير ، سرسنا ، أنترتارس (※※) .

(※) لم أتمكن من التحقق من صحة هذه الأسماء .

[المترجم] ،

(※※) لم أجد فى القاموس الجغرافى قرية بهذا الاسم ويحتمل أن

تكون هى قرية مطرطارس . (المترجم)

وكما سبق لى أن ذكرت ، فمن الملاحظ أن التربة التى تنقل المياه من هواره الى مدينة الفيوم ، والتى تحمل طيلة هذه المسافة اسم بحر يوسف ، هى أكثر ارتفاعا عن أرض الولاية ، كما أن مجراها ذوقاع صخرى فى كل المناطق الجبلية التى تخترقها هذه التربة .

ونجد على بعد حوالى ثمانية آلاف متر من جسر هواره الكبير ، على الشاطئ الأيمن قرية هواره الصغير ، التى شيد بالقرب منها ، وبكثير من الحذق جدار لتقوية الشاطئ ، يشكل خزاناً صغيراً ويصنع فى الوقت نفسه مسقط مياه يبلغ حوالى سبعة أمتار .

وحين تعلو المياه فى بحر يوسف ، فوق هذا الخزان . فإنها تسقط فى رشاح واسع ، لتمضى من ثم الى طامية ، ومن هناك الى بركة قمارون ، بل أن هذا الخزان ، فيما يبدو ، لم يكن كافياً على الدوام لاستيعاب الزيادة الشديدة فى المياه ، حيث نرى أبعد من ذلك بثلاثة آلاف متر ، خزناً آخر يصب المياه كذلك من جديد داخل الرشاح الذى سبقت الإشارة اليه عن طريق قناة صغيرة تفضى بها الى هناك .

وتشكل تفاصيل هذا الشط الأيمن لبحر يوسف ، ابتداء من اللاهون حتى هذا الخزان الثانى أهمية قصوى ؛ فبالقرب من قرية اللاهون مقابل أول هرم ، قاعدته من الحجر الجيرى ، أما بقيته فمن القرميد ، ثم نرى أبعد من ذلك بثمانية آلاف متر هرماً آخر من القرميد من نفس نوع الهرم الأول ، ثم عند سفحه قناة صغيرة تنبع من بحر يوسف قبل الخزان الأول الذى سبق أن تحدثت عنه . وتتجه هذه القناة الى طامية باتجاه مواز لاتجاه الرشاح الكبير ، الذى يظل جانبا طول السنة تقريبا ، إذ هو لا يتلقى الا المياه الزائدة عن حلة الولاية ، ويطلق عليه لهذا السبب اسم بحر بلا ماء (أو النهر الفارغ) .

وتغطى الأرض حول هذا الهرم الثانى أكوام من الأحجار الجيرية وأنقاض منشآت تدل بوضوح على المكان الذى كان ينهض فيه قصر اللابرنث الشهير ، الذى كان مقرا لاثنى عشر ملكا ، والذى يتفق معظم المؤرخين فى أن يضعوه الى الجنوب قليلا من بحيرة مورييس ، غير بعيد من كروكوديلوبوليس Crocodilopolis (أى مدينة التمساح) وفى الواقع ، فإننا ما نزال نرى هناك بقية من حجرة ، لكنها مطبوسة

تتألف ، بالإضافة الى قطع من الأعمدة المصنوعة من الجرانيت الصوانى ، مقطوعة على النحو الذى قطعت به أعمدة معابد مصر العليا ، على شكل حزمة من النباتات البصيلية لقباب مصرية ضخمة من الجرانيت كذلك ، ويؤكد بلين Plinie أن اللابرنث هو الوحيد من بين كل آثار مصر العليا الذى وضعت فيه أعمدة شكلت على هذا النحو .

وقد انتقلت الى هذا المكان ، فى العاشر من نيفوز من العمام التاسع (٣١ ديسيمبر ١٨٠٠) ، وقد ربطت ببعض العمليات المثلية هرم اللاهون بهذا الهرم الثانى ، الذى أسميته هرم اللابرنث ، وكذلك بمئذنة جامع الروبى الواقع الى أقصى الغرب من مدينة الفيوم ، وبهذه الطريقة ، استنبطت خطى طول وعرض هذه المدينة — ولم يكن المسيو نوية Nouet قد دونهما ، وقد وجدت أن خط عرضها هو ٤٨ ، ٢٨ ، ٢٩ شمالاً ، فى حين أنها تقع على خط طول ٩ ، ٤١ ، ٢٨ الى الشرق بالنسبة لخط زوال باريس .

وقد تبين لى أن طول الخط الواصل بين الهرمين يبلغ ٨١١٦ متراً و ٧/١٠٠ من الأمتار ، وأنه يشكل مع خط الزوال المغناطيسى زاوية مقدارها ١٠ ، ٤٩ الى الغرب .

وقاعدة هرم اللابرنث مربعة الشكل ، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعها ١١٠ من الأمتار . ومع ذلك فمن الواضح ان كانت ثمة تكتسية لجدرانها لم نستطع تقدير سمكها ، ويرى المرء قبيل زاويته الشرقية فتحة مبنية ، وهى واسعة مستديرة تنتهى الى ممر تحت الأرض ويتجه نحو الجزء السفلى من الهرم ، ولقد نزلت من هذه الفتحة كى اتوغل فى هذا الممر تحت الأرض ، لكن سرعان ما أوقفنى هناك كومة من الانقاض يفص بها الممر . ويحتوى قاع هذه الفتحة على مياه تبين أنها شديدة الملوحة . ويجد المرء اذا ما نزل عند نحو منتصف الرشاح ، تجاه هرم اللابرنث ، بقايا حائط كبير من الحجارة ، وقد استخلصت من ذلك أن هذا الحائط قد كان فيما مضى جسراً يحتجز المياه التى كانت تتسرب من أعلى الخزانات التى كانت مقامة على التربة الكبيرة .

وليست للشط الأيسر لبحر يوسف نفس الاهمية التى للشط الأيمن

وتشهد نتوءات الصخر المتناثرة عليه ، والتي تشكل زوائد جبلية (إى مقدمات لظهور الجبل) بأن هذا الشط لم يكن عامرا من قبل قط ! وان كنا مع ذلك نجد عليه اليوم قرية دمشقين التي ترتبط أراضى ومصالح اهاليها مع ذلك بأراضى ومصالح قرية هواره الكبيرة حيث تتجاوز هذه مع تلك . بل انك لا تستطيع المضى فوق هذا الشط اذا كنت تبغى الوصول الى قريه الحصنة التي تحدها بعد أن تجتاز الخزان الثانى بقليل ، والذي يقع بدوره على الشط الايمن وقد سبق أن تحدثت عنه ، وبالقرب من قرية الحصنة هذه ، الى الشرق منها وإلى الغرب يتم تخزين مياه بحر يوسف ، عن طريق ترعتين ، فوق منطقة تنحدر الى الجنوب وهكذا تروى القرى التي تنتشر بين بحر يوسف وبحيرة الغرق .

. ويشكل سطح هذه المنطقة فيما يبدو ، الى جانب انحداره نحو الجنوب ، منحدرًا هائلًا نحو الغرب ليلعب قمة بحيرة قارون . ويشق هذا المنحدر خور واسع يحمل اسم بحر الوادى . وقد شيد عليه سد ضخّم رائع يحد من تدفق مياهه فوق هذا المنحدر . ويختلف هذا السد اختلافاً بينا عن أمثاله من السدود التي تراها فى وادى مصر ، فهو مبنى من الأحجار والقرميد ، وتدعمه أكتاف سمكية متعددة ، وتمتاز بمشاة لا تهيئها عادة الا مراعاة قواعد من البناء وابتدىء هذا الجسر عند قرية دفينو وينتهى عند قناسة صغيرة تشكل حدود الأراضى المزروعة (فى هذه المناطق) ، ويبلغ طول هذا الجسر حوالى ٨٥٠٠ متر .

ولا يستطيع المرء أن يكتم دهشته البالغة حين يرى عملا بهذه الضخامة لخدمة مثل هذه المنطقة الصغيرة من الأرض والتي تنحصر بين بحيرة الغرق وبين الجبال التي تفصل الفيوم عن مصر وبحر يوسف والسد ، فى حين أن هناك مناطق شاسعة للغاية من الأرض ، ولكنها مهملة فى وادى مصر كليا ، اذا ما صرفنا النظر عن بعض المصاريف الزهيدة التي تنفق على الجسور والترع التي تغذى أو تحمى هذه الأراضى . وهناك ما يدفعنى على الاعتقاد بأن المنشأة التي تحدثت عنها ، مثلها فى ذلك مثل قنطرة هواره ، هى من عمل واحد من سلاطين (الخلفاء) الفاطميين القدماء .

كان هدفى أن اجتاز كل منطقة البحر بلا ماء لكى ابلغ طامية وبركة

قارون وقد كنت أوشك أن أبداً عمل مسح لها لكن الظروف، التي صاحبت بعض التحركات العسكرية للفرقة العسكرية فى الاقليم ، قد حرمتنى من الجنود الذين وضعوا تحت امرتى . وقد كنت شديد الحاجة اليهم لاثام عملياتى . لذلك فقد اضطررت ، أسفاً ، أن أعود ادراجى الى مدينة الفيوم — حيث اتخذت على الفور استعداداتى لبدء جولتى حول بركة قارون ، وهى الجولة التى كنت أرغب فى القيام بها منذ وقت طويل ، كما قد انتهزت بعض الفراغ الذى هياه لى بطاء الاستعدادات كى أزور موقع كركوديلوبوليس (أى مدينة التمساح) القديمة والتى تحول اسمها فى عهد البطالمة الى أرسينويه .

حين يخرج المرء من مدينة الفيوم عن طريق القنطرة الواقعة تجاه جامع الروبى ، فانه يجتاز ، بينما هو يتوجه الى الشمال ، فراغا كبيرا تتناثر فيه مقابر المسلمين ، ليجد بعدها باتجاه يمتد من الجنوب الى الشمال عديدا من المرتفعات التى تكونت من انقراض من الاحجار الجيرية والطوب والفخار مبشرة هنا وهناك لمسافة تبلغ حوالى ٢٥٠٠ متر نحو الشمال ، و ٢٥٠٠ متر من الشرق الى الغرب . وقد عبرنا ، المسيو كاريسى Caristi وأنا ، وزرنا ونقبنا فى كل واحد من هذه المرتفعات كى نتعرف فيها على أثر لبعض المنشآت ، لكننا لم نجد سوى انقاض شائبة لم نستطع أن نتوصل منها الى نتيجة سوى انها تنبئ بسبب اتساعها وضخامة حجمها عن موقع مدينة (قديمة) ، وحيث لا توجد انقاض أخرى بهذه الضخامة فى كل الاقليم ، فقد استنتجنا أن هذه المدينة هى كروكو ديلوبوليس التى سميت فيما بعد : أرسينويه .

وسرعان ما تأكدت لنا هذه الظنون ، فقد وجدنا بفضل بعض العمليات المثلثية (أى باستخدام مبادئ حساب المثلثات) التى قمنا بها على هذه المرتفعات أن المسافة التى تفصل بينها وبين هرم اللابرنت تبلغ ١٨/١٠٠ ٨٧٠٢ منها ١٢٥٠ مترا تمتد حتى منتصف الخرائب . ويقول سترابون بطريقة موضوعية ان المسافة فيما بين أرسينويه وهذا الهرم ، تبلغ ١٠٠ غلوة ، أما دانفيل فيرى أن من المحتم أن نطرح من أطوال هذه الأبعاد مقدار الثمن (فى مقابل التدرجات) لكى تتفق مع الخطوط المستقيمة ، وتبعا لحساب الأميال الرومانية ، التى يضع دانفيل كل أربعة منها مساوية لشونة مصرية واحدة ، وبذلك يبلغ طول الشونة المصرية

٣.٢٤ قامة ، فان طول الغلوة يساوى ٥٠ قامة، و٦ بوصات أو ١٠٠/٩٨٢٦
مترا ، وبذا فان كل ٦٠ غلوة تساوى شونة واحدة . وهكذا فان المائة
غلوة تساوى ٥.٤٠ قامة ، وقديما واحدا ، وثمانى بوصات ، أو ٩٨٢٦
مترا ، يحصم منها الثمن فيبقى ٨٥٨٩ متر ، وهو ما يتفق لحسد كبير مع
المسافة التى توصلنا اليها باستخدام أساليب المساحة وحساب المثلثات .

سبق أن عرفنا فى مدينة الفيوم ، ان كانت توجد أطلال هامة الى
الغرب من هذه المدينة ، وقد انتقلنا الى هناك ، لكننا لم نجد سوى
منطقة يطلق عليها اسم العمود ، شاهدنا بها مسلة واحدة من الجرانيت
على بعد حوالى ١٠٠٠ متر من قرية أبجيح وحوالى ٤٠٠٠ متر من مدينة
الفيوم نفسها ، وقد أخذ المسيو كاريستى على عاتقه أن يقدم الرسوم
وبعض التفاصيل الخاصة بهذه المسلة .

وما ان انتهت الاستعدادات لرحلتى حول بركة قارون حتى تمكنت من
بدء طريق كى اتم هذه الجولة الاستطلاعية . كنت قد استطلعت
مبدئيا رأى كل من الشيخ أحمد وسليمان كاشف حول هذه الرحلة ،
وكنت اخبرتهما بأننى - وقد علمت المصاعب التى سوف الاقبيها مع جنودى
الفرنسيين ، وهى المصاعب التى يعانى منها أى انسان يقيم فى الصحراء
لأيام كثيرة - قد عزمت على أن أصحب معى بعض العربان ، وقد سمعنا
كلاهما كى يثنيانى عن عزمى ، مؤكدين لى أن كل القبائل التى تجوب هذه
البتاع تتحارب ، وأئنى لا أستطيع أن أضع ثقتى فى أى منها دون أن
أجازف بمخاطر كثيرة . وقد أكد لى صحة ذلك شيخ العرب الذى تعهد
بأن يصحبنى مع ثلاثين من أتباعه لو أئنى اصطحبت معى عددا مماثلا من
الجنود الفرنسيين ، هنا طلبت ثلاثين جنديا من الكولونيل ابلير Eppler
قائد الولاية ، لكنه أجاب بأنه يرحب بأن يضع تحت امرتى أى عدد أطلبه
من الجنود لاجتياز القرى والأراضى المزروعة ، لكنه لن يجازف ويعطينى
جنديا واحدا لمثل تلك الرحلة التى عزمت على القيام بها .

لكن الرغبة المتأججة التى كانت تدفعنى للقيام بهذه الجولة
الاستطلاعية ، جعلتنى أحادث من جديد شيخ العربان ، وانضم الكولونيل
ابلير لدخض الاعتراضات السديدة ، والتى تتولد بلا انقطاع ، والننى يقيهما

ردا على كل اقتراح لنسا ، ومع ذلك فقد ائتمناه فى النهاية بان يصحبني ،
ومعه ثلاثون من اتباعه من راكبي الخيول .

كان هذا العربي ، واسمه على ، شابا لنا يتجاوز الثلاثين من
عمره ، وهو ابن صالح ، الشيخ الأكبر لقبيلة السمالو ، التى اتخذت
لنفسها مقر اقامة ثابت ، فى قرية مبنية تقع على شط بحر الوادى .

ويطلق اسم السمالو على هذا التجمع العام للقبائل التى تحيط
بإقليم الفيوم ، وكان لصالح هذا ثلاثة أبناء وابن أخ واحد ، يتولى كل
منهم زعامة قسم من اقسام القبيلة ، وكان أولهم ، وهو الشيخ على يقم
فى مدينة الفيوم ، أما الثانى ، جروبة فكان قريبا منه فى المنيا ، أما الثالث
فهو عثمان ، ويسكن أبو جندير ، وبالقرب منه يقيم بعض أبناء له آخرين أنجبهم
من امائة ، وكان هؤلاء زينة وبهجة شيخوخه ، أما ابن أخيه ، على أبو بكر
، فكان يشغل النزلة ، وسوف اقدم فى نهاية هذه المذكرة جدولا مفصلا
بكل القبائل الخاصة بولاية الفيوم وكذلك بقبائل بنى سويف .

والسمالو ، هم العربان الوحيدون الذين اتخذوا لأنفسهم مقر اقامة
ثابت فى الفيوم ، وهم يقيمون هناك منذ زمان ضارب فى القدم كما أنهم
قوم ذوو بأس شديد لكنهم على الدوام فى حالة حرب مع القبائل المغريبة
التي تأتي لتشن غاراتها داخل الإقليم ، ونقصد هنا عرب الضعفا ، من بنى
سويف ، والذين يدخلون عن طريق قرى طامية انفسط وأبويط حيث
يتخذونها مقر اقامة لهم ما ان تصل الى أراضيها مياه الفيضان ، كما ينطبق
الحال على عرب الفرغان الذين يسكنون صحراوات الاسكندرية والبحيرة ،
أولئك الذين يتجمعون فى الفيوم بعد مجيئهم عن طريق قصر قارون كي
يشنوا غاراتهم العديدة التى يسلبون خلالها قرى السمالو .

وهكذا ، لم نكن مخاوف الشيخ على لقتله على غير أساس ، ومع
ذلك فقد اعتقدت بأننا ما دمنا قد هزمناهم مرة ، فائنا الآن بمنأى عن
الأخطار ، ولم اعد أفكر الا فى مشروع رحلتى .

وضعت البرنس على ظهرى ، وغطيت راسى بطربوش يعممه
شال ، هكذا رحلت ، فرنسيا وحيدا ، يحوطه ثلاثون بدويا تسلحوا بشكل
(م ١١ - وصف مصر)

جيد ، وعرفوا ، كما أخبروني ، كيف لا يمكنوا أحدا من أن يلحق بهم العار أو الفزع ، وحيث أراد الشيخ — دون شك — أن يعطيني فكرة طيبة عن قبيلته ، فقد بدأ يظهر ضروبا من شجاعة فياضة لم أكن أعهدا فيه حتى هذه اللحظة ، وانتقلت هذه الشجاعة دون مشقة الى تابعيه .

غادرنا مدينة الفيوم فى السادس عشر من نيفوز من العام التاسع (٦ يناير ١٨٠١) فى منتصف النهار تماما ، وواصلنا طريقنا باتجاه الشمال بدقة بين عدة ترع ، وكانت تقع على شمالنا ترعة ، شاهدت على شاطئها خزاناً مبنياً ، وسرعان ما مررنا بالقرب من قرية الأعلام التى كانت تقع يميناً ، ودخلنا فى دغل يغمره الضوء ، ويغص بأشجار النخيل ، ووصلنا بعد ذلك الى قرية الكعابى الجديدة ، وكان أقصر الطرق بالنسبة لنا أن نسير باتجاه شمال الشرق نحو المعصرة وطامية ، ولكننا عندما قيل انه يوجد بالقرب من هنا مبنى سبق أن تحدث عنه بوكوك Puckocke ، يعرف باسم أقدام فرعون ، فقد واصلنا طريقنا الى الشمال مجتازين التربة التى تمر بقرية الكعابى ، فوصلنا الى سهل رملى واسع تقع به قرية بيهو ، حيث يعلو بالقرب منها أقدام فرعون المزعومة : وليست هذه الأقدام سوى كتلتين كبيرتين ، تتكونان من أحجار جيرية ضخمة ، ويبلغ طول كل منهما حوالى ستة أمتار بعرض يبلغ متراً واحداً وثلاثين سنتيمتراً ، كما يبلغ ارتفاعهما نحو المتر وهما مثبتتان ، كلتاهما ، بدون أسمنت أو مونة من أى نوع ، وتبعد كل منهما عن الأخرى بحوالى ١٢٠ متراً ، كما أنهما محاطتان بكتل صغيرة شكلت بنفس الطريقة .

وقد شاهدنا بالمثل أحجاراً ضخمة متناثرة ، مما يدل على أن هاتين الكتلتين كانتا فيما مضى أكثر ارتفاعاً مما نراها عليه الآن ، إذ هى لا تبلغ الآن أكثر من عشرة أرهاصات (مدمكات) ، ويقدر ارتفاعهما معا بعشرة أمتار ، أما سطحهما الداخلى فمربع يبلغ طول ضلعه حوالى ثمانية أمتار . كنت قد لاحظت أن أنحدار الأرض ، الذى بدأ منذ حوالى ٤٠٠ متر الى الجنوب ، قد بدأ يصبح محسوساً بشكل طفيف ، مما قد يحمل على الاعتقاد بأن البحيرة تمتد حتى تبلغ هذه النقطة ، وكانت مسيرتنا قد انتظمت منذ غادرنا مدينة الفيوم ، وكنا نقطع حوالى ٣٣٥٠٠ متر فى الساعة ، ومع هذا فلا بد أن الساعة الآن قد بلغت الثانية الا الربع ، ومن هنا ، من خلال هذه الاطلال ، كنت المح وسط دغل كبير من أشجار

النخيل ، الى الشمال ، قرية سنورس ، التى وصلنا اليها فى الساعة الثالثة وكنا قد غادرنا أقدام فرعون فى الثانية تماما .

سنورس قرية كبيرة بعض الشيء ، وهى مبنية فوق مرتفع ، هو أعلى المرتفعات التى شهدتها فى مصر ، ويقدر ارتفاعه بحوالى ٥٠ مترا، ويحتمل أن كان يشكل فيما مضى واحدة من جزر البحيرة التى يبدأ المرء يرى مياهها بمجرد بلوغه أعلى المرتفع ، ومن جهة أخرى فسنورس هى مستودع للأملح التى تستخرج من البحيرة .

وقد نزلت عند الشيخ الحبشى الذى استقبلنى بمودة بالغة ، واشتريت من القرية الشعير والفول اللذين للخيول فى الصحراوات ، ثم رحلت فى الساعة الخامسة متوجها نحو الشمال ، واستمرت مسيرتنا نهرا حتى السادسة والنصف بالرغم من أننا فى انقلاب الشتاء ، ووصلنا الى رشاح صغير يسمى البطش ، يجرى من الشرق الى الغرب ، وينقل المياه من طامية حتى بركة قارون ، وتصل المياه الى طامية عن طريق ترعة قادمة من الروضة عن طريق ترعة تمر عند سطح هرم اللابرنت ، وعن طريق رشوحات البحر بلا ماء .

وكان بالامكان عند النقطة التى وصلنا اليها ، ان نعبر الرشاح فأتساعه هنا يبلغ حوالى ثمانية أمتار فى حين لا يزيد عمقه عن ٣٢ سم، بعد أن كنت قد لاحظت أنه كان محفورا على شكل ترعة بعقب يبلغ حوالى عشرة أمتار ، وباتساع يبلغ ثمانين مترا . كنا لانزال على بعد يبلغ مسافة مرسخين الى الغرب من طامية وكانت المياه لا تزل بالغة الجودة ، مما يدل على أنها لم تتأثر مطلقا من قربها من البحيرة . وهناك تزودنا بما نحتاج من المونة والمياه ، وملأنا قربنا بكمية تكفى لفترة جولتنا بالصحراء .

أخبرنى الشيخ على أن هذه النقطة هى تلك التى تمر بها القوافل التى تمضى مباشرة من الجيزة الى سنورس . بل أن الفيضان نفسه لا يتسبب فى توقف مسيرة القوافل التى تمضى عندئذ صاعدة الى سيلة .

لاحظت ان الانحدار نحو البحيرة ، ابتداء من سنورس ، كان لايزال محسوسا حتى بيهمو ، وان سطح الأرض يتبع انحدارا آخر من

الشرق نحو الغرب ، وهذان الانحداران واضحان تماما / ، حتى اننى لم اعد ارى ذروة رشاح البطش فى الجنوب الا كشریط عام يلتقى بشكل حاد مع الأفق .

كان الظلام تاما حين انتهينا من ملء قربنا ، فمن المعروف ان بدة الغسق فى هذا المناخ اقل بكثير من المدة التى يمكثها الغسق فى أوروبا ، لذا فقد عزمنا على ان نمضى ليلتنا فى هذا المكان ، وذهبنا لى نقيم خيامنا على قمة الشط الشمالى ، على مسافة تبلغ مسيرة نصف ساعة الى الغرب من النقطة التى عبرنا عندها رشاح البطش .

منذ رحيلنا من مدينة الفيوم ، هذا رفاقى فى السفر فى سلوكهم نحوى حذو الشيخ على فى سلوكه ازانى . وكان هذا الرجل لا يفارقتى أبدا . وعلى الرغم من الصعوبة التى كنت أستشعرها فى التعبير عن نفسى وأفكارى بلغته ، فانه لم يكن يحدث سوى . كان ينص على بقصد تسلينى وارضائى دون ريب ، حكايات كنت أجد — وهذا اعتراف منى — مشقة كبيرة فى تتبع تسلسلها ، وان كانت تشتت انتباهى لدرجة اكبر مما كنت أود ، اذ كنت غارقا تماما فى ملاحظاتى ، وفى بعض الأحيان كنت الحظ عن بعد ، بينما هو يقص حكايته ، أمرا يستغفر فضولى فكنت أجرى اليه ، ومع ذلك فقد كان حصانه يتعقب على الفور ، وبأقصى سرعة آثار حصاننى ، وكذلك فقد كان العربان ، كى يدخلوا البهجة على نفسى يتصنعون فيما بينهم معارك ومبارزات ، وذلك بأن يجروا على التوالى ، فريقا فى اثر فريق ، ثم يأتى أحد الفريقين القريب منى لينشدنى أغنيات البطولة الخاصة بقبيلته . وكان مظهر السرور الذى أبديه ، هو بمثابة مكافأة أقدمها لهم ، فيعاودون من جديد العابهم التى لم تقلل برغم ذلك من جدية وانتظام مسيرتنا .

ما ان أعطيت اشارة التوقف لاقامة معسكر المبيت حتى نصبت خيمتى وكنت قد أحضرت مرتبتين صغيرتين : احدهما للشيخ على والآخرى لى ، لكننى لم أنجح مطلقا فى ان أحمله على تقبل المرتبة التى خصصتها له ، بل لقد استطعت بعناء شديد ان أقنعه على ان ينسأ داخل خيمتى ، حيث اكتفى بحصيرة بسطها فوق الرمال . وخلال بضع دقائق أعيدت القهوة ، وقدوت ، وبدأت استعدادات العشاء .

وبانتظار ذلك ، إبدت رغبتي في أن أرى كل رفاقي ، فأتوا يقبلون يدي ، وينحنون مصطفين حول فراشي . وشاء أحدهم ، وهو الذى قدمه الى الشيخ على بوصفه منشدا ، أن يعطيني فكرة عن أمجاد وسمو قبيلته ، فقص واحدة من هذه القصص التى تحكى أعظم انجازات السمالو التى يتداولونها استلهاما للشجاعة ، كان المستمعون في كل لحظة يطلقون « يا الله » دليلا على الإعجاب ولارضاء المنشد ، وعلى الرغم من أنني لم أكن أدرك معنى سوى القليل مما كان يقول ، فأننى لم أكن الأخير في اظهار سرورى . كانوا جميعا مسرورين . وفى النهاية أحضر الدجاج والبيلاف (طعام شرقى من أرز ولحم وتوابل) أكلنا بنهم . وبعد الطعام صرف الشيخ على كل رجاله وأوقد شعلتين حول خيمتى كي يبعد الضباع — حسبما يقول — وهى التى تتجول هنا وتكثر في هذه المناطق ، وتدثر كل من الباقين في برنسه وقضى الليل على مقربة من حصانه .

في السابع عشر من نيفوز (٧ يناير) أزلنا خيامنا في الساعة السادسة والدقيقة الأربعين من الصباح ، وكان الاتجاه الرئيسى لطريقنا يتجه من الشرق الى الغرب ، لكننا انعطفنا لحظة الى اليمين نحو الجبل العالى ، تاركين البحيرة من يسارنا ، على بعد حوالى فرسخ ، وارتفع الانحدار بهدوء وبشكل غير محسوس ليختفى بعد ذلك في واد واسع ينبسط نحو الشمال ، أخبرنى الشيخ على أنه هو الطريق المؤدى من مدينة الفيوم الى الجيزة ، وإلى الاسكندرية عن طريق البحر بلا ماء الذى يمر بالقرب من بحيرات النطرون ويتفق مايقول الشيخ على هنا ، مع رأى الجنرال أندريوسى (١) وسوف نرى فيما بعد النتائج التى استنتجتها حول طريقة استغلال البحيرة فيما مضى .

كان العربان شديدي اليقظة ، يجدون في التعرف في الرمال التى تغطي هذه الصحراء ، على ما ان كان قد مر من هنا منذ مدة قريبة عربان آخرون وبعد مسيرة نحو الساعة تعرفوا خلال السكبان على آثار

(١) انظر ملاحظات حول بحيرة مورييس المدونة في الاخطار الخامس بالثالث عشر من بروير من العام التاسع .

عربان الضعفا الذين سبق للسماو أن طردوهم من الفيوم قبل ذلك بنحو
عشرين يوما كما قيل لى .

وقد وجدنا بين البحيرة والجبل كمية كبيرة من الأشجار التى جفت
وهى بعد واقفة ، وهى تشبه منسفة (※) صغيرة جافة ، ويبدو أن
أحدا لا يفيد من هذه الغابة الصغيرة فى شىء فى حين أن من المستطاع
أن تكون ذات نفع كبير لمدينة الفيوم .

وصلنا فى العاشرة الا الربع الى ضفاف البحيرة وهناك شاهدنا
أكميتين كبيرتين تنعزل احدهما عن الأخرى ، ويبلغ ارتفاع كل منهما
٥٠ مترا ، ويصل قطر اولاهما وهى مستديرة مائتى متر أما الأخرى فقاعدتها
ذات أركان أربعة ، ويبلغ طولها ٥٠٠ متر بعرض يبلغ ثمانين مترا . وهذه
الأخيرة هى الأدنى الى البحيرة ، وتغطى كليهما أحجار شديدة الصلابة
من الحجر الجيرى مقطوعة بشكل خشن ، وقد رأينا هناك كذلك بعض
انقاض من القرميد ، لكننا لم نلمح عليها لا نحتا ولا آثارا لمنشآت ،
كانت الكتلتان نصف مطموستين فى الرمال ، وتقع احدهما بالنسبة
للأخرى فى خط يسير من الشمال الشرقى نحو الجنوب الغربى بطول يبلغ
حوالى ألف متر . فى هذه المنطقة يبتعد الجبل عن البحيرة بحوالى ثلاثة
مراسخ على الأقل ، لكنه يميل بعد ذلك الى الاقتراب منها وتتناثر فى
كل هذا الفراغ أكوام صغيرة من الأحجار الحمراء تتكون من نوع من الحجر
الطباشيرى يشبه الى حد ما ، مانطلق عليه نحن الحجر الدموى أو
الطباشير الأحمر Sanguine وقد نزل العربان جميعا من فوق خيولهم
واكبوا على جمع هذه الأحجار بهمة شديدة ، وأخبرونى بأن الناس
يشترون منهم هذه الأحجار لاستخدامها فى صبغة المنسوجات ولطلاء
الأخشاب .

ترجلت عند شاطئ البحيرة التى بدت لى مياهها الرائقة للغاية
وكانها تميل الى الملوحة ، وان كانت هى غير ملحية ، فسقيننا منها جميعا
خيولنا وتناولنا هناك وجبة خفيفة ، وقد أكد لى العربان أن البحيرة

(※) المنسفة : أحرش نبتت أشجارها الصغيرة على أرومات
أشجار قديمة مقطوعة .

تحتوى على أسماك بالفئة الجمال ولذيذة الطعم وان كان سكان الفيوم لا يصيدونها على الاطلاق ، وان صيادين من وادى النيل هم الذين يأتون الى هناك لهذا الغرض ابتداء من نهاية مارس وحتى ابتداء فيضان النيل . وتزدحم البحيرة كذلك بالطيور المائية . وكان عرض البحيرة عند النقطة التى نزلنا عندها يبلغ — فيما يبدو لى — حوالى الفرسخ .

وحين اجتزنا الهضبتين لاحظت أن الأرض ترتفع بطريقة شبيهة فجائية ، وان كان فى شكل مرتقى غير وعر ، ثم يصل المرء بعد ذلك الى هضبة واسعة صخرية السطح ، عارية من الخضرة ، تمضى لتتصل بالجبل الذى يبعد عن النقطة التى نحن عليها بحوالى الفرسخ جهة اليمين، كما يتوغل سطح الهضبة حتى ضفاف البحيرة على بعد ١٠٠ متر جهة الشمال ، وقد رأينا فى الفراغ الذى يفصل صخرتى الهضبة طبقات من أرض قابلة للزراعة تغطيها طبقة خفيفة من الرمال ، كما رأينا هناك أيضا بعض آثار للملاحات قديمة .

وقد وجدت فوق هذه الهضبة التى وصلت اليها بعد الظهر بعشر دقائق ، أطلال مدينة ، أو ربما أطلال قصر واسع أخبرنى العريان أنه يسمى قصر « طفشارة » أو مدينة النمرود ، كما رأيت هناك حائطا سميكًا بالغ الارتفاع ، تعرفنا فيه على عدة مبان مختلفة ، تشهد حالها على قدمها ، وقد كنت أود لو استطعت أن أرسم الأسطح التفصيلية لهذه الخرائب ، لكن لم تتيسر لى لا المساعدات اللازمة ولا الوسائل، ولا الوقت اللازم . لذلك فقد اكتفيت برسم كروكى لها يشير إليها على خريطة . وكانت الجدران مبنية بنوع من القرميد طوله ٢٠ سم وعرضه ١٠ سم وسمكه ٧ سم ، مصنوع من الجير الأبيض المخلوط بالقش المهروس مع قليل من الصلصال ثم جفف بعد عجنه بتعريضه لأشعة الشمس . وهذا الخليط هش للغاية ، ويتحول بسهولة بالفئة بين الأصابع الى تراب .

وتمتد هذه الخرائب حتى شاطئ البحيرة ، بعرض يبلغ مائتى متر، وبطول يصل الى نحو ستمائة متر ، ويتجه من الشمال الى الجنوب ، وقد شاهدنا هناك كمية من القرميد المحروق والفخاريات وأوانى الموميات . الخ . وحين تبين لى عجزى السام عن إنشاء خريطة لهذا

المكان بسبب نقص الامكانيات ، ابدت للعربان رغبتى فى ان اقوم بعمل بعض الجفائر ، فبدأوا جميعا البحث ، واحضر لى واحد منهم نصلا مستقيما ذا حدين صنع مقبضه من القرون ، ويبلغ طوله ٩٠ سم وعرضه ٥ سم ، ويحمل فى اعلاه ، اسفل القبضة نقشا عربيا محفورا ، كما انه مطعم بسلك من الفضة ، وقد حملته الى فرنسا ، وان كان سرق منى فى مارسيليا ، فى نفس اللحظة التى كنت اتيهيا فيها للرحيل الى باريس .

نزلت من المرتفع الصغير الذى توجد هذه الأطلال فوقه ، وواصلت طريقى قريبا لحسد كاف بين شواطىء البحيرة باتجاه غرب الجنوب الغربى . وظلت التربة هى نفس تلك الهضبة الصخرية التى وجدتها قبل قصر النمرود . وكان الجبل الواقع عن يمينى على بعد فرسخ صغير من البحيرة يواصل ميله على الدوام نحو الاقتراب منها ، وعند حوالى الثالثة كان طريقنا ، المتوازى على وجه التقريب مع الاتجاه الرئيسى للبحيرة ، يمضى بشكل ثابت نحو الجنوب الغربى ، وفى تلك اللحظة نزلنا فى منخفض ظننته فى البداية خليجا قديما ، لكننى رأيته بفد ذلك يتوغل نحو الجبل مواصلا اتجاهه نحو الغرب . وعند مدخل هذا المنخفض ، على شواطىء البحيرة ، لمحت مرتفعا صغيرا على هيئة هرم فذهبت الى هناك على الفور وسرعان ما تبينت أنه ليس سوى صخرة تغطيها اتربة تختلط بالرمال وتنمو عليها نباتات كثيفة . . وفى مواجهتها رأيت جزيرة منخفضة السطح وسط البحيرة .

فى كل هذا المنخفض تنثر عدد كبير من الاكمام على شكل قمم ، تغطيها فى معظمها ارض قابلة للزراعة ، وبقيايا أحجار جيرية شبيهة بتلك التى سبق أن رأيتها فى الصباح . وهكذا ، فإذا أخذنا بالافتراض المرجح القائل بأن البحيرة كانت تمتد حتى الجبل — وهو افتراض تدعمه الطبقات التى نراها ، والاكمام التى تحدثت عنها ، والتى تأكلت بشكل انقى بفعل المياه ، وكذا القواقع التى كانت لاتزال على نفس حالها حين جمعتها من تحت قدمى — فإن هناك مايدعو الى الظن بأن كل هذه الاكمام قد كانت بالمثل جزرا مأهولة ، أما الهرمان اللذان تحدثت عنهما هيرودوت ، فلا بد أنهما كانا يقفان فوق واحدة من هذه الجزر العديدة ، وان كان قد

يضعب علينا ان نعرف فوق اى واحدة من هذه الجزر كان ينهض هذان الهرمان اذا ما استثنينا الجزيرتين الاوليين اللتين تقعان عند منتصف البحيرة طولا وعرضا ، على افتراض انها كانت تبدأ عند طامية وتمتد من بيهمو حتى الهضبة الليبية ، ذلك اننا اذا استبعدنا هذا الموقع الاوسط الذى يبدو هيرودوت وهو يشير اليه كما لو كان يستند الى شىء ثابت، فسوف نجد عددا كبيرا من الجزر يصلح اى منها لوجود هذين الهرمين تبعا لكمية وأحجام الأحجار الجيرية التى تغطيها .

أما وقد ظللنا نواصل طريقنا على الدوام باتجاه الجنوب الغربى فقد وصلنا فى الساعة الرابعة والدقيقة ٣٥ بعد أن أسرعنا فى السير قليلا ، الى موقع غابة ، تغطيه أشجار جافة تشبه ما كنت شاهدها فى الصباح ، بل لقد كان امتداد الغابة الأخيرة يبدو أكبر بكثير ، كما كانت جذوع الأشجار تبدو أقوى ، وكان الكثير منها له سمك ذراع الانسان، كما كان سمك البعض الآخر يماثل سمك الفخذ . من هناك كنا نرى باتجاه الغرب قصر قارون . وكان قد خطر ببالي أن اذهب الى هناك لقضاء الليل حين لحق بنا أحد العربان ، أرسله الشيخ صالح ، والد الشيخ على . وكان قد بلغه منذ قليل أن ثمانية من رجاله قد انتهبوا بواسطة جماعة تتكون من ٣٠٠ من فرجان البحيرة (عرب الفرجان بولاية البحيرة) . لقد كلف الشيخ صالح هذا العربى بأنه يخبرنا بأنه يلزم حراسنا اليقظة ، كما طلب اليها بشكل خاص الانغماس على الاطلاق بالدخول فى معركة ، نظرا لقلّة عددها ، ومع ذلك فقد أخبرنا أن نظل على هدوئنا (ألا نفزع) وبأنه على صلة بمجريات الأمور لكى يعرف ما آل اليه حال أعدائه الفرجان ، وبأنه اذا مابلغهم أنهم لايزالون على مقربة منا ، فسيأتى للقائهم على الفور وفى صحبته ٥٠ من السمالو ، هنا لفت الشيخ نظرى ، دون أن ترهبه هذه الأخبار ، أن ليس من حسن الفطن أن نصل الى قصر قارون مع قدوم الليل ، اذ يعد هذا المكان الملتقى المفضل للقوافل الجوابة وأنه ، اذا ما افترضنا أن فريقا من بينهم قد يقضى الليل فى المناطق المجاورة ، فسوف يعاود سفره مع بزوغ النهار ويترك لنا الميدان خاليا . أدركت صواب رأيه ، وفضلا عن ذلك ، فلم نكن قد نلنا — حتى ذلك الوقت — أى قسط من الراحة منذ السادسة صباحا ، أى أننا قد سرنا بشكل متصل لمدة عشر ساعات لذلك

فقد اخترنا من الغابة مكانا دنيئا وحصينا تحيط به المرتفعات ، حيث يتردد على الطريق الذى كنا سلكناه عرب الفرجان فى معظم الأوقات ، وأقام الشيخ عليه حراسة ، وقضينا الليل فى هذا المكان .

كنا بالفعل على ضفاف البحيرة ، كما كنا فى نفس الوقت جد قريبين من الجبل . تذوقت المياه مرة أخرى فوجدتها تماثل تلك التى تذوقتها فى الصباح . وقد شربت منها كل خيولنا بل وكثير من خدمنا ، الأمر الذى يعارض بعض الشيء مع تأكيدات بوكوك Pococke الذى وجدها كما يقول أكثر ملوحة من ماء البحر . وفى الحقيقة ، فقد جاء هو الى هناك بعد مثل الفصل الذى جئت فيه بشهر ونصف ، ولعل الفيضان الذى سبق رحلته كان بالغ الضعف ، فى حين كان الفيضان الذى سبق رحلتى بالغ الوفرة .

وفى اليوم التالى ، ١٨ نيفوز (٨ يناير) واصلنا طريقنا فى الخامسة والربع صباحا ، لكننا لم نستطع أن نحاذى ضفاف البحيرة بسبب ادغال الأشجار التى تغطيها . لذلك فقد اضطررنا أن نقترّب من الجبل ، الذى كانت المسافة التى تفصله عن البحيرة تضيق شيئا فشيئا ، كما قد أصبحت طبقة الأرض القابلة للزراعة يزيد سمكها أكثر فأكثر دون أن تخلطها الرمال ، ولهذا فلعلم من المؤكد أن يكون هذا الجزء الشمالى من البحيرة قابلا للزراعة حتى سطح الجبل اذا أمكن رى أراضيه بمياه الفيضان العذبة .

وصلنا أخيرا حوالى الساعة السابعة والربع ، بعد مسيرة أبداً بعض الشيء من مسيرة البشارحة ، الى الطرف الغربى للبحيرة ، وهو يفرق كلية سطح الجبل وكنت أظن أننى هنا بصدد ذلك الجبل الذى يقطعه منذ مبدئه ، البحر بلا ماء ، والذى يسميه دانفيل فى مؤلفه مصر القديمة Aegyptus antiqua باسم Lycus Fluvius ، ولكننى وجدت ، بدلا من هذه الفتحة ، أن السلسلة تتابع حتى مدى البصر باتجاه الجنوب الغربى ، وعرفت من العربان أنه لا يوجد فى هذه المناطق لا البحر بلا ماء ، ولا منخفض من أى نوع يستطيع أن يقوم ادعاء على وجوده .

أما لسان الأرض الضيق ، والذي يسمح بالمرور بين طرف البحيرة وسفح الجبل ، فقد كانت تطمسه كومة من الأحجار الجيرية الضخمة التي لا يبدو عليها أى أثر لعمل الإنسان والتي اعتقد أنها ببساطة قد سقطت من الطبقات العليا للجبل ، وفضلا عن ذلك فقد كان هذا الممر وعرا لأن شواطئ البحيرة هناك مغطاة بتشرة ملحقة تخور بسهولة تحت الأقدام وتوجد تحتها مياه عميقة لحد كبير فى بعض الأحيان . وتمكنت جماننا بعد جهد بالغ المشقة من عبور هذا الممر .

وحيث كنت قد نفذ صبرى شغفا لرؤية قصر قارون الذى كنت اراه منذ الصباح بشكل بالغ الوضوح : فقد تركت القافلة تواصل طريقها ، ورحلت وحيدا الى الامام متخذا اتجاه جنوب الشرق نحو هذا المبنى الذى وصلت اليه فى الثامنة والربع . وهكذا أمضيت ساعة ، سار فيها حصانى بأقصى سرعته كى اقتطع المسافة التى تفصل القصر عن طرف البحيرة ، إذ أن المنحدر لم يكن وعرا بل كان كبيرا . وفى نفس الوقت فإن القصر مبنى فوق مرتفع صغير مما يسمح بالظن بأن مياه البحيرة كانت فيما مضى أكثر ارتفاعا ، وبأنها فى تلك الأزمنة التى كانت تمتد فيها لتبلغ الجبل ، كانت تأتى كذلك كى تبلل سفح هذا المبنى .

لن أقدم هنا مطلقا وصفا لقصر قارون ، فقد سبق أن قدم المسيو جومار Jomard الرسوم والخرائط الدقيقة لهذا المبنى (٦) . لكننى فقط أسمح لنفسى بأن أقرر أننى لست أعتقد أن منبناه قديم بنفس قدم معابد مصر العليا ، فأطلاله ، أولا ، لا تبدو حاملة لآثار تخريب الزمن لكنها تحمل آثار تدمير قامت به يد البشر . وثانافها نحن نرى عند مدخله أحجارا منحوتة بشكل خشن على طريقة الإغريق ، فوق الدعامات الأمامية ، وإن كان من الممكن الافتراض بأنها قد أضيفت فى أزمنة لاحقة . وقد حفر دكتور بوكوك اسمه على أنقاض عضادات باب الدخول الأول الواقع الى اليسار ، كما حفر بول لوكاس Paul Lucas اسمه على أنقاض العضادات الواقعة الى اليمين .

(٦) انظر اللوحتين ٦٩ ، ٧٠ ، العصور القديمة ، المجلد الرابع .

كان هذا بمثابة اكتشاف له أهمية قصوى بالنسبة لى . هنا لم
أستطع أن أقاوم نزوة أن أنلمسها ، فكتبت هذه الكلمات على العضادة
الواقعة الى اليسار فوق اسم بوكوك .

عبر ب . م . مارتان ، المهندس الفرنسى
الجزء الشمالى من بركة قارون ، فى السابع عشر
من نيفوز من العام التاسع لقيام الجمهورية
الفرنسية (الموافق ١٧ يناير ١٠٨١)

وقد تفحصت باهتمام ، من أعلى المبنى ، وبمنظار جديد ، امتداد
الجبل الذى تركته عند شاطئ البحيرة ، فلم أجد على مدى البصر
مايمكن أن يدعم افتراض وجود الفتحة التى يتحدث عنها كل من ليكاس
ودانفيل ؛ بل وجدت الأرض تضى صاعدة فى مرتقى لطيف يبتدىء عند
البحيرة وينتهى ببلوغ قمة الجبل . ويرى المرء عن بعد كبير تلك الحلمة
(القمة) التى حدها هذا الجغرافى فى خريطته عن مصر الحديثة
تحت اسم Haram Medaté el - Hebjad ولا تزال بعض جدران قصر
قارون تنهض واقفة سواء من ناحية الشرق أو من ناحية الغرب ،
بل ويوجد كذلك مبنى صغير أمام مدخله ، ومع ذلك فلا توجد مطلقا
قطعة واحدة من الجرانيت . وتقع حجرات القصر ، المربعة الشكل ،
على خط يمتد بشكل تقريبي من الجنوب الى الشمال ، أما خط الواجهة
الرئيسية أو المدخل فيمتد من الجنوب الشرقى ، وإذا ما رنا الانسان
ببصره نحو الأفق فسوف يلاحظ عن قرب ، وإلى الجنوب ، قمة عالية من
الأرض تدل بوضوح على الحد القديم للبحيرة .

غادرت قصر قارون عند الظهر تماما ، واتخذت طريقي مباشرة نحو
الجنوب الشرقى ، كانت الأرض التى نطوها صخرية خالصة تغطيها رمال
خفيفة ، وتتناثر عليها اكداس صغيرة من الأحجار والقرميد ، ولكن
بكميات بالغة الضالة ، وهذا ما جعلنى اظن أننا نتوصل الى نتيجة
مبتسرة حين نطلق على هذه الاطلال اسم بلدة قارون ، ذلك اثنى مقتنع
بأنه اذا كانت توجد بعض مباني فوق هذه الصخرة فانها لابد أن تعود
الى فترة جد قريينة ، جاءت بعد انحسار مياه البحيرة بزمن طويل ، كما

ان هذه المباني ، من جهة اخرى ، ضئيلة الأهمية للغاية ، ولا يمكنها بأية حال أن تدلل على وجود مدينة قديمة ، وسيكون موقع مثل هذه المدينة ، فضلا عن ذلك بالغ السوء ، اذ يظل هذا المكان ، على الدوام ، عاريا من أية خضرة .

كنا نسير بخطو حثيث ، اذ كانت جبالنا قد سبقتنا بنحو نصف الساعة ، ووجدنا انفسنا عند حوالى الساعة الثانية فوق قمة بناء صغير يقع الى اليسار على شاطئ البحيرة ، ولاحظت أن قمة عالية بعض الشيء تمتد بدءا من هذه النقطة ، على نحو مواز لهذا الشاطئ .

وبعد مسيرة نصف ساعة شاهدت مبنى آخر فوق نفس القمة ، وتلك على وجه التقريب هى الأماكن التى يطلق عليها بوكوك اسمى قصر كوفو Couphou وقصر كوبال Copal ، وأخبرنى العربان أنه يشار الى هذه المباني فى عمومها باسم قصر البنات ، وتوجد على شواطئ البحيرة ، عند سفح الجبل الواقع الى يميننا فى ذلك الوقت ، ونحن باتجاه بحيرة الفرق ملاحات كان يستغلها أهالى النزلة . ولكى يتم لهم ذلك ، قاموا بحفر آبار تسحب اليها المياه المالحة ، وتترك لتتبخر فوق الأرض ، لتنتج ملحا لذيذ الطعم ، بالغ الجودة .

ويصبح الانحدار ، ابتداء من قصر قارون ، غير محسوس ، لكننى أحسست فى الساعة الثالثة أن الانحدار قد عاد ليصبح بالغ الشدة . وعند الثالثة والرابع وصلنا الى القمة التى تشكل نهاية الصحراء . هناك أحسست بلذة يصعب وصفها فهذه ثمانى وأربعين ساعة ، لم تكن عيني النهمة للاكتشاف ، والتى كانت تحرق بلا انقطاع فى كل مايحيط بى ، لم تكن تتع الا على احجار ورمال . كانت صورة الموت وحدها ترسم بخيالى دون أن تعطينى مع ذلك أى احساس بالحزن أو الانتفاض . كنت أبعد ما أكون عن الاحساس بالحرمان أو الاجهاد ، ذلك الاحساس العبادى الذى ينتاب المسافرين فى الصحراوات ، فلقد قمت بهذه الرحلة برغبتى بل وبترحاب كامل من جانبى ، بل انى لأشك أن أوريبا آخر يستطيع مهما تكن الظروف التى تحيط به ، أن يجد رحلة شبيهة برحلتى ، فلقد كانت روحى على الدوام فى توق لعمليتى ، كما انى لم أمان مطلقا من

حرارة الجو التي كانت ترتفع ، على الرغم من أننا كنا في يناير ، من ٢٢ الى ٢٤ درجة فيما بين العاشرة صباحا والثالثة بعد الظهر . لم يحدث ان فتحت قريتي ولو مرة واحدة كي اشرب اثناء الطريق بين لحظة وأخرى . ومع ذلك فان السرور الذي تملكني عند أول رؤية للخضرة ، رؤية الطبيعة في حالة حركة وحياة ، جعلني أحس برجفة تسري في جسدي ، وبأنني دون أن أدري في حالة من انفعال مستمر .

كنا نلح عن بعد قرية النزلة ، في نفس اتجاه جنوب الشرق الذي اتبعناه بدءا من قصر قارون ، وقام العربان الذين كانوا قد أوقفوا سباقهم اثناء فترة اجتيازنا للصحراء ، بترقيص خيولهم من حولى ، مرهقين اياي بالنحيات والتمنيات وعبارات الصداقة . فكانوا يصيحون خلال فرحتهم بأنهم قد اعدوا ، سليما ، معافى ، مدبر السمالو ، وهى كلمة تعنى منظم ، ويستخدمونها في مقابل كلمة مهندس عندنا ، ولقد قدموا لى شهادة كبيرة على تقديرهم ، حين أضافوا الى هذا اللقب اسم قبيلتهم ، واعترف بأنني لم اكن مثلبد الاحساس امام هذه الدلالات؛ فلقد جعلوني واحدا منهم ، وكان وجهي الذي لوحته الشمس ، كما كان شاربي الكثر وردائي البدوي كان كل ذلك يتحدى امهر خبير في تمييز الملامح (ان يتعرف على) ، لذلك فقد لاحظت ان احدا من كل الاهالى الذين قابلناهم بعد ذلك ، لم يحدد وجود رجل فرنسي ، بين هذه الكوكبة من العربان .

وصلنا الى النزلة في الساعة الخامسة . وتقع هذه القرية ، الكبيرة بعض الشيء على بعد حوالى ثلاثة فراسخ من شواطئ البحيرة ، وعلى الشط الأيسر لترعة واسعة تعتبر امتدادا لبحر الوادى الذى سبق لى ان أشرت اليه . وفيما مضى ، كانت النزلة تحصل على حاجتها من المياه عن طريق رشاح يأتى من مدينة الفيوم ، لكن المياه ، منذ ان قطعت سد المنيا ، ظلت تغمر الأرض ، لدرجة أنني كنت أرى في ذلك الوقت بركا كبيرة الحجم ، على مقربة من القرية ، على الرغم من ان انخفاض المياه التي كانت تتدفق منذ مايزيد على ثلاثة أشهر ، ربما يكون قد ترك الأرض مكشوفة (أى معرضة للجفاف) في كل مكان .

قضيت الليل في النزلة ، ودعوت الى العشاء معى شيخ هذه القرية ، وكذلك الشيخ على أبى بكر ، ابن أخى الشيخ صالح ، الذى

كان قد قدم على عجل لزيارتي . وقد أعدت من هذا اللقاء ، إذ حصلت من كل منهما بشكل خاص على كافة المعلومات التي يمكن لثليهما ان يقدمها لي عن المحراوات المحيطة بالفيوم ، ولابد ان يستنتج القارئ انني لم أهمل ما يتصل بالواحات . وقد سررت سرورا جميا حين لاحظت ان اجابتهما تتطابق بشكل تام مع التفاصيل التي حصلت عليهما قبل ذلك بفترة ايام ، من سليمان الكاشف ، ومن اثنين من اهالي الواحة الصغيرة ، كنت لثيتهما في مدينة الفيوم ، وسأقدم فيما بعد نتائج هذه اللقاءات .

غادرنا النزلة في التاسع عشر من نيفوز (٩ يناير) ، في الساعة التاسعة والربع صباحا ، واتخذنا طريقنا ، بشكل مستمر ، باتجاه الجنوب الشرقي ، وسط الأراضي المزروعة ، والتي كانت متشققة في ذلك الوقت ، مما جعل سيرنا عسيرا ، الى ان وصلنا بحر الوادي في الحادية عشرة والربع ، تجاه قرية (العرين) الواقعة على الشط الايمن . وهناك ، كان عمق الرشاح لا يقل عن ١٦ الى ١٧ مترا بعرض يصل الى نحو مائتي متر ، نزلنا نخوض في مياه الرشاح ، وكان السير فوق قاعه اقل مشقة من السير فوق حافته . كانت مياهه تجري في الجانب الايمن من سريه ، وقد صعدنا متجهين نحو الجنوب حتى بلغنا فتحة ترعة صغيرة ، كانت تأتي من قبل ، كما قيل لي ، من مدينة الفيوم ، مارة بالنيا ، متجهة الى بركة قارون بعد ان تسقى اراضي القرى الواقعة على مجراها ، وقد اكذ لي العربان ان بحر الوادي الذي كنت اراه بالغ الاتساع قد تكون نتيجة لفيض مفاجيء للمياه التي تسربت في ذلك الوقت ، حين تصدع جسر المنيا ؛ لكننا سنرى فيما بعد ان هذا الافتراض بعيد الاحتمال ؛ ولم تبد لي الجبال الواقعة الى الغرب سوى انحدار لطيف تضيع ذروتها في الأفق البعيد .

وفي الساعة الحادية عشرة والربع ، وصلنا الى ابي جندير ، وهي قرية بالغة الارتفاع ، تقع الى جنوب الجنوب الغربي من النزلة . ومن فوق المرتفع الذي بنيت فوقه هذه القرية ، كنت ارى بوضوح مدينة الفيوم والنزلة ، وكل المنطقة الوسطى من ولاية الفيوم ، وعبر فرع من الرشاح القادم من مدينة الفيوم بالقرب من ابي جندير ؛ وحيث تظل

تصل المياه حتى هذه المنطقة في مستوى سطح الأرض ، فانها تشكل عند تدفقها الى الوادى مسقط مياه يبلغ انحداره نحو عشرة أمتار ، وهذه ظاهرة غير معروفة في بقية أنحاء مصر .

وهكذا فان إقامة آلات تحركها مساقط المياه ستعود بنفع كبير للرى . وكان دليلى ، الشيخ على قد لقي في أبى جندير أخاه الشيخ عثمان ، شيخ القبائل المقيمة حول هذه القرية ، فلم نمكث في خيمة الأخير سوى ربع الساعة تناولنا خلالها القهوة ، ثم واصلنا طريقنا باتجاه الجنوب الغربى ، مصطحبين معنا هذا الشيخ عثمان .

وعند الثانية عشرة والرّبع ظهرا ، عدنا الى الصحراء ، التي تشكل أرضها — وهى أعلى من الأرض المنزرعة — أحجارا رسوبية تخلط بالرمال ، فوقها قطع من الأحجار الجيرية . لقد كنا فوق ما يشبه هضبة ، عند بدء انحدارها غير المحسوس نزولا ، جهة الشمال الغربى نحو قصر قارون ، وبدء انحدارها كذلك الى الجنوب الشرقى عند قرية ورشاح الغرق ، حيث يتحول الانحدار الى مرتقى يمتد صاعدا بشكل غير محسوس الى مدى البصر .

وفي الساعة الواحدة الا خمس دقائق ، وصلنا الى مرتفع منعزل يستونه « كوم الغرق بتاع الملط » وهناك تعرفت على اطلال هائلة تمتد من جهاتها الأربع الى داخل السهل . صعدت المرتقى ، فرايت بحيرة الغرق ، في أسفل ، وهى تمتد الى الجنوب لبعده يبلغ حوالى نصف الفرسخ ، وأستترعى مرافقى انتباهى الى وجود جبلين يقعان عن بعد باتجاه جنوب الجنوب الغربى ، ويوجد بينهما ريان (بئر) وكذلك الطريق المؤدى الى الواحة الصغيرة التى سأناولها فيما بعد ؛ ويرى المرء الى الجنوب الغربى تلك القرية التى تحمل اسم مدينة الغرق ، أما ظهر الجبل الذى يفصل وادى الغرق عن وادى مصر ، فيشكل منحدرًا لطيفًا سهلاً .

تركنا اطلال مدينة (معدى) في الساعة الواحدة والنصف ، ونزلنا في منخفض من أرض صالحة للزراعة . تغطيها رمال غير كثيفة . ومن السهولة بمكان زراعة هذه الأرض رغم كونها مهجورة ، اذ تتكاثر فيها دون أية مجهودات أو عناية تذكر ، مجموعات كبيرة من الأشجار والنباتات المتنوعة .

وتجرى فى هذا السهل ترعة تزرع شطآنها ، وتمضى جنوبا لتصب مياهها فى البحيرة وقد صعدنا باتجاه هذه الترعة حتى مدينة الغرق فوصلنا الى هناك فى الساعة الثالثة بعد الظهر . ثمة سور يحيط بهذه القرية المدفوع عنها ، لكنها فى داخلها ، تشكل مظهرا بالغ البؤس ، وهناك منزل لأحد المالك قد تحطم عن آخره ، وليست ضواحي القرية بأحسن من داخلها حالا : وبخلاف كل قرى مصر ، تلك التى يتعرق عليها المرء عن بعد بأشجار النخيل الكثيفة التى تحيط بها ، فإن مدينة الغرق لا تحيط بها ولو شجرة واحدة ، فهى لا تمثل الا مظهر عرى بالغ الوحشية لحد يبعث بالرجفة الى القلب . وقد بقيت هناك لقضاء الليل ، وكنت أريد أن أرى « كوام الوزاوى » وهم عربان تابعون للسبالو ، سمعت انهم لصصوص ذوو حيلة ، وتصحنى كثيرون بأن اتجنبهم ، ولست أدري ما ان كان ظهور الشيخ على والشيخ عثمان هو الذى كبح جماحهم ، ومهما يكن من أمر فقد خرجت من قبضتهم دون أن يكون لدى ما أشكو منه ، ولقد حدثونى بسرور بالغ عن المدبر جيار ، وكانوا قد صحبوه فى جولته قبل ذلك بعامين . وقد عرض على شيخهم كرامنى خدماته بأن يصحبنى الى البحيرة التى يسمونها الغرق بتاع الغرق ، وهى تبعد عن القرية بمسيرة ستاعدن نحو الجنوب . وقد قبلت صحبتهم ، لكننى أجلت الزيارة الى الفترة التى قد أزور فيها الجزيرة الصغيرة ، وهى زيارة كنت عزمت على القيام بها منذ عرفت تفاصيل موقع هذه الجزيرة الصحراوية . وان كنت مع ذلك قد صحبتته معى لزيارة الأتقاص الواسعة التى تحمل اسم دير زخاوة بتاع الغرق والذى يبعد موقعه عن القرية بنحو مرسخ واحد باتجاه جنوب الجنوب الشرقى .

رحلنا من الغرق فى العشرين من نيفوز (١٠ يناير) فى الثامنة الا الربع صباحا فوصلنا الى قرية سنورس ، وهى قرية صغيرة تحيط بها الجدران ، وتعمكر حولها قبيلة المعربين ، على الشط الأيمن للترعة تجاه الغرق مباشرة ، وحين توجهنا بعد ذلك — على نفس طريقنا — الى الشمال الشرقى ، وجدنا السنة صحراوية كثيرة تعترضها اجزاء قابلة للزراعة ، وفى الساعة التاسعة والنصف عبرنا الترعة الصغيرة

التي تمضى فتصب مياهها في الوادي شمال ابو جندير ، ووصلنا الشط الآخر عند بداية الجسر الرائع الذي سبق ان تحدثت عنه والذي بينت فوائده عند شرح الحركة العامة للمياه في الولاية ، واقدم الان التفاصيل التي حصلت عليها حول هذا الجسر .

يقدم لنا هذا الجسر - وهو مبنى باكملة من القرميد او الاحجار المتناسكة بشكل متين بفعل ملاط من الجير والاسمنت - نمطا لواحد من تلك الاعمال العظيمة التي نتجت عن رعاية حكومة عاقلة تضع في اعتبارها العمل لصالح البشر، ويبلغ سمك هذا الجسر ستة امتار عند ارتفاعه ، كما يبلغ ارتفاعه ابتداء من ادنى نقطة فيه ستة امتار كذلك ، وتدعم الجسر وتقويه دعائم ومصدات مياه ، ولكن على الرغم من هذه الاحتياطات فقد تصدع عند المنتصف بالقرب من قرية شدموه لمسافة تبلغ ٦٠ مترا . ويبدو ان هذا التصدع لا يعود الا لقوة اندفاع المياه ، بمعنى انه لم يحدث نتيجة لتخريب من اى نوع على يد الانسان فنحن لا نزال نرى هناك كتل البناء الضخمة التي حملتها المياه معها الى بعيد في قاع التربة . وربما يقال تفسيرا لذلك ، وانا نفسى اشترك في هذا الرأي ، بان تصدعا كبيرا كهذا لا يمكن ان يتم الا بفعل الاهمال في اصلاح اول تلف احدثته المياه ، فلقد كان كافيا ان يحدث تسرب للمياه ولو ضئيل لكي يحدث على المدى البعيد كل هذا الدمار ، ومنذ ذلك الوقت ، لم يعد للجسر من فائدة او معنى ، فلقد اصبحت حقول وادي الفرق غير مزروعة ، واخذت المياه تذهب عن طريق بحر الوادي، لتغرق - مشكلة بذلك خسارة تامة - تلك الاراضي التي تقع فيما بين النزلة وبحيرة قارون .

وتقطع اعلى هذا الجسر على الدوام قناطر صغيرة ، نفذت في فتحاتها خزانات مخصصة ولا ريب لتنظيم ارتفاع المياه حين تغطي وادي الفرق . ومن شأن هذا ان يدحض زعم العريان الذين يدعون بان الوادي لم يكن يوجد مطلقا قبل قطع الجسر . لقد كان على المياه التي تعبر هذه الخزانات ان تتجه بالضرورة وعن طريق ترعة ما الى بركة قارون . وان كان يمكن - فقط - ان تكون مثل هذه التربة اقل اتساعا مما هي عليه اليوم ؛ ومن جهة اخرى فان الجسر يقوم بدورات عديدة تبعا لانشاءات

ونعطفات الأرض ، ويتوغل نحو الشرق بطول يبلغ حوالى ٨٥٠٠ متر حتى قرية دفتو ، حيث ينتهى الجسر .

اقترينا من قرية المنيا (✱) حيث يقيم الشيخ الأكبر أبو صالح ، والد على وعثمان ، رفيق سفرى ، وسرى النبأ فى القرية ، فشاهدنا على الفور ظهور أخيهما الثالث جوربة ، الذى أرسله أبوه ليهنئنا بسلامة الوصول .

ثم جاء هذا الشيخ (المسن) نفسه للقائنا ، وما أن اقترب منا بنحو مائة خطوة حتى ترجل ، واتجه نحوى سائرا على قدميه ، بادلتسه على الفور نفس تحيته ، وتقدمنا ، وحدنا ، كل منا تجاه الآخر ، وكل منا على رأس جماعته ، وحتى هذه اللحظة ، كان الشيخ على يضع نفسه رهن اشارتى ، اللهم الا فى تلك اللحظات التى تركته خلالها عند طرف بحيرة قارون لاهرع وحدى الى قصر قارون . أما الآن ، فإنه لم يتبعنى مطلقا ، لقد منعه من ذلك ، الاحترام الذى يكنه لوالده ، ولقد أبدت لأبيه من جانبى كل رضائى لأنه قد أتاح لى أن أصحب رفيقا مثل ولده ، وعربا مخلصين ذوى شهامة مثل أتباعه الشجعان من أبناء السمالو . لاحظت انه تأثر لاطرائى ، ومنذ هذه اللحظة نشأت بيننا الثقة . امتطينا حصائنا من جديد ، وسار أبو صالح عن يمينى ، أما أبناء الثلاثة فقد ساروا من خلفنا ، فشكنا على هذا النحو ما يشبه الدخول المظفر الى المنيا . كان الوقت قد بلغ العاشرة والربع وكان السكان جميعا قد اصطفوا على جانبى طريقنا وأسمعنا النسوة زغاريدهن ، تلك العلامة المعتادة عند حلول الأفراح الكبرى .

يقطن أبو صالح فى المنيا بيتا واسعا بعض الشيء ، سرعان ما امتلأ بعدد كبير من المدعوين من كل الطبقات والأعمار ؛ وما أن جلسنا على الأرائك حتى تقدم الى الشيخ صالح كل أبناءه ؛ لاحظت من بينهم واحدا لما يتجاوز التاسعة أو العاشرة من العمر ، يكن له أبوه عاطفة خاصة وكان هذا الصبى ، وله وجه بالغ الجمال ، يركب الخيل ، ويستعمل الأسلحة بقدر ما قد يفعل ذلك أكثر البدو ثمرسا ،

ويبدى من حيوية الطبع ما يسر والده بشكل بالغ ، وقلت لأبى صالح
 اننى كنت قد لاحظت وانا فى السهل رشاقة ومهارة هذا الصبى ومظهره
 الحسن ، دون ان أعرفه وكيعقوب جديد ، عبر لى أبو صالح ، وقد
 هزه المديح الذى انهال به على ولده المحبوب ، عن عرفانه بطريقة
 قد تبدو غير معقولة فى تقاليدنا ، لكنها ولا شك نتيجة افكارهم عن
 الرق ، فلقد قدم الى هذا الطفل قائلا ان بإمكانى ان أصطحبه وان أحقه
 فى خدمتى ؛ فاجبته باننى قد تأثرت للغاية بهذا العرض ، لكن ولده
 لن يكون مطلقا على خير مايرام ، بل انه قد يتلف بلا جدال لو انه نشأ
 بين قوم غير قومه ، وأن لى فضلا عن ذلك ، فى فرنسا ، طفلا كطفله ،
 تتعلق به كل آمالى ؛ وائنى معرفة منى بقدر صنيع السماء سوف الوم
 نفسى أذ حرمت من خدمات رجل أود ان انظر اليه منذ الآن وان أحبه
 كوالدى ، فرفع عينيه الى السماء شاكرا الله اذ جعله يجد فى شخصى
 صديقا حقا .

قد يدور بخلد البعض أنه قد لذ لى هنا ان اصور مشهدا من صنع
 الخيال ، أو اننى على الأقل قد جهدت فى أن أمتع هذا المشاهد بعض
 مذاق الخيال ، لكن الحقيقة هى اننى أنقل بدقة ما قد حدث ، وائنى
 اكاد أقدم أحاديثنا كلمة بكلمة كما وجدتها فى مذكراتى ، التى دونتها
 فى مساء نفس اليوم ، ومع ذلك فينبغى على أن أقول كذلك ، تفسيرا
 لمشاعر الصداقة هذه ، انه يبدو أن أبى صالح كان يريدنى أن أستشف
 أنه يرعائى بسبب صفتى مدبرا ، شخصية بالغة الأهمية ، وأنه يريد
 أن يحملنى على العزم على إعادة ترميم الجسر وخزاناته وقد حدثته عن
 الحالة الراهنة لهذا المبنى باعتبارها تقارب حد الكارثة ، وان الفرنسيين
 كانوا ينتوون ترميمه فى أقرب فرصة ممكنة ، واكد لى هو من جانبه ،
 وقد تدفقت عواطفه وزاد عرفانه بأن بإمكانى الاعتماد عليه ، وعلى كل
 قبيلة البهالو ، الذين سيصحبونى فى كل مكان أريد الذهاب اليه ، وأنهم
 يمتثلون لأمرى فى الحياة وفى المات ، وانتهزت انا هذه اللحظة لى أعد
 لرحلتى الى الواحة ، وقد اكد لى دقة المعلومات التى حصلت عليها فى
 مدينة الفيوم وفى النزلة ، كما اكد باننى ، عندما أخبره بيوم رحيلى ،
 سأجد كل شىء معدا للقيام بهذه الرحلة فى تمام وانتان . وهذه هى

التفاصيل التي جمعتها حول هذه الواحة ، وحول الطريقة التي اتفقتنا عليها للقيام بالرحلة .

تبعد الواحة التي تقع على مرتفعات الفيوم ، والتي يشار إليها في كل الخرائط القديمة باسم واحة برفا Oasis Parva بنحو مسيرة ثلاثة أيام ونصف اليوم الى الجنوب الغربى للمدينة ، وهى عبارة عن واد صغير يوجد به عديد من ينابيع المياه الحارة والباردة ويتوزع سكانها على اربعة قرى ، تضم كل منها من ١٥٠ - ٢٠٠ نسمة ، يزرعون الكثير من اشجار النخيل وهى التى تشكل تجارتهم الرئيسية ، كما يزرعون الارز والذرة وبعض اشجار الفاكهة ، مثل اشجار التين والاموز والبرتقال والرمان ، لكنهم لا يزرعون القمح ، وهم ينقلون أو يعملون على نقل ما يفيض عن حاجتهم من المواد الغذائية عن طريق عرب الكومى من البحيرة الى الفيوم والقاهرة ويقايضونها بالقمح والحديد والقمح ، ولا توجد فى هذه الواحة خيول ولا خراف ، وذلك بسبب عدم وجود المراعى بلا جدال ، والطقس هناك غير صحى على الاطلاق ، اذ تحمل اليها رياح الجنوب والشرق والغرب ، وهى اجتاز مساحة شاسعة من الرمال ، هبات حارة ومسممة ، من نوع رياح الخماسين التى تهب على مصر ، لذلك فالتناس هناك ذوو قامة قصيرة . وهم على الدوام مرضى ، ويبدو عليهم لأول وهلة أن صحتهم بالغة السوء .

وينبغى على المرء ، كى يتوجه من مدينة الفيوم الى الواحة ، ان يمر ببخيرة الفرق ، ويجد على مسيرة ساعتين ، الى الجنوب ، بئرين تسميان ريان الكبير وريان الصغير ، ويرى بالقرب منهما مبنى يشسبه قصر قارون ثم يجتاز بعد ذلك ، وباتجاه الجنوب الغربى ، ولسدة يومين ونصف اليوم ، صحراوات جرداء لا أثر فيها لمياه أو خضرة .

كان على ان اتوم بهذه الرحلة مع خمسين من العرب ، يقلهم خمسة وعشرون هجينا ، يحمل كل هجين منها من الطعام والشراب مايكفى راكبيه وما يكفيه هو نفسه، وهو الذى يعبر كل الصحراء دون أن يشرب ، ابتداء من بئر الريان الأخير حتى الواحة ، وقد شرب الرجال من البحيرة . وعند بئر الريان ، حيث لم يملئوا الا قربة بالغة الصغر لى يحنفوا من حمولة الجمال ، ولذلك فقد كانوا يكتفون بشربة واحدة فى اليوم ،

وكان علينا ، الشيخ ، على وأنا ، أن يمتطى كل منا حصانه ، وكان ثمة جملان يحملان لنا الأمتعة والمؤن ، وثلاث قرب من المياه ، لكل حصان قرية في حين خصصت لنا نحن الاثنين ، القرية الثالثة .

أما بخصوص واحة آمون ، والتي تعرف باسم واحة سيوة ، فإن الطريق إليها تقع الى الغرب من قصر قارون ويقتضى الأمر من المرء أن يصعد الجبل الى اليسار ثم ينجه على الدوام باتجاه الغرب ؛ وتفصل بين هاتين الواحتين مسيرة سبعة أيام ونصف اليوم ، لكن الأمر لا يستغرق أكثر من عشرة أيام اذا بدأت الرحلة من مدينة الفيوم ، ويعثر المرء بعد مسيرة أربعة أيام على بحيرة من المياه العذبة تسمى مجرارة ، وتتبع هذه البحيرة في مكان متوسط بين الواحة ومدينة الفيوم ؛ وقد نستطيع أن نستخلص أن هذه البحيرة تقع داخل منخفض يتصل بمنخفض الواحة ؛ وبعد ثلاثة أيام نصل الى بئر من المياه المالحة تسمى هيجة ؛ وبعد ذلك بيومين نلتقى ببعض الأكواخ المأهولة . ثم يصل المرء في النهاية ، في اليوم التالي : الى سيوة .

وخلال هذه الرحلة ، تكنى قرية رجلين لمدة أربعة أيام ، وتكنى قرية واحدة في اليوم لكل حصان ، في حين تشرب الجمال عند البحيرة ، ثم عند بئر الهيجة ، ثم سيوة ، لكنها لا تشرب مطلقا في المسافة التي تفصل بين محطة وأخرى .

قمت بتقدير المسافات في هذه التفاصيل بعدد أيام السير . وقد حاولت في بعض الأحيان أن أثبتنها بطريقة أكثر تحديدا ، لكن الأمر على الدوام كان مستحيلا ، واذا سألت كم فرسخا يقطعها المرء منذ بئر الريان حتى الواحة ؟ كان العرب يردون على دائما : فرسخ واحد فقط . وحين أطلب التفسير يقولون : ان الناس في الصحراء لا يقيسون المسافات على نحو ما يفعلون في البلدان المزروعة ، حيث الفراسخ المعدودة هي على الدوام المسافة بين محطة وأخرى ، لكننا في الصحراء نحسبها بالزمن ، ومع ذلك فلو أننى سألتهم : « اذن فكم ساعة تنتقضي . . » لأجابوا : « يتوقف هذا على طول اليوم » ، ذلك أنهم يقدرون المسافة الزمنية بين شروق الشمس وغروبها باثنتي عشرة ساعة ، مهما يكن الفصل من العام

مما يجعل المسافة التي يقطعونها في الساعة أمرا يصعب تحديده بشكل مطلق .

قدم العشاء ، فوضع نهاية لهذه المناقشات الطريفة التي دارت بيني وبين أبى صالح وعربانه وأبنائه لأكثر من ساعتين ، وبعد ذلك افترقنا ونحن راضون تماما ، كل منا عن الآخر ، مع وعد متبادل من كلينا بأن نلتقى عما قريب . لكن هذا الوعد لم يقدر له ، للأسف ، أن يتحقق على الإطلاق ، فقد قطعت الأحداث كل مشروعاتي ، ولم أر بعد ذلك أبدا هذا الشيخ الطيب الذي كنت أكن له — كشيء طبيعي — عاطفة قوية .

رحلنا من جديد ، الشيخ على وأنا ، من المنيا في الساعة الواحدة ، متجهين نحو مدينة الفيوم باتجاه الشمال الشرقي ، ومررنا بقرية الجعافرة ، على مسيرة نصف ساعة ، تاركين دفنو عن يميننا ، وبعد ربع الساعة وصلنا الى العتامنة ثم الى اطسا ، وهى قرى متقاربة فيما بينها ، وهناك اتخذنا الطريق بين أبى صير عن يميننا والمعصرة عن شمالنا ، واجتزنا الصوافنة ، ومررنا من جديد بالقرب من ابجيح ، فدخلنا المدينة في الساعة الثالثة والنصف بعد أن راعينا أن تسير الخيل بأقصى سرعتها ابتداء من المنيا .

لقد أمكن للجولة الاستطلاعية التي قمت بها للتو أن تدعم فكري حول نظام الري في الفيوم ، ومع ذلك ، فلكي نشرح جيدا هذا النظام ، ولكي نوضح كيفية ارتباطه بما يذكره ، كل المؤلفين القدماء ، فقد كان من اللازم وجود معطيات دقيقة ومحددة حول علاقة كل مناطق الولاية بنظام النيل وبترية وادى مصر : وكنت في هذا الصدد أنتوى أن أقوم بعملية مسح ابتداء من النيل حتى قرية همواره الكبيرة ، وأن أقيس مسقط قناطر هذه القرية ، وأن أوصل عملية المسح بعد ذلك حتى بركة قارون ، من جهة ، الى بحيرة الغرق من جهة أخرى ، لكننى تلقيت بعد عدة أيام الأوامر بأن أتوجه الى القاهرة ، ومن هناك الى دمياط ، للقيام بمشروع شق طريق بين الصالحية والاسكندرية ولقد حدثت رغم ذلك عراقيل مناخية أعانت تنفيذ هذا المشروع ، مما سمح لى أن أمل بان أوصل من جديد عملياتي بالفيوم ؛ بل لقد حصلت بالفعل على تفويض بالعودة الى هناك ، وأوشكت على الرحيل عند حوالي منتصف شهر

مُنْغُور (أول مارس ١٨٠١) فى صحبة الجنرال دماس Damas الذى عين قائدا للولايتين (بنى سويف والفيوم) ، لكن قدوم الانجليز ، ثم ما تلى ذلك من رحيلنا عن مصر ، قد وضع نهاية لكل أعمالنا فى هذه البلاد .

خاتمة

على الرغم من كل ذلك ، فان ما شاهدته يكفى لالقاء ضوء كبير على موضوع الموقع الحقيقى لبحيرة مورييس ، وشكلها ، وامتدادها ، واستعمالها ، ويتفق الناس جميعا حول نقطة واحدة ، هى أن بحيرة مورييس كان لها شكل البحر الواسع ، وأنها كانت لوقت طويل ذات نفخ كبير فى استيعاب مياه الفيضانات بالغلة العلو ، وفى رى وادى مصر عند انخفاض مستوى النهر ، لكنهم يختلفون فقط حول وضع هذه البحيرة ، كما أنهم يتشككون فى كون هذه البحيرة من صنع الانسان نظرا لمساحتها الهائلة .

وقد انفق البعض جهده ، تبعا لهذا النص من هيرودوت . « وتوجد بحيرة طويلة تتجه من الشمال الى الجنوب » فى البحث عن بحيرة مورييس هذه فى ترعة تتجه نفس الاتجاه ، وحيث شاعوا لها أن يبلغ محيطها ٣٦٠٠ غلوة ، نفس المسافة التى يحددها هذا المؤرخ ، وحيث لا يستطيع احد أن يعثر على ترعة بهذا الطول فى ولاية الفيوم ، فقد اتجهوا ببحوثهم الى ولاية بنى سويف حيث ظنوا أنهم قد عثروا عليها هناك .

وعلى العكس من ذلك ، فان آخرين أوقفوا جهودهم فى البحث عن بحيرة مورييس على بركة قارون ، مستندين فى ذلك الى الوصف المفصل لهذه البحيرة ، والذى نجده عند سترابون ، « ان المساحة المائية الشهيرة باسم مورييس ، انما هى بحيرة باهرة ، لها اتساع وشكل البحر ، كما أن لها شواطئ تماثل شواطئ البحار » ،

أما أنا من جانبى ، فلن ادخل طرفا فى هذا النقاش الذى اصبح اليوم أمرا لا جدوى منه ، والأذى جسم بشكل علمى تام ودقيق ، كما سبق أن ذكرت ، بعد تلك الدراسة التى قام بها المسيو جومار Jomard

مبركة قنارون اليوم هي بالنأكيد بحيرة موريس الأمس ، لسكنها ، كذلك ليست سوى قاعها ، بمعنى كلمة قاع ، والذي بلغ عمقه أقصاه بفضل التوازن القائم بين البحر وبين المياه النى نصب فيها كل عام ، وينتج عن ذلك أنه لا ينبغي لنا أن نقارن محيطها الحالى بذلك المحيط الذى ينسبه لها هيودوت ، فقد كانت البحيرة فى هذه الفترة ، وكذلك فى عصر سترابون ، تغطى كلية اقليم ارسينويت ، ويقرر هذا الجغرافى ذلك بنص العبارة ، وبأنها كانت تسدا عند الانحدار الذى وجدته أنا - محسوسا عند قرية بيهو نم تمضى - البحيرة - لتلامس الجبل من الجهة الشمالية ، وقد تأكدنا من صحة ذلك بفعل الارتشاع الكبير لقرية سنورس ، التى كانت تقع فوق جزيرة ، وبسبب طبقات الأرض القابلة للزراعة والتى خلفتها الترسيمات فوق كل الامتداد الواقع الى شمال البحيرة ، وتأكدنا من ذلك أخيرا بفعل الخطوط الأفتبة التى يرى المرء آثارها فوق طبقات الجبل ، وبارتفاعه كله ، ويرى المرء وسط هذا الاتساع ، الجزر التى كان ينهض فوقها الهرمان اللذان تحدثت عنهما هيودوت .

كانت البحيرة تمتد بطول الجبل ، الى الغرب ، وحتى مسافة كبيرة للغاية ، ثم تعود بعد ذلك لتتجه نحو الجنوب ثم تمضى لتبلغ ذروتها عند النزلة حيث كانت تلامس الجبل الفاصل بين الفيوم ومصر .

وإذا أخذنا فى الاعتبار الآن ، الامتداد الواسع لهذا الكوين فقد لا نتردد فى تأكيد مسافه الـ ٣٦٠ غلوة التى بوردها هيودوت أو فى تأكيد مقياس مقارب على الأقل ، حيث لا ينبغي علينا أن ننظر للأطوال النى يعطيها هذا المؤرخ باعتبارها دقيقة من الناحية الرياضية ، بل لقد أنذرنا هو نفسه بأنه لا يستطيع أن يؤكد كأم صحيح ، أمرا لم يره ، ومن جانب آخر فإن علينا ألا نلتزم بكل ما ينقله هو عن الآخرين ، بل ان نقفه فى صدق تفاصيل الطريقة التىؤكد أنها استعملت لرفع ركامات وانقاض الاراضى التابعة للبحيرة ، لأمر بجعلنا نلزم جانب التحفظ ، وان نضع فى اعتبارنا أنه قد حصل على كل ما يقول به عن طريق الكهنة المصريين . أما سترابون ، الذى راعى أكبر قدر من الدقة والذي لم يكن يدون الا ما هو بالغ الثقة من صحته ، فى مؤلفه الجغرافى البحث ، فقد لزم الصمت حول طول هذا المحيط الذى لم يستطيع لا أن يراه ، ولا أن يقدره بدقة،

ولقد اكتفى بأن قال انها (أى البحيرة) نستحوذ على الاعجاب بحجمها ،
حتى انها تشبه البحر .

أما الجزء الذى ربما تكون قد صنعته يد الانسان ، فهو الترعنة
التي تحمل اليوم اسم بحر بلا ماء الذى يربط ما بين بحر يوسف وبركة
تارون ، وهو الذى كان يقصده هرودوت حين قال « انها تمتد من الجنوب
الى الشمال » (٧) .

ولقد وجدت أن اللابرننت يقع بالضبط فى نفس المكان الذى سبق
لى أن توصلت اليه ، أى على بعد مائة غلوة من أرسينويه — وهى نفس
المسافة الى حددها سترابون حينما قال : « وعلى بعد مائة غلوة توجد
بلدة اسمها أرسينويه » — وعند منشأ الترعنة ، أعلى البحيرة بقليل ، أو
كما يقول هرودوت « على بعد ضئيل من بحيرة موريس » . وأخيرا ، فإن
الموروث الشعبى ، الذى شاء أن تكون ولاية الفيوم ، فيما مضى ، خليجا
تكونه مياه النيل ، ثم جف واستزرع ، وأصبح يستخدم لى رى الأجزاء
الواطئة من أرض مصر بفضل عناية أمير عظيم . . كل ذلك يبرهن أن ليس
ثمة مطلقا أى تناقض بين القدماء ، وأنهم جميعا قد وصفوا الأماكن
كما نراها اليوم ، أو على الأقل كما لازلنا نتعرف فيها على حالتها القديمة .
ومع ذلك ، فقد يقال : كيف أمكن لبحيرة موريس أن تستخدم كوعاء يحتوى
مياه الفيضان ، وخزان أثناء انخفاض مياه النيل ؟ وأجيب بأنه قد
يكون من العسير ، وربما من المستحيل أن نقدم نديرا أو تأصيلا لهذه
الفكرة اذا ظللنا نحرص على ألا نرى مدخل ومخرج المياه الا عن طريق
نفس المنفذ ، لكن سترابون يتحدث بشكل موضوعى عن وجود فتحتين :
تدخل المياه من احدهما وتخرج عن طريق الأخرى .

وعلى أن نذكر أن المياه تسقط فى الفيوم عن طريق هويس أثيم
تحت قنطرة هواره الكبيرة ؛ وأن سرير الترعنة التى تتلقى هذه المياه
حجرى صرف ، ولهذا فإن ارتفاعها ثابت لا يتغير . وفى فترة المد الأقصى
لبحيرة موريس ، أى تلك الفترة التى أعقبت جفاف الخليج . كان مستوى

(٧) انظر دراسة موجزة حول بحيرة موريس ، العصور القديمة ،
المجلد السادس .

المياه أدنى بوضوح من مستوى أرض الاقليم . ومن جهة أخرى ، فقد شاهدنا كيف أن التربة تتحكم في سطح الأرض لأنها تقع على خط الذروة الذى يشكله التباعد بين منحدرين ، اذن فقد كانت المياه لا تستطيع العودة من جديد الى أرض مصر عن طريق فتحة هواراة الكبيرة ؛ فهذه لم تستخدم مطلقا كما يقول الآنر ، الا كخزان لتخليص مصر العليا من الكمية الكبيرة للغاية من المياه التى تضر بالأرض .

وقد رأينا فيما سبق أن الجزء الشمالى من البحيرة يشكل فتحة لوادى النيل تصل الى الجيزة ، فلابد اذن أن هذا الوادى قد شكل بالضرورة الفتحة الثانية كما كان يقدم للمياه ممرا في أثناء انخفاض النيل، لى تذهب وتروى أراضى مصر السفلى ، التى تعد أراضيها أدنى بكثير من أرض مصر العليا .

وبهذا تبين بشكل طبيعى تلك الطريقة التى كانت المياه تدخل بها الى بحيرة مورييس ، والى كانت تخرج بها ، وكانت المياه بعد أن تتعرج، تتصل بفرع النيل مكونة جزيرة هرقل Hercleotique من ناحية الهضبة اللبنة ، وعن طريق بحر بوسف ، تروى أولا اقليم ارسينويت ، ثم تمضى لتصب في البحيرة الواسعة التى كانت تغطى هذا الاقليم عن طريق التربة التى نمت من الجنوب الى الشمال مرة أسفل اللابرنيت . كانت هذه البحيرة تحتجز مياه الفيضانات الكبرى ؛ أما في أثناء انخفاض النهر ، فكانت المياه تنجس بالمثل جنوبا وشمالا نحو ممفيس عن طريق تربة أخرى ، لتروى أراضى مصر السفلى ، التى يسمح انخفاض سطحها بأن تتجه المياه إليها .

تلك هى نتائج أعمالى التى حصلت عليها من البحث عن الأماكن أثناء الوقت الضئيل الذى قضيته في ولاية الفيوم ، واننى لشديد الثقة بأن العمليات التى كنت أنوى القيام بها بعد ذلك كان بمقدورها أن تمدنى ببراهين رياضية للرأى الذى أقدمه ، واننى لأسف اننى لم أستطع أن أنمها ، وانمى أن يحظى أحد الأوربيين ذات يوم بثقة أكبر من حكام وسكان هذه البلاد ، عله يستطيع القيام بها بنجاح .

وحيث أن التفاصيل التي وعدت بإيرادها في ثانيا هذا الوصف عن
عرب الفيوم وبنى سويف ، يمكن أن تصبح ، في حالة تحقق افتراض
كهذا ، ذات نفع كبير ، فقد أخذت على عاتقي — كواجب — أن أقدمها
حتى أحقق كافة ما كنت أتمنى من معرفة تدور حول هذه المناطق الهامة .

قائمة بالقبائل العربية التي تقطن ولاية الفيوم

عدد		عدد		القرى والمناطق التي يقيمون بها	أسماء شيوخ القبائل	أسماء القبائل	
١	٢	الرجال	خيالة مشاة			الأسماء الخاصة (الفروع)	الاسم العام
١٠٠٠	١٦٥	١٠٠	٧٠	شرق التوتون	كرامني	كوم الوزاى	السمالو
١٠٠٠	١٦٥	٧٠	٤٠	أبو جندير	سالم جوربة	المناسي	(أبو صالح)
١٠٠٠	١٤٠	١٠٠	٦٠	سنورس	حوت ، الحاج محمد	المعريين	هو الشيخ
٤٠٠	٥٥	٧٠	٣٠	دفتو	محمد عبد الله	الروملة	الأكبر
١٠٠٠	١٥٠	١٥٠	٧٠	التوتون	رحيم	كامل الخودات	للقبيلة)
				هلية	تقي الدين حسين		
١٥٠٠	٢٢٠	٢٠٠	١٢٠	العدوة	سليمان سيده	حواطة	
				المعصرة	داود		
				المصلوب	نصر يوسف		
				سرسنا	سيد ديله		
				جبله	جندودة		
١٠٠٠	١٧٠	٢٠٠	١٠٠	مطر طارس	أبو القاسم		الفرجان
				باهي - آمون	جبلي عبد الله		
				ترسا	أبو زيد عبد الله		
				الزاوي	مبارك		
١٥٠	٢٠	٢٠	١٥	الروضة		
٧٠٥٠	١٠٨٥	٩١٠	٥٠٥	المجموع			

قائمة بالقبائل العربية التي تقطن ولاية بنى سويف

أسماء القبائل		أسماء شيوخ القبائل	القرى والمناطق التي يقيمون بها	عدد الرجال				عدد
الاسم العام	الاسم الخاص			١	٢	٣	٤	
الضعفا	أولاد حميدة	عبد الأمير	{ أبو صير الحوارنة	١٠٠	٢٠	٥٠٠	١٠٠٠	
		سالم أبو ديار						
	الوطنات	متيرد	{ قن للعروس إفوة ميدوم	١٠٠	٣٠	٦٠٠	١٠٥٠	
		محمد جريب بليدي						
	نولات سعيد	موسى عيسى	الحمام	٦٢	١٥	١٠٠	٣٠٠	
		عباس عمر الحبابي						
	السيدرات	أبو بكر	الخافر	١٨	١٥	٦٠	١٥٠	
	القاضي	يوسف أبو ذيل	الميمون	٤٢	٠٠٠	٦٠	١٥٠	
		عبد معيط						
	نولات يزيد	ابراهيم زعيطة	{ صفت ميدوم	١٣٠	٣٠	٤٠٠	٨٠٠	
		لطفي						
		المجموع		٤٥٢	١١٠	١٧٢٠	٣٩٠٠	

(تابع) قائمة بالقبائل العربية التي تقطن ولاية بنى سويف

عدد		عدد الرجال		القرى والمناطق التي يقيمون بها	أسماء شيوخ القبائل	أسماء القبائل	
ج	ب	ج	ب			الاسم الخاص	الاسم العام
				دنديل	يوسف حماط		السعدى
				البرج	عواد		
				الدراطة	عبد القادر		
				دلاص	عبد الله صروف		
				السبسي	عبد الرحمن		
٤٠٠	٨٧	٠٠٠	١٠٢	بنى عدنى	على		السعدنى
				أبو صير	الندرك		
				منسط	رايد		
				قن العروس	حسن على الصويلى		
				كوم لدريجة	على رستن		
				باها	أحمد منصور		
				الميمون	وسط جيومع		
٣٠٠	٥٠	١٥	٥٠	منهرا	جبرة	الفرايات	
٥٠٠	٢٠٠	١٠	٦٠	اهناسيا المدينة	يوسف أبو صوين	كسادوة	
١٠٠	٤٠	٨	١٧	الزراى	عبد ربه	يانين	
١٠٠	٤٠	٥	٣٥	منهر	اسماعيل جياصى	المخالف	
				منشية الحاج	محمد ماعونى		
٥٠٠	٢٠٠	٤٠	١٢٠	ميانة	محمد عبد المجيد	كمسى	الكولى
				نسا	كسوم عمر		
٤٠٠	١٠٠	١٢	٩٠	الدويك	محمد صقيرة		
				مزورة	موكر		
٥٠٠	١٠٠	—	٤٠		يريط		
					على ابراهيم	العلم	
					عيد مختار		
٢٠٠	٦٠	—	٢٥	صفط رامشين	—	السنانجة	
١٠٠	٦٠	—	٣٠	سمسطا	سليمان أبو ناى	أبويه	
٢٧٠٠	٨٥٠	٩٠	٤٤٧	المجموع			

(تابع) قائمة بالقبائل العربية التي تقطن ولاية بني سويف

أسماء القبائل		أسماء شيوخ القبائل	اللقرى والمناطق التي يقيمون بها	عدد الرجال		عدد	
الإسم العام	الإسم الخاص			٣٠	٤٠	٥٠	٦٠
المسارحة	المسارحة	أحمد أبو دياب	زاوية الوالى	٨٠	٢٠٠	٥٠	٢٠٠
		محمود جيوهم	أبو شربان				
		حسن أخميط	الكوبك				
	فرجان	أحمد حمزة	—	٣٠	٤٠	٢٠	١٠٠
		سفع عمر	طورفة	٦٠	١٠٠	١٠٠	١٥٠
		محمد	شرشة	٢٠	٦٠	٣٠	٥٠٠
		زبد	المرزة	١٠٠	٣٠	٢٠٠	٢٥٠
	أولاد جياندر	أزيصة	—	٣٠	٢٥	٣٠	٨٠
		عبد الله	جوادة	٣٠	٢٠	١٥	٦٠
		إبراهيم يوسف	دافوف	٢٥	٨٠	٤٠	٢٠٠
الحارث	الحمايدة	حسن تركي					
		منصور أحمد	كوم والى	٣٠	٦٠	٣٠	١٠٠
	المرج	سليمان خضري					
		عمر شاكر	مرزوق	١٥	٣٠	٢٠	١٥٠
	الاسمار	عبد الله حسن					
		ابن حسن أبو موسى	برماشة	٣٠	٦٠	٤٠	٦٠٠
	الدعامسة	سليمان أبو سيجر	صفانية				
الحمود	الحاج بركة	حسن	كوم السعل	٢٠	٥٠	٣٠	١٠٠
		الشيخ مسعود		٣٠	١٠٠	٦٠	٦٠٠
	تيسناط		المجموع	٤٢٠	٦٥٥	٦٢٥	٦٤٩٠

الدراسة السادسة :

العرب والغربان في مصر الوسطى إ. هـ. م. ١٩٣٠

● العنوان الأصلي للدراسة هو :

ملاحظات حول العرب في مصر الوسطى

(م ١٣ — وصف مصر)

مكنتني الرحلات التي قمت بها ، وكذلك تلك الفترة التي قضيتها في ولايات مصر الوسطى (١) ، من ملاحظة طباع وعادات العربان ودراسة النظام الداخلي للقبائل ، سواء منها تلك التي اقبلت على احترام الزراعة منذ وقت طويل او فقط منذ اجيال عدة ، وسواء تلك التي لاتزرع الأرض او حتى تستزرعها ، والتي لاتعمل ، عندما لاتكون في حالة حرب ، الا في قيادة القوافل ورعى الماشية والجمال والماعز . وينطبق هذا التقسيم للعربان الى طبقتين كبيرتين على كل أولئك الذين يقطنون مصر منهم أو يترددون عليها . وسوف استخدم هذا التقسيم في مذكرتي هذه للتعريف بالقبائل التي قمت بزيارتها ، واننى بهذه المناسبة لأحذر من ان هذه الملاحظات ، على الرغم من كونها ذات طابع عام ، انها هي بالنسبة الخصوصية بالاقليم التي نتحدث عنها .

ولست ادعى اننى اقدم هنا لوحة كاملة لتقاليد العربان ، اذ يقتصر عملي على ان اقدم تقريراً بالملاحظات التي أضمن صحتها اذ قمت بها ودونتها في نفس أماكنها حيث توفر لي الوقت والأمن الكافيان ، أكدهما

(١) تتكون مصر الوسطى من ولايات الجيزة ، والبهنسا ، والفيوم ، وأطفيح ، والأشمونين ، وقد اخذت الثانية والاخيرة أثناء الادارة الفرنسية اسماً : بنى سويف ، والمنيا ، على اسم مدينتين رئيسيتين كان يفترقهما الفيضان ، بينما كانت الأماكن الداخلية في منأى عن هذا الفيضان لوجودها في الداخل بعيداً عن مجرى النيل . ويتفق موقع هذه الولايات الخمس مع موقع اقليم هبتانوميد Heptanomide الذي كان يضم مدن : ممفيس Memphis اكسيرينشيس Oxyrynchus وهيراكليوبوليس Heracléopolis وأفروديتو بوليس Aphroditopolis وانتبنوى Antinoé وكيوبوليس Cynopolis وهرموبوليس الكبرى Hermopolis magna وفى أثناء السنوات ١٧٩٩ ، ١٨٠٠ ، ١٨٠١ ، عبرت هذه البلاد وجمعت هذه المذكرات التي تنطبق أكثر ما ينطبق وبوجه خاص على ولايتى أطفيح والأشمونين . ومن الضروري ان نذكر ذلك ، للاحاطة بالظروف التي كسبت فيها هذه المذكرة .

اننى كنت مصحوبا فى جولاتى على الدوام بفرسان من نفس هذه القبائل،
أو اننى كنت أقيم بينهم . وسوف أولى اهتمامى بشكل أساسى ،بالعربان
فى علاقاتهم المعتادة مع البلاد ، وعلى ذلك ، فان هذه الملاحظات — مع
أنها قد تبدو للوهلة الأولى منعزلة — سوف تساهم فى تقديم ملامح
لهذه الأمة الفريدة ، وفى خدمة تاريخها .

وحيث يمارس العرب المزارعون فى مصر نفوذا كبيرا ، وحيث أن
طبائعهم وعاداتهم ليست معروفة لنا جيدا ، فسأبدأ بما يوضح أحوالهم،
ثم أعرض بعد ذلك ملاحظاتى عن العرب البدو الرحل وهم فى وقت معا
محاربون ورعاة . وينبغى أن تنقسم الطبقة الأولى الى طبقتين أخريين :
الأولى وهى التى استقرت فى مصر منذ مدة طويلة وهى من اصل آسيوى،
ويزرع هؤلاء الأرض بأنفسهم ، ويسكنون المدن التى تقع فى غالب الأحيان
على شواطئ النيل ، أما الأخرى فلم تعمل بالزراعة الا منذ فترة قريبة
وتتكون بصفة أساسية من عرب قدموا من شمال أفريقيا، وهؤلاء الآخرون
يشغلون جزءا من ارض الشاطئ الأيسر « الغربى » وهم فى غالبيتهم
يقيمون تحت الخيام ويستزرعون أرضهم بواسطة الفلاحين أى أبناء مصر،
ولهؤلاء وأولئك مقر ثابت ويخضعون للضرائب .

الفصل الأول

المرب المزارعون

١ — القبائل التي استقرت في مصر منذ زمن بعيد :

هناك عائلات عربية بدأت الزراعة في مصر منذ دخول الاسلام ،
وهناك أخرى أقبلت على احتراف الزراعة فقط منذ دخول الأتراك ،
وقد زاد تعداد هذه العائلات بشكل كبير . ولقد طور هؤلاء الزراعة
والصناعات الزراعية بأكثر بكثير مما صنع الفلاحون ، الا تدار أرضهم
بعناية اكبر ، وهى كذلك افضل ربا ، كما أن قراهم أكثر ازدهاما بالسكان
وبشكل عام فانه يكاد يعود الى العرب فضل زراعة وصناعة السكر في
مصر الوسطى . وحيث أنهم يكادون يسكنون جميعا شاطئ النيل الأيمن
« الشرقى » وهو ضيق الاتساع بعض الشيء حيث يحق به الجبل ، فانهم
لم يدعوا نقطة واحدة لم يزرعوها بدءا من مجرى النيل وانتهاء بسفح
الصخور . ولهذا نجد لهذه القرى ملمحا خاصا يميزها بسهولة على القرى
الأخرى ، ويمتلك السكان الخيل والجمال بأعداد كبيرة ، كما كان يفعل
آباؤهم من قبل أن يقبلوا القيام بأعمال الزراعة وقبل امتلاكهم بالتسالى
لمراع وفيرة ، ومع ذلك فعند أول اشارة للحرب يرى المرء هؤلاء المزارعين
وقد تحولوا على الفور الى فرسان يتسلحون بالحراش شأن البدو ، بل
ويعسكرون فى السهول الى جوار مساكنهم الخاصة .

ومن السهل أن نميز هؤلاء عن الفلاحين عن طريق تقاطيع وجهم
وطباعهم وكل خصالهم ، فلقد استمر الدم العربى يتدفق فى عروقهم دون
اى اختلاط حتى أنك لا تستطيع أن تميز ملامحهم عن ملامح العربان

المحاربين ، فما ان يمتطوا الخيول ويلتفعوا بالبرنس (٢) حتى نعدم كل وسيلة للتعرف عليهم . فقد احتفظوا بخطوط الوجه ، وبخاصة بالعينين الصغيرتين اللامعتين اللتين تميزان هذا الجنس ، وان كانوا قد احتفظوا ، فوق كل شيء بروح الجشع والخرابة والشجار والمحاكة .

وجيرة كهذه لا يمكن أن تكون بالنسبة للفلاحين سوى كارثة ، فهم يجورون باستمرار على أراضي الآخرين ، مرة تحت الادعاء بأن النيل قد أكل جزءا من أراضيهم وأن عليهم أن يسعوا عنها من أراضي الشط الآخر من النهر ، ومرة أخرى بادعاء حقوق قديمة مزعومة قد تعود حسب أقوالهم الى عشرة اجيال ، وأخيرا فانهم عندما لا يجدون ذريعة يمكن أن تسعهم في جورهم هذا ، فانهم يركبون خيولهم ويسوقون بقوة السلاح على الأراضي التي تناسبهم . وليس ممة منال واحد على أن محاولة من هذه المحاولات لم تلق نجاحا ، واذا حدث أن استنفرت بعض القرى أبناءها لمقاومتهم بالقوة فانها تدفع ثمن ذلك باهظا ، ويجد العربان أفضل دعم لادعاءاتهم في قوة سلاحهم وكثرة تعدادهم عن الآخرين . . وهكذا يعيش الناس في مجاورتهم في خوف لا ينقطع وعلى مر الأيام يتناقص سكان القرى المحيطة بهم حتى تهجر تماما .

وتبنى الأخصاص التي يسكنونها بشكل رديء . واذا ما اردنا الدقة فاننا نقول بأن هذه ليست في غالب الأحيان سوى أكواخ ، في حين يجد المرء في قرى الفلاحين على الدوام بيوتا مناسبة وجيدة البناء (٣) . ولا يرى في قرى العربان بيوت للممالك ؛ فهؤلاء لا يذهبون مطلقا للاقامة بين العرب وهم لا يحصلون الضرائب من هناك الا بمشقة بالغة مع ترك تقديرها على الدوام لادعاءات مشايخ هذه القرى ، لذلك يمكن القول بثقة بأن الممالك لم يكونوا يحصلون على ضريبة عن كل مصر ، ولنفس هذه

(٢) رداء أبيض اللون ، مزود بغطاء للرأس ، ومصنوع من صوف تتفاوت درجة نعومته يغطي به العربان كل جسمهم فيما عدا الوجه والأطراف .

(٣) ومع ذلك فهناك قرى عربية مثل بن حسن وبرشة وقرى أخرى مبنية على نحو طيب .

الأسباب لأمى الفرنسيون كبير عناء فى تحصيل الضريبة من كثير من هذه القرى ، التى لم تكن تدفع ضرائب على الاطلاق لآى شخص .

ويكاد يكون سكان كل قرى الشط الأيمن للنيل فى ولايات أطفيح وأشمونين ومنفلوط من العرب القدامى الذين ينتمون الى قبيلة تسمى المعطيات : وكثير من هؤلاء لم ينخرطوا فى الزراعة الا منذ عهد على بك ، كما أنهم لم يستقروا فى وادى الطير وطهينة الا منذ عشر سنوات . وتستمد القرى المعروفة باسم العمارنة اسمها من اسم جدّها ، وهو عربى قديم يسمى عمران ، قدم من بلاد الحجاز الى مصر ، فحرب تلك المدينة الكبيرة الواقعة بين الحوطة والقل وبني من حولها بعض المساكن . ولقد تصارع أبناؤه لسنوات طويلة على امتلاك الأراضى الواقعة على شاطئ النهر ، ولا يزال أحفاد هؤلاء حتى اليوم متنازعين حول الأمر نفسه . وقد شاهدت بنفسى شجارا قام بين سكان بنى عمران وسكان نزلة سعيد بسبب اختطاف احدى السيدات على يد واحد من أفراد أحد الفريقين : وقد قتل مدبر هذا الشجار ، ووضع موته حدا للمعركة ، فقليل من الدم المسفوح يهدى فى المعادة كل هذه الحروب العائلية لفترة من الزمن على الأقل .

وليس ثمة قرية عربية الا وبها عديد من المشايخ ، ويعيش هؤلاء الشيوخ عادة فى شقاق فيما بينهم ، وبذلك تبدو قراهم منقسمة الى أجزاء عديدة متميزة وسرمان ما تؤدى العداوة التى تسود بينهم الى الاقتتال ، وينساق الى حوض هذه المعارك الأهل والأصقفاء ، ويحدث أن يموت أحدهم بعد وقت يطول أو يقصر ، وتضطر أسرة القتل الى الفرار مع جزء كبير من السكان ، ولكن الى أين وقد أنتزعت عنهم كل أراضيهم ومنشأتهم وعقاراتهم ؟ لكن لا تظن بهم الحيرة ، فلسوف يتجهون الى مسافة فرسخين من ارض المعركة ، ويقومون فوق اراضى الفلاحين اما باستخدام القوة الصريحة عندما يكون المهزومون بعد أكثر قوة مما يلزم لصدهم عن هذه الأراضى ، وإما عن طريق المخاتلة عندما يعدون بهزيمة خصومهم وتعويز الفلاحين عن أراضيهم ، بتلك التى سيستولون عليها . وهكذا رأينا مصر ، عاما بعد عام ، تغص بهذه القرى الصغيرة التى ليست سوى أكاداس من الأكواخ ليس بها نخلة واحدة ، وتحمل كل منها

اسم الشيخ العربي الذى أسسها ، ومن اللافت للنظر انها تسمى نزلة أو نزل وهى كلمة تعنى النزول . انها اذن نوع من المستوطنات تدين بنشأتها ككثير غيرها الى الغزو واستخدام العنف ، ويمكن أن نذكر فى هذا الصدد أسماء نزل أبو جانوب فى ولاية أشمونين أو المنيا ونزل المطاهرة فى أطيح ونزل بنى حسن (٤) وثلاثين نزلا آخر ، وهكذا تستمر مشاحنات القرى العربية خلال الأجيال حيث هناك ماينبئى الحصول عليه ، سواء كان ذلك لصالح الحزب المنتصر ، أو كان ذلك لصالح الحزب المهزوم .

ومعظم الجزر ذات الأهمية مملوكة للعرب . ولكن اذا ماعدنا الى اصل هذه الملكية فسنجدها قد قامت على الاستبداد والظلم ، اى أنه تحت الادعاء بأن النهر قد أكل أراضيهم وأن من حقهم الحصول على شواطئ الجزر المتباعدة متفرعين بذلك المثل المصرى القائل بأن النهر يرد من جهة ما أخذه من جهة أخرى ، ثم بعد ذلك يتوغلون باطراد فى داخل هذه الجزر ثم ينتهى بهم الأمر بطرد سكانها القدامى ، وأعرف على ذلك أمثلة عديدة، ولكن أكثرها أهمية بلا جدال هو مثال جزيرة الزعفرانة الكبرى التى كانت ملكا لقرية منشية دعبس (٥) والتى انتزعها سكان قرية الشيخ تى وسكان قرية بنى حسن ، وهما قريتان عربيتان تقعان فى مواجهتها ، وانتزعوها حديثا من فلاحيهها دون مراعاة لأبسط قواعد الشكلىة ، وحيث كان الأمر مسوف يستغرق كثيرا فى تبين الحدود القديمة التى نماها الفيضان وتنظم حقوق كل طرف بالتالى ، فقد سلك العربان الطريق الأنصر وهو طريق العنف ، فقطعوا النخل المزروع بالجزيرة وخرّبوا بيوت القرية وقتلوا شيخ المنشية وجرحوا ابنه ومعه كثير من الفلاحين ؛ ويعيش فيها العرب اليوم ملاكا آمنين بينما هى تعد واحدة من أجمل جزر النهر .

وتضع القرى العربية أيضا يدها على الأراضى التى تتاخم الشاطئ الأيسر للنهر ، وقد حصلت على هذه الأراضى بنفس الطريقة التى حصلت

(٤) عقب المعارك التى نشبت فجأة فى بنى حسن ، والتى جعلت أهاليها يتركونها منذ خمسين عاما ، كون الأهالى اثنين من هذه النزل أو القرى التابعة تحت قيادة أبو عمر . وقد انفرط عقد هذين النزلين من تلقاء نفسيهما اذ اتجه سكانهما الى الشط الأيسر ليكونوا هناك قرية تسمى كرم أبو عمر .

(٥) نفع على بعد حوالى أربعة فراسخ الى الجنوب من مدينة المنيا.

بها على اراضى الجزر بلا جدال ، وتمتد هذه الملكيات الى ربع الفرسخ داخل الأرض ، وهناك فوق هذه الأراضى الرملية ، التى يفرقتها النيل ثم ينحسر عنها على النوالى يزرع العرب التبغ والبطيخ وصبغة النيل كما يزرعون قصب السكر ، كل ذلك بقصد تدعيم حقوقهم فى هذه الأراضى . هكذا يرى المرء اطراد زيادة ممتلكاتهم فى مصر ، ولبست أشك فى أنهم سوف يستولون بطريقة غير محسوسة على اكبر مساحة من الأرض اذا لم تضع الحكومة (٦) حدا لغزواتهم ، واذا لم تسن قوانين محددة بالنسبة لحدود الأراضى ، وفى الواقع فانفسا نرى أن هذا السلوك الاستبدادى للعرب المزارعين سيؤدى بهم أن يصبحوا سادة لمجرى النيل ، أى لتلك القطعة الأكثر أهمية من أرض مصر بالنسبة للتجارة ولشئون الدفاع عن البلاد ، بل لقد أصبحوا كذلك بالفعل مع بعض التحفظ حيث يوجد فى قراهم أكبر عدد من النوتية « المراكبية » والعدد الأكبر من الصنادل والقوارب من كل نوع ، ومع ذلك فنحن لم نر الا فى عدد قليل من هذه القرى قوارب مبنية ، وقد يكون علينا أن نضيف بهذا الصدد بأن بقية انواع القوارب التى لديهم تأتيم عن طريق السلب .

وفى بعض الأحيان يستولى سكان الشاطئ الايمن على قطعة من الأرض تقع على الشاطئ الآخر ويزرعونها دون أن تكون لهم هناك قرى، وفى أحيان أخرى يبتنون هناك لأنفسهم دون أن يكون ثمة أرض لهم، وفى هذه الأحوال يزرعون أراضى القرى المجاورة ، لكنهم على الدوام لا يحصلون لأنفسهم على هذه المساكن الا باستخدام العنف ، ويحدث هذا عندما تجرد أسرة أو أكثر من أسرة من أرضها وفى هذه الحالة يعبر هؤلاء النهر بلا تردد وابتنون لأنفسهم فى عجلة اكواخا تتحول شيئا فشيئا الى قرى ، ويستأجرون من جيرانهم بالقوة بعض أراضيه مع احتفاظهم بحق املاء الشروط .. وهكذا .. وفى الوقت الذى يدفع فيه الناس فى بلاد أخرى ثمن اقامتهم ، فان العرب هنا يبتزون أولئك الذين يستضيفونهم .

(٦) اتصد بكلمة حكومة هنا حكام مصر الذين يحكمونها حسب انظمة أو مؤسسات البلاد كما سلك الفرنسيون أثناء حملتهم ، وكما سلك المماليك أنفسهم ، ويستطيع القارئ الذى قد يرغب فى الحصول على معلومات خاصة حول حكومة مصر أن يعود الى الدراسات الخاصة بهذه المادة .

وقد قابلت من شيوخ القرى العربية بعض الرجال لا يشاركون ثوبهم هذا الميل نحو السرقة والنعنف ، على سبيل المثال فى قرى وادى الطير وزاوية الميتين بالقرب من المنيا ونزلة نوير وأماكن أخرى . وقد قدمت بعض هذه القرى خدمات للجيش الفرنسى حيث يملك سكانها وسائل أوفر مما يملك الفلاحون سواء فى الخيول والجمال أو سواء فى العلف ، وفى نفس الوقت فى العناد الآخرين وإصرارهم على رفض أداء الضريبة ، وكم قتل هؤلاء من جنودنا !

وحيث أننا لا نعرف جيدا السكيفية التى تغيرت بها ملكية أراضي مصر عند دخول العرب ، فقد يجوز لنا أن نستنتج أن الجزء الأكبر من الجيش العربى بعد الاحتلال الكامل للبلاد قد عاد الى آسيا وان جزءا منه بعد أن سرح — قد انتشر كثير من أفرادهم فى مصر وعاشوا على السلب والسطو ، ولأن هؤلاء كانوا أضعف من أن يسيطروا على الوادى الكبير فقد استقر بهم المقام على الشاطئ الأيمن حيث تحدد الصخور فى غالب الأحيان بالنهر ، وهناك أخذوا يتقدمون خطوة بعد خطوة من الرمال حتى بلغوا الأراضي المزروعة ، وبعد ذلك أصبحوا مزارعين ، ثم بشكل غير محسوس ، ملاكا لقرى هذا الشاطئ بعد أن طردوا سكانها بفعل الخوف والرهبة من العدو والسلاح .

قلت ان هؤلاء المزارعين « العرب » هم الأحسن تسليحا . وفى الواقع فإن قراهم تهيئ وفرة كبيرة فى البنادق والطبقات والمسدسات والسيوف . الخ . . لكن مهارتهم كبيرة فى إخفائها ، وهناك سلاح نادرا ما يتركونه ، وهو ما ينقص فلاحهم — أقصد بذلك تلك الحربة القصيرة ، يضعها على الدوام الى جانبهم الفلاحون البسطاء بل وأكثرهم فقرا ، وهم الذين يعملون فى رى الأراضى ، وعندما يتجمع هؤلاء بأعداد كبيرة للقيام بعملهم ، الأمر الذى يحدث غالبا فى الشتاء ، يرى المرء على رأس الترع غابات من الحراب المرشوة بالأرض ولا يمكن تصور أن هذا السلوك يقصد من ورائه الذود عن أملاكهم ، إذ أن هؤلاء لا يكادون يملكون شيئا ، بل ولا يمكن تصور أن ذلك يتم بقصد حماية ملابسهم لأنهم يذهبون الى عملهم شبه عراة ؛ لكن عادة أن تكون مسلحا هى عادة مطبوعة عند العرب .

وعندما نكون لك مصالح ينبغي أن تسويها معهم ، سواء كان ذلك مع كبارهم أو مع أبناء الطبقات الدنيا منهم فستلمس في استقبالهم في البداية شيئاً من الفنور والاستخفاف والصمت المنصنع - أما إذا حدث أن ابتسموا لك ، فلا بد أنهم بذلك يقصدون خداعك ، فالكذب عادة منأصلة فيهم ، وبخاصة في علاقتهم مع الفلاحين والأوربيين ، ومهما يكن كذبهم هذا مطبوعاً ، فأنهم لا يمارسونه طواعية ، وبهذا القدر من الطبيعية والنجاح ، إلا إذا كانوا بصدد التعامل مع هؤلاء الآخرين . ويتحدث الناس كثيراً عن فضائل العرب ، وعن صراحتهم ، وعن العقيدة الدينية التي تدعم كلمتهم ، وعن ميلهم إلى إكرام الضيف .. لكن أيا يكن الأمر من هذه المزايا ، فإن عليك أن تبحث عنها في مكان آخر ، وليس عند هؤلاء العرب الذين يقطنون مصر ، فهذه الفضائل ، عند هؤلاء لا تكون مطلقاً على حساب مصالحهم الخاصة ؛ فالزيف والرياء والكذب ، هي أسلحتهم المعتادة ، وليس ثمة ما يفوق مآلديهم من تصنع وعنف ، حين يريدون تنفيذ مآربهم ، وبصفة خاصة عندما يتعاملون مع آخرين ، من غير العرب .

ووقت تصنيع السكر ، يتعرف المرء من بعيد على القرى التي تحدثت عنها عن طريق صوت الطواحين ورائحة ثفل القصب ودخان المداخن ، أما عن قرب فأنك تستطيع تمييزها على الدوام وفي كل الفصول .. وكأمر مؤكد ، عن طريق ملامح السكان وتقاطيعهم . ففي الواقع ، فأنك ستجد في أول رجل تقابله هذه العيون اليقظة التي ليست إلا للعرب . وعندما يبرز في قراهم رجال لا يعرفونهم فإن تماسكهم يضطرب كما يحدث للصومس أخذوا على غرة ، ومع ذلك فإن حيظتهم تبلغ درجة لا يمكن تصديقها ، وعندما يبلغهم نبأ اعتزام بعض الفرق « العسكرية » المرور بقريتهم فأنهم يخبئون دوابهم وخيولهم أو يرسلون بها إلى الصحراء ، وعندما تصل الفرق بينهم ، يحتفظون بهدوئهم ويظلون بلا حراك ، فيما عدا نألمات ملامحهم ، وتلك النظرات الكثيرة والحزينة التي تقذف بها أعينهم ، ولكن ينبغي أن يكون مفهوماً أن هذا السلوك يحدث فقط من أبناء الطبقات الدنيا وأن كنت قد شاهدت شيوخاً يمكن أن ينطبق هذا الوصف عليهم . وختاماً ، فأننا إذا نحينا جانباً هذا المظهر الخارجي وهذا الاستقبال

المعيب ، فلابد أن نتفق على أننا كنا فى معظم الأحيان نجد فى هذه القرى
مئونة أكثر بل وتعاوننا أفضل مما كنا نجده فى قرى الفلاحين، وأن كان الأمر
فى ذلك يعود الى أسباب كثيرة منها أنه يوجد فى القرية العربية مشايخ
عديدون لابد أن يكون من بينهم ولو واحد على الأقل، يتقدم الصفوف ويتعهد
بتقديم المئونة المطلوبة شريطة أن يحصل على ثمنها ، ومنها كذلك أنه مع
تساوى درجة مقت الفلاحين والعرب للأوربيين ، إلا أن ما لدى العرب
من ترواى غذائية ودواب يفوق ما لدى الأولين ، كما أن ما لديهم من وسائل
فى كل ضرب أكبر بكثير مما لدى أولئك ، ومنها أخيراً أن الشيوخ فى القرى
العربية يبدون أكثر سطوة على مزارعيهم ، من ذلك النفوذ الذى يحوزه
الشيوخ فى القرى الأخرى .

والمحصولان الرئيسيان عند العرب هما: قصب السكر ومحاصيل
الأعلاف مثل الحلبة والبرسيم . . لأن ما لديهم من جمال وخيل وماشية
أكثر مما لدى الآخرين ، ويأتى بعد ذلك الذرة والشعير والقمح والخضروات،
وحيث تلقى الزراعة عندهم عناية أكبر ، فإننا نجد لديهم من الشوايدف
أكثر مما نجد فى أى مكان آخر ، ويبدو الرجال الذين يديرونها وكأنها
يستعصون على التعب ، وهم يقتنون هذه الآلات من أجل زراعات القصب
والقمح والشعير الشتوى ، وكما يولون بالمثل عناية مائقة بخيولهم .

وكثيراً ما يستخدم العرب فى زراعات الذرة وكذا القمح نوعاً من
السجاد يعرف بالسباح ، وهو عبارة عن الرماد والأتربة التى تستخرج
من انقراض المساكن القديمة ، وهى التى تحتوى على نسبة كبيرة من
نترات الصوديوم . وهم ينخلون هذا السباح لاستخراج قطع العملة
والماديات والأنتيكات من كل نوع والتى تحتويها عادة ، وحيث أن القرى
العربية أكثر سكاناً من غيرها فإن من يعملون بها بهذا العمل ، أكثر ممن
يفعلون نفس الشيء فى قرى الفلاحين الذين يستخدمون بالمثل هذا السجاد .

ويزرع سكان القرى العربية بوفرة أشجار النخيل كما رأينا فى بنى
حسن وكذلك بالقرب من انتنوى ويزرعون كذلك الكثير من أشجار الأكاسيا
والنبق . لكنى لم أر مطلقاً حدائق فى القرى ، فالعرب لا يفعلون
مألاً ضرورة له حتى ولو كان بقصد المتعة ، وهم يبتنون مساكنهم على

الدوام تقريبا على حافة الأراضى الزراعية ، أو فوق أرض لا تزال تغطيها الرمال رغبة فى الاقتصاد فى الأرض القابلة للزراعة .

وفى تلك المساحة الضيقة من الأرض الواقعة على الشط الايمن ، حفر العرب المزارعون كثيرا من الترع والقنوات التى تأخذ مياهها من النيل ، ولقد حفروها بعناية كبيرة ؛ ولا تروى أى من هذه الترع الا اراضى القرية التى حفرتها ، وهذا امر ضرورى بالنظر الى قلة عرض الأرض هناك ، لكننى لم اشاهد جسورا بين أرض واخرى واقصد بذلك جسورا كبيرة لانه نوجد جسور لا مفر منها فى حقول الذرة ، واطن أن غيبة هذه الجسور كانت امرا لا بد منه حتى يكون من الميسور تماما انشاء ترعة أو نرعتين بكل قرية ، دون أن يتكلف الأمر مصاريف باهظة ، ولرى الأراضى دون انتظار للمياه التى يمكن أن تجيء من القرى العليا « الجنوبية » ، وهناك سبب ثان لذلك ، وهو أن صيانة هذه الجسور — حالة وجودها — وقطعها واعادتها سوف تكون موضوعات مستمرة للشجار .

والصناعات الرئيسية لعرب هذه القرى هى تلك التى ترتبط بمحاصيلهم أى صناعة السكر (٧) وصناعة صبغة النيلة . وتغزل نسائهم الصوف ، ويصنعون منه فى قراهم عن طريق بعض المسيحيين ، أو بعض الفلاحين الذين يرى أولئك أن يسمحوا لهم بذلك ، أثوابا خشنة تسمى بثت ، وهو قمائش غامق اللون يستخدمه الفلاحون رجالا ونساء فى صنع ملابسهم ، أما الأكثر ثراء من بين هؤلاء فيشترون أثوابهم وطربوشهم (٨) من المدن .

واكبر تجارة لدى العرب هى تجارة السكر والبلح . . وهم يذهبون لسمها فى مصر العتيقة ، لكنهم يحتفظون بالقمح والشعير لاستهلاكهم أو من أجل استهلاك خيولهم . أما فى الاسواق فيبيعون الماشية ودواب الحمل كما يبيعون الصوف وكميات قليلة من فحم السنط .

(٧) يصنع العرب السكر بكميات كافية بحيث قلما يتجاوز ثمن القنطار ٤ ريالات (بوطاقات) وبذلك يكون ثمن الرطل زنة مارك (marc) ٥ - ٦ سو (sous)

(٨) نوع من غطاء الرأس . أحمر اللون . ومصنوع من الصوف ، ملف من حوله العمامة .

ولدى الشيوخ معلومات دقيقة عن أعماق الوديان فى الصحراء ، ولكنهم يدينون بمعرفتهم تلك للبدو الذين ينصلون بهم على الدوام للتزود بالأشياء الضرورية لحياتهم ، وعن طريق هؤلاء يعرفون مخارج الوديان واتجاهات الأخوار أو مياه الأمطار وبذلك يعرفون كل المناطق التى يمكن لهم أن يجدوا بها الماء ، وهم يستطيعون تمييز الطرق القابلة للاستعمال من تلك التى لا تصلح لهذا الغرض ، وهكذا يستطيعون حسب مشيئتهم أن يقدموا خدماتهم أو يمنعوها عن الفرق « العسكرية » التى تحتاج الى التوغل فى الجبال ، وبذلك يكون فى مقدورهم أن يسلموهم الى العطش ، وأن يضللوهم وأن يجعلوهم يهلكون فى الصحراء . ولقد انحاز كثير من هؤلاء الشيوخ الى المماليك ثم الى الفرنسيين ، كل بدوره ، فى تلك الحرب الأخيرة ، ودائما أبدا من أجل الحصول على المال . وفى معظم الأحيان كانوا يرشدون الفرق الفرنسية الى طرق عكسية لتلك التى كان عليهم أن يسلكوها للحاق بالمماليك ، لذلك فنادرا ما استطاع الفرنسيون أن يأخذوا هؤلاء على غرة ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان الكثير من العربان نافعين لنا ، وكما أرشدونا الى الطرق التى تصلح لمرور المدافع وتلك التى يستطيع فيها سقاية القوافل .

وليس هناك ما يمكن قوله حول طعام العربان دون أن يكون الأمر منطبقا على طعام الفلاحين ، فطعامهم يضم بالدرجة الأولى خبز الذرة واللبن والبيلاف « طعام شرقي يتكون من أرز ولحم وتوابل » . أما طبقتهم الكبيرة المشتملة على الخروف والدجاج المسلوقين معا فشهى ولذيذ الطعم ، وبصفة عامة فانهم يتفخون على نحو ما بشكل أفضل من بقية السكان ، ويفعل أولئك مثلما يفعل هؤلاء حين يقيمون الكثير من أبراج الجمام .

وهناك فرق ملحوظ بين هؤلاء العرب وبين غيرهم من العرب الآخرين ، ذلك هو أنهم لا ينطقون اللغة متلهم لكنهم ينطقونها مثل الفلاحين ، فهم على سبيل المثال لا يعطشون الجيم فيقولون جسر وجامع بدون تعطيش للجيم كما يفعل الفلاحون وليس بتعطيشها كما يفعل العرب المحاربون « البدو » . وبالمثل فهم لا يقولون ثلاثة « بالشاء » وإنما ثلاثة « بالشاء » . وهذه الملاحظة تشمل أكثر عدد منهم ، ومع ذلك فكثيرون منهم ينطقون اللغة على طريقة البدو .

ولسكان هذه القرى ملامح أخرى مشتركة مع الفلاحين ، فهم يشاركون هؤلاء في تلك اللامبالاة بل في ذلك النوع من الازدراء الذى ينظرون به نحو الآثار القديمة المصرية والرومانية ، وهم لا يقدرونها الا من أجل ما يعود عليهم منها من نفع عندما يحصلون منها على مواد تصلح لاحتياجاتهم اليومية .. وفضلا عن ذلك هؤلاء ليسوا أقل من أولئك جهلا وخرافة بخصوص الأصل الذى ينسبونه لهذه المباني ، فهم يعتقدون أن الجن هم الذين حفروا المحاجر والمغارات وشيدوا القصور والمعابد ، بل ويدعون أنهم يعرفون أسماء وتاريخ هؤلاء الجن .

وهناك شكوى لا تنقطع من هؤلاء اللصوص المرعبين الذين يسكنون شواطئ النيل في الصعيد ، وأنه لمن الخطأ أن نتهم أبناء البلاد ، فليس هؤلاء اللصوص سوى سكان هذه القرى العربية ، ومهارتهم في ذلك تفوق التصور ، وهى شائعة ومعروفة لحد سيكون مضيعة للوقت أن نضرب هنا الكثير من الأمثلة . ولقد كانت فرقنا في الصعيد شهودا على الوف الأساليب الجسورة والوثقة ، والتي تبعث على الدهشة دائما ، ويجد المرء صعوبة في تصديقها على الرغم من كونها وقائع . فكم من مرة اخفوا الخيول وهى على مقربة من فرسانها ، أو اخذوا الأسلحة من موقع أو دأورية استطلاع أو من الحراس انفسهم ! ولقد كنا نرى هؤلاء الرجال يختبئون في النهار بين أكداس العليق « العلف » ، ويخرجون بالليل لممارسوا السرقة ، وكنا نجدهم عراة يكادون يقطعون النفس بين هذه الاكوام ، ومعهم الأسلحة التي اخذوها .. بل لقد انتزعوا حقائب وبنادق من تحت رعوس الجنود ، وسرقوا السيوف وهى الى جانب حقائب الضباط !.

وهناك من هذه القرى ، من يمارس كل سكانها — بما فيهم شيوخها انفسهم — مهنة اللصوصية . فهم يقطعون الطريق ويسلبون الصنادل مهما تكن حمولتها ، كما ينهبون الأسواق والمسافرين ، ولدى البعض منهم قوارب يستخدمونها في الهجوم على الصنادل الملاحية ، وبعض هؤلاء يأتي سباحا لينتزع بمهارة كل ما يستطيع الامساك به . ويمكن أن نذكر نزلة النوايل ، وهى قرية تقع على الشط الايمن الى الشمال قليلا من منفلوط ، كمثال لقرية كل سكانها لصوص محترفون ، ولقد قيل لى أن المالك تسد

قتلوا من سكان هذه القرية ستين رجلا دفعة واحدة منذ عدة سنوات .
لا بد ان تكون بلاد كهذه بانسة لحد كبير ، لا حماية فيها ولا امن ، حتى
تحدث فيها كل هذه السرقات واعمال قطع الطريق دون ان تتمتع ، وفي
الواقع فان هؤلاء يرتكبون هذه الجرائم دون ان يلقوا أدنى عقاب ثم يعودون
بعد ذلك الى اعمالهم . بل انهم يدفعون القرائب . وهناك سكان قرية
أخرى مثل بنى حسن لا يجروون على الإقامة في بيوتهم المبنية بشكل
جيد ، ويفضلون الإقامة في اكواخ من البوص وسط اشجار النخيل حتى
ينفذوا مشروعاتهم بشكل افضل ولكي لا يكونوا في متناول يد البحث « عن
الصوص » وما ان تصل قراهم حتى يستولى عليهم الفزع ، وذلك الشعور
الملازم للجريمة ، مما يجعلهم يجرون أمامك مازين متجدد المنازل مهجورة ،
وتكاد لا تعثر فيها على مجوز تعطيك جرعة ماء .

والجانب الأكبر من القرى السبع التي يطلق عليها في مجموعها اسم
العمارنة وأهمها قرية بنى عمران قد احترق هذه المهنة المزرية ، وقد
شاهدت عرب هذه القرى يوقفون بلا حياء ، وفي وضح النهار قريبا كان
يتجه الى الجنوب لينتزعوا منه النساء على الرغم من صيحاتهن ومن
مقاومة الملاحين . وثمة واحد من أكثر المشاهد التي رايتها في حياتي تهورا
ووثاقة ، قد رايتها عند ركوبى النهر . كان ريس أو ملاح صندلى
واقفا ممسكا بالمجداف في يد ، وفجأة خرج واحد من سكان العمارنة ،
وصعد الدفة ، وانتزع من فوق رأس الريس العمامة والطربوش وسارع
بالبقاء نفسه في النيل ، واختفى تحت الماء ، وظل غاطسا لوقت طويل
ليخرج بعد ذلك على بعد ٤٠٠ قامة من هناك ، على الشاطئ المقابل للنيل .

٢ - القبائل التي استقرت حديثا :

لقد جاءت كثير من القبائل العربية القادمة من شمال أفريقيا لتستقر
في مصر منذ حوالي قرن . وقد حصل هؤلاء العرب على أراضي عدة قرى
وزرعوها أو استزرعوها في غالب الأحيان : وهم يزرعونها عادة بمحاصيل
العلف ، ويرعون فيها خيولهم ودوابهم لمدة تسعة أشهر في العام ، ومن
بين هؤلاء ، تلك القبائل التي تعرف بأسماء : بنى وائى ، أبو كرايم ،
محارب ، الطحيوى ، وهناك قبائل أخرى قد تفرعت عن هذه القبائل
الأساسية . . ولا تزال القبيلتان الأوليان وتلك القبائل التي تفرعت عنهما

مثل الجهمة والطراهونة يسكنون تحت الخيام ، لكنهم لا ينصبون هذه الخيام الا فوق أرضهم او فوق الأرض التى يستأجرونها ويدفعون عنها الضرائب . ومع ذلك فانهم لا يستسلمون مطلقا للهزيمة اذا ما هاجمهم عربان الخيش ، فلديهم هم أيضا خيامهم ورمائحهم ، وجمالهم وخيولهم معدة على الدوام للجوء الى الصحراء اذا ما حدث أن جردوا من الأراضي التى تملكوها . والمعارك والمشاحنات كثرة بين هذين الفريقين من العرب . وقد شهدت كثيرا من المعارك الدامية ورايت عند هذا الفريق وعند ذاك شجاعة حقة او بالأحرى سلوكا مليئا بالشراسة والبغض والاحتقاد .

وبشكل العرب « المزارعون » الذين لا يزالون يستخدمون الخيام حدا فاصلا بين العرب المزارعين الذين تحدثت عنهم فيما سبق وبين العرب المقاتلين أو الرعاة . فهم يتميزون عن الاولين بأنهم لا يشكلون جزءا من سكان القرى وبأنهم لا يزرعون مطلقا بأيديهم ، ويتميزون على الآخرين « البدو » بأنهم لا يغيرون من أماكن اقامتهم أو على الأقل المنطقة التى يقيمون فيها . وهناك شيخ معين من بنهم يمتلك اراضى ثلاث أو أربع قرى بحكم كونه ملتزما « ملتزم » ، وهو أغنى شيخ فى كل الولاية . لذلك فهؤلاء العرب مرهبون من جانب الفلاحين ، وبحرص هؤلاء على ارضائهم اذ يرون على أبواب قراهم ما يصل الى ستمائة فارس مستعدين لانزال العقاب عند ظهور أدنى مقاومة (من جانبهم ضد العرب) .

بل يمكن القول بأن الفلاحين يحرمونهم كسادة لهم ، ويستقبل اقل واحد من هؤلاء العربان ثائنا ، سواء كان مسافرا على ظهر جملة ، او سائرا على قدميه ، باحتفال فى الريف فيهرع اليه الناس حاملين المساء ان كان عطشانا ، والبلح والخبز ان كان جائعا ، او على الأقل ، فان أى فلاح هناك يستجيب لتقديم هذه الاشياء عند أول طلب . ويسير العرب على الدوام مسلحين ببندقية ذات حمالة ، وعندما يركبون الخيول ، فانهم بتسلحون بالاضافة الى ذلك ، بحربة ورمح قصير فى اليد . اية مقاومة يمكن ان تبديها هذه القرى ، ضد جماعات الفرسان هذه ، والتى تتهاون معهم الحكومة ، فى حين أن رؤساءهم أنفسهم من كبار الملاك ؟ انك لا تستطيع أن تحصر عدد الجرائم والمظالم والأعمال الجائرة التى يرتكبها هؤلاء الفرسان ، وفى (م ١٤ - وصف مصر)

أسواق القرى على سبيل المثال حيث يتجمع الناس في شكل جمهور لبيعوا الماشية والبُلح والذرة والدخان . . الخ ، يكون كل الغنم في جانب العرب ، اذ هم يفرضون بسهولة سطوتهم على الحشد ، فليس هناك من فلاح واحد يكون بمقدوره أن يجادلهم في ثمن أى شئ يعرضونه ، والا يعطيهم سلعته بالثمن الذى يحددونه هم ، وثبدو الحربة التى يفرسها العربى ، فى صلف وقحة ، الى جانبيه ، فى عرض السوق وكأنها تقول « اننى هنا ، صائغة القانون » ونستطيع أن نميز هؤلاء عن بعد فى تجمعاتهم الكثيفة ، ومن ملابسهم البيضاء ، وصوتهم الحاد ، وهم يستولون — بمعنى كلمة يستولون — على السوق ، وينتهى بهم الأمر أن يبيعوا وأن يشتروا لصالحهم كل ما يريدون ، وفى واقع الأمر ، فانهم يعملون فى خدمتهم سلاحا ليس بأقل أثرا من رماحهم وحرابهم ، ذلك هو دهاقهم الشديد ، والذى لا يمكن مقارنته إلا بجسارتهم .

واليكم الملابس التى يرتديها العربان وهم فى السوق ؛ على الرأس طربوش احمر ، بلا عمامة فى معظم الأحيان . وعلى الجسم برنس أو معطف أبيض من صوف تتفاوت درجة نعومته يغطون به عادة أعلى الوجه وتحت الذقن ، وهو يغطيهم من الرأس حتى القدمين . ويلبسون تحت هذا المعطف قميصا من الصوف وحزاما ، ويرتدى الميسورون منهم صديريا فوق القميص ، وفى القدمين ينتعلون خفا أحمر اللون ، ويراهم المرء فى هذه الأسواق حاملين مسدساتهم ، وسيوفهم ، ومطارقهم ، وحرابهم ، وبنادقهم ذات السنوكى (٩) ، ويعرضون بضائعهم وهم مسلحون على هذا النحو على الفلاحين ، كما انهم متعودون على حمل قرابينهم خلف ظهورهم ولا يخلعونها مطلقا حتى عندما يلقي القبض عليهم . ولشيوخ القبائل والأثرياء الفرسان مهاميز جميلة ، مذهبة ، وأسرجة فخمة لا تخلف عما لدى المالك الا فى أن ظهر السرج مقوس وأكثر انخفاضا مما يجعله بالنسبة لهم بمثابة كرسى مريح . فهل مع اناس يحتشدون على هذا

(٩) توضع المظاريف بعناية فى جيب من الجلد ، ويوضع صندوق البارود الى جانب البندقية .

النحو ، ويشلحون الى هذا الحد ، يستطيع الفلاح الأعزل أن ينازع
فى شىء ؟ (١٠) .

وعلى الرغم من القوانين التى تحرم استخدام العنف ضد الفلاحين ،
فإنه من المعتاد أن ترى فى المساء ، عند عودة الناس من سوق من
الأسواق ، اثنين أو ثلاثة من الفرسان « العرب » ينقضون فجأة على
الفلاحين (※) وهم عائدون بمواشيهم ، لينتزعوها منهم ، فإن أبدى هؤلاء
شكلا من أشكال المقاومة ، فإن الفرسان يجرحونهم أو يقتلونهم ، وإذا
ماذهب الناس لشكواهم الى رئيس القبيلة ، فهو — كما يقول — لا يدرى
شيئا عن الأمر ، أو هو ينكر أن هؤلاء الفرسان ينتمون الى قبيلته . .
وهكذا تظل الجريمة بلا عقاب . ولقد رايت كثيرا من هذه المشاهد فى
صنبو والقوصية . بل ان شيوخ القرى أنفسهم لم يكونوا أقل من هؤلاء
الفلاحين البسطاء تعرضا للعرب من جانب هؤلاء العربان ، وسيكون حادث
العنف الذى سأتصه الآن دليلا كافيا على ذلك ، وهو أمر يتكرر بلا انقطاع
فى الوف من الأشكال المختلفة .

ذهب بعض العربان من قبيلة أبى كرايم لينصبوا خيامهم فى إراش
ترب « ببلو » واتفقوا مع شيخها على مبلغ محدد بالغ الاعتدال فى مقابل
أن ترعى ماشيتهم فى حقل « حلبة » . وذات ليلة وجدت بندقيتان وزوج
من المسدسات ضائعة من خيامهم . وعندما حل النهار ، ذهب العرب على
خيولهم الى القرية مطالبين باستعادة سلاحهم ، وهم ينفثون الفلاحين
بأنهم لصوص وقطاع طريق لكن الشيخ الذى لم يكن لديه أدنى علم بهذه
السرقة الصحيحة أو المزعومة ، لم يستطع أن يجيبهم بشىء مفتح . فهددوا

(١٠) كذت عدة مرات شاهدا على الجراة المندفعة التى يبدونها فى
أسواق القرى . ولم يكن هؤلاء العرب بأقل من ذلك زهوا واعتدادا بازاء
جنودنا الفرنسيين ؛ بل لقد واثت أحدهم جراة وثقة لحد أنه عرض على
أحد جنودنا شراء نجوم ضابط فرنسى كان قد قتلته . وهم لا يبدون
مطلقا بالتحية كما لا يردونها مطلقا . وأكثر مايجذب انتباههم فى الشخص
الذى يلوح لهم هو السلاح الذى معه أو الملابس الذى يرتديها أو الحصان
الذى يمتطيته . وعندئذ يبدون فى تصور الطريقة التى تمكنهم من
الاستيلاء عليها .

(※) الترجمة هنا بتصرف طفيف . (المترجم) .

باطلاق النار على الأهالى اذا لم ترد اليهم اسلحتهم ، فلم يجد هؤلاء مفرا من أن يركبوا هم ايضا الخيول الى جانب شيوخهم . وحيث كان عدد العرب فى ذلك الوقت قليلا فان الحظ لم يحالفهم وقتل من بينهم رجل كان ينتمى الى قبيلة الفوايد وهى قبيلة قدمت الى مصر حديثا كما قتل فى نفس الوقت سيدة و فرس . . واضطر هؤلاء الى الانسحاب وفى اليوم التالى غادر شيخ القبيلة بنفسه ، الشيخ على ابو كرايم ، مقر اقامته فى ساو وجاء على رأس سبعمائة فارس وحاصر ببلاو وطالب بقتل العربى ، وكان هذا مختبئا ولم يستطع احد اكتشاف مخبئه . عندئذ امر الشيخ على بالقبض على أربعة من اكبر شيوخ القرية سنا ، واصطحبهم الى خيمته ، وهناك فرض مبلغا كبيرا من المال على سبيل «الحية» ، أى ثمننا للدم . وهى عادة يعاد بمقتضاها شراء دم كل قتيل بمبلغ محدد من المال ثم امر بضرب هؤلاء الشيوخ التمساء بالعصى ويكاد يكون الامر قد تم كله أمام ناظرى ، ولقد تركت « ببلاو » دون أن أعرف ما ان كان الشيخ على قد أطلق سراح الشيوخ ، وما هو المبلغ الذى تقاضاه ثمننا لذلك (١١) .

تلك هى المساوىء والمظالم التى يرتكبها العرب الملاك كل يوم . وهؤلاء الرجال بالفو الثراء، ولهم نفوذ كبير فى البلاد، وان كانوا يستمدون مكانتهم تلك من الفزع الذى يحدثونه فى النفوس . ليكن العربى محقا أو مخطئا ، ليكن معتديا أو عكس ذلك . فشيوخ قبيلته فى كل الأحوال يدافع عن شجاره على الدوام بنفس الحرارة التى بدافع بها الناس عن عدل القضايا ، ويكرس كل الوسائل للانتقام أو للانتصار له .

وثمة ضرب من العنف من جانب هؤلاء ، لا يستطيع الفلاحون أن يضعوا له حدا ، وذلك هو ما ترتبته قبيلة عندما تأتى لستأجر أراضى بينهم . فى البداية يأتى فريق من القبيلة ليضرب خيامه فى منطقة كثيفة المرعى ، وما أن يحس هؤلاء أن الأرض مناسبة لهم وما أن يستقروا هناك حتى يسدأوا يساومون الفلاحين على ثمن المكان . ولكن ماذا ؟ فلقد أكلت الخيول والجمال بالفعل جزءا كبيرا من المرعى وانتشرت الخيام

(١١) ارتكب عبد الله بن وائى مثل هذا العنف حين احتجز شيوخ القصير وبنى عمران لأنهم لم يقرروا على حصوله ، أو بالأحرى على استيلائه بالقوة على الأراضى التى تقع على الشط الشرقى وهى تعد مواتية بالنسبة له .

فى كل مكان . ما العمل اذن ؟ عندئذ يقترح شيخ العرب ثمننا للارض لا يبلغ فى معظم الاحيان سوى جزء واحد من عشرة اجزاء من القيمة الحقيقية ولا يكون امام الفلاح من نصرف آخر سوى ان يقبل . ولقد رأيت فى كل مكان حوادث مماثلة ، وشهدت السهل يفص بهذه المخيمات المتناثرة . الا يعطينا ذلك ابلغ دليل على بؤس الفلاحين وعبوديتهم الخائفة؟ انهم يننون فى مناعبهم ويتصبب منهم العرق لكى يطعموا هؤلاء السادة المتعاليين . وينتصهم الملبس والخبز ليتوفر كل شئ عند العرب الذين يهبونهم . ونادرا مايسمح اولئك المساكين لانفسهم بان يهمسوا بالشكوى ، واذا ماحدث الأمر فانه يتم بصوت خفيض خفيض . انه لأمر يبعث على الاسى حقا ان نرى اقاليم بأكملها تكاد تكون قد ضربت فيها من أقصاها لأقصاها مخيمات العربان ، وفى الوامع فان عدد هذه المخيمات يماثل عدد القرى ، ويفد اليها على الدوام فرسان جدد ، ليسوا من أفراد القبيلة ، وانما وفدوا الى هناك ليحصلوا على اذن بالسطو لأن شيوخ هذه القبيلة هم هنا أصحاب الأمر . لذلك فكم هناك من أراض مهجورة وغير مزروعة فى « ميدان » الخيام والمناطق المجاورة له . وكم من مناطق اختفت فيها الحبوب وقت البذار : اما حين يستزرع العرب أرضا تروق لهم فانهم على الدوام واجدون كل الوسائل لاغراقها بالمياه على حساب جيرانهم ، ومخالفين لكل العادات والأصول المرعية . فهم يتوجهون والسلاح معلق بأيديهم الى احد السدود ودون ان ينتظروا حتى تحصل الأرض العالية على ماكفيها من المياه ، يقطعون السد بأنفسهم فتجرى المياه لتسقى اراضيهم هم ، ثم يحتفظون بالمياه بالقدر وبالمدى اللذين يروشان لهم ، دون أن يشغل بالهم مطلقا ان تروى او لا تروى الاراضى التى تقع الى شمالهم . واذا مااحتاجوا لمياه احدى الترع فانهم يحدثون فيها قطوعات بالعدد الذى يرونه مناسبا دون أدنى تفويض او استئذان . وباختصار فهم يسدون ويفتحون ، ويطلقون مدى الترع كما يترامى لهم ، ويقيمون السدود ان يهدمونها بحسب مصالحهم هم ، ويتم الأمر دون أدنى معارضة ، لانهم اقوى من القانون ، ومن أجل خاطرهم وحدهم تغيب الشرطة ، وليس من الضروري ان اضيف هنا انهم لا يساهمون مطلقا فى مصاريف تطهير الترع أو بناء الجسور ، بل ولا فى أية مصروفات مشابهة على الرغم

من أن هذه الأعمال تعود بجل نفعها عليهم هم وبأكثر بكثير مما تعود على الآخرين .

إن المرء ليمتلكه غضب شديد وهو يرى قطاع الطرق النبلاء هؤلاء يجوسون بوقاحة خلال الديار التي خربوها أو يعسكرون من حول القرى التي أفرغوها من سكانها . وعندما يراهم المرء يجتازون الوادى من كل اتجاه وهم راكبون خيولهم فانه سيوقن بأنهم سادة البلاد . وای بلاء سببوه للصناعة عندما طردوا ثيئاً فثسئاً من القرى المعليين «والأسطوانات» من أبناء البلاد (✱) والمثال على ذلك واضح فى ساو والعرين وعلى وجه التقريب فى كل القرى التي يرويها بحر يوسف ، فبسبب ظهور هؤلاء الطفافة ، فان قرى بأكملها حيث يسيطرون ، قد هجرها أهلها بل نكاد تكون قد خربت لأن هؤلاء العربان لا يزرعون ولا يبنون ، وإذا كانت أراضى بعض هذه القرى لاتزال تزرع فالسبب فى ذلك أن مياه النهر تفيض فترويها تلقائيا كل عام ، وبذلك لا يلزم أى عمل سوى البذار والحصاد . وعلى الرغم من كل ذلك ، فالفلاحون مرغمون على العودة من بعيد ،ومن جميع الجهات ليزرعوا أراضيهم التي أصبحت ملكا للعرب .. وتلك هى اللوحة الحزينة التي يقدمها لنا هذا الجزء من مصر العليا . أما فى مصر السفلى فان العرب هناك أقل سطوة ونفوذا .

ويمكن للمرء أن يسأل : ماذا نفعل كل هذه القبائل العديدة؟ وللإجابة على ذلك ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن الجزء الأكبر من كل قبيلة يشكل مخيما كبيرا يقطن فيه الشيخ : لكن كثيرا من العائلات تنتشر فى الوقت نفسه بشكل منعزل فى مناطق مختلفة ، وتشكل مخيمات تتكون من خمس الى ست خيمات . وهناك ترعى هذه العائلات جمالها وحميرها وخيولها ودوابها . وأكثر من نصف رجال هذه العائلات لم يركبوا الخيل « أى ليسوا فرسانا » ويشتغلون كما قلنا للتو باصطحاب القطعان الى المراعى، أما الفرسان فيقتضون وقتهم فى القيام بجولات فى السهل وهم يبحثون على الدوام عن شىء يسلبونه . وفى أيام الأسواق العامة يتوجهون الى هناك مسلحين ويصنحون معهم جمالهم وماشيئهم ليستبدلوا بها الذرة

(✱) الترجمة هنا بتصرف طفيف للغاية (المترجم) .

والشعير والبلح والدخان وأشياء أخرى من مواد الاستهلاك اليومى .
أما عن البلح (١٢) ، فانهم يبيعونه بأنفسهم عندما يأتون من الواحات حيث
يجلبون منه كميات كبيرة (١٣) كما يجلبون معه فى قوافلهم المشمش الجاف
والأرز الذى يعد من مرتبة أدنى من أرز الدلتا ، كما يحضرون معهم مؤنا
متنوعة . وتشغلهم هذه القوافل لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر فى العام ،
وهم يبدأون رحلتهم عادة من الواحة الصغيرة التى تقع على مسيرة ثلاثة
أيام من دلجا ، كما يلجأون على الدوام الى هذه الواحة عندما يطاردون فى
مصر ، وكذلك فى أوقات الفيضان فى اغلب الأحيان ، لكنهم فى هذه
الحالة يكتفون بأن يضربوا خيامهم على حافة الصحراء . وعندما يصبح
القش « الثبن » نادرا فى مصر ، فانهم يذهبون الى الواحات لتتغذى
خيولهم على قش الأرز ، ويقوم عرب الفيوم كذلك بهذه الرحلة ، وهم
يجلبون بخلاف البضائع التى تحدثنا عنها ملح المناجم الذى يستخرجونه من
الجبال المجاورة لهذا الاقليم (١٤) .

ويربى العربان فى مخيماتهم كثيرا من الخيول والجمال ، وهذا مالا
يفعله الفلاحون مطلقا ، وسيظل هذا الأمر دافعا على الدوام لعدم دفع
العرب الى خارج البلاد ، اذ لبس ثمة سواهم الآن من يستطيعون أن
يمدوا البلاد بالخيول والجمال ، ولابد أن عدد هذه الدواب سيكون بالغ
الضالة الآن فى البلاد لو أن كل الحيوانات التى استخدمها الجيش الفرنسى
قد أخذت كلها من الريف ومعروف ذلك التقدير الذى يكتفه الفرسان
العرب للفرسات . وقد سألت البدو الذين كنت أسافر معهم عن السبب
لكنهم لم يخبرونى ، وعادة ما يظن المرء أن الأمر يعود الى أن الفرسان

(١٢) هذا البلح جاف ولسكنه طيب المذاق لحسد كبير ، ويساوى
القنطار ثمنه ٣-٤ بوطاقات (ريالات) .

(١٣) يبدأ طريق الواحات من خلف نزلة الشيخ عباس الى الشمال
من سرقنا . وينبغى التزود بمياه تكفى ثلاثة أيام . وتوجد فى البلدة
نفسها مصادر للمياه ، وهى تقدم الشعير والبلح بالإضافة الى الأرز
والبلح ، ويواصل الطريق ارتفاعه حتى يبلغ جبل بهاية . وهناك طرق
عدة أخرى تؤدى الى الواحات ، أحدها فى مواجهة التونة ، وثمة طريق
آخر أمام بنى خالد ، ومن هذين الطريقين تخرج فروع تؤدى الى البهنسا
والى الفيوم .

(١٤) انظر دراسات عن العصور القديمة ، المجلد السادس .

يتجنبون سهيل الجياد التي نعلن عن وجودهم ، وبذلك لا يمكنهم أخذ فريستهم على غرة ، لكن الحقيقة في الأمر هي أن الفرس تتحمل العطش بشكل أفضل من الحصان ، كما أن احتياجاتها أقل بالإضافة إلى أنها أقل طيشا وأكثر ملاءمة لرجال يظلون في غالب الأحيان عدة أيام متتالية ، راكبين خيولهم دون أن يكادوا ينزلون عنها .

والفرس العربية نحيفة عجفاء لكن ذلك لا يقلل من سرعتها فهي لا تقل في ذلك عن أفضل خيولنا تغذية . ويكاد يكون لكل فرس شرابة بيضاء أو زرقاء أو حمراء تحت الرقبة وأحيانا فوق الأذنين . ولا تقل عاطفة العربي نحو فرسه عن العاطفة التي يكنها عاشق لعشيته . وعلى الرغم من أن العربي يظل قلنا تجاه فرسه ، حريصا على ألا ينقصها من الرفاهية شيء ، إلا أنه لا يكلف نفسه عناء القيام بأي جهد لتوفير طعام جيد لها إلا إذا تم الأمر على حساب الغير . وكمن مرة رايت فرسان العرب ، بينما كنت أسافر إلى جانبهم يترجلون على السدوم — يكاد يتم ذلك كل خطوة — ويتمهلون بها في حقول البرسيم والشعير بل حتى لو كان القمح أخضر أو ذا سنابل ! كانوا يجعلونها تأكل على السدوم حتى ظننت أن السبب لا يعود إلى الرغبة في أشباع جوعها بقدر ما هو اللذة في أطعمها من حقول الآخرين ، فليس هناك عند العرب لحظة أحلى من تلك اللحظة التي يلوح له فيها شيء يمكن له أن يسلبه !

والقبيلة العربية التي لا تمتلك أو تستأجر إلا بعض الأراضي ، تمارس مع ذلك نفوذا ونوعا من السيطرة في دائرة هي أكبر بكثير من هذه الأراضي نفسها . وهذه الدائرة محددة ومميزة عن دوائر القبائل الأخرى المجاورة ، فالقبيلة لا تخرج مطلقا ، أو لا تخرج في معظم الأحيان عن حدودها لكي تجور على دوائر القبائل الأخرى . أنه نوع من الاتفاق الضمني وضعت قواعده نتيجة للمشاحنات والمعارك والحروب التي دارت بسبب هذا الموضوع .

ودوائر النفوذ هذه متلاصقة وتشتمل في مجموعها على أراضي هذه البلاد ؛ وليس ثمة ما هو أكثر غرابة من رؤية هؤلاء السادة المزعومين لمصر وهم يمسحون أراضيها على هذا النحو ، ويحددون الحدود التي تضمن

حقوق كل فريق منهم . وهم لا ينظرون الى الاراضى التى تقع داخل كل دائرة الا على انها ارضهم وبلدهم ، ويعنى هذا بالنسبة لحماية دائرة ما ان ليس من حق أحد من العرب الآخرين ان يسلبوا او يرتكبوا احداث عنف داخل دائرة تقع فى حمايتهم ، وقد بلغ الأمر الى حد اننى لم أستطع مطلقا ان اصطحب معى الى ما وراء دائرة عرب واقى الفرسان العرب الذين كانوا معى كحراس ، ولا ان اصحب الى ما وراء ملوى الفرسان الذين ارسلهم الى الشيخ على ابو كريم ، ونفس الأمر بالنسبة لعرب محارب ، والسبب من وراء ذلك ان العرب ، الى جانب أنه لا يسمح لهم بالمرور فى اراضى قبيلة أخرى ، لا يحبون ان يسيروا على ضفاف النيل او يمرؤا بالقرب من المدن الكبرى مثل ملوى والمنيا عندما يكون عددهم صغيرا ، فعندما يكون العربى بمفرده ، فى مكان منعزل فاته يستشعر الرهبة من المشاعر التى يكنها نحو العرب شيوخ القري ، لذلك فهو بالغ الحذر لا يريد ان يعلن عن وجوده ، وفى واقع الأمر فان الناس يعاقبون فى بعض الأحيان اول عربى يلقونه على شر ارتكبه عربى آخر . فكل راكب حصان ، يرندى الزى الأبيض ويتسلح بالبندقية انها هو فى نظر الفلاحين نهاب قاطع طريق ، وهم فى ذلك ليسوا مخطئين على الإطلاق .

واليكم كيف قسمت الاراضى بين مختلف القبائل التى ذكرتها :

تعسكر قبيلة بنى واهى — وهى قبيلة بالغة الثراء بخيولها من منتصف ترعة تسمى ترعة العسل وحتى صنبو فى الشمال . ومكان اقامتها الرئيسى فى تتالية وهى قرية تقع الى شمال منفلوط ، يوجد بالقرب منها دير بالغ الأهمية ، وهذه القرية هى مقر الشيخ عبد الله بن محمود بن واهى ويمتد زمام الدائرة حتى ضواحي الأصفر ، المير ، القوصية ، صنبو .

اما دائرة قبيلة ابى كرايم التابعة للشيخ على فتشمل المسافة بين صنبو وملوى . اما مقر اقامة الشيخ فيوجد فى قرية ساو . وقد عسكر هؤلاء العرب بالقرب من ببلاو ، ودشروط ، وساو ، وديروط الشريف ، ودلجا ، ودير مواس ، والبدرمان ، وباويط ، وامشول ، وابو الهدر ، واسمو ، بنى حرام ، وسرقنا ، بل وكذلك تندة وطوخ .

وينتمى عرب التراهونة الى هذه القبيلة ، وهؤلاء قد اقاموا خيامهم

فى تنذة أما الجهة فإرباطون على الشط الأيسر « الغربى » لبحر يوسف بين دجلة ، وديروط أم نخلة حتى صفط خمار أمام مدينة النيا . ولهؤلاء خيام متناثرة فى أماكن شديدة التباعد فيما بينها ، بل ويوجد بعض منها وسط قبيلتى ابن وائى وأبى كرايم .

أما عرب محارب فيقيمون كلهم على وجه التقريب فى بيوت ، وقد كفوا عن حياة الخيام منذ حوالى خمسة عشر عاما . . ودائرتهم بالغة الأهمية فهى تمتد على الشط الأيمن من بحر يوسف ابتداء من النقطة الواقعة تجاه التونة حتى جبل البهنسا على بعد عشرين فرسخا من ملوى . وأهم مواطن هذه القبيلة هو قرية العربى حيث يقيم الشيخ أبو زيد « شيخ القبيلة » ، أما الشيخ زيد فيقيم فى ديروط أم نخلة ويقيم الحاج عبد الله فى ابشادة ، ويشغل عرب هذه القبيلة قرى المحرص ، ديروط ، ابشادة ، اشمنت . . وقرى كثيرة أخرى .

ويتفرع من قبيلة محارب عرب جبار أو الجابرة ، وعرب غزالة ، والدرابسة والشواذى ، وهم ينمنون إليها كما أنهم جميعا مزارعون ويقيمون فى قرى . . ويشغل الأولون طوخ الخيل ، أما عرب غزالة فيقيمون فى ديروط أم نخلة وكذلك إلى الشمال ، فى العزبة فى إقليم بنى سويف ، أما الدرابسة والشواذى فيشغلون ضواحي بنى سمرج وطهطا ويوجة ، ولا يزال للدرابسة بعض الخيام .

أما العرب المسمون بالخوين والغريب فيشغلون ضواحي شمالوط أما عرب الطحوى أو المصراتى أو بالأحرى عرب طه فسنناولهم فيما بعد . وتمتلك قبيلة أبى كرايم ألف حصان وعددا كبيرا جدا من الجمال ، وأهم شيوخها هما الشيخان على وسليمان ، أما الجهة فبممتلكون أكثر من خمسمائة حصان . وتذهب القبائل الأربع : ابن وائى ، أبو كرايم ، الجهة ، محارب إلى الواحة الصغيرة ويعودون من هناك لبيعوا بضائعهم فى الأسواق الكبرى فى دشلوط ودلجا وصنبو والقوصية .

وتعمل النسوة فى المخيمات العربية فى غزل الصوف الذى يصنع فى القرى ، ويتخذ أكثر الناس بؤسا ملابسهم من هذه الأقمشة الخشنة ، أما الآخرون فيشترون من المدن البرنس المصنوع من أقمشة فاخرة .

ويوكل الى النساء أيضا طحن الذرة وصنع الخبز وتجهيز البيلاف « طعام شرقى من لحم وأرز وتوابل » وكذلك كل أعمال المنزل ، والخبز عندهم عبارة عن قرص مسطح يجففونه فى الخيمة ثم ينضجونه على وقود من روث الجبال يخرج من خلال « بوز » وهو فتحة صغيرة مصنوعة من الطين على هيئة فرن ، وهكذا يجد العربان فى متناول أيديهم الخبز والوقود . وما أن تحصل أسرة ما على مؤنتها من الذرة حتى يصبح بإمكانها أن تستغنى عن كل ماتقدمه مصر لها من عون ، ولا يعود يعنياها الا أن تضرب خيامها بالقرب من مكان توجد به مياه ، وهذا امر يعرف العربان أكثر من أى قوم آخرين كيف يحققونه . ونحتوى خيام العربان على مخزون من البلع والأرز والذرة وعلى قليل من الشمير والقمح والفول ، ويودع كل شىء بحذاء جدران الخيمة وبطريقة تدع المكان بالغ الاتساع ، وفى منتصف الخيمة يوجد النساء والأطفال ويكاد لا يكون هناك فرق يذكر بين ملابس السيدات وملابس الرجال ، فهن يرتدين مثل الرجال حذاء نصفيا « خفا » وينظفون بقطعة من قماش صوفى أبيض اللون من القدمين حتى الرأس ، ولم أرهن يتحجبن كما تفعل المصريات ، وهن فى نفس الوقت ، ولحد ما ، أكثر بياضا من زوجات الفلاحين ، وعند بقائهن هكذا سافرات الوجه أمام الأوربيين ، فقد كن يظهرن لى على شىء من القحة والمجون اللذين هما طابع العربان ، والذى يميزهم عن المصريين . ولا يحتم الرجال على نسائهم — اما لأنهم أقل غيرة أو لأنهم أكثر ثقة بهن — ارتداء الحجاب الذى قد لا يكون له من غاية الا تفادى نظرات الفضول عن طريق هذا القناع الشائى الذى لا يبعث على البهجة ، لكنه وسيلة أقل ثماعلية من غيابه هو نفسه ، فأى شىء يمكنه أن يصد الفضول ويقتل الرغبة أكثر من وجه شوهته هذه الرسوم السوداء والزرقاء « الوشم والكحل » (١٥) .

ويبدو الرجال فى خيامهم ، أو على الأقل راكبو الخيل منهم ، وكأن ليس لديهم ما يشغلهم ، فتراهم ، وطربوشهم فوق أذنه ، يتجولون من

(١٥) من المعروف أن النسوة فى مصر يرسمن بشكل حاد رموشهن وجفونهن باللون الأسود (الكحل) وأنهن يضمن بقما زرقاء على الذقن وبقية أجزاء الوجه (الوشم) .

خيمة لأخرى : يتطوحن فى مشيتهم وأيديهم خلف ظهورهم • يرثسم المرح على وجوههم ، وهم فى عمومهم ذوو مظهر طيب ، ويبدو البيض منهم ، بتقاطيع وجوههم ، وسمنتهم ، ومشيتهم المنعاطمة وملابسهم الفضفاضة والممتلئة ، يبدون بمظهر الأثرياء العاطلين أكثر مما يبدون بمظهر الفرسان المحاربين ، وهذا المظهر من الرضا والسعادة هو أكثر ما أدهشنى عند العرب .

ومع ذلك ، فان الأمر الذى لا يقل عن ذلك جدارة بالملاحظة هو اهمالهم لطقوس الدين ، فلم أرهم مطلقا يتوضأون أو يصلون مثل بقيه المسلمين ، كما أنهم يشربون الخمر فى بعض المناسبات ولا يولون كبير اهتمام بشهر رمضان ، وحين يقومون بأداء الحج الى مكة فاتما يفعلون ذلك لفائدة سيجنونها من هناك .

وتبعاً لما سبق ، فاننا نجد مخيماتهم شبيهة بالقرى الكبرى وسكان تلك المخيمات أكثر بلا جدال من سكان بقية القرى فى مصر ، ناهيك عن الذهب والفضة اللذين تكتنزهما هذه البيوت المتنقلة . وفى هذه الخيام يجد المرء كل ما هو ضرورى للحياة ، ويحصل العريان من بيع المواشى والجمال وبعض المواد الغذائية على دخول أكبر بكثير مما ينفقون على شراء الأسلحة والسروج والملابس ، وفضلاً عن ذلك ، فان من الممكن لنا أن نؤكد أن الغالبية منهم يتسلحون بأسلحة مهربة أو مختطفة تحت آلاف الادعاءات ، بل ان الكثير منهم يرتدون ملابس سرقوها من الفلاحين .

أما الفضة والأموال التى يكدها العرب بين أيديهم بهذه الطريقة، فيمكنها أن تسهم فى تثبيت سيطرتهم على مصر بأكثر مما يمكن أن تفعل أعدادهم وفروسيتهم . السست ترى أن هذا النفوذ لابد له — بحكم طبائع الأشياء — أن يتضاعف أكثر فأكثر لحد يضع مصر ذات يوم فى قبضة العرب .

ولا يحتاج هؤلاء الرجال فى مخيماتهم الا للقليل ، فهم بالفو القناعة، لكنهم يصبحون بالفى النهم وشديدى الالاح اذا ما لجأ اليهم مسافرون يحتاجون لحراستهم ، فهم فى هذه الحالة يصرون على طعام متبقى لابد أن يحتوى على اللحم المشوى والبن والدخان بوفرة ، بحيث يتكلف طعام

كل واحد منهم فى اليوم مالا يقل عن **بويلا** (١٦) ويدعى هؤلاء أن هذا هو طعامهم المعتاد . وفى نفس الوقت فهؤلاء العرب لبسوا بدمى الخلق ولا بالمجاملين الملاحظين . هذا ما شعرت به وأنا بين عرب بنى وافى وعرب أبى كرايم وعرب محارب السذين اتخذت من بينهم حراسا أثناء جولاتى . ولقد كان الأولون يبدون أثناء وجودى بينهم أقل قسوة على الفلاحين ، أما عرب محارب فكانوا ينتهزون فرصة قدومى ليجتازوا القرى ، راكبين خيولهم ، ليحصلوا لأنفسهم على آلاف الأشياء بدعوى أنها للفرنسيين . . وهكذا تتاح لهم فرصة جديدة لى ينتهبوا ويسلبوا دون أن يلتوا عقابا ، وتحت اسم الغير (١٧) .

وتشفل قبيلة محارب هذه جزءا كبيرا من اقليم النيبا كما سبق أن قلت ، وتمتد امتيازاتها الى بعيد ، وتنقسم هذه القبيلة الى بطون كثيرة تسكن فى قرى عديدة . ومنذ وقت طويل ، لم بعد هؤلاء يقيمون تحت الخيام كما كفوا عن ارتداء الثوب الأبيض « البرنس » ، ولا يمكن لك أن تميزهم للوهلة الأولى عن طريق ملابسهم عن شيوخ الفلاحين ، وأقل هؤلاء العرب شائنا يرتدى ملابس جيدة ، وترى واحدا بهذه الصفة منهم فى وضع أفضل من وضع شيخ قرية ذلك أنه يرتدى فوق جسده أسلاب أربعة شيوخ . . وتساهم هذه الأبهة فى الزى فى زيادة زهوهم ، وإذا مذهبوا للسلب وسلكوا الطرق العمامة أو ضفاف النيل فائهم لا يرتدون ملابس أقل من هذه أبهة ، وليس بمقدور احد أن يحصل على أى عون ضدهم لأنه يستحيل عليه أن يجد شخصا يشكو اليه . وفى هذه الحالة الراهنة ، لا يستطيع المرء أن يجد الكيفية التى ينظر اليهم من خلالها ، فهم معروفون فى السر لصوصا ، ومع ذلك فليس فى مقدورنا أن نطاردهم ، لأن شيوخهم يسلكون

(١٦) قطعة نقدية تساوى ٩٠ بارة (حوالى ٣ جنيهات و ٨ سو) .

(١٧) تدل الصفائر المهيئة التى يقترفونها بقلب بهيج على قساوتهم بقدر ما تدل على ضعف الفلاحين ؛ وقد شاهدتهم بعينى راسى يستولون عنوة من امرأة بائسة أضنتها الشيوخة على حمولة كبيرة من أغصان اشجار التمرهندي ، كانت تحملها بمشقة كبيرة فى الصحراء ، دون أن يكون لديهم حتى ذريعة أن الخشب ينقصهم ، وحيث كانوا يهللون لسرقتهم هذه ، فقد وجدت مشقة بالغة فى حملهم على رد هذه الأعشاب الجافة مع قيامى بدفع ثمنها لهم .

ظاهريا سلوكا طيبا فى قراهم وارضيتهم ، حتى انه ليبدووا عليهم انهم لم يشاركوا فى السلب على الرغم من انهم يكونون قد اقتسموا الاسلاب . . . وعندما وصلت اثناء جولى الى دائرة عرب محارب دون أن أدرك ذلك ، سمعت احاديث كثيرة عن الاغتيالات التى كان هؤلاء العرب يقتربونها كل يوم ، ورأيت انه قد حان الوقت لأن ادعم حراستى الضعيفة بعدد من العرب ، فاستأجرت فى ديروط اثنى عشر فارسا مسلحين تسلحا جيدا . وفى الطريق كنت أكثر من سؤالى اياهم حول السرقات وحوادث العنف التى يمارسها العرب فى الوادى وفوق شاطئ النيل وبالقرب من ملوى ، لكننى لم أظفر مطلقا باجابة . وعرفت فيما بعد أننى كنت اتحدث الى نفس الذين يقتربون هذه القلاع ، وتأكدت من ذلك بوسائل مختلفة . كم كان قلتي كبيرا عندئذ ! لقد أسلمت نفسى بنفسى الى قطاع طريق ، وكثيرا ماذهبت معهم لمسافات طويلة داخل الصحراء . . . ولكم اثار طمعهم أكثر من مرة أدواتى وخيولى والمال الذى كانوا يظنونهم معى . . . ومع ذلك فقد اكتفى هؤلاء اللصوص الثرغاء بالأجر الذى كانوا يحصلون عليه منا وبما كانوا يستطيعون أن يسلبوه من القرى . ولكنهم كانوا سعداء عندما يجدون بمقدورهم أن يتركوا فرسانهم ترمى مجاننا فى مراع وغيرة ! ومع ذلك فقد كان هؤلاء الشجعان يرتجفون فرقا عندما استوجب الأمر دخول مدينة المنيا اذ كانوا يخشون الجند الفرنسيين ، لكن ارتباطهم كان يلزمهم بذلك . فمشوا اليها وكأنها هم يستجدون ، كما لم يدخلوها الا اثناء الليل وقد رحلوا على حين فجأة ودون أن يلحظهم احد .

وكل القرى التى استقر بها عرب محارب فقيرة ومهجورة ونصف مهمة وتخلو من الأشجار (١٨) ويكاد لا يوجد بها سوى بعض الفلاحين يقومون بزراعة الاراضى المملوكة لعرب محارب — وليس بزراعة اراضيهم الخاصة ، ذلك أن هؤلاء العرب لا يزرعون بأيديهم على الاطلاق ، فليس ثمة من مهنة أكثر نبلا من وجهة نظرهم من أن تعيش من خيرات الغير دون مشقة ودون عمل ، وليس ثمة أكثر مهانة عندهم من عمل المحراث ، وكلمة فلاح عندهم مرادفة للفاظ السباب فهى تعنى : رجل الطين ، الذى خلق من اجل الشقاء

(١٨) القرى التى نئن تحت وطأة نفوذ العرب محرومة من النخيل ؛ ولها مظهر عار يميزها عن بعد .

والذى ولد خصيصا لانتاج طفام العربان . ويذهب هؤلاء القوم الى بعيد فى تحقير مهنة الفلاح حتى أنهم يأتفون من أن يحطوا من قدر البدو فيرفضون أن يطلقوا اسم البدو على هؤلاء الذين شاعوا من بنى قومهم أن يحترفوا مهنة الزراعة مثل عرب طه والريمون فيقولون عنهم : أنهم فلاحون حقراء وأخساء لم تعد تجرى فى عروقهم الدماء العربية . .

أما عرب المصراثة أو ~~الطحيوى~~ ، أو بمعنى آخر عرب طه ، فلم يترى باللغة الفخامة ، تقع على بعد اربعة فراسخ الى الشمال من المنيا ، وهم قد استقروا هناك منذ عدة أجيال ، ولقد قدم هؤلاء العرب الى الزراعة ، على النقيض من العرب الآخرين ، خدمات جليلة ، وبذلك حصلت الأرض على مزية مزدوجة . أن تزرع بشكل ممتاز ، وأن يدافع عنها فرسان شجعان ضد أعمال العنف التى تصدر عن العرب المجاورين ، وهم فى حالة سنوء تفاهم على الدوام مع الآخرين لكن اليد العليا تكون لهم على الدوام فى كل الممارك التى تدور بين الفريقين .

ولم أشاهد فى مصر فلاحين أكثر سعادة من عرب طه ، فهناك تسيطر الحرية ويسود الرخاء تحت سيادة قوانين خيرة وتحت حكم أسرة محبوبة ، ولذلك ازدهرت هناك الصناعة والزراعة ، وليسبت ثمة قرى أكثر ثراء من قرى عرب طه فى المواشى وبخاصة فى البقر ، وليس هناك أرض توزع عليها المياه على نحو أفضل . والسدود فيها معتنى بها بشكل أحسن . من أراضيهم . . هكذا جعل الشيخ على الطحيوى من هذه القرية واحدة من أغنى قرى الإقليم ، وهكذا على الدوام يكون تأثير الشيخ الطيب وعلى هذا النحو يكون اثر المتأومة المدعومة التى تقف ضد الابتزازات والمظالم . وقد كان هؤلاء مصدرا لآلاف المعونات ، ولسد مالا يحصى من احتياجات الفرنسيين وبشكل أكثر يسرا بكثير مما هو فى مقدور عشرين قرية فى جهة أخرى . . منذ وقت طويل كف هؤلاء العرب عن الاتامة تحت الخيام ، وعن ارتداء الثوب الأبيض « البرنس » . . وارتدوا نفس رداء الفلاحين ، أى ثوبا من الصوف الغامق ، وتجد بينهم ، مثلما تجد بين بقية العرب رجالا سود البشرة ، وهؤلاء على الدوام فرسان ممتازون . ولقد شاهدت معركة دارت بينهم وبين عرب الشوادى ، تبين لى خلالها أنهم — أى عرب طه — لم يفقدوا مطلقا

الزواج المقاتل حين أصبحوا فلاحين ، ولربما كنت أخذت على عاتقي أمر تدريهم لو لم أكن قد توصلت الى ايتاف نزيف الدم بين القريتين . . .
وانك لو اوجد مشقة كبيرة حين تحاول تصور السرعة التي يتهاى بها عرب الطحوى للممركة . . . ففى لمح البصر ، يخلع الواحد منهم اكمامه الطويلة ، ويصطنع من عمامته حزاما يملؤه بالخرطوشات ، ويصرع على الفور غريمه ، بينما هذا الطحوى يقاتل وحده ضد عشرة رجال .

وكل هؤلاء العرب الذين تناولتهم في هذه الدراسة ، اذا ما استثنينا عرب الطحوى الذين تحدثت للتو عنهم ، يظهرون نحو السلاطين عجرة متزايدة يبدو وكأنهم رضعوها مع لبن أمهاتهم . وحيث أن هؤلاء لا يتصاهرون الا فيما بينهم فانهم يزعمون أنهم بذلك قد احتفظوا بدمهم نبيلاً نقياً ، خلق خصيصاً لحكم مصر . وليس ثمة من بينهم في مخيماتهم ، حتى الأطفال انفسهم الذين التقيت بهم من لا يشارك في هذه العجرفة .

ولابد أن نتخيل أن من خاصية هذه المعجزة أن تمنحهم شعورا بالقوة والسمو فوق المصريين ، وتجعلهم يقدمون بنجاح على أمور بالفئة الجراة والجرأة ، فادعاءات كهذه لن تكون وبالا على أناس بهذه الدرجة من القوة سواء بفعل عددهم أو بتأثير تقاليدهم وأسلحتهم . دخلت ذات يوم في أحد مخيمات عرب أبي كرايم ، وجاء عديد من العرب الفضوليين ليجلسوا إلى جوارى وتحذوا بالفئة مع حراسي ، لكن سرعان ما اصطحبهم واحد من رؤساء القبيلة موجهًا إليهم التعنيف الحاد . لقد الفيتهم أطفالا صدمتني ملابسهم وكان بين هؤلاء ابن الشيخ ، كان يرتدى ثوبا أبيض بالغ النعومة وطربوشا جميلا أحمر اللون وخفين ، وما أن اقتربت منه حتى قال علي الفور وبلهجة تزدرى سامعه « أنا بدوى ! » ولكنى لقيت عند عرب الجهة استقبالا أفضل ، فقد هرعوا إلى ، واستعلموا بفضول عن أخبار القاهرة ، ومع ذلك فلا بد أن ننسب ذلك الاستقبال لدوافع الخوف والقلق .

ويمكن التعرف على قرى الفلاحين التي تسيطر عليها هذه القبائل، في أن سكان هذه القرى يبدون أقل خضوعا للسلطة ولقوانين البلاد، كما لو أن حماية العرب تكفي لحمايتهم من العقاب الذي يستوجبه التمرد. ولقد كانت هذه القرى على الدوام هي آخر من يسدد الضرائب وأول من

يبدأ العصيان . وهناك تستقبل قوات الحكومة استقبالا مسيئا . وفى الوقت الذى يفرط هؤلاء البؤساء فى نراتهم للقبائل العربية بدرجة كبيرة من عدم التبصر ، فانهم يتجاسرون على رفض تقديم ما هو ضرورى للفرق التى تمر ببلادهم ، ذلك انهم يأملون فى الإفلات من سطوة سادة بعيدين عنهم ، فى حين يرضخون لطغاة يماثلون نسر بروميتيوس * هؤلاء الطغاة لا يتركون فريستهم لحظة . وفى اقليم المنيا تخضع قرى كبيرة مثل ديروط الشريف ، ودلجا ، ودشروط لنفوذ العربان الذين يأتون ليقيموا خيامهم على الأبواب . وحين لايجرؤ شيوخ هذه القرى على مقاومة الأوامر التى يتلقونها من القاهرة مقاومة صريحة ، فانهم على الأقل يبدون شبيها من العجرفة وسوء النية والعدوانية يحثهم عليها العرب ، مما يجعل مثل هذه المشاعر دائمة بينهم . صحيح أن الناس فى أماكن أخرى ثرية فى مواشيها ، ومسلحة تسليحا جيدا يسهل الدفاع عنها مثل قرية المير ، لا يخشون من إقامة العرب فى السهل ، إذ هم يستطيعون على الأقل أن يعاقبوا هؤلاء على جسارتهم إذا ما تجرأوا على محاولة تجريبيها ، وسعداء هؤلاء الفلاحون الأمعاء لحد يسود بينهم هذا الطبع ! فهم يعيبون هادئين ملاكا أحرارا لعقاراتهم وثرواتهم التى لا تلبث أن تتضاعف على حساب ضعف الآخرين وخرابهم .

أما القرى التى تحاول بالرغم من ضعف قوتها أن تدافع عن استقلالها، فإن العرب يقومون بغزوها بشكل مفاجئ ، فيقتلون المشايخ ، ويستبدلون بهم غرهم بشكل استبدادى، ويهدمون ببوت هؤلاء الذين بسمونهم أعداءهم، ويستولون على أراضيهم ويتصرفون بمهارة حتى أن الأمر ينتهى بهم أن يحصلوا على محبة الآخرين .

أما تلك القرى التى تخضع كأمر حتمى للعرب بسبب ضعفها وموقعها القريب من الصحراء ، فانها تقدم لهم صداقتها كأمر طبيعى ، ولكل شئ حسابه فهذه الصداقة تكلف الفلاحين أقل مما كان سببكدهم الحقد المكشوف .

* من المعروف أن العقاب الذى أنزله جوبير ببروميتيوس عقابا له على سرقة النار هو أن يصلب فوق جبل القوقاز وأن يأتى النسر ليلتهم كبده الى أن يخلصه هرقل . (المترجم) .

ومن جهة أخرى فإن العائلات العربية ، قليلة العدد ، والتي تمتلك قرى صغيرة شديدة القرب من بعضها البعض ، تظل على الدوام فى حالة نزاع على الحدود وعلى اقامة او قطع السدود ، وعلى مسيرة واتجاه المياه ، وحيث لا توجد محاكم تحسم قضايا من هذا النوع فإن سكان هذه القرى يحسمون هذه الأمور بأيديهم فهم يقتتلون ويلاحقون بعضهم البعض بلا هوادة وبشراسة لا تصدق ، وحتى تفنى فى معظم الأحيان واحدة من العائلات المتشاحنة عن بكرة أبيها ، وعندئذ يستولى المنتصر دون مبالاة بأبسط الشكليات، ودون رسميات أخرى على اراضى المهزومين، ويثبت فيها عائلته أو من يلوذون به . وفى نفس الوقت ، فإن الحكومة لا تقوم بأى معارضة لأى من هذه الحروب الأهلية الصغيرة كما لو كان لايهمها فى كثير شخص من سيدفع الضريبة ، بل انها تغبط نفسها على الدوام ، فالضريبة ستؤدى برغم كل شئ مع انها — أى الحكومة — فى كثير من الأحيان لا تحصل منها أى شئ ، ويكون السبب أن قادمين جددا قد هاجموا وخربوا بدورهم ، أولئك الذين سبق لهم أن انتصروا .

وشكل خيام العرب معروف . فهذه مصنوعة من قماش يسمى : خيش . يصنع بشكل أساسى فى ولاية الفيوم . ويشكل العرب منه قطعة يبلغ طولها ٢٠ — ٣٠ قدماً وعرضها ١٥ قدماً ، ويدعمونها من أركانها الأربعة بأوتاد يبلغ ارتفاع كل منها ٤ أقدام كما يدعمونها من الوسط بوتردين يبلغ ارتفاعهما ستة أقدام مما يعطى للخيمة من أعلى هيكل السقف المسطح ، وهذه الخيام فسيحة مريحة . وحيث انها شديدة الانخفاض ومثبتة بالحبال فهي لاتخشى مطلقاً هبوب الرياح . وعندما يسقط المطر فإنه لا يمكن الدخول اليها الا من الأمام فهي الجهة الوحيدة المفتوحة .

وقد لاحظت فى هذه الخيام نوعاً من المهد « الهودج » المصنوع من أغصان القرائية « شجر زينة » بالغة الجفاف يبلغ سمكها بوصة ، ومصنعة بشكل تتداخل معه فيما بينها وعلى نحو مقبض ، وقاع هذا الهودج بيضاوى الشكل أو مقعر ، ولونه داكن ، وهو منتظم من أعلى . ويوضع هذا الهودج فوق جمل ، ويستخدم فى نقل سيدة وطفلها . وخشب الهودج من جهة أخرى أسود اللون بفعل الدخان ويبطن قاعه بالجلد أو يكون كله فى بعض الأحيان من الجلد . فاختطاف النساء هو أخشى ما يخشاه العرب من أعدائهم . وبمعنى آخر فإن هذه الهودج المرتفعة تم صنعها لحمايتهم .

وتستخدم هذه الأسرة الصغرة كذلك فى التنقل كما فى حالة القوافل . وفى أثناء قيامى بجولة بلغت ثلاثين فرسخا فى عرض الصحراء كانت الفرصة مواتية لى أرى على الدوام جمالا محملة بالنساء على هذا النحو ، ولابد أنكم تتخيلون هذا القدر من الانتباه والعناية الذى يوليه أزواج هؤلاء النساء أو أهلهن فى حراستهن ، حيث يبعثون على الدوام بفرسان يسبقونهم بهسافة فرسخ كامل ليستكشفوا الطريق لهم .

ومما تجدر ملاحظته كذلك فى مخيمات العرب هو السلوق أو كلاب الصيد ، وتلقى هذه بالأرانب والثعالب ، وتقدم خدمات جليلة عند صيد الغزلان التى يلذ العربان من أكل لحومها كثيرا ، وهم يطلقون على كلاب السلوق كنية « عدو الغزالة » ، وهذه الكلاب صهباء اللون ، وهى أصغر حجما من كلابنا وأكثر منها سرعة ، ويلبسها العربى قطعة من الجوخ ويضع فى رقابها عقدا ويمسكها على الدوام من مقودها ، وهم يجلبونها من سيوة حيث توجد منها أعداد هائلة ، ويدفع فيها لأصحابها ثمنها كبيرا يبلغ حوالى ٣٠ - ٤٠ بوظقة ومن العسير أن تحصل لنفسك على واحد منها . ومع ذلك فقد نوصل كثر من الفرنسيين الى الحصول على هذه الكلاب وبعض منها فى الوقت الحالى فى حوزة بعض الجنرالات (١٩) .

(١٩) شأهت فى مغارات وكهوف مصر الوسطى رسوما مصرية تشبه الفضول الى حد كبير ، وتمثل بدقة طريقة صيد الغزال هذه ، ومن اليسير أن نتعرف فيها على كلب السلوق نفسه ، وتشكل رسوم هذه المغارات وشروحها جزءا من المجلد الرابع للعصور القديمة، اللوحة ٦٦ .

الفصل الثاني

العرب المحاربون أو العربان الرعاة أو الرحل

أما الطبقة الثانية من العرب فتشمل أولئك الذين يضربون خيامهم في أعماق الصحراء أو على مشارف مصر ، والذين هم في حرب مع الحكومة في بعض الأحيان ، وفي أحيان أخرى في سلم معها ، ولا تمتلك هذه الطبقة أرضا ولا تدفع ضريبة على الإطلاق ، وهي الطبقة الأكثر عددا والأكثر قوة سواء فيما تملك من خيول وأسلحة أو فيما لديها من جمال وماشية . وهي التي تمد القوافل بالجمال التي تحتاج إليها لأغراض التجارة .

ولا يسمح لنا بغير هذه القبائل المستمر لكان إقامتها ، وإن كان يتم في معظم الأحيان في إطار نفس المنطقة ، لا يسمح لنا ذلك بمعرفة أسمائها . وفي الفترة التي كنت أنجول فيها في مصر الوسطى ، كانت قبائل أولاد علي هي أكثر هذه القبائل قوة ، وكانت مخبأاتها تقع في أدمو بالقرب من المنيا . وكانت تضم ألف حصان . أما قبيلة الفوايد فكان يبلغ عدد أفرادها الألف من بينهم ثلاثمائة فارس ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان ثمة قبائل أخرى في أبي الهدر والهدرمان ودبروط وبالقرب من سمالوط في إقليم بني سويف وفي ضواحي الفيوم .

ويغير هؤلاء البدو من منطقة إقامتهم إذا ما بدت لهم منطقة أخرى أكثر وفرة في مراعيها أو في مياهها أو أكبر مواناة لشرعاتهم ولأغراضهم في السلب وأعمال العنف . فلهؤلاء في الواقع سواء في حالة حرب أو في حالة سلم يمارسون نفس القدر من أعمال السلب والعنف ، مع شارق واحد ، هو أنهم يمارسونها في حالة السلم بعيدا عن مقر إقامتهم المعروفة وبحيطة أكبر ، فالبدو في حالة السلم لا يرتكبون السرقات ولا

أعمال القتل مطلقا بالقرب من مخيمهم . وانما فى أماكن تبعد عن ذلك
بفراسخ كثيره .

وحيث انه ليست لكثير من هذه القبائل الجوابه من مصالح فى
داخل البلاد فانها مركب جرائها دون أن تلقى عقابا ، مادامت نحرص على
أن تظل على بعد كاف داخل الصحراء حيث بطعمون ماشيتهم على قدر
مايستطيعون . لكنهم فى غالب الأحيان يعسكرون على حافة مصر ،
وهناك توجد كثير من الأراضى التى كانت تزرع فى الماضى ، كما نستدل
على ذلك من الآثار التى يحفرها العرب هناك والتى ترددها الرمال كل
يوم أكثر فأكثر . وفى غالب الأحيان . تصل مياه الفيضان لتغمر هذه
الأراضى ، وعندئذ ينمو نوع من البرسيم بالغ القصر له أوراق بالنسبة
النعمية تفتح فى تسواشيه ورود صفراء ويسمونه كتة ، وهو علف جيد
بالنسبة للمواشى ، فى جودة البرسيم نفسه بل ويتفوق عليه حسبما يذكر
أهل البلاد الدين كثيرا مايرينهم يذهبون الى هناك ليحصدوه لخيولهم ،
وهو قصير لكنه بالغ الكثافة . وبعد الفيضانات الكبرى « كفيضان
سنة ١٨٠٠ » ينمو هذا النبات بوفرة شديدة حتى أن العرب يرعون
هناك ماشيتهم وخيولهم وجمالهم على نحو واسع ، ويتراخون فى
الذهاب لاتلاف محاصيل علف الفلاحين ، وعام كهذا هو عام مبارك بالنسبة
للقبائل العربية التى تاتى لتغطى بخيامها كل حواف الصحراء . لذلك
شاهدنا فى عام ١٨٠١ مجيء كثير من القبائل العربية من أفريقيا بعدد
أن جذبتها أنباء الفيضان الكبير . وينمو فى هذه المناطق بالإضافة
الى محصول العلف هذا ، نباتات عطرية صغيرة الحجم تشكل مرعى
ممتازا للخراف والماعز . ونتيجة لذلك تقوم الماشية بتسميد هذه الأراضى،
وبهذه الطريقة يكون من السهل إعادة زراعتها لولا فقر وكسل الفلاحين أو
بالأحرى لا مبالاة الحكام . والأرض التى تنتج هذه النباتات هى فى
واقع الأمر صلبة لحد تستعصى معه على المحراث المصرى أن يشققها ، ومع
ذلك فلماذا الاصرار على استخدام المحارث لهذا النوع من الأراضى ؟ انها
سوداء كالأرض المزروعة لكنها أكثر تماسكا ، وببدو لى أنها ندين بذلك
لوجود طمي بالغ النعومة قد تكدس على مر السنين وازداد جفافه أكثر
فأكثر ، لأن الجزء الأكثر نعومة من الطمي هو الذى يقوم النهر بترسيبه
جد بعيد من محرى النيل ، وتشكل الأراضى من هذا النوع فى بعض

الأحيان مراعى شاسعة تمتد حتى الريف ، وتجعل الحدود الحقيقية للأرض المزروعة غير مؤكدة ، ولهذه المراعى المليئة بالورود الحمراء والبنفسجية ، شكل ورائحة جذابة ، لذلك فإن حواف الصحراء على بعض المناطق مثل البحر والأشجار وأماكن أخرى ، تبعث على البهجة أكثر مما يبعث عليها أى مكان آخر فى مصر التى تعرف بأنها لا تشتهر بها الأعشاب .

هكذا يضطر العرب الذين يطردون من الأراضي المزروعة اذن على الهروب الى مشارف الصحراء أو الى أبعد من ذلك بقليل ، وبينما يظنهم الناس قد ذهبوا الى بعيد فإنهم يكونون تسديدى القرب من مصر ، ومن أولئك الذين يطاردونهم ، مختفين وراء تل من الرمال . . وهم يعرفون الأبار وكافة البحيرات والبرك التى يكونها الفيضان فيلجأون إليها عندما يتوغلون داخل الرمال . وإذا ماتتبع آثار جمالهم فستقودك هذه الآثار بالتأكيد الى أماكن توجد بها مياه صالحة . فلا يتخيل أحد أنه يسبب اذى للعربان اذا ماثن عليهم الحرب كما حدث ، فليسوف يعرفون مقدما أن هناك صفا من الجنود المشاة يجدون فى اثرهم ، عندئذ يحملون حبوبهم وخيالهم ويبعثون بها الى الأمام ثم يتجمعون كلهم فوق خيولهم ليتبعوا اشيائهم وبذلك يصبحون بعيدا عن متناولك قبل أن تدرك أنت ما صاروا هم اليه ، وإذا ماالحقت بهم فسيذامعون بسهولة عن أنفسهم ضد أناس منهكين قليلى العدد ، وهم يسببون لعدوهم من الأذى أكثر بكثير مما يسببه هو لهم ، وسرعان ما يرهقون مشاة نصف مهزومين بفعل العطش ، وأخيرا لماذا كان عدوهم فى حالة تمكنه من دفعهم ، فإنهم يهربون ويلحقون بجمالهم فى أعماق أعماق الصحراء لدرجة يستحيل مطاردتهم هناك . . وليس هذا هو كل شيء ، فعندما يعرفون أن صف الجنود قد مضى ، فإنهم يستعيدون موقعهم بكل ثقة ، عارفين جيدا أن العدو لن يهاجمهم مرة ثانية ، أما اذا حدث ذلك ، فإنهم على اتم استعداد للقيام بنفس التناكيت ، الذى لا يسبب لهم على الإطلاق أى تعب ، ويهربون من المطاردة الثانية ، بسهولة أكبر ،

وقد شاهدت كثيرا من القبائل تتصرف على هذا النحو فى مصر العليا ومصر السفلى ، ولم يستطع لا الفرسان ولا المشاة ان يسببوا لهم اذى اذى ، وليس فى مقدور عدوهم ان يحطم لهم أى شيء اللهم الا هدم بعض

الأكواخ واشعال النار فى بعض اكوام القش . وللعرب مزية لا تشذر بثمن ، هى ان لهم داخل القرى نفسها مستودعات مضمونة للحبوب وللبن الاخرى التى قد تسبب لهم الارتباك عند هروبهم ، وهم يحصلون بلا مشقة على هذه الخدمة الجليلة من جانب شيوخ القرى وليس لأحد من سبيل للتعرف على هذه المستودعات .

وعندما طردت قبيلة أولاد على من ضواحي الاسكندرية فى صيف عام ١٨٠٠ فقد انسحبت هذه القبيلة الى الصعيد دون أن يخامر أحد الشك فى (امكانية) حدوث ذلك ، اذ بينما كنا نظنها مقيمة فى ليبيا ، قدم أكثر من ألف فارس ليقيموا فى ادمو مع عدد هائل من الجمال ، وأردنا ذات يوم ان نفاجيء فريقا معاديا كبيرا منهم عند مدينة سمالوط ، لكن النبأ بلغهم فى الوقت المناسب فأنقذوا كل شيء على وجه التقريب دون أن يخسروا رجلا واحدا .

هل يستحيل اذن اللحاق بقبيلة معادية ؟

لو حدث ان كان لدينا العديد من فرق الجنود ، موزعة توزيعا جيدا ومسلحة بسلح جيد ، يركبون الجمال ويحملون معهم مؤنا تموينية ومياها بحيث تهون من عملية مطاردة الفارين منهم لمدة خمسة أو ستة أيام فى الصحراء اذا اقتضى الأمر ، واذا امكنا زيادة على ذلك ان نعتمد على جواسيس مخلصين ، فليس هناك من شك فى أننا فى النهاية سنلحق بالجمال المحملة ، فأسلاب كهذه هى بالتاكيد أكثر الأمور اغراء للجنود كى يواصلوا هذه الجولات المرهقة . . اذا حدث وتم لنا ذلك فلا يمكن أن تكون ثمة قبيلة عربية على الاطلاق ، ومهما كانت قوتها ، لا يمكنها الا أن تتحطم فى ظرف عدة أيام ، أو على الأقل ، تتبعثر وتحرم من نساءها وأطفالها وخيامها وجمالها ومؤناتها بعد مطاردة كهذه تتم على يد خمسمائة فارس — جمال « هجانة » تتوفر لهم قيادة جيدة ، ومعلومات موثوقة ومعرفة بالطرق الصحيحة التى ينبغى أن يسلكوها (٢٠) .

(٢٠) ينبغى ان نحكم على هذا الزعم عن طريق النتائج الأولية التى حصل عليها الفرنسيون عن طريق تنظيم مشابه اقاموه اثناء حملتهم على مصر .

هنا يثور سؤال آخر . هل يمكن عقد السلم مع قبيلة جواله ؟ أم أنه ينبغي علينا أن نعامل كل القبائل من هذا النوع باعتبارها مصادية ؟ دون أن نستثنى من ذلك حتى العرب المزارعين الذبن يقيمون داخل مصر .

إذا ما وضعنا في اعتبارنا أننا لن نحصل على أى نفع من وجود العرب ، بل وجدنا أنهم بالعكس قادرون على الاضرار بنا في كل لحظة بدعم حركات التمرد والاسهام فيها ، ويتقويه صفوف جانب مناوى لنسا قد يظهر في الأفق ، فسوف يكون لزاما علينا ألا نترك قبيلة واحدة في حالة سلم ما لم يمنعا من ذلك خوفا من أن تنقصنا الجمال والخيول على الفور في أسواق مصر . وفي الحقيقة ، فإنه من الممكن أن نشجع تربية هذه الحيوانات في الأرياف وأن ننتج منها في فترة محددة كمية كافية ، لكن هذه الفترة لن تأتي إلا بعد وقت جد طويل ، وهكذا سنجازف — لو فعلنا ذلك — بأن تنقصنا هذه الحيوانات فجأة وعلى الفور . ومع ذلك فإن ثمة أسبابا هامة تدعونا ألا نسمح لأية واحدة من هذه القبائل الجديدة التي تأتي كل عام الى مصر بأن تثبت أقدامها فوق أرض البلاد ، فإن أغرابا يعسكرون على ابواب بلد لا يمكنهم في الواقع إلا أن يكونوا أعداء مزعجين ، فآية كارثة يكونها أمثال هؤلاء القوم في واد بمتل ضيق مصر ! وهل هي سياسة سليمة على الإطلاق أن تقاسى داخل البلاد من فرق معادية على هذا النحو وأن نظل « البلاد » راضخة لتجار الخيول هؤلاء ؟ وهل من الحكمة أن ندعهم ينتزعون الجزء الأكبر من أموال البلاد؟ بماذا تنبئ كل هذه الهجرات القادمة من بلاد البربر حتى ولو لم يكن بينهم العائلات التي نخرج من هذه البلاد ولديها هذه الرغبة المتأججة في الاثراء على حساب مصر ، وهو الأمر الذي لم يعد بالنسبة لهؤلاء إلا أمرا بالغ السهولة بفضل تراخي الحكومات ؟ وإذا ما حسبنا حساب كل شيء لوجدنا أن من الواجب ألا نتفاوض مع هذه القبائل الجديدة، حيث أنه لا توجد معاهدة على الإطلاق لا تحتوى على منافع متبادلة .

أما عن العرب الملتزمين « أى الذبن يقومون بوظيفة ملتزم » ، فإذا ما اعترفنا بأن ممتلكاتهم تعود كلها الى حوادث غزو ، وأن حوادث الغزو هذه تعود الى عهد جد قريب حتى أن الملاك الحقيقيين يستطيعون المطالبة

بأستعدادتها أو أسترجاعها بأنفسهم فقد يكون من المحزن بلا جدال أن يطرد من مصر ، وبلا أى أستثناء كل العرب الذين أقاموا فيها أو على الأقل أن نقلص من مكانتهم ليصبحوا مجرد مزارعين بسطاء ، وأن نجعلهم يعدلون عن حمل السلاح وركوب الخيل وأن ينفضوا من حول رؤسائهم وأن يتخلوا عن نظام القبيلة الذى يحكمهم وأخيرا أن ندمجهم بالشعب . . ومع ذلك فإن الأمر ليس على هذا النحو ببساطة ، فكثير من القرى إنما هى ملك خاص للعرب إذ يوجد فى صعيد مصر منذ وقت لا تعيه الذاكرة عرب ملاك بل ومستقلون ، كانوا على الدوام حكاما خلصا فى مقاطعاتهم حتى فى زمن المماليك ، بل أن الكثيرين منهم هناك قد نالوا تقدير الناس لنا لهم على الزراعة من فضل وما بذلوه فى سبيلها من عناية .

أذن فليس بالإمكان سوى أن نلغى الإبنزازات القديمة والحديثة وأن ندع للعرب الأراضى التى فى حوزتهم بفعل حق الملكية القديمة ، ومع ذلك فإن الأمر يقتضى منا فى كل الحالات أن نمنع وأن نستبعد بكل شدة عادات وطباع الخيام ، فما أن يتفرق هؤلاء الفرسان فى القرى، حتى يجدوا لزاما عليهم بالضرورة أن يهبوا أنفسهم للزراعة، وعندئذ سنرى انقطاع أحداث السلب كما سينتهى. بخاصة ذلك التمايز الحزن بين العرب والفلاحين ، وقد لا يكون من الظلم أن نمنع هؤلاء الرجال من أن يقيموا خيامهم ، أو أن نبعدهم كلية عن البلاد إذا ما قاوموا ، ذلك أن بلدا متحضرا ، من اليسير على راكبى الخيل أن ينهبوه ، لا ينبغى له مطلقا أن ينساح فى وجود هذا العدد الكبير من العاطلين ، الذين ليس لهم من مقر ثابت والذين لا يتحملون مسئولية فعالهم ويضعون أنفسهم فوق القانون .

ومهما يكن من أمر فإن المرء لا يستطيع أن ينظر بأستخفاف الى التزايد المطرد فى أعداد هؤلاء الفرسان الطموحين ، الذين لا يخضعون لشيء ، والذين يهددون بغزو غير منظور لسكل الأراضى بل والسيطرة على البلاد . ولربما نصحوا ذات يوم ماذا بالوقت قد فات ، فلا نستطيع أن نقاوم مائة قبيلة ، تضم كل منها خمسمائة فارس . . ألن يكون جيش كهذا ، إذا ماحدث أن تجمع ، قويا لحد يمكنه من السيطرة على مصر ؟؟

لنضف الى هذه القوة العسكرية قوة المال الذى يتكدس دونما انقطاع فى أيديهم بنفس القدر الذى قلنساه عن العرب المزارعين . وفي

الواقع فان حصيلة بيع ماشيتهم ، والاجور التى يحصلونها من القوافل، ومنتجات خيولهم وجمالهم وعائد تجارتهم .. كل ذلك يؤدى لذهاب كميات كبيرة من النقود الى خيامهم ، وهذه تبلغ رقما لا يعود ١/٨ منه الى مصر ثمنا لضرورات حياتهم ، لأن العرب يكادون لا يحتاجون لشيء .

ان النهم للمال والفضة عند العرب هو أولى غرائزهم ، فمجرد رؤية قطعة من الذهب تجعل أسارىهم تنفرج ، وتجعل الابتسامة ترنسم على شفاههم ، وهم لا يقدرّون رجلا الا لما يمتلك من المال او الا بقدر ما يأملون فى الحصول عليه منه ، واذا ما نقص مال هذا الرجل ، فسوف يجد فيهم أناسا لا يمكن الوصول اليهم او الحصول على شفقتهم . ولكم شاهدت أبناء الاسكندرية البؤساء الذين عانوا من مجاعة مفرغة وهم يستقبلون هؤلاء العرب شبه جاشين على ركبتهم والنقد فى أيديهم أن يبيعوهم بعض مكاييل من القمح لاطعام أسرهم التى ظلت على الطوى مدة يومين ، لكن العربان كانوا يرفضون البيع بالمدينى ، فقلب البدوى قطعة من صخر لا يمكن أن تلين الا على رنين الذهب ، والذهب وحده (٢١)

ويحتفظ العرب الرجل على الدوام ، سواء كانوا فى حالة حرب او فى حالة سلم مع حكام البلاد ، بعلاقات متينة مع بعض شيوخ القرى تؤمن لهم المواد والمعونات الخفية ، بمعنى أن هؤلاء الشيوخ يكونون على استعداد لاختفاء أمتعة هؤلاء البدو وحبوبهم وأشياءهم . ولربما أخفى شيخ عنده ذات نهار ما سرقه العرب منه هو شخصا ليلة البارحة، ومع ذلك ، فهكذا قدر على الفلاحين أن يقبلوا يد شاتلهم ، فلقد سمعت

(٢١) كثيرة هى النقود التى كسبها العرب من الاسكندرية اثناء شهور الحصار الستة ، فبعد أن ضيق الانجليز عليها الخناق ، لم يعد بإمكانها أن تحصل على أية مئونات من رشيد لاعن طريق البر ولا عن طريق البحر . وفى النهاية أمكن للعرب أن يدخلوا اليها بالحبوب بالطواف حول بحيرة مريوط ، وحيث لم يكن الناس يستهلكون هناك الا المواد الحيوية، وكان العرب وحدهم هم الذين يقدمونها بأسعار متزايدة ، فمن الواضح أنهم قد نزحوا من هذا المكان أكثر من مليونى قطعة ذهبية اذ كان يوجد هناك أكثر من ألفى شخص ينفق كل منهم سكيما « عملة ذهبية قديمة » كل يوم ، بالاضافة الى أنهم كانوا يسلمون اليها كل يوم ١٣ ألف جراية ، (حصّة طعام الجندي فى اليوم) ،

الفلاحين يصفون بالطيبة والشرف هذا الفريق من العرب الذين لا يقتلونهم وانما يكتفون فقط بنهبهم .

وهذا الخطأ الذى يقتصره الشيوخ فى تقبلهم هذه المخازن السرية هو واحد من أهم الأخطاء التى نقود الى الدمار والهلاك . وقد رأيت من هؤلاء الشيوخ ، الذين أصيبوا بعمى البصرة لحد يجعل منهم شهداء ثمنا لكلمة صدرت منهم ، يحتفظون بثروة العربان على حساب ثرواتهم الخاصة ، بل وعلى حساب حريتهم ، بل لقد رأيت من بينهم من يتحملون عقابا مشينا . ويتلقون لومنا طويلا عذاب الضرب بالعصى قبل أن يرغموا على الاعتراف على المخازن التى أوكلت اليهم . لكن هذا ليس من البطولة فى شئ فليست أحب هذا الوفاء للوعود التى انتزعت بفعل العرب . لكننى ألوم هؤلاء « الشيوخ » لرعبهم وضعفهم ، وأعيب عليهم أن يجدوا أنفسهم بفعل وضعهم المزرى قد انساقوا الى العمل ضد الحكومة والى حماية أعدائها . وكم يتألم المرء وهو يرى العقوبات القاسية الى هذا الحد والمهينة الى هذا الحد وهى تطبق على مسنين يحظون بالتقديس بين ذويهم ، على رجال هم قضاة ورجال دين وسادة فى وقت معا وفى نفس المكان الذى يحكمونه . ولما كنت قد وجدت نفسى شاهدا على حوادث مماثلة ، فقد كنت آمل على الأقل أن أمثلة هذه القسوة سوف تخلص الشيوخ من عيوبهم هذه وأن سيكون بمقدورها أن تقود خطاهم نحو مصالحهم الحقيقية ، ولن تكون هذه المصالح مطلقا فى معاونة شذاذ آفاق يتعاقبون عليهم ، ويأتون لينهبوهم كل بدوره . . لكن هذه المصالح ستكون فى الارتباط بالحكومة التى تظل على الدوام هى ، ثم يطلب هؤلاء الشيوخ بعد ذلك دعمهم ضد قطاع الطرق هؤلاء فالضرائب التى يدفعونها للحكومة تعطيهم الحق فى هذه الحماية ،

ومع ذلك فهكذا تمضى الأمور ، فشيخ البلد يقوم مرة باستقبال طيب للفرق « العسكرية » التى تمر بقريته لمطاردة العربان ، ومرة أخرى لهؤلاء العربان أنفسهم الذين يماودون المرور بقريته بعد ذلك ، وسوف تكون سعادة هذا البائس مفرطة لو أنه لم يلق المهانة على يد أحد الفريقين عقابا له على استقباله الفريق الآخر وتقديم عونه للفريقين . .

ذات مره وجدت فى اسميت حوالى العشر من العربان الذين استهروا بالسلب ، وعندما شاهدوا مجيء مقدمه جنودنا خرجوا من القرية ، وامتطوا خيولهم . . كان الطرفان « جنودنا والعربان » جد قريبين من بعضهما البعض لحد لا يمكن معه أن يستعد أيهما للمعركة ، فتلاصق العربان فيما بينهم وأطلقوا بنادقهم من خلف ظهورهم ثم وضعوها مستقيمة فوق الركبة علامة على الحرب ، ثم مضوا فى سدد وفى شكل استعراضى ، وحيث كان عدد من تجمع من جنودنا لم يبلغ بعد ، سبعة أو ثمانية . وحيث كان هؤلاء مرتبكين بأمتعهم ، فقد اضطروا أن يتركوا هؤلاء يفلتوا دون أن يجدوا فى أمرهم ، وأن ينهزوا فرصه أخرى لعقاب هؤلاء اللصوص النهابين . وعلى الفور هرع الينا شيوخ القرية واستقبلونا بحفاوه . . وكان هذا الاستقبال الحافل هو نفس الاستقبال الذى قدموه منذ زمن قصير للعربان ، ولقد قالوا لنا عنهم الكثير من السوء ، بنفس القدر الذى قالوه عنا لهم ، دون شك .

راينا من قبل أن العرب الجوابين يطعمون خيولهم ومواشيهم فى أغلب الأحيان على مشارف الصحراء ، من تلك الأعشاب التى تنمو هناك ، لكن ذلك لا يحدث الا عندما لا يستطيعون أن ينهبوا العلف من الفلاحين ، حين لا يكون أولئك البدو كثيرين للحد الذى يكفى للاقامة هناك وعندما يخشون بعض المقاومة . أما فى الحالة الأخرى فلن ينقصهم العلف مطلقا ، ولن يحرموا من جانبهم شيئا على الإطلاق ، فهم يمررون خيولهم على المحاصيل سواء كانت ناضجة نمت نمارها أو مازالت بعد عشباً أخضر ، ويجعلونها تأكل القمح أو الشعير وهو لا يزال بعد نباتاً صغيراً ، وانه لتناقض فريد أن ترى التلف الذى تحدثه الفرسات الطليقة بين القمح والبرسيم ثم نرى بعد قليل جواد شيخ القرية « وصاحب الحقل » مقبدا الى وتد يرعى الكلاً ونبات الحلفا ، ويحدث فى بعض الأحيان أن يشعر السكان بالمهانة من هذا السلوك ، وعندئذ — اذا ما توفر لديهم بعض الفرسان — يطبقون على العربان ولا يتردد هؤلاء مطلقا فى الهروب ، ولكن اذا ما فقد العرب رجلا فى المعركة ، فسوف تكون معركة لا تلوح لها نهاية ، اذ يأتى أهل القتل فى أعداد كبيرة يطالبون بالقصاص ، فلا ينالون بغيتهم ، وعندئذ يأتون ليحصلوا على ذلك بأبدية ، وهنا نتبادل حوادث القتل والاغتيل الفردى بين

الفريثيين ، فقتل عربى واحد فى قرية يمكن أن يعرض هذه الدرية لانتقام قبيلة بأكملها لسنوات طوال ، ولابد من ارضاء هذه القبيلة على وجه السرعة ، اذا ثأنت هذه القرية الا ترى نفسها وقد خربت ، وكم شاهدت من قرى لم تعد فى الوقت الحاضر ، وبعد أن مرت بحالة كهذه ، سوى اطلال هجرها سكانها لأنها تجرات على خوض معركة ، كان العرب فيها هم المعتدين .

وعندما يأتى الفيضان ، ينسحب البدو نهائيا من العمل لمدة ثلاثة اشهر ، وتكون هذه الفترة بالنسبة اليهم هى أبأس شهور السنة وأكثرها مدعاة للأسى ، فليس هناك ما يلفظ قبض الصحراء الرهيب ، تلك النى لا يجدون مناصا من البقاء فى أسارها ، ويحتم الأمر أن تقرض خيولهم أغصان التمرهندي ، لكن ذلك ليس بمتوافر على الدوام . عندئذ يضطرون خلال هذه الفترة أن يقدموا الشعير لخيولهم ، وان كان ثمة ما يزيد على ثمانية اشهر من شهور السنة الاثنى عشر لا يحدث فيها ذلك على الاطلاق .

وينتهى الفيضان، ولا بلبث محصول الذرة أن ينضج . وعندئذ تبدأ جولات الغزو والسلب . وبالسوء حظ تلك القرى التى يبلغ ضعفها حدا لا يستطيع معه ان تزود عن محاصيلها ! ذلك ان الذرة هى خبز العربان ، وهى نفس الوقت خبز الفلاحين لكن الأمر ينتهى بأن **تؤكل** الذرة — ولو فى جزء منها على الأقل الى الأولين . الى هؤلاء الأكثر قوة .

ويكون طعام العربان الرحل عادة اكثر سوءا من طعام الآخرين ، واغلب هؤلاء غير حسنى الهندام ، ولون ملابسهم حائل كما أنهم أكثر استعصاء على التعب ، لذلك فملاحهم أكثر جمودا ، وهى صارمة على الدوام وقاسية . وزى الفرسان على الدوام أبيض اللون ، أما ملابس السيدات وملابس الرجالين منهم فذات لون قاتم . ويرى فى مخيماتهم كثير من الرجال يضعون عصابت على أعينهم كما يحدث فى مدن مصر ، ذلك انه من الخطأ الاعتقاد بأن هؤلاء البدو لا يصابون بالرمد ، وهم لا يبذلون أى جهد ليحصلوا على الشفاء ، بل يظلون يلزمون خيامهم وينامون فى الظل كما تعودوا . وليس لهؤلاء العربان من عمل ثابت . وان كانوا على الدوام فى حالة حركة وفى حالة زحف ، وهم يذهبون كما

الضواري الشهباء يبحثون عن فريستهم ، ولا يتوقفون الا حيث تستبقيهم
الأسلاب .

وفضلا عن ذلك فان نقاليدهم وعاداتهم هي نفس عادات وتقاليدهم
العرب الآخرين . فهم راضون سعداء بحظهم في الحياة وبما يملكون ،
وكما ينال الشيخ التقديس من قبل قبيلته فان رب الأسرة يلتقي احترامه
من قبل أسرته ، واذا ما امتلك الرجل منهم حصانين وجملين وأربعة
خراف وبندقية وخيمة ، فليقد نال كل ما يبغى وتحقت كل رغباته وحيث
لا توجد لهم في الغالب من قوانين الا الثوانين الأسرية . . . وحيث لا يدفعون
أية ضرائب ولا يلتزمون بأى التزامات أخرى فان مخيماتهم تبدو صورة
مجسمة حقة لحرية لا يتمتع بمثلها مجتمع آخر على الإطلاق . ولا يهتم
بدوى ما الا بنفسه ومكاسبه وشئون حياته هو وبفعاله ، وعندما يتم
تجهيز قافلة فانه يؤجر جماله ويصدر هو الثمن الذي يرتضيه دون أن
يكون عليه أن يوضح أمره لا لشيخه ولا لأحد آخر ، وهو يضخم من ماله
الخاص عن طريق بيع الجمال الصغيرة والفرسان الصغيرة والبان
ضائنه وعن طريق عائد التجارة التي يمكنه أن يمارسها . وبهذه الطريقة
يبلغ سن الشيخوخة وهو مبجل عزيز على أولاده ويموت بعد أن يكون
قد استمتع طيلة حياته بأمن ثروات الرجل : الصحة والحرية .
وعند موته يترك أبناءه وهم متزوجون ، بل وآباء ، أغنياء بثروته هو ،
وبما يكونون قد كسبوه .

وأكثر العرب بؤسا هم أولئك الذين لا يمتلكون على الإطلاق خيولا
ولا جمالا لأنفسهم ، بل ولا خياما وان كانوا يمتلكون بعض الحمير التي
يربونها ويبيعونها في الأسواق ، لكن هؤلاء الرجال لا يبدون تعساء ،
فتعودهم على ضروب الحرمان يجنبهم عدم التوافق مع الحياة ، وهم
لا يرغبون في ثروات يجهلون لها أو ينظرون إليها على انها أبعد منا لا مما
قسم لهم ، لكنهم سرعان ما يفلتوا من هذا القدر ، فحيث أن طموحهم
الرئيسي ينحصر في أن يكونوا ملاكا لفرس فانهم لا يلبثون أن يحصلوا على
ثنائها عن طريق بيع بعض الخراف وبعض الحمير . وبعد اقتناء الفرس
يتزودون في أقرب وقت ممكن ببندقية وسيف . وفي النهاية يرى المرء
هؤلاء الناس ، في أثناس حالاتهم بؤسا ، لكنهم يشاركون شيوخ

أقدم العائلات في التباهي بأنهم بدو ، يكون الاحتقار للأوروبيين ،
ولكل ماهو غير عربى ..

وعلى العموم ، فأننا لا نجد لدى البدو البسطاء الا الأشياء التي
تعتمد من ضرورات الضروريات (٢٢) .

ولكن ينبغي الا نحكم بما نرى عند هؤلاء على رؤساء القبائل ،
فمصادر دخل هؤلاء لا تجعلهم في منزلة أقل من العرب الملاك ، وكبار
شيوخهم وعائلاتهم وكذلك شيوخهم الشرعيون هم أغنياء بالنسبة
للمصريين ، فهم يحصلون على دخول كبيرة من القوافل ، ويتخذون العديد
من الزوجات والكثير من الخدم ، وطعامهم بسيط لكنه صحي
ووفير ، والأسلحة الجميلة والخيول الجميلة ليست أمورا نادرة هناك ،
ويشتري هؤلاء في بعض الأحيان عبيدا سودا ليتخذوا منهم فرسانا .

وقلما تنقص البدو الذخيرة التي يطلقونها ، وهم يتزودون بها من
قرى تصنع فيها بشكل سرى ، ومع ذلك فهذه الذخيرة من نوع ردىء ،
وتدمرهم قرية الأشمونين الكبيرة بالكثير منها ، اذ يوجد هناك من
البارود أكثر مما يوجد في أى مكان ، بفضل اتساع اطلال هرمبوليس
الكبرى ، التي بنيت فوقها المدينة (٢٣) .

وعلى الرغم من ان العرب الرحل قلقون متوجسون فانه يحدث مع
ذلك أن يؤخذوا على غرة وعندئذ يكتفون — ما أن يلحقوا الفرق
العسكرية — بترحيل خيولهم وجمالهم على وجه السرعة ، هذا ان لم
يسعفهم الوقت باقتلاع خيامهم ، وعندئذ لا يبقى في الخيام سوى
النساء والشيوخ والأطفال ، ويستقبل هؤلاء استقبالا طيبا ، فتظن
نفسك في معسكر صديق ولست في معسكر اعداء تجد في البحث عنهم .

(٢٢) من هذه الضرورات التبغ، وان يكن ينقص الكثيرين منهم ، وهم
يجدون في البحث عنه ليتخذوا منه نشوقا وسعوطا ؛ وقد رايت عربانا
يدوثون على كبريائهم للحصول عليه ، لدرجة انهم كانوا يتحدثون بمودة
مع جنودنا .

(٢٣) تهيب هذه الخرائب ترابا تحدثنا عنه من قبل ، يحتوى على
الكثير من ملح البارود . .

ومع ذلك فقد يكون من الميسور في بعض الأحيان أن تنتزع قطعاً من ضخمة من الجمال ، لأن هذه القبائل لا تقيم لأنفسها حرساً على الإطلاق إذا لم تكن تعرف أنها ملاحقة وأن ثمة من يجد في أثرها . فهم في العادة يعهدون بمئات من هذه الجمال الى ثلاثة رجال أو أربعة ليقودوها الى المرعى ، وفي بعض الأحيان تذهب كل جمال القافلة التي يبلغ عددها ألفين لنعى على بعد فرسخ من المخيم دونما حراسة من أى نوع . .

ولقد استقرت بعض هذه القبائل الجواله منذ وقت طويل في مصر ، وظلت على الدوام في حالة سلم مع الحكومات ، بل تقدم اليها المساعدات ، ولا يمكن لأحد أن يوجه الى سلوكها لوما ، فهو في مجموعه سلوك طيب لا يتعارض مع مصالحهم ويمكن أن نورد أمثلة على ذلك في قبائل : طرابين ، الدويطات ، بلى . . وهؤلاء يقومون بكل قوافل السويس ، وسوريا ، ولولاهم لكانت تجارة البحر الأحمر عن طريق السويس بالغة المشقة .

ويختلف نطق اللغة العربية على لسان البدو تماماً عنه على لسان الفلاحين .

ولا يمكن لنا أن نعد لهجة البدو جافة ، كما أنها لا تخلو من زخارف . ففيها بعض الرقة ، ويعتريها تنغم في الصوت أكثر رخاوة ، وتتأكل على لسانهم بعض المقاطع ولكن يعييبها أنها مبتورة وأكثر صعوبة . وهم يتحدثون على الدوام تقريبا بصوت خفيض ، وتكون أسنانهم حينذاك مطبقة ، ونبراتهم متنوعة ، وصوتهم منغما وغنائيا في احاديث البسيطة ، وفي المناقشة الاعتيادية ، ويرفع أغلبهم صوته حتى يصبح ناقيا ، ولم أسمع مطلقا حرفا يلفظونه أكثر نقاء من حرف الزاى ، وبشكل أكثر جاذبية حرف الزاى اللاتفة « الذال » ويفعلون ذلك دون أن يخلط هذان الحرفان على الإطلاق ، وأخيرا فإن كل مخارج اللفاظ الخاصة باللغة العربية ، بل وحرف الخاء والنغمات الحلقية تأخذ في اقوالهم رقة خاصة تقترب من اللغات الأوربية وتثير الدهشة في مصر ، ويتضح هذا بشكل خاص في نطق الجيم التي يلفظها الكثيرون ليس غير

معطشه كما يفعل أبناء القاهرة وانما معطشة كما يفعل العرب بشكل عام ، ولكن يشوبها نوع من نطق الزاى على طريقة الاطفال أو الرجال المخنثين . وتسمع من اقوالهم حرف الشاء بشكل قاطع الرقة فى الكلمات التى يدخل فى تكوينها هذا الحرف . وقد سمعته مرات كثيرة يغنون أثناء تجوالهم على الخيول فى لحن رتيب يخرج من الأنف ، وليس لكلماته معنى مفهوم ، ويكاد يتم الأمر بدون أن تفتقر شفاههم ويلاحظ المرء فى هذا اللحن تكرار المقطع « ديا » على الدوام . ويتميز البدو عموما بهذه الطريقة فى الغناء من بين أسنانهم . وفى النهاية فاتهم يظهرهم الكثير من الاحتقار للطريقة التى يتحدث بها المصريون ، وينطقون بها باللغة العربية .



ولقد تبدو الملاحظات التى كانت موضوعا لهذه المذكرة ، والتى تمت بشكل مبدئى فى مسرح الأحداث بهدف وحيد هو دراسة العرب وتقاليدهم ، قد تبدو بلا هدف مالم تكن ترتبط باطار عام ، أو كانت قد اقتصرت على تقديم بعض النتائج التى تعلق روح القارئ المنصف .

ولكى نكتفى فى هذه العجالة بأكثر هذه الملاحظات أهمية ، فإن من الميسور أن نضيف الى ما سبق أن العرب المستقرين فى مصر يتزايدون أكثر فأكثر سواء فى أعدادهم أو فى قوتهم وأنهم سيستولون يوما على السلطة اذا لم يوضع حد لوقف غزواتهم . وفى الواقع ، فهما تكن أصول واتعداد هؤلاء العرب سواء هؤلاء الذين يسكنون الخيام منهم أو أولئك الذين يقطنون القرى ، وسواء كانوا يزرعون أو يستزرعون الاراضى أو كانوا لا يشتغلون الا بالقوافل وتجارة الماشية ودواب الحمل ، وسواء كانوا ينتمون الى القبائل العربية القادمة من آسيا أو تلك التى قدمت من شمال افريقيا ، وسواء تلك التى تعيش فى حرب أو سلم مع حكام البلاد ، فأننا نرى أنه تتوحد فيهم جميعا نفس الروح ، وأنهم يرون أنفسهم أعلى قدرا من أبناء البلاد الشرعيين أو المولودين على ضفاف النيل ، وأنهم ينظرون الى مصر باعتبارها عقارا خاصا بهم . ان خلاص هذه البلاد يكمن

فى الانقسام الخالى بين هذه القبائل ، الامر الذى يعود بشكل خاص الى غيبة زعيم. يتولى قيادتهم ويكسون فى ذلك قويا وقادرا للحد الكافى ، واذا كان هناك حدث هام قد جاء ليشئت اهتمام حكام مصر ، فقد تكون الإشارة الاولى كافية لاطلاق الشرارة ، واذا كان يحق لنا ان نوازن بين الترجيحات عندما يتصل الأمر بالمستقبل ، فلا بد ان ينظر المرء الى هذا التطور باعتباره واحدا من أكثر التطورات التى تتهدد الشرق احتمالا .

أما عن طباع العرب كما صورتها ، فسوف يرى القارئ أن هذه الصورة ، لا تتفق فى كثير مع ما اشتهر عن هذه الأمة من النزاهة والصرامة ، وغير ذلك مما منحه لهؤلاء القوم هذا العدد الكبير من الرحالة . ومع ذلك فقد أردت أن أنقل الى القارئ باخلاص ، نفس الانطباع الذى تكون لدى وأنا بينهم ، قى مخيماتهم .

لقد كان على أن أقدم العرب كما قد رأيتهم فى مصر ، وليس كما هم فى أماكن أخرى . أما الأفكار التى راودتنى وأنا أراهم يسلكون ، والانطباعات التى استولت على أثناء تدوينى هذه الأفكار ، فقد احتفظت بها لنفسى ، مقتنعا بأن للرحالة هدفا يختلف عن هدف المؤرخ ، وأن عليه قبل كل شيء ، أن يولى اعتباره للمشاعر البسيطة التى شعر بها .

ومما لا شك فيه أن بدو الصحراء ، الذين ينطبق عليهم هذا الوصف ، وبخاصة أبناء شبه الجزيرة العربية ، يقدمون ملامح مختلفة بعض الشيء عما قيل ، وأننى أميل الى الاقتناع ، بأنهم ليسوا فقط أقل جشعا ، وبأن لهم تقاليد أكثر لياقة ، ولكن ، فوق ذلك ، بأنهم يمارسون كرم الضيافة ، وبأنهم يصدقون فى ارتباطاتهم ، وفى بقية الأمور ؛ بل أن هؤلاء الذين رأيتهم فى مصر ، أنفسهم ، لا تنقصهم مطلقا الفضائل الأسرية ، لكن وضع هؤلاء يختلف عن وضع الأولين ، فثراء البلاد التى يترددون عليها ، فى مقابل قحولة الصحراء ، يثير فيهم أكثر فأكثر ، الجشع والنهم والبخل ، أمهات الغدر والخيانة وكل الجرائم .

ومن جهة أخرى ، فإن مثال المصريين والماليك ، لم يفعل سوى
 أن أضاف الى عيوبهم ؛ فلقد ولد عندهم احتياجات كانوا يجهلون بها في
 صحرائهم ، وأذواقا غريبة على تقاليدهم البسيطة والأبوية ، والتي تشكل
 الطابع المميز للعرب ، وهو طابع ملحوظ لحد ظل معهم على نفس حاله
 منذ زمان لا تعيه الذاكرة ، دون أن تعترضه سوى تحورات بالغة الرهافة،
 على الرغم من أن دين محمد ، قد بوا هذه الأمة عروشا كثيرة ، في
 آسيا ، وإفريقيا ، وأوروبا .

الدراسة السابعة :

القصير والعكايدة

دي بوا - ريميه

العنوان الأصلي للدراسة : مقالة عن مدينة
القصير وضواحيها ، وعن الأقوام التي
تسكن هذه المنطقة ، التي كانت ، في
الآزمنة القديمة ، مقرا لسكان الكهوف ..

تقع مدينة القصير على شواطئ البحر الأحمر ، عند خط عرض ٥١ ٥٦ شمالا ، وخط طول ١٢ ٤٤ ٣١ ، وهى تنهض بالقرب من الشاطئ ، فوق ساحل رملى ، يبلغ مائتين وخمسين مترا ، أما عرضها فلا يزيد على مائة وخمسين من الأمتار .

وبيوت هذه المدينة منخفضة ، وهى مبنية عادة من الطوب النيىء . واليكم هذا الوصف الموجز للتقسيم المعتاد لهذه البيوت : نمة فناء كبير ، وفوق الباب مقصورة صغيرة مربعة الشكل ، وينتهى هذا الطابق العلوى بشرفة ، أما الطابق الأرضى ، فيضم حجرة او حجرتين بالفتى الضيق ، يلتصق بهما من الخلف جدار السور . ويستخدم الفناء مخزنا ، وان كان هذا امرا لا يخلو من عيب ، فى بلد لا يندر به سقوط الأمطار .

وليس ثمة بيت غير مزود بخزان للمياه . وتأتى المياه التى يستخدمها الأثرياء من عين تسمى درفاوة التى تقع على بعد ثمانية او تسعة فراسخ من المدينة ، ومياه هذه العين طيبة لحد ما ، وتباع فى القصير بسعر ٢٠-٣٠ بارة للقرية الواحدة (١) ، وتزن هذه حوالى تسعة كيلوجرامات . وعلى بعد أربعة او خمسة فراسخ ، توجد عين مياه أخرى وان كانت مياهها اقل جودة ، واخيرا ، فقد حفر الفرنسيون على مسافة قصيرة الى الجنوب الغربى من المدينة بئرا يبلغ عمقها مترا واحدا فى مجرى جاف لأحد الأخوار ، ومياه هذه البئر ليست مالحة على الإطلاق ، وان كانت ماسخة الطعم بقدر ما هى ثقيلة ، الأمر الذى ينبغى أن ننسبه الى سلفات الجير التى تحتفظ بها المياه بعد تحليلها . ويمكن لهذه البئر أن تمد بالمياه ما يقرب من ستمائة رجل كل يوم .

وماذن المساجد هناك أقل ارتفاعا بكثير عن مثيلاتها فى مصر ، مما يعطى لمحا للقصير مختلفا عن بقية مدن هذه البلاد .

(١) بارة او مدينى وهى عملة صغيرة تساوى حوالى ٩ drachmes أى درهم ، وهو نقد روماني ثم فرنسي ضئيل القيمة .

أما القصر ، فيقع خلف المدينة ، ويتحكم فيها بشكل تام ، فهو مشيد فوق هضبة مرتفعة من الجير الحجرى ، مغطاة بزلط مستدير الشكل ، يتجمع فى سلسلة من تلال تتكون كلها من هذا الزلط المستدير من مختلف الصخور ، وتعد هذه التلال التى تنحدر نحو البحر ، بمثابة نهاية لسلسلة الجبال العالية التى تحد الأفق من جهة الغرب .

وكان هذا القصر عند مجيء الفرنسيين ، عبارة عن معين تعلوه أربعة أبراج ، ويبلغ سمك جدرانه من ٢٦ الى ٣٠ ديسيمترا . وهى مبنية بالحجر الجيرى ، ولا يحتوى القصر الا على عدد صغير من الغرف . كما يضم بئرا محفورة بأكملها فى الجص ، مياهما بالغلة الثقيل ومائلة للملوحة وتكاد لاستخدم الا فى سقاية الماشية . وعلى بعد مائة خطوة من الواجهة الجنوبية الغربية خارج القصر ، يوجد خزان مياه قديم ، مكسو بالطوب يمكنه أن يحتوى على ٤٥ منرا مكعبا من المياه ، وينتهى الى قاع الخزان مسارب عديدة ، تهبط من التلال المحيطة والمجاورة ، بحيث يمتلئ الخزان بشكل طبيعى بالمياه فى فصل الأمطار .

وفى الجهة الأخرى من الحصن (القصر) كان يوجد مسجد وعديد من الأضرحة أو المقابر هدمها الفرنسيون .

ولا يقطن هذه المدينة الا تجار قادمون من مصر ومن الجزيرة العربية ، ويتوجه هؤلاء وأولئك اليها لاتمام أعمالهم ، ومع ذلك فليس لهذه المدينة سكان بمعنى الكلمة ؛ بل ان شيوخ المدينة أنفسهم هم تجار من ينبع ، اكتروا من الحكومة المصرية جزءا من الضرائب الجبركية (اى حصلوا على التزام الجمارك هناك) .

وضواحي القصر صحراوية تماما ، وفيما عدا بعض نباتات الحنظل ، وهى مع ذلك نادرة ، لا يكاد المرء يرى أى نوع من الخضرة . والأرض هناك رملية ، وان كنا نجد عند الاقتراب من البحر طبقات من الصلصال ، على عمق بضعة ديسيمترات تحت الرمال .

والميناء مفتوح تماما أمام رياح الشرق ، أما من جهة الغرب فتحمى الشاطئ من الشمال هضبة من الشعاب المرجانية تمتد لمسافة مائتين وخمسين مترا داخل البحر ، وهذه الهضبة تنحدر بشكل رأسى ، وتأتى

السفن لنرسو عندها ، فهي على نحو ما مرفأ طبيعى بناف المديخ (❖) فى هذا المكان ، لكن المياه تعطىها فى حالات المد العالى بحوالى ثلاث ديسيمترات ، أما فى حالات المد المنخفض ، فيبدو سطحها خشنا وعرا لحد لا يستطيع المرء معه أن يسير فوقه الا بمشقة بالغة . ومن المدهش حقا أن السكان لم يفكروا فى رفع هذه التهضة قليلا (عن طريق الردم فوقها) لكى يقيموا فوقها مدينتهم ، ولو أن ذلك قد تم لكان بالإمكان تحميل وتنزيل البضائع بسهولة بالغة ، أما فى حالتنا الراهنة ، فإن الناس مضطرون لنقل البضائع فى قوارب لا يمكنها أن تقترب من الشاطئ الا لمسافة ثمانية أو عشرة أمتار ، حيث يصبح البحر ضحل العمق كلما اقتربنا من المدينة ثم يكون عليهم بعد ذلك أن يخوضوا فى المياه ، حاملين البضائع فوق أكتافهم .

أما قاع الميناء فهو من الرمال ، وهو مستو بعض الشيء ، ومع ذلك فحيث أن قلصات (حبال) غالبية السفن العربية رديئة — اذ تصنع من التيل أو حتى من سعف النخيل (٢) ، مما يجعلها ضعيفة لحد كبير بالنسبة لمثيلاتها المصنوعة من القنب — فانها (أى السفن العربية) تتعرض فى بعض الأحيان لحوادث قد لا تصيب مطلقا غيرها من السفن الأفضل تجهيزا .

ويشكل الميناء عند الغرب منحنى مقعرا ، تحيط به سلسلة من أحجار مرجانية ، وينتهى بصخرة من نفس النوع ، تتوغل داخل البحر بحوالى خمسمائة متر جهة الشرق ، وعلى بعد حوالى ألف متر من هذه الصخرة ، وبحذاء الساحل ، يقابل المرء صخرة أخرى يبلغ طولها ١٢٠٠ متر ، وهى بالمثل من المرجان ، وتغطيها المياه عندما يكون المد عاليا ويبدأ الشاطئ (البلاج) ، الذى يظل شديد الانخفاض حتى هذه النقطة ، فى الارتفاع ، وسرعان مايشكل تلالا من الزلط المستدير .

ويقع ميناء القصير عند مداخل وديان تؤدي كلها الى مصر ، وقد

(❖) جنس حيوانات بحرية من المجوفات .

(٢) تصنع هذه الحبال من السعف الذى يغطى أغصان النخيل .

أدى ذلك الى حتمية اختياره على الدوام مستودعا لتجارة مصر العليا مع الجزيرة العربية . وترسل مصر الى هناك فى الوقت الحاضر ، القمح والدقيق والفول والشعير والزيت ومواد غذائية أخرى ، وترسل الجزيرة العربية البن والفلل والصمغ والموسيلين وبعض الأقمشة من صناعة الهند (٣) .

وانشاء اقامتى فى القصير ، ابتداء من الأول من بريريال من العمام السابع حتى منتصف ترميدور (من منتصف مايو ١٧٩٩ حتى بداية أغسطس) كانت الرياح التى تهب على الميناء قادمة من شمال الشرق ، وقد دخلت الى الميناء خلال هذه المدة خمسون سفينة ، يبلغ عدد أضخمها تسع أو عشر سفن ، كانت قادمة من جدة ، وكان خمس أو ست من هذه السفن مملوكة لعرب الساحل ، وكانت السفن الأخرى قادمة من ينبع ، ولم تكن هذه السفن ذات سطوح على الاطلاق ، وهى تتبع الساحل على الدوام فى رحلاتها ، وعندما تكون الرياح بالغة الشدة فانها تحتوى فى خلجان الساحل الصغيرة ، فهى لا تمخر عرض البحر الا اذا كانت تريد عبوره

هنا يسمون البحر الأحمر بالبحر المالح ، أما فى السويس فيسمونه بحر القلزم ، ويبلغ اقوى مد للبحر رأيته فى القصير حوالى ٨ ديسيمترات ، وان كان فى العادة لا يتجاوز ٥ ديسيمترات ، بينما يبلغ مد البحر فى السويس حوالى المترين .

وبطول الساحل ، يجد المرء كميات كبيرة من الاسفنج والمرجان وثقائع تتنوع ألوانها بالغة الجمال ، ومن جهة أخرى فالساحل هنا غزير الأسماك ، وأستطيع أن أقدم فكرة عن ذلك ، اذا ما تحدثت عن الطريقة التى كان الجنود الفرنسيون يصيدون بها السمك ، فقد كانوا يأخذونه أخذا بأيديهم ، بعد أن يقتلوه بضربة من السيف أو العصا .

وتسكن هذا الساحل قبائل من ضيادى الأسماك ، كان لها

(٣) لمزيد من التفاصيل ، انظر : دراسة موجزة عن تجاره الصعيد مع الجزيرة العربية ، وصف مصر .

مخيم على شاطئ البحر الى الشمال من القصير ، هجره سكانه عند قدومنا ، وكان كل كوخ من اكواخ هذا المخيم مغطى بعظام السلاحف . ولا تعيش هذه الشعوب الا على اكل الأسماك وهم يحصلون عليها بالشباك او على أسنة الرماح ، ويجففون منها كميات كبيرة ، ويأتون الى القصير ليقايضوا بها بعض الأشياء اللازمة لهم . ويستخدم هذا السمك المجفف فى تموين السفن . اليس مما يلفت النظر اننا قرأنا فى حكايات الأقدمين (٤) أن الساحل الغربى للبحر الأحمر ، كانت تسكنه شعوب جوابة آكلة للأسماك ، كان من بينهم شعب من آكلى السلاحف (٥) ، وكان أفرادهم يستخدمون صدفات هذه السلاحف لتغطية اكواخهم ؟ هكذا اذن أمكن لهذه القبائل الضعيفة أن تفلت من حكم الزمن ، وأن تعبر القرون تلو القرون ، محافظة على حريتها وعاداتها ، فى حين تطلبت أحوال أمم كثيرة بالغة القوة ، فتغيرت أنظمتها وحكوماتها بشكل تام ، وتغيرت مع ما تغير عاداتها ، وفى نفس الوقت الذى اندثرت فيه أمم أخرى ، فلم يعد هناك ما يدل عليها الا ما نقرؤه عنها فى حكايات المؤرخين . ولكن دهشتنا ازاء ذلك لابد على الفور أن نتوقف ، فالبؤس فى واقع الأمر لا يثير اطماع الآخرين وحنقهم ، وهكذا سوف تظل البلاد الخصيبة ترى على الدوام سنادة جددا ، فى حين تبقى رمال الصحراء القاحلة ملكا لآخر احفاد ملاكها الاول ،

ولا يزال يعيش فى هذه المنطقة شعب يستحق — بسبب تشابهه مع سكان الكهوف القدامى — أن ندخل فى بعض التفاصيل حول عاداته وتقاليد ، هؤلاء هم العباد ، وهم أبناء قبيلة جوابة تشغل الجبال الواقعة الى الشرق من نهر النيل ، فى جنوب وادى القصير وهى منطقة كانت تعرف قديما مسمى باسم : Troglodytique « أى سكان الكهوف » ،

(٤) أنظر بطليموس Patlymouth ، الكتاب الرابع ، سترابون Strabon ، الكتاب السادس عشر ، بوزامياس Pozamias ، الكتاب الاول ، ديودور الصقلى ، الكتاب الثالث والثلاثون ، بلين ، الكتاب السادس .

(٥) يضع ديودور الصقلى آكلة السلاحف فى جزر قريبة من سواحل اثيوبيا ، ويذكر بلين أن بعضا منهم يوجدون بالقرب من الخليج الفارسى .

وتمنك هذه القبيلة كذلك عدة قرى على الشط الأيمن (الشرقي) للنيل
أهمها دراو ، الشيخ عامر ، الرديسية .

ويدفع كل التجار الذين يمارسون تجارة القصير إلى العباددة ٢٣
مدينى عن الجمل المحمل ومكيلا صغيرا (٦) من القمح أو الفول أو الدقيق
أو الشعير حسبما يحمل الجمل ، كما يأخذ العباددة عينا ٢٠/١ من
الخراف والماعز والدجاج والمواد التموينية الأخرى ، من تلك الأنواع التى
نصل إلى القصير . وقد اقام هؤلاء مخيمهم الذى نصبوه فى ضواحي
هذه المدينة بقصد منع أى نوع من التهريب (من الاتاوة) من جانب
التجار ، ومن جهة أخرى فقد كان العباددة ملزمين - فى مقابل هذه
الاتاوة - بالسهر على تأمين الطريق وحراسة القوافل ، لكنهم لا يمتهدون
مطلقا بالرد على الحوادث وبخاصة تلك التى يمكن أن تأتى من جانب
عربان الحويطات الذين ينتشرون فى هذه الصحراوات حتى قلزم
السويس ، وتدور بين هاتين القبيلتين (العباددة والحويطات) حرب
مستمرة منذ زمان لاتعيه الذاكرة .

وفى وقت معين ، عندما يشكل القمح والمواد الغذائية الأخرى
التي يقدمها النجار اكواما هائلة وسط المخيم ، يتزايد عدد العباددة ،
ويدأون يمارسون تقسيم هذه الحصيلة فيما بينهم . ولم أتمكن من الحصول
على أية معلومات حول الطريقة التى يتم بها هذا التقسيم ، ومع ذلك فمن
الممكن الافتراض أن الأمر لا يتم على الدوام وفقه « للذمة والأمانة » إذ
ينتهى بمشاجرات فى معظم الأحيان .

وعدد الخيول لدى العباددة بالغ القسلة ، فهؤلاء لا يركبون سوى
الهجين (٧) ولا يختلف هذا الهجين عن الجمل الا فى أن قامة الأول أكثر
رسماسقة بكثير ، كما أنه أكثر خفة وسرعة أثناء الجرى ، ولا تشبه
السروج التى يستخدمها العباددة لجمالهم على الإطلاق تلك التى تستخدم
فى مصر ، إذ هى تتكون من قطع مختلفة من الخشب مربوطة الى بعضها
البعض بسيور من الجلد ، كما أنها ليست ضخمة الحجم ، ومع ذلك يجد

(٦) ١/٢٤ من الأردب .

(٧) Dromadaire des Naturalistes.

الإنسان نفسه فيها مستريحا بشكل تام لأن الخشب محفور بطريقة تجعل السطح مقعرا مما يمنع الجسم من أن « يحمل » على جانب واحد ، وفى العادة يبسط فوق هذا السطح المقعر جلد خروف ، ومن فوق هذه السروج ، لا تتدلى ساقا الراكب كما يحدث للفارس المتطى حصانا، لكنه يكون جالسا ، وساقاه ممتدتان الى الأمام ، تستقران أو تتشابكان فوق رقبة الهجين .

ويربى العبادة عددا هائلا من الجمال ، يؤجرون أو يبيعون جزءا منها للقوافل ، وهذا قدما اعتقد هو مصدر الجزء الأكبر من دخولهم ، وهم يجنون من جبالهم كمية كبيرة من السنامكى والصمغ العربى، كما يستغلون هناك النظرون والأشبة وبعض المواد المعدنية الأخرى . فإذا ما أضفنا الى ذلك بعض العبيد الذين يجلبونهم من الحبشة ، فسوف نكون فكرة عن أهم السلع التى يأتى العبادة ليستبدلوا بها فى أسواق مصر العليا ، الحبوب والمنسوجات والأتية من كل نوع ، وكل ما يحتاجون اليه .

والعبادة مسلمون ، لكن البلاد التى يقطنونها وكذا الحياة النشطة التى يحيونها على الدوام ، لا تمكنهم من اتباع كل مبادئ هذه الديانة باخلاص وورع .

ويتباهى العبادة بأنهم شعب محارب ، وإذا ما بادرت أحدهم بالسؤال : من أنت ؟ فإنه يجيبك على الفور فى زهو واعتداد : أنا جندى . ولقد أجاب على هذا النحو كل الذين بادرتهم بهذا السؤال .

ويزعم العبادة بأن بإمكانهم أن يضاعوا تحت السلاح الفى رجل ، ولعل هذا تقدير مبالغ فيه ، وينبغى أن نتشكك فى صحته ، ولو على الأقل ، تبعا لذلك الليل الذى يغرى الناس عادة بالمبالغة فى قوة أمتهم .

وتتيح لهم طريقتهم فى الترحال أن يجتازوا بلدا صحراويا بالغ الاتساع ، فيقطعون ما يبلغ مائة فرسخ فى أربعة أيام ، ويحمل معه كل راكب هجين ، ثلاث قرب تتدلى يطول السرج : واحدة مليئة بالفول ،

واخرى بالمياه ، اما القرية الثالثة وهى اصغر فتمتلىء بالدقيق . وفى بعض الأحيان ، وبعد أن يكونوا قد تجهزوا على هذا النحو ، يتجمع العباددة ويتوغلون لمسافة مائة أو مائة وخمسين فرسخا فى الصحراء ، لياغتوا بالهجوم قبيلة هم فى حالة حرب معها ، أو ليكنوا ، فى انتظار مرور قافلة يبغون انتهابها .

ويختلف العباددة اختلافا تاما فى تقاليدهم ولهجتهم وعاداتهم ، وبنيتهم الجسمانية عن القبائل العربية التى تشغل مثلهم الصحراوات التى تحيط بمصر ، فالعربان بيض البشرة يحلقون رؤوسهم ، ويرتدون العمامة ، ويلبسون ملابسهم ، ولديهم أسلحة نارية ورماح يبلغ طولها من أربعة الى خمسة أمتار ، وسيوف مقوسة للغاية . الخ . أما العباددة فسود البشرة ، لكن ملامحهم تتشابه فى كثير مع ملامح الأوربيين ، وشعرهم جعد بشكل طبيعى ، لكنه ليس كوبر الصوف ، وهم يحتفظون به طويلا يتدلى على اكتافهم ، اذ هم لا يحلقون رؤوسهم مطلقا . وتنحصر ملابسهم فى قطعة من القماش يعتقدونها أعلى الكليتين ، ولا تتدلى لأبعد من منتصف الفخذين .

وحيث أنهم يتعرضون شبة عراة لهذه الشمس الحارقة فانهم — وذلك دون شك لكى يخففوا من اثرها ولكى يحتفظوا ببشرتهم ناعمة — يدهنون كل جسمهم بالدهون . بل انهم يضعون كمية منه فوق رؤوسهم قبل أن يكون قد ذاب بشكل تام ، حتى ليظن المرء انهم يضعون المسحوق على طريقة الأوربيين . وشيوخهم ، هم وحدهم الذين يرتدون العمامة فى بعض الأحيان ، بالإضافة الى قميص يستخدمونه احيانا بمثابة ثوب .

وليست لدى العباددة أسلحة نارية على الإطلاق ، ويتسلح الرجل منهم برمحين يبلغ طول الواحد منهما ١٦٠ — ١٨٠ سم ، وبسيف مستقيم ذى حدين ، وبسكين مقوسة يعلقونها فى ذراعهم اليسرى ، ويحمل بمثابة سلاح دفاعى — ترسا مسنديرة من جلد الفيل يبلغ قطرها ٦٠ — ٧٠ سم .

ويعبر العباددة اللغة العربية. وان كانت لهم لغة أخرى خاصة بهم .

وربما كان هؤلاء يتحدرون من اصلااب تلك الشعوب الجوابة التى كانت تمتلك هذه المناطق فى الزمن القديم ، والتى حدثنا عنهم المؤلفون القدامى (٨) فالتر جلوديت Troglodytes (اى سكان الكهوف) كما يذكر هؤلاء المؤلفون ، كانوا يحملون من السلاح دروعا مستديرة من الجلد، ورماحا ، وكانوا عراة فيما عدا منطقة الفخذين والسكيتين ، كما كانوا يمارسون الختان ، وأخيرا فقد كانت لهم طريقة لدفن الموتى خاصة بهم ، فقد كانوا يلقون بالحجارة فوق الجثة حتى تغطيها بشكل تام، وتمارس هذه الطريقة حتى اليوم عند العبادة ؛ وفى واقع الأمر ، فقد لفت البعض نظرى فى وادى القصير الى اكوام عديدة من الحجارة ، كانت هى مقابر لبعض العبادة الذين قتلوا فى احدى المعارك ، وقد رايت كذلك فى منتصف الطريق - على بعد ثلاثة فراسخ من القصير ، تلالا من الحجارة ، وقد قيل لى أن من المحتمل أن هذه الحجارة تغطى جنة احد اثرياء التجار ، قد قتل على يد العربان .

ويبدو أن ديودور الصقلى كان يخشى ، وهو يدون منذ ثمانينة عشر قرنا ، أن يحمل الناس ما يقصه عن سكان الكهوف (الترجلوديت) على انه خرافات ، **فأما نحن نجد من جديد على نفس الأرض ، ونفس الطريقة ، نفس الأسلحة والجزء الأكبر من استخداماتها الكثيرة - وانه لأمر يبعث على الدهشة حقا أن يكون بمقدورنا على هذا النحو ، وبعد انصرام كل هذه القرون ، أن نكون شهودا على صدق مؤرخ .**

ولم نشاهد اية خيمة فى ذلك المعسكر الذى كان للعبادة بالقرب من القصير . وفى أثناء النهار عندما تلتهب حرارة الشمس ، يضع الرجل من هؤلاء على الأرض سرج جملة ، ويقيم تجاهه على مسافة معينة حجرا يماثله فى الارتفاع ثم يضع على هاتين الدعامتين سيفه ورماحه ، ثم يبسط فوق ذلك كله جلد خروف ، وهكذا ينهض بيت ، قلما يبلغ ارتفاعه فى الواقع اكثر من أربعة أو خمسة ديسيمترات . ولا يستطيع الرجل بداخله الا أن يكون راقدا ، وبجتمى آخرون من الشمس فى كهوف صغيرة

(٨) سنرابون ، الكتاب السادس عشر ، ديودور الصقلى .
الكتاب الثالث .

كانوا قد حفروها على منحدر الجبل ، ولم اشاهد فى هذا المعسكر نساء على الإطلاق ، ومن المحتمل الى حد كبير ان تكون الأكواخ والخيام فى المعسكرات التى توجد بها نساء ، أكثر من تلك اتساعا لحد طفيف .

ولقد دفعنى الفضول مرات كثيرة للذهاب الى العباددة ، وكنت على الدوام القى استقبالا طيبا ، كنت الفرنسى الوحيد الذى كانوا يرونه بشكل اعتيادى ، وسرعان ما نظروا الى كواحد من اصدقائهم ، وكنت شاهدا لمرات كثيرة على مبايحتهم وضروب لهوهم .

وليس للرقص عندهم اية علاقة بذلك الرقص الشهوانى الخليع الذى للمصريين ، فهو يتخذ على الدوام صورة الممارك والمبارزات ، فيتسلح الراقصون بالرمح أو السيف وبالدرع . ويخطون وهم يتبادلون الهجوم خطوات عديدة بخفة وقوة . وتتجلى المهارة فى الدفاع عن الدرع وتحل الهزيمة بمن يترك درعه تلمس ، وفى كثير من الأحيان ، يندفع احد الراقصين نحو واحد من المشاهدين ، ويضع طرف سيفه على صدره مطلقا صيحة عالية ينبغى أن يجيب عليها بكلمة : عباددة ! وعندئذ يبتعد الراقص عنه ويواصل رقصه .

وليس فى موسيقاهم ذلك الشجن وتلك الرثابة اللتان لموسيقى المصريين : والعازف هو الشاعر نفسه فى ذات الوقت ، وتدور أغانيه حول امتداح أمجاد قبيلته والشجعان من أبنائها . وفى بعض الأحيان كذلك تتخذ من العشق موضوعا لها . ويجلس القوم من حوله يستمعون فى صمت وهو يغنى فى مصاحبة نوع من الماندولين ، وفى هذه الحالة تستطيع أن ترى المرح أو الخوف ، الشفقة أو الغضب يرتسم كل بدوره على وجوه السامعين .

ويبلغ عدد الوديان التى يمكن لنا أن نسلكها كى نتوجه من القصير الى مصر اذا ما سلطنا فى ذلك بما أخبرنا به العباددة ، ستة وديان أو سبعة ، ويبلغ طول ذلك الوادى الذى عبرته مرتين حوالى الأربعين فرسخا ، تنبسط ابتداء من القصير حتى بير الأنبار .

وفى البداية يجد المرء على بعد فرسخين من القصير ، ذلك الخور

المسمى لمباجة (٩) ، ومياهه صافية شفافة ، لكنها ثقيلة ومذاقتها غير مستساغ ، ويزعم العرب أنها ضارة بالصحة الى حد كبير ، ولذلك فهم لا يستخدمونها الا لجمالهم ، ومع ذلك فقد شربت منها ، وفعل نفس الشيء كثير من الفرنسيين دون أن يصيبنا منها أى أذى . وعلى شواطئ هذا الخور يرى المرء بعض أشجار النخيل ، وتليلا من الخضرة والوفا من الطيور ، وبخاصة الحمام البرى الذى اقام هناك أعشاشه ، وهو يسكن فى تجويفات الصخور ويعيش على الحبوب التى تتساقط من القوافل .

ولا يمكن أن يعد للمباجة شيئا فى بلاد خصيبة أما فى وسط العزلة وبين تحولة الجبال الجرداء فان خورا وبضعة أشجار بالاضافة الى بعض الكائنات الحية تكفى لتجعل من المنطقة مكانا بهيجا . ولعل هذا التعبير لن يبدو مبالغا فيه بالنسبة لهؤلاء الذين سبق لهم أن استراحوا فى هذا المكان وهم يعبرون هذه الصحراء . ولسوء الحظ ، فان مياه هذا الخور تضيع فى الرمال على بعد مسافة قصيرة من منبعه . ومع ذلك ففى فصل الأمطار يصبح هذا الخور فى بعض الأحيان نهرا بالغ الأهمية يصب فى البحر بالقرب من القصير .

وعلى بعد أربعة عشر فرسخا من هذه الواحة الصغيرة يجسد المرء عيونا تسمى العدوة ، وهذه عبارة عن ثقب محفورة فى الرمال فى سفح هضاب منحدر من التيسيت ، وأبعد من ذلك بفرسخ وربع الفرسخ ، يجد المرء عين مياه مشابهة تسمى الأحمر ، كما يلمح هناك بعض الأكاسيا (الست المستحية) (١٠) وقد عددها فوجدتها تبلغ العشرين فى كل مساحة الوادى .

وقد قطعنا المسافة من الأحمر الى الجيئة فى ثلاث عشرة ساعة

(٩) قبل الوصول الى للمباجة ، يلمح المرء على اليمين ، المحاجر التى استخرجت منها الأحجار والتى استخدمت فى بناء القصير .
(10) *Mimosa nilitica*.

ونصف الساعة ، هناك تتجمع الوديان الأخرى ، وآبارها بالفئة
الانتساع ، يكسوها القرميد ، وثمة منحدر يسمح للحيوانات بالنزول حتى
سطح الماء ، وعمق هذا المنحدر لا يزيد عن متر تحت سطح الأرض ؛
ويلمح المرء بالقرب من الآبار بعض بقايا الأبنية القديمة ، وخانا صغيرا
يستخدم لايواء المسافرين .

وابتداء من القصير حتى ما قبل الجيئة بحوالى فرسخ كنا نسير على
السدوم بين جبال عالية وعارية ، من الحجر الجيري ، والشست ،
والجرانيت ، والحجر الرملى ، والرخام ، تتباعد قليلا بعضها عن البعض
الأخر ، بل ثمة بعض السلاسل التى لا يتجاوز عرضها ١٢ - ١٥ مترا ،
وهناك تسد قطع الصخور الطريق لحد أن جملين محملين ، يسيران فى
طابورين يجدان صعوبة فى أن يمرأ فيها معا فى وقت واحد ، لكن
الوادى عند الجيئة يبدأ فى الانتساع لحد كبير وسرعان ما يشكل سهلا
واسعا من الرمال ، ينتهى فى اتجاه مصر بسلسلة من تلال صغيرة من
الرمال والزلط المستدير .

بعد الجيئة ببضعة فراسخ لحنا على البعد أرضا مزروعة ، آه ! .
كم بدت مصر جميلة فى عيني فى هذا الوقت وهى التى ثلما بدت لى
مقبضة على النحو الذى مضى . وهذه الغابات من أشجار النخيل التى
لا يكاد المرء يحس بأن لها ظلا .. كم جعلتنى أفتقد غابات وطنى ! وكم
بدت لى مقرا للنضارة والانتعاش ! أما النيل .. أيمكننى حقا أن اصور
ما شعرت به ما أن رأيته عند خروجى من تلك الصحراء التى قضيت
بها مدة ثلاثة اشهر ؟ كانت الخماسين تهب عندئذ بلفحتها الملهبة ، لكن
هذه المياه العذبة ، موطن أمائنا ، كانت تخفف من التأثير السيئ
لتلك الرياح ، فكم يخفف الأمل فى خبر قريب من ألم الحاضر ، وعلى
الرغم من أننا كنا متعجلين ، عطاشى وجائعين فقد منحنا الخيال الفاكهة
وماء النبل ، واسرعنا من عدو جمالنا ، فى حين كنا طوال الطريق منذ
القصر نسبر فى خطو وثيد .. ولقد استمر هذا العدو مدة ساعتين لكننا
كنا رجالا وجمالا ، قد نسينا التعب وسرعان ما وصلنا الى بير الأنبار .

وبير الأنبار هذه قرية صغيرة تقع على تخوم الصحراء والأرض
المتزرعة . وهى تبعد بحوالى فرسخ وربيع الفرسخ على مدينة تفت

القديمة ، الواقعة على بعد نصف الفرسخ من نهر النيل ، وعلى بعد ثمانية أو تسعة فراسخ من الجبته . وتتبع هذه القرية قبيلة العزايزى العربية ، ويجد المرء بها آبار مياهها بالغة الجودة فى أوقات الفيضانات ، أما فى أوقات المياه الواطئة فإنها تكتسب مذاقا غير مستساغ ، هو طعم الأيدروجين المخلوط بالكبريت . ويعود هذا الطعم دون جدال الى تذاثر الآبار .

استغرق وصولنا من بير الأنبار الى قنا — وهى مدينة صغيرة على ضفاف النيل — أربع ساعات ، وهذه المدينة هى ملتقى القوافل التى تضطلع بتجارة القصير ، وتلك كانت نهاية رحلتى .

والوادر الذى انتهيت من وصفه هو الوادر الذى يسلكه عادة حجاج مكة والتجار الذين يمارسون التجارة مع الجزيرة العربية .

وقد دلنا بروس Bruce وبراون Browne وهما رحالنان انجليزيان على واديين آخرين . لكن أكثر هذه الوديان أهمية هو الوادر الذى اتبعه الضابط المهندس باشلو Bachelu ، ويتبع هذا الوادر الى الشمال من ذلك الوادر الذى تحدثت عنه . ويجد المرء فيه الكثير من الآثار القديمة ، وتبلغ المسافة بينهما حوالى أربعة فراسخ ، وهذه الآثار هى نوع من المحطات الحصينة التى بنيت على نمط واحد ، فهى عبارة عن فناء كبير مربع الشكل ، تحيط به جدران ضخمة وتعلوه الأبراج ، وتجد بداخله بعض الأطلال لمساكن كانت مبنية بداخله فيما مضى . وفى وسط الفناء توجد بئر بالغة الاتساع ، لها منحدر ، تستطيع الحيوانات بواسطته أن تنزل لتروى . وهذه الآبار مطبوسة جزئيا ، ولكن من المحتمل أن نجد بها المياه اذا ما حفرناها قليلا .

وأول محطة تقابلها عند خروجك من مصر تقع بعد أربعة فراسخ الى ماوراء آبار الجبته ، وقد كانت هذه بلا شك فيما مضى أول محطة حصينة على هذا الطريق . ويبلغ عدد هذه المحطات حتى القصر ستا أو سبعا ، وتبعد الأخيرة عن القصر بحوالى ستة فراسخ ، وفى النقاط التى ينقسم فيها الوادر الى عدة أفرع أقيم مكعب من المواد البنائية ، فى الفرع الذى ينبغى على المرء أن يسلكه . وعند حوالى منتصف الطريق ،

ياخذ الطريق فى الارتفاع تدريجيا ، وبشكل غير محسوس ، وبعد بلوغه قمة الجبل ، يهبط ثانية الى الوادى الذى يمتد بعد ذلك دون أى انقطاع آخر ، حتى خور اللباجة ليتصل بالوادى الذى سبق أن وصفته .

وقد تحدث سترابون عن طريق يذهب من قنط Cophtos إلى ميوس هرموس Myos - Hormos . وهى مدينة تقع على شواطئ البحر الأحمر ، وكانت ميناء بالغ الأهمية فى ذلك الوقت ، ويضيف سترابون بأن هذا الطريق كان مطروقا بشكل اعتيادى ، وأن الناس فى الأزمنة الأولى كانوا يحملون معهم المياه اللازمة فى أسفارهم ، وكانوا يتوجهون مسترشدين بالنجوم ، ولكن حفر الآبار بعد ذلك وأنشئت خزانات المياه للاحتفاظ بمياه الأمطار ، ويبلغ طول هذا الطريق مسيرة ستة أو سبعة أيام سيرا على الأقدام .

ويستشهد كثير من المؤلفين بهذا النص لسترابون Strabon ويطبّقونه على طريق قنط - بيرينيس Bérénice ، ومع ذلك فلو أننا قرأنا ماكتبه هذا الرحالة بانتباه لوجدناه يتحدث بالفعل عن طريق قنط - ميوس هرموس وبالموقع الذى حدده له .

وقد ظن دانفيل d'Anville ، الذى استوعب تماما كل ماأورده المؤرخون القدماء حول موقع ميوس هرموس ، أن عليه أن يعطى لهذه المدينة موقعا على بعد عشرين فرسخا الى الشمال من القصير ، حيث يبدو من المؤكد أن كان يوجد فى هذه المنطقة ميناء بالغ الأهمية .

وإذا تبيننا هذا رأى ، فإن الوادى الذى نقابل فيه هذه المحطات الحصينة يمكن أن يكون جزءا من الطريق القديم الذى تحدث سترابون عنه ، والذى كان يفضى بالقوافل الى منطقة تبعد خمسة أو ستة فراسخ من القصير ، حيث نجد المحطة الحصينة الأخيرة ، وهناك يتغير الاتجاه ويتخذ جهة الشمال حتى يبلغ ميوس هرموس .

ويهيئ لنا هذا الطريق ، الذى ظل مجهولا حتى وقت مجيء الحملة الفرنسية الى مصر ، خدمة جلييلة ، ذلك أنه سوف يستخدم بالضرورة ، فى تحديد موانئ البحر الأحمر ، التى كان يتردد عليها القدماء ، بطريقة أكثر دقة ، وبشكل لم يكن هناك من استطاع حتى ذلك الوقت ، التوصل اليه .

الدراسة الثامنة :

القبائل العربية في صحاروات مصر دى بوا - إيميه

العنوان الأصلي للدراسة هو : دراسة
موجزة عن القبائل العربية في صحاروات
مصر ..

ليست مصر ، ابتداء من أسوان حتى القاهرة ، سوى وأد ضيق طويل (١) تحيط به الجبال الجرداء ، التي لا يكاد ينمو عليها حتى تلك الطحالب الدقيقة التي تغطي جبال أوربا وتلون أحجارها المعرضة للهواء . ولا يشق هذه الجبال نهر أو مجرى من أى نوع ، إذ أننا لانستطيع أن نطلق أيا من هذين الاسمين على تلك الأخوار العابرة التي تحدث نتيجة لسقوط الأمطار ، بالغة الندرة . ولا يمكن المرء أن يلقى هناك بعض النباتات المتناثرة اللهم إلا في قاع الوادي ، كما لا يمكنه أن يعثر ، الا على مسافات بالغة التباعد ، على الآبار . وليست هذه الآبار في غالب الأحيان سوى ثقب ضحلة العمق حفرت وسط الرمال ، وتكاد مياهها على الدوام تميل الى الملوحة ، بالرغم من كونها صالحة للشرب ، لكنها في كل الأحوال ليست غزيرة لحد يكفى أن ننشأ عليها بعض الزراعات . وتتقاطع هذه الوديان في اتجاهات عديدة ، أما تلك التي تؤدي الى وادي النيل ، فتبدأ في الاتساع كلما اقتربنا من مصر لتشكل عندئذ سهولا من الرمال تتصل بالأرض المزروعة ، وبالنيل في بعض الأحيان . وليس ثمة نشاط نباتي اذا صح القول الا فوق الأراضي التي يرويها النهر بشكل طبيعي أو بشكل صناعي - وتتناقص الخصوبة الشديدة لهذه الأراضي وبشكل صارخ مع ذلك الاطار الخارجى الذي يحيط بها .

والى الشمال من القاهرة ، ينفرع النيل عدة أفرع ، وتتسع مصر ، وتأخذ الجبال في الانخفاض لتنتهى بعد قليل الى سهول فسيحة من الرمال لتنتهى شمالا بالبحر المتوسط ولتنداح من جهة الشرق بصحراوات سوريا والجزيرة العربية ، أما من جهة الغرب فانها تمتد لتصل بمصر بأعماق أفريقيا .

هذه الجبال الجرداء ، وتلك الوديان الساحلة ، وكذلك تلك

(١) يبلغ متوسط عرضه حوالى ثلاثة فراسخ .

السهول الرملية التى تضغط على مصر من كل الجهات ، والتى تبدو وكأنها تتحفز للتوب حتى لينتهى بها الأمر أن تغطى أرضها الخصبة ، هى برغم ذلك كله مناطق آهلة ، يسكنها رجال ضخام أشداء يسمون بالعربان البدو (٢) ، وهؤلاء يتجولون بينما هم ينقسمون الى عائلات — مع قطعانهم فى هذا الخلاء الموحش . والمدن عند هؤلاء هى المخيمات ، وبيوتهم هى الخيام ، أما المراعى الوحيدة لقطعانهم فهى نبات العليق وبعض النباتات الشوكية البعثرة هنا وهناك ، وبإمكان هذه القطعان أن تنفى بكل احتياجات هؤلاء العربان ، لكن الحرب والسلب يقدمان لهم مصادر ووسائل أخرى للمعيشة ، ويشاهدكم المرء يحومون حول مصر ، كما لو كانوا ذئاباً جائعة تحوم حول فريسة دسمة ، وإن كان العربان يسعون فى بعض الأحيان وعن طريق معاهدات يعتقدونها مع حكام مصر أن يحصلوا على الاذن بالاقامة فى مناطق خصيبة ، وفى أحيان أخرى يقتحمون عنوة هذه المناطق ، والسلاح مشهور فى أيديهم لينتزعوا القطعان والمحاصيل ، ثم ينسلون فجأة ليلوذوا بصحاريهم ، فإذا ماجأ من يلاحقهم فإن عادتهم فى تحمل العطش لوقت طويل ، والصبر على المناعب بالغة الشدة ، تمنعهم عن عدو غير معتاد الا على حياة أقل خشونة . فالصحراء بالنسبة لهم ، حصن منيع يعز اقتحامه ، يلوذون بها فى أوقات الأخطار الكبرى .

إننا نحن فى أوروبا ، نستولى على حقول العدو ومدنه عندما يهرب ، ونثرى أنفسنا بأمواله وكنوزه وسائر مصادر دخله ، ذلك أنه يخلف وراءه أهلاً وأصدقاء وممتلكات يأسى عليها ، أما البدوى فلا يخلف وراءه الا رمالا قاحلة . . أما اذا أرغمته الظروف على أن يترك أى شيء فسرعان ماسيعوضه بأسللاب جديدة ، فلسوف يعود هؤلاء البدو — بعد أن تكون قد ظننت أنك قد دفعتهم بعيدا عن مصر — ليثبثوا هجمات مضادة . ول هؤلاء البدو حفر سرية يخفون فيها البلح بل وعلف قطعانهم ، ويسهل عليهم الأفق الواسع المحيط بهم ، وكذا يياض الرمال التى يبدو الرجال والحيوانات عليها مجرد بقع سوداء ، أن يكتشفوا العدو على

(٢) تعنى هذه الكلمة « رجل الصحراء » .

نفس المسافة التي يمكن فيها الرؤية عندما يكون الانسان فوق سطح البحر . وليس نمة ما على هؤلاء ان يخشوه سوى المفاجآت الليلية ، لكنهم ، فى كلمة ، « أساتذته » يعرفون متى يقبلون المعركة ومتى يرفضونها ، فإذا رأوا أنفسهم فى المركز الأقوى فلا بد أن ينتظرهم نصر مؤزر . أما اذا كانوا فى المركز الأضعف فسيفرون ولن يجنى العدو شيئاً من فرارهم . . لذلك فكل الحروب النى يشنونها على مصر تنتهى فى العادة لصالحهم . . وينتهى الأمر بحكام هذا البلد فى معظم الأحيان بأن يتركوا لهم بعض الأراضى الخصبة على تخوم الصحراء ، وينهض البدو من جانبهم الا يذهبوا الريف بعد ذلك ، بل وفى معظم الأحيان بأن يدفعوا ضريبة عن الأراضى التى تركت لهم ، ومع ذلك فحيث أن السلاح فى أيديهم على الدوام ، وحيث أنهم يحطون رحالهم على الدوام عند حافة الصحراء فانهم لا يحرصون على احترام معاهدة أملاها عليهم التعب والخوف ، وتظل تتحين الخيانة المطبوعة الفرصة لتزيئها .

ومع ذلك فهناك بعض القبائل ، التى لانت طبائعها بفعل سلام طويل . . قد انتهت بها الأمر أن هجرت الصحراء وانتشرت داخل مصر وانتقلت بشكل تدريجى من حالة البداوة الى حالة الزراعة ، وكان فقدانها لحريتها المطلقة هو على الدوام النتيجة التى ترتبت على ذلك ، ويقدم الصعيد مثالا قريبا على ما نقول ، فقد كانت قبيلة الهوارة ، وهى التى جاءت الى مصر من المناطق المجاورة لمدينة تونس بعد وقت قصير من هزيمة مصر على يد السلطان سليم ، كانت هذه القبيلة قد استقرت فى الصعيد ، وفى البداية أقامت على مشارف الصحراء ، ثم استولت فيما بعد بواسطة القوة والمهارة الحربية على جزء كبير من مصر العليا، ودعمت وضعها هذا بدفع اتاوة الى حكومة القاهرة ، وحين أصبح الهوارة من ثروة الملاك ، كانوا قد فقدوا تدريجيا عاداتهم الرعوية فاستبدلت بالخيام بيوتا وتحول الحب الطاغى للحرية الى حب للوطن . . وظل هؤلاء العربان فى رخائهم يسعد حالا من قومهم بالصحراء ، حتى أعلن عليهم على بك الحرب بعد أن أثارت حفيظته قوبهم وطمع هو فى ثرواتهم ، وكان أن هزمهم فى لقاءات عدة . هكذا لم يعد بإمكان هؤلاء العربان بعد أن فقدوا القدرة على احتمال الرمال الحارقة وعلى مكابدة

صُوف الحرمان النى كانوا يعمانون منها فى صحرائهم — لم يعد بإمكانهم أن يفلتوا من سطوة الممالك .

وعدد القبائل الطليقة فى صحراوات مصر كبير والىكم أسماء تلك القبائل التى تعرفت عليها أثناء إقامتى فى هذه البلاد :

طرابين الكبرى ، الطميلات ، النفاحات ، العباددة ، بلى ،
الهوارة ، طرابين الصغرى ، الجوابى ، الهنادى ، الزهرات ، محاز ،
بنى واصل ، السمالو ، الفرغان ، الترافع ، المعزبى ، بن وافى (٣) .

ويشترط أن هذه القبائل تستطيع إذا ما تجمعت أن تضع تحت السلاح مايقرب من ٣٠ — ٤٠ ألف فارس .

ويرتبط بكل من هذه القبائل عادة ثلاث فئات من الرجال شديدي الاختلاف : الأسرى الذين حصلوا عليهم أثناء الحروب ، والعبدة المسترون ، والفلاحون ، والفئتان الأوليان قليلتا العدد لحد كبير ، أما الفئة الأخيرة فيتفأوت عددها قلة أو كثرة تبعاً لسكان الأراضى الخصبة النى احتلوها وكذلك بحسب عدد البؤساء من الفلاحين الذين هربوا الى مخيماتهم بحثاً عن ملاذ من طغيان الأتراك والممالك .

وعلى الرغم من الحروب العديدة ، والأحساد المتوارثة التى تقسم هذه العصب ، فإن علينا أن ننظر اليهم باعتبارهم يشكلون أمة واحدة ، فأصلهم المشترك ولغتهم وعاداتهم توضح ذلك بجلاء .

ولن آخذ على عاتقى هنا أن أقدم حكايات حروبهم وهزائمهم ومعاهداتهم ، ولن أدخل فى تفاصيل تاريخية عن الأحداث والشخصيات الشهيرة ، وإنما سأكتفى بأن أبين بعض الملامح التى قد تكون بذات نفع فى التعرف على تقاليدهم وخالهم السياسية .

(٣) حيث أن للعبادة واكله الأسماك فى سواحل البحر الأحمر أصلاً وعادات مختلفة عن القبائل الرعوية الأخرى ؛ فأننى لم أتناولهم بالحديث هنا — راجع ماذكرته عنهم فى مقالتي عن مدينة القصير (الفصل السابع من هذا الكتاب) .

تنتمى كل القبائل الرحل النى استقرت فى مصر الى أصل عربى
 فيما عدا العباددة (٤) وإذا كان ثمة قبائل قد جاءت من جهة الغرب
 لتبدو وكأنها قد حطمت هذه القاعدة فلا بد أن نتذكر أن هذه القبائل
 عربية وانها ذهبت الى المغرب فى عهد الخلفاء الأول . وأغلب مزارعى
 مصر الذين يشار اليهم باسم : فلاحين ينتمون لأصل مشابه ، وهم قد
 استقروا هناك كمنتصرين عندما أصبحت مصر جزءا من امبراطورية
 العرب وكونوا الجنس المسيطر ، حتى اليوم الذى انتقلت فيه مقلد
 البلاد الى أيدي المالك الأتراك . وبينما استطاع العرب الذين ظلوا حتى
 هذه الحقة يحفظون بالعادات الرعوية التى ورثوها عن آبائهم ،
 أن يخلصوا من قانون المنتصر ، فإن أولئك الذين كانوا قد انغمسوا منهم
 فى زراعة الأرض أو احتراف الحرف والفنون ، وسكنوا القرى والمدن
 قد كانوا مضطرين للخضوع للسلادة الجدد ، وتضاعفوا شيئا فشيئا حتى
 بلغوا اليوم حالة لا تختلف فى كثير من حالة العبودية .

ولقد سبق للعرب السدو فى زمن سابق أن يهزموا مصر ، ذلك أن
 المرء لا يمكنه أن يشك فى أن ليس هؤلاء العرب سوى أولئك الذين أراد
 المؤلفون القدامى أن يسيروا بهم عند الحديث عن هذه النـسـبـة
 الرعوية التى أخضعت مصر واحتفظت بها قرونا طويلة ، ثم طردوا
 منها قبل عهد سيزوستريس بحوالى ثلاثمائة عام (٥)

(٤) أنظر الهامش السابق .

(٥) حول هذا الموضوع اليكم هذه التبعة شديدة الأهمية نقلنا عن
 ماثيوتون ولا بد أن يتذكر المرء أن هذا المؤرخ المولود فى مصر داخل الطبقة
 الدينية قد استطاع أفضل من أى شخص آخر أن يستفيد من الحوليات
 والكتب المقدسة فى أمته : فى عهد « تيمائوس » . أحد ملوكنا ، سمح
 الرب وكان غاضبا علينا دون أن نفهم لذلك سببا ، بأن يأتى من جهة الشرق
 جيش ينتمى لشعب ليست له أية شهرة وأن يسيطر بسهولة على بلادنا
 وأن يقتل بعضا من أمرائنا ويضع السلاسل فى أيدي آخرين ، وبأن يحرق
 مدننا ويدمر معابدنا وأن يعامل السكان بغلظة شديدة ويقتل عددا كبيرا
 منهم وأن يسبى النساء والأطفال وأن ينصب ملكا علينا واحدا من أمته
 يسمى سالاتيس .

وثمة اعتقاد راسخ لدى العرب ، ودعمه القرآن ، يجعل هؤلاء العرب ينحدرون من صلب اسماعيل ، ابن ابراهيم (ابراهيم) الذى قال عنه الرب « سيكون رجلا فخورا . ورعويا وحشيا ، سيرفع يده فى وجه الجميع وسيرفع الجميع ايديهم ضده ، وسيرفع أغلامه امام كل اخوته ، سأباركه وأمنحه ذرية كبيرة وعديدة » (٦) وفى هذه اللوحة عن

== وقد جاء هذا الحاكم الجديد الى ممفيس وفرض ضريبة على المقاطعات العليا والسفلى على السواء وأقام فيها حاميات قوية ، وبخاصة فى جهة الشرق لأنه كان يرى ان الآشوريين ما أن يحسوا بأنهم قد أصبحوا أقوياء، سيسعون لهزيمة هذه الملكية ، وعندما بدا له أن مدينة أفاريس فى إقليم سابيت الى الشرق من بوباسطة ذات موقع مناسب ، فقد قام بتحصينها تحصينا قويا ، ووضع فيها وفيما حولها كثيرا من المحاربين بلغ عددهم حوالى ٢٤٠ ألف جندي . وكان يأنى الى هناك فى اوقات الحصاد كي يباشر جمع المحصول ولكي يستعرض قواته ليحافظ على مستوى تدريبيهم وانضباطهم لحد لا يجرؤ معه الأجانب على بدء التحرش به بغية امتلاك دولته . وقد سيطر هذا الحاكم لمدة تسعة عشر عاما ، ثم أعقبه بيون وقد مكن فى الحكم ٤٤ سنة ثم أبخناس وحكم ٣٦ عاما وسبعة أشهر ، أما ابوفيس الذى أعقبه فقد حكم لمدة ٦١ عاما ، وحكم جانياس الذى اعتلى العرش بعده لمدة خمسين عاما وشهرا واحدا ثم أعقبه أسيس الذى حكم لمدة ٤٩ عاما وشهرين .. ولم توجد وسيلة للقضاء على الجنس المصرى الا ولجأ اليها هؤلاء الملوك الستة ، وكان هؤلاء جميعا يسمون الهكسوس أى الملوك الرعاة ، لأن كلمة هك فى اللغة المقدسة تعنى : ملك وسوس باللغة الداريجة تعنى : رعاة . ويثول البعض أنهم كانوا عربا » .

ويضيف فلافيوس جوزيف Falvius Joseph (Réponse à Appidon, trad d'Arnauld d'Antilly, liv. I. Chap. 5) الذى نقل اليها هذا النص

من مانيثون بأن هذا المؤرخ يقرر أن "ملوك الصعيد ، اذ لم يكن قد تم اخضاعهم كلية ، قد خاضوا حروبا طويلة ضد هؤلاء الرعاة وهزمهم وطردوهم فى النهاية من مصر التى كانوا قد احتلوها مدة ٥١١ سنة ، وأن هؤلاء الرعاة قد انسحبوا الى الصحراء وانقضوا على سوريا وانتهى بهم الأمر أن استولوا على إقليم يسمى يهوذا حيث أسسوا مدينة اورشليم . (٦) سفر التكوين ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ١٢ والاصحاح السابع عشر الآية ٢٠ . وما ورد فى المتن ترجمة للاقتباس كما جاء فى النص الفرنسى ، واليك نص مانيثون الآيتين كما جاءت فى التوراة :

« وانه يكون انسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه ، وامام جميع اخوته بسكن » « وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها انا اباركه وأثمره وأنجحه كثيرا جدا . اننى عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة » . (المترجم)

اسماعيل يتعرف المراء على البدو ، فالإنشاء لا يمكن لهم أن يشبهوا آباءهم بأكثر مما يشبه العرب أباهم اسماعيل .

أن المراء مدفوع على أن يقر بأن هذا الاعتقاد ليس خادعا على الإطلاق ، ولكن الشيء الذى لا يمكن أن يتطرق اليه الشك ، هو أن للعرب والعبريين أصلا مشتركا ، فلنقرأ التوراة بانتباه ، وسوف يدهشنا هذا التشابه فى التقاليد بين قدماء البطارقة وبين تقاليد العرب البدو ، وستكون هذه القراءة بالغة الفائدة اذا أمكن أحد أن يقرأها كما قرأتها أنا فى أرض جاسان على شواطئ البحر الأحمر ، وفى عيون موسى أو فى الصحراوات التى يحدها عند الأفق جبال حوريب وسيناء (٧) .

كل هذا يؤدى بنا أن ننسب الى العرب أصلا من أقدم الأصول ، وربما لا يوجد شعب يستطيع أن يتباهى بأنه قد أمكنه أن يحتفظ

(٧) نستحق النوراة التى تنال من البعض ازدراء أكثر مما ينبغي، وتنال من الآخرين ، وهم الذين ينظرون اليها باعتبارها أساسا لمعتقداتنا الدينية ، تقديسا أكثر من اللازم ، وتستحق أن تنال اهتمام الجميع من زاوية تاريخية محضة ، ذلك لأنه اذا كانت صروف الطبيعة تبدو فيها غير قابلة للفهم ، واذا كان التاريخ فيها غير مؤكد واذا كانت الوقائع التى تروىها مشكوكا فى صحتها ، فسوف نتفق على الأقل بأنه كان من المستحيل أن ترسم لوحة للحياة الخاصة للعائلات الهائلة فى الصحراء بمثل هذه الدرجة من الحقيقة : اذ نحن ما نزال نجد بينها نفس العادات ونفس الطريقة فى العبادة بل ونفس مبادئ القانون العام ونفس الفنون ونفس الآنية ، بل نكاد نقول نفس اللغة .

فقانون القصاص وحق الانتقام الذى يؤول للأهل الأثريين . وحتى شراء الدم (الدية) وسطوة الشيوخ وعقاب المجدفين ، والختان ، وتقديم الأضحيات فوق أماكن مرتفعة ، والالحاح فى طلب إمارة على بكارة الفتيات يوم زواجهن والعقم الذى ينظر اليه كلعنة من السماء ، والرغبة فى انجاب ذرية كبيرة العدد ، وحقوق الملكية والميراث ، واعداد الأطعمة ، والفزع من لحم الخنزير ، والمجوهرات والملابس ، وطريقة شن الحروب ، واقتسام الأسلاب المنزوعة من العدو ، وعادة السكنى تحت الخيام حتى فى البلاد الخصيبة والملبئة بالمدن ، وعادة القاء التراب فى الهواء فى أوقات الأخطار الكبيرة ، وفى أيام الأحزان الفظيعة . كل هذه أمور مشتركة عند كلا الشعبين ، وفى زمن محمد كان يوجد عدد كبير من القبائل الطليقة فى الصحراوات تتبع ديانة موسى .

بعلامحه القديمة بأكثر مما أمكن لهؤلاء العرب أن يفعلوا (٨) منذ العصور

(٨) واليكم ما نقله الينا ديودور الصقلى عن العربان فى الصحراوات . وهو ما كتبه منذ ١٨ قرنا « أنهم يسكنون فى الخلاء ، دون أن يظلمهم أى سئف ، وهم ببخزون من العزلة عليا عليهم ووطنا لهم ، وهم لا يختارون مطلقا لاقامتهم الأماكن القريبة من الأنهار وينابيع المياه خوفا من أن يجذب ذلك الأعداء الى مجاورتهم . ولا يسمح لهم قانونهم أو عرفهم أن يبذروا الحب ولا أن يزرعوا اشجار الفاكهة ولا أن يشربوا الخمر ولا أن يعيشوا تحت سئف ، ومن مضطرب من بينهم مخالفا لهذه العادات يعاقب بالموت لا محالة ، اعتقادا منهم بأن هؤلاء الذين يخضعون لطل هذه العادات سيخضعون عما قريب لحكام يسعبدونهم . وبعض هؤلاء يرعون الجبال وبعضهم برعى الماعز فى الخلاء . ولبس مئة أغنى من هؤلاء الآخرين بين العرب ، لأنهم . على الرغم من كونهم ليسوا الوحيدين الذين يملكون قطعانا فى الخلاء ، يقومون فى نفس الوقت — وعددهم لا يتجاوز ١٠ آلاف — ببيع البحور والمر وعقاقير أخرى ثمينة حصلوا عليها من سكان اليمن ليبيعوها على شواطئ البحر ، فضلا عن ذلك فهم شديدا الفيرة على حربتهم ، وعندما يبلغهم خبر مفاده أن جيشا يقترب منهم فانهم يلجأون الى أعماق الصحراء التى تعتبر حواشها بفعل امتدادها بمثابة مناريس لهم ، لأن الأعداء حيث لا يعرفون فيها موطن الماء ، لن يجروا على اجتيازها ، فى الوقت الذى يكون فيه العرب فى أمان من هذه الحاجة — الحاجة الى الماء — حيث قد سبق لهم أن أعدوا لأنفسهم أنية ضخمة خبأوها تحت الأرض ، ولا يعرف سواهم . العلامات الدالة على هذه الأنية . وحيث أن الأرض كلها لا تكون الا من أرض طفلية رخوة فانهم يجدون الوسيلة كى يحفروا فيها مغارات عميقة وواسعة على شكل مربع يبلغ طول كل ضلع منها ذراعا ، وفتحتها بالغة الضيق ، وعندما يمتلئ هذا الكهف (الجب) بمياه المطر يثقلون مدخله ويسوونه بسطح الأرض التى تحيط به ويتركون عليه بعض علامات لا يمكن أن يتعرف عليها سواهم . وهم يعودون القطعان التى بخطفونها الا تشرب الا كل ثلاثة أيام وذلك حتى تعتاد فى تلك الحالة الى سيكون عليهم أن يحيوها عندما يهربون بعيدا بعض الشيء عبر سهول تاحلها على أن تقاوم العطش بعض الوقت ، وهم يعيشون على اللحوم واللبن والفواكه الشائعة والمعادية وتوجد فى أراضيهم أشجار الفلفل وكذلك كثير من ذلك العسل الذى يسمى العسل الوحشى وهم يشربونه مع الماء ، وثمة أجناس أخرى من العرب يعملون فى فلاحه الأرض ، وهم يخضعون لحكومات مثل السوريين ، وهم يتشابهون فى أمور كثيرة فيما عدا أن السوريين يسكنون فى منازل .

ديودور الصقلى ، الكتاب التاسع عشر ، ترجمة الأب Terrason

الضاربة في القدم . وهؤلاء العرب - منقسمين الى قبائل ، وخاضعين لشيخ العائلة ، وساكنين تحت الخيام - يهيئون مع قطعانهم من من ضفاف الفرات الى ضفاف النيل ومن شواطئ المتوسط حتى الخليج الفارسي وبحر الهند ، لم بغز أرضهم أجنبي ولم يغير من لغتهم أو تقاليدهم غاز ، ولكم أرادت أمتان أكبر قوة وأكثر شهرة بسبب فنوحانهما وهما الفرس والرومان ، أن تخضعا العرب لسيطرتهما ، بلا جدوى ولكن ما أن أصبح هؤلاء العرب فاتحين في عهد الخلفاء ، حتى غطوا بجيوشهم شمال افريقيا ، وأسبانيا ، ووسط فرنسا ، وسوريا ، وفارس ، وآسيا الصغرى ، وعندما حدث أن طردوا وقت هزيمة فقد كانوا يعرفون على الأقل ، ودائما ، كيف يحتفظون بوطنهم القديم . وينظر البدو ، وهم الفخورون بنقاء عنصرهم ، وبأنهم يستطيعون الدفاع دوما عن حريتهم ، ينظرون باحتقار الى أمم العبيد التي تحيط بهم .

وقد حدد الحب الأبوى والاحترام البنوى شكل حكومتهم ، كما أن هاتين الرابطين هما اللتان تربطان بين مجتمعهم ، فكل أسرة تطيع من بينها هذا الشخص من أفرادها الذي جذب لنفسه أكبر قدر من الاهتمام بفضل حكمته وقدراته وثروته ، ويكون هذا الشخص في العادة رجلا مسنا ويتخذ لقب شيخ ومعنى هذه الكلمة : العجوز أو المسن (٩) .

وعندما لا تكون الأسرة كبيرة العدد لحد تستطيع معه حماية نفسها بنفسها ، فانها تنضم الى أسرة أخرى ، ويعطى أكبر الشيوخ نفوذا اسمه للقبيلة التي تشكلها هذه الأسر المتحدة ، ويمارس عليها جميعا السلطة التي لم تكن له في البداية الا على أهله ، وسلطة هذا الشيخ جد محددة فيما يختص بالأفراد ، لكن نفوذه كبير في الأمور المتصلة بالصالح العام: فهو الذي يقرر السلام كما يقرر الحرب، وهو حق خطر مالم يمنعه صالحه الخاص - وهو مرتبط بشكل حميم بصالح قبيلته - من اساءة استعماله . وهو لا يتقاضى أى راتب عن وظيفته ، ويتكون دخله - شأنه شأن بقية العربان - من منتجات قطعانه ، ومن الزراعة الوقتية لبعض

(٩) كلمة شيخ معناها عجوز ، ومع ذلك فيمكن اطلاقها على شاب مثل كلمة Senior سند اللاتين التي جعلنا منها كلمة Seigneur

الأراضي ، ومن نصيبه من الأسلاب وضريبة المكوس التي تدفعها القوافل التي تمر من أرض قبيلته . وتنظم سلطته طبقا للعادة ، وليست ثمة قوانين يحددها بشكل قاطع ، ولكن ، إذا ما دفعته نزواته ، وكثرة اصدقائه وخدمه على اسساءه استخدام هذه السلطة وجعلته في نفس الوقت بمنأى عن الانتقام ، وهو الأمر الذي تجلعه حياة الصحراء ميسورا على الذبن وقع الحيف عليهم ، فأننا نرى على الفور جمهرة من العائلات تنفصل عنه لتنضم الى قبائل أخرى . وبهذه الطريقة ، اندثرت في بعض الأحيان قبائل كانت كبيرة العدد ، وانتهى بها الأمر أن اختفت بشكل نهائي ، بينما تضاعف عدد قبائل أخرى في وقت سريع وهي التي لم تكن تحظى بأى نصيب من الشهرة .

وكما أطلنا التفكير ، كلما تبينت لنا قلة وسائل التفرج في حكومة المشايخ ، حيث لا توجد في مخيماتهم سجون يمكن أن يزج إليها بالبراءة الطليقة لتجاور الجريمة البشعة ، كما أنه ليست ثمة سراى يستطيع الحاكم فيها أن يخفى أفعاله عن كل الأنظار ، ويمضى الشيخ العربي حياته في الهواء الطلق دون حرس ودون موكب ، ويشهد على كل أحاديثه ، وكل فعالة جميع رجال القبيلة ، فهو اذن لا يستطيع أن يخفى شيئا عن رقابة الرأي العام ، كما لا يستطيع أن يغطى على سوءه من مساوئ سلطته تحت قناع الصالح العام . كما أن رعاياه ليسوا عديدين لحد يستطيع معه عن طريق لعبة اقتسام المصالح أن يضرب البعض ببعض الآخر .

ولا تختلف الحياة الخاصة للشيخ عن حياة بقية العربان الا في غذاء أوفر لحد ضئيل ، وفي ملابس أفضل وأسلحة أكثر انقياء : ومهما يكن له من خدم فأنك لتراه بنظف سلاحه ، ويقدم الطعام لخله ويسرجها بنفسه ، وتعد له زوجاته وبناته وجبات طعامه ، وهن يغزلن ملابسهن ويغسلنهن وسط المخيم ، ويذهبن حاملات الجرار لجلبن المياه من العين المجاورة ، أو لجلبن لبن القطيع . تلك كانت تقاليدهم القديمة التي لم يهمل هوميروس تصويرها باخلاص ، وتلك حتى اليوم هي حياتهم الأبوية التي لا يزال سفر النكويين يحتفظ لنا بلوحاتها البسيطة والشيقة .

قلنا ان كل قبيلة تحمل اسم شيخها ، لكن تسميتها بهذا الاسم تعود الى وقت تكوينها ، او تعود الى احدى الفترات الهامة التي مرت بها . لان هذا الاسم لا يتغير مطلقا من جيل لآخر ، فالاسم يبقى هو نفس الاسم ، حتى يأتى شيخ يستطيع ان يصنع لنفسه ، بفضل حكمته ومواهبه العسكرية ، شهرة تمجو شهرة أسلافه ، ويصبح رعاياه تحت حكمته أكثر ثراء وأكثر عددا وأكثر هيبة ، ويجعل منهم على نحو ما شعبا جديدا . . هنا بأخذ أتباعه يتعودون شيئا فشيئا أن يشيروا الى أنفسهم باسم ذلك الرجل الذى أخرجهم من الظلام ، وسرعان ما ينتهى الأمر بهذا الاسم أن يحل كلية محل الاسم الذى كان لهم فيما سبق .

ويوضع عادة امام اسم كل قبيلة كلمة بنى وهى تعنى ابناء . وهكذا فبدلا من أن تقول قبيلة واصل تقول قبيلة بنى واصل . واسم الابن هذا الذى ينخذه كل العرب بلا تمييز ، هو فى نفس الوقت سلسلة فى حكومة أبوية يخضعون لها : ياله من بون شاسع بين هذا الاسم ، وبين اسم العبد الذى نستخدمه غالبية الشعوب !

وتقدم الخلافات من كل نوع الى محكمة الشيخ ، لكن سلطة الشيخ هى بالأحرى سلطة حكم أكثر منها سلطة قاض . ومهما كانت الجريمة خطيرة ، فانه نادرا ما يصدر حكما بالموت .

واليكم الصيغة المتبعة فى هذه الأحوال : يتوجه امرؤ الى الشيخ طالبا اليه التماس . ويجلس الشيخ على عقبه على طريقة أهل البلد ، وإمامه يجلس المتناضون على نفس طريقتة ، ويطلب الشيخ اليهم نزع الحجر الذى يحملونه عادة فى حزامهم ويضعه على الأرض ، ثم بنصت الى ادعاءات كل منهم ، فاذا مرفض التدبير الذى أشار به فانه يستدعى اليه شخصية او شخصيتين نحظيان بالاحترام بحكم سنهما وأخلاقيهما ، ويعرض القضية ثم يدعوهما الى ابداء الراى ويستطيع الشيخ أن يستنسر مسنين آخرين اذا اقتضى الأمر ، لكن من النادر أن يتسع الأمر لهذا الحد ، وعادة ما ينبرى الحضور الذين جذبهم الفضول الى مكان المناقشات للطرف العنيد وبصحبته معهم وهم يقولون : هيا ، انت مخطىء ، فقد جانبك الصواب ، انصرف ، انصرف . . وبدون وهم

يقولون له ذلك بمظهر الأصحاء الملائمين الذين يريدون أن يحصلوا عن طريق اللباقة والرفقة على ما قررته حكمة الشيخوخة ، ولكن اذا ما ظل هذا سادرا فى تبرده ، واذا مارفض الاستجابة للرأى العام ، وهو عندهم بمثابة الحكم الأعلى ، فانه يطرد من القبيلة وتصادر ممتلكاته .

هذا بخصوص القضايا ذات الصبغة المدنية البحتة . أما اذا اختص الأمر بالسرقة أو بأية جنحة أخرى غير اراقة الدم ، أى من نوع تلك الجنح التى تعكر صفو الأمن العام فيما عدا القتل ، فان نفس الاجراءات سوف تتبع ، مع هذا الفارق الوحيد ، وهو انه ما ان يثبت الاتهام حتى ينفذ العقاب على الفور ، ويعاقب المدان عادة بدفع غرامة أو بتلقى عدد معين من ضربات العصا . وهو أمر لا يأنف الشيخ من القيام به أحيانا بنفسه ، ويسارع كل المشاهدين الى معونته ، فيرقدون الرجل المدان على بطنه ، ويعلقون قدميه فى حلقتين من الحديد مثبتتين عند منتصفهما بعصاة ، ويمسك رجلان بطرفى هذه العصا ، ويرفعان سائى المذنب ، وتلمس ركبته الأرض ، ويظهر باطن قدميه فى الهواء بشكل افقى وفى وضع ثابت . وعلى هذا الجزء يتم الضرب بعصا مرنة لحد ما ، أو بنوع من السياط يسمى كبراج مصنوع من جلد الفيل أو جلد فرس النهر .

وتعد المشروبات الكحولية والمواد المسكرة مصدرا لعدد كبير من الجرائم عند الشعوب التى اعتادت عليها ، لكنها عند العرب « حيث هم لا يشربونها » ليست مصدرا لأى جرم ، ويساهم هذا فى الحفاظ على الهدوء فى معسكراتهم .

واذا ما رايت الحدة التى ينفذونها بها لأنفسه الأمور ، فانك ستدهش من ان الضربات لا تعقب هذه الكلمات الحادة ، وتكاد مناقشتهم كلها تمضى فى تبادل المصراخات ، ولعل السبب فى ذلك هو ان رجالا كهؤلاء ، مسلحين على الدوام ، لا يمكنهم الاندفاع فى الشجار دون تقدير منهم لعواقبه ، فنتائج القتل على الدوام خطيرة اذ يكون لاهل القتل ان ينتقموا له ، وفى هذه الحالة يباح الاغتيال . وهكذا يصبح القصاص قانونا مقدسا لا يستطيع الشيخ نفسه أن يتلمص منه . لكن الأمر البشع

فى كل المسألة هو ان القاتل هنا لا يلاحق وحده ، بل يلاحق معه أعمه الأقبون . وعندما يكون لأسرة ما ثارات عليها {القيام بها تجاه أسرة أخرى ، فإنه يقال حينئذ أن بين هاتين العائلتين دما ، ويكون عليهما أن تنفصلا وأن نعيشا فى حالة حرب تستمر فى بعض الأحيان لعدة أجيال، ذلك ان الثار يوجب ثارات أخرى وهكذا ، بل أن موت القاتل نفسه لايتى مطلقا بالهدوء ، واذا ماهلك أحد من آله بسببه فإن الأحقاد تتزايد بدلا من أن تقل . وهذه الممارك الباطنية لا تنتهى ، خاصة اذا ما كانت العائلات المتعادية تنتمى الى قبائل مختلفة لأن القبائل المعنية تتخذ عادة موقف الدفاع بالنسبة لأبنائها ، وتنتج عن ذلك حرب عامة . وثمة حروب من هذا النوع بدأت منذ زمان لا تعيه الذاكرة . ومع ذلك فيمكن — فى بعض الأحيان ، وقبل أن تتعقد الفتنة لأكثر مما يجب — تهدئة العائلة المكلومة بواسطة تقديم هدايا اليها ، تتكون بدرجة اساسية من الماشية ، ويسمى الاتفاق الذى يتم على هذا النحو بالدية أو اعادة شراء الدم . ونرى فى التوراة أن شراء الدم هذا كان معروفا منذ زمن موسى بين القبائل الرحل، التى كان هو مشرعا لها . أما عندما نكون العائلتان المتعاديتان تنتميان الى نفس القبيلة فإن عقد اتفاق الدية يصبح اقرب مثلا . وفى هذه الحالة يستخدم الشيخ وكل مسنى القبيلة كافة نفوذهم .

ويحدث القصاص والدية أيضا بالنسبة للجروح، وللآباء على ابنائهم حق الموت ، ويطبق الرجال هذا العتاب على أى من زوجاتهم أو بناتهم أو أخواتهم تخرج عن سبيل الرشاد .

وليست المبارزة معروفة عند العرب ، وهم يستمضون عن ذلك كما قلنا للتو بالاغتالات ، ويلاحظ الأمر نفسه عند غالبية الشعوب ، قدمها وحديثها على حد سواء ، ذلك أن هذه العادة النبيلة ، عادة تحدى الخصم ومبارزته بسلاح مائل ، وهى العادة التى تجعل من هذا الحقد الشائك والانتقام الشجع نوعا من النزاهة والشجاعة لا تحدث الا عند أمم شمال أوروبا . ومع ذلك ، فإننا نجد فى الواقع ونحو نتصفح التاريخ العربى مثل هذه المبارزات الفريدة التى حدثت عند كل الشعوب — سواء كانت هذه المبارزات بين عدد ضئيل من المحاربين

الذين اوكلت اليهم باتفاق مشترك ، مهمة ان يتولوا وحدهم الدفاع عن مصالح قريتهم ، او سواء بين شخصين شجاعين عند استعراض الجيوش المتعادية لجرد تباه بالشجاعة . لكن مثل هذه الأمور من تمقعة السلاح لا ينبغي أن تختلط بالمبارزة بالشكل الذي نعرفه نحن في اوربا منذ زمان ضارب في القدم كرد على الاهانات الشخصية .

وتقتضى مصالح امن هؤلاء العرب أن يقوم شيوخهم بدراسة اخلاق وطباع حكام الدول المجاورة ، وكنا على الدوام ندهش من صوب احكامهم . وهم يتفاوضون بقدر من الشرف ، ويستطيعون ويعرفون كيف يدافعون عن حقوقهم بمهارة ورقة ودبلوماسية لا يمكن لدبلوماسيينا أن ينكروها . ولكم اتهمناهم بسوء الطوية ولكن هل درينا ما أن كان قد حدث من جانبنا تصرف معاد نحو تلك القبائل الصديقة والتي كان يصعب علينا على الدوام أن نميزها عن تلك القبائل التي كانت ماثزال في حالة حرب معنا ، وما أن كان مثل هذا التصرف من جانبنا هو الذي هيأ لهم اسبابا عادلة لمعاودة حمل السلاح ضدنا ؟ ولقد كنت لمرات عدة شاهدا على مثل هذه الاساءات غير السارة ، واتذكر وسط ذكريات أخرى ، انه حدث عند عبورنا وادي الطميلات مع فصيلة مدفعية : ان قابلت مقدمتنا عند حوالى آخر النهار ، عربيا بدويا يجلس على الارض مع اثنتين من السيدات ، وبالقرب منه كان حصانه وسلاحه ، وغير بعيد من ذلك كانت تبدو بعض البثرات وبعض الخراف ، ولو أن العربى كان قد أخذته المفاجأة ، لكانت ما تزال لديه الفرصة كي يقفز فوق حصانه وينجو بنفسه ، لكنه لم يفعل ، وانما سارع برسم علامة الصداقة لجنودنا وهى عبارة عن تقريب ابهامى كلتا يديه وهو يلفظ : سوا ، سوا ، « معا ، معا » . ولكن هذا من جانبه كان بلا جدوى ، ذلك أن جنودنا — وقد حرصهم على ذلك انكشارى تركى كان يعمل مرشدا لنا — قد شتموه وشتموا نساءه وجروا خلف ماشيته . واضطرته طلقة بندقيته صويت اليه ان يقرر الهرب ، فاندفع بهمة الى داخل الصحراء وهو يذود عن نفسه بسلاحه ضد أولئك الذين يحدقون به ، وأطلقت عليه طلقات عديدة من البنادق لكنه لم يصب بأذى . واسرع صوب البنادق هذا من خطو بقية الفرقة ، وكنت على حصانى وتقدمت

« الجميع ، وسرعان ما وصلت الى المقدمة . وبينما أنا أستعلم عما حدث ، أشار خادمي المصرى بيده الى المراتين ثم قال لهما :

« توجهنا الى هذا الرجل وهو كفيل بحمايتكما » فهرعنا على التو نحوى وقبلنا طرف رداى ، فطمأنتهما وتوصلت مع بقية الضباط الذين وصلوا معى الى تسوية الأمر ، وحيث أن الانكشارى الذى تحدثت عنه قد أكد أن البدوى الذى فر ينتمى الى قبيلة معادية فقد استنولينا على قطيعه . وصحبنا السيدتين لنسليمهما الى شيخ أول قرية سننبرها . وفى أثناء ما تبقى من طريقنا لاحظت أن انكشارينا يجرى الجنود على عدم استخدام الرحمة مع أسيرينا ، وكان يريد أن ينتزع من هاتين البائستين الأشياء القليلة التى كانت معهما . واضطرت أن أتوعده بمقاسب قاس كى أجعله يكف عن اضطهاده الجبان لهما . وعندما حل الليل توقفنا ، وبينما نحن نوشك على أن نغادر خيامنا ، شاهدنا مشايخ الطميلات قادمين ، وكانت هذه القبيلة فى ذلك الوقت فى سلم معنا . وكان معهم ذلك البدوى الذى هاجمنا به البارحة ، وشكوا لنا فى لهجة معتدلة اعتداعنا الظالم على رجل لم يكن يحق لنا أن نعتدى عليه . واسرعنا نوجه اليهم كل الترضيات الواجبة وأعيدت الى المراتين معظم مجوهراتهما التى كان الانكشارى قد سلبها إياهما ، وتلقى هو على الفور ، وفى حضرة البدو عددا محددا من الضربات بالعصا ، وأعيدت الماشية أو دفع تعويض عنها ، وبعد أن تناول الشيوخ العرب بعض أقداح القهوة معنا عادوا بالغى السرور . لكننى هنا أتساءل: لو أن هؤلاء البدو كانوا قد ذبحوا أفراد جنودنا الذين كان من الممكن أن يقابلوهم بمنزولين ، بدلا من أن يأتوا إلينا ليثبونا صراحه شكواهم . . ألم نكن سننتهمهم عندئذ بالخيانة ، بينما هم لم يفعلوا سوى أن انتقموا منا؟

وعندما يتم السلام بين قبيلتين يتبادل الشيوخ الهدايا ، ولهذه الرسميات سطوتها . وعندما يتعامل حكام أجانب مع العرب فانهم يعنون بالامتنال لهذا الأمر . ومن المعتاد كذلك فى مناسبة مماثلة أن ياكلوا معا وهو مايسى بتحالف أو اتفاق الخبز والملح وهو أمانة على صداقة لن تهدر . وإيا كانت مكانة الشخص الذى تلقى من عربى أقل طعام فانه سيكون واثقا انه سينال احترام كل القبيلة .

ولقدينا على ذلك الوف الأمثلة من الأسرى الذين أخذوهم منا إذ كانت تتوقف أساءة معاملتهم إياهم منذ اللحظة التي ياكلون فيها معهم ، وأقرر في هذا الخصوص واقعة سجلها المسيو دينون في مؤلفه ، وقد سمعت من يتحسدون عنها بعد قليل من حدوثها . منذ عدة أشهر طويلة كان لدى بعض العربان أسير هو ضابط فرنسي . . وفجأة ظهرت إحدى وحداتنا على مقربة من مخيمهم . . وتفرق العربان على الفور داخل الصحراء وقد أخذهم الفرع وأصبح كل ما يمتلكونه مريسة للمنتصر ، ووجد شيخهم نفسه — بعد أن هام على وجهه — وحيدا مع أسيره وسط الصحراء ولم يعد معه سوى قطعة خبز هي كل طعامه ، ولابد أن قلبه كان مفعما بالنتمة على الفرنسيين ، الذين تسببوا في كل ما أصابه من آلام ، ومع ذلك فقد اقتسم مع ذلك الفرنسي الذي كان في حوزته ، قطعة الخبز الوحيدة التي بقيت له ، وقال له : ربما سأحتاج إليها غدا ، لكنى لا اتحمل لوم نفسى لنفسى لو تركتك تموت من الجوع لأضمن أنا وجودى .

إن مثل هذه الأخلاق والطباع لتشرف الإنسانية بأسرها ، ولا ينبغي علينا بالمثل أن نسئ القول في حق أمة تضم رجالا بمثل هذا الكرم بين أبنائها . لكن السوءات هي التي نستمرى انتباهنا بشدة بينها تفوتنا الفضائل ! وفضلا عن ذلك فإن الفضائل لا يمكن أن تكون هي نفسها عند كل الشعوب ! فالحدث الفاضل هو ذلك الحدث الذي يكون مفيدا بشكل مباشر أو غير مباشر للمجتمع الذي يطريه . وليس هناك من هذه الفضائل إلا عدد ضئيل يمكنه أن ينال امتداح كل الناس بدون تمييز .

فنعندنا على سبيل المثال ، لا يتعرض المسافر المولود في بلد هو في حالة حرب معنا لأن يقتل أو يسلب ، ذلك أن مصالحنا تحملنا على استقبال الأجانب وحمايتهم وأن نبسط علاقتنا معهم . لكن العكس من ذلك هو ما يصدق على الصحراء فإن أى رجل ليس حليفا للقبيلة ، سوف يجرد من أمتعته ، بل ويقتل أحيانا على يد العربان الذين يقابلونه ، والعربى الذى يحظى بتقدير أكبر هو الذى يستطيع أن ينتزع أكبر قدر من الأسلاب لأن السلب بشكل واحد من أهم دخول قومهم . ومع ذلك ،

فحيث أنهم بدورهم يتعرضون لنفس المخاطر ، ويجدون أنفسهم في بعض الأحيان في حاجة الى مأوى عند أعدائهم أنفسهم ، فان البدو قد جعلوا من كرم الضيافة أول واجباتهم ، ولا بد أن نقر بأنهم يمارسونها بسخاء لا يعرف في مكان آخر : فالأجنبي الذي استطاع أن يصل الى خيامهم أو حتى يلمس عتبة خيمتهم لن يناله فقط أى أذى — بل انه — وكما كان يحدث في زمن إبراهيم — سيحصل دون أجر على طعامه بل أن القبيلة بأكملها قد تتحمل مخاطر حرب خطيرة دون أن تسلمه الى أعدائه . وقد حدث لى ، كما حدث لكثيرين غيرى من أعضاء الحملة ، أن سافرنا وحدنا مع عربان وبقينا بينهم شهورا عدة دون أن يكون لدينا على الإطلاق ما نندم منه على تقفنا بهم .

وبخلاف السحالف الخاص بين قبيلة وأخرى ، توجد تلك العصب الكبيرة التي تعترف بواحد من مشايخ هذا التجمع على أنه شيخها الأوحد ، وتأخذ هذه العصب اسما مميزا ، مثال ذلك ما يحدث في مصر السفلى حيث توجد اثنتان : الأولى تسمى : سعد والثانية تسمى : حرام .

وقلما يقال للعربي البدوى الا وهو يمتطى حصانه ، وهو مسلح عادة بسيف بالغ القصر وخنجر وحربة طويلة كما يكون في غالب الأمر مسلحا برمح وكمية من الأسلحة التي يعلقها في قوس سرجه ، وفي بعض الأحيان يستعيز من رمحه ببندقية كبيرة يستخدمها بمهارة حتى عندما يعذو به حصانه ، رافعا يده دون أن يترك عنان فرسه بطريقة يستطيع بها أن يثبت سلاحه وأن يصوبه كما لو كان راجلا ، وبالرغم من أنه مدرب على القاء حربته لأبعد مدى وبدقة شديدة فانه من النادر مع ذلك أن يتخلى عنها في المعركة ، فهو يمسك بها عادة بالقرب من سهمها ، ويرمى بها بقوة تاركا اياها تنزلق من يده دون أن يتخلص منها كلية وبحركة معاكسة يستعيدها سريعا الى وضعها الأول وحيث أن كفاءته كفارس اكبر منها عن درجة تباهيه بسلاحه ، فانه يحرص على اتخاذ الجانب الأيسر من خصمه ، وهو يحوم حوله ويتفادى ضرباته هاربا بحصانه الذى تخدمه مرونته المذهلة بشكل رائع في تلك المعارك التي يلتحم فيها المقاتلون .

ويصنع البدو بأنفسهم البارود الذى يستخدمونه وهو ردىء ،
وتزيد فيه على الدوام نسبة الفحم بدرجة أكبر مما ينبغى . وليست
لديهم مدفعية ، فالمدفعية حسب أسلوبهم فى القتال ليست مفيدة
بالنسبة لهم ، وإذا ما اضطروا للنجح فانهم بهاجمون كرماء ، ويتم هذا
دون أدنى نظام ، فكل منهم يتخذ مكانه حسب هواه . وليست معاركهم الا
تلاحمات ، اذ يبادر اكثرهم شجاعة بالاندفاع نحو الخصم ، ويثير بذلك
حمية رفاقه . وهذا هو واجب الثائد عندهم ، وهو الوحيد الذى
تسمع أوامره ، وسرعان ماينم احراز النصر ، ويتفرق المهزومون فى
الصحراء ، ويحميهم الليل من ملاحقة أعدائهم .

وإذا ما دارت معركة على مشهد من المخيم ، أو اذا كانت مع الفريقين
أسرهم ، فانك ترى النساء والفتيات ، جماعات جماعات ، بدتقن طبولهن
ويثرن بصرخاتهن وأغنياتهن حمية المقاتلين : ووسط كل هذه الضجة ،
لا يكون عليهن أن يخشين بأسا . فالجميع يحترمون ضعفهن .

ولا يهاجم العربان مطلقا أثناء الليل ، وينلخص ناكيتيهم فى مفاجأة
العدو بانتفاضات سريعة وهجمات غير متوقعة ، وفى نصب الكمائن
له ومناوشته لانهاكه عندما يكون هو الأقوى ، وهم فى هذه الحالة
لا يتخرجون من أن يفروا ، ليعيدوا حشد سلاحهم وهم يجرون بأقصى
سرعة ثم يعودون الى المعركة حيث لا يكون ذلك موقعا . والويل لأولئك
الذين يتعمدون من أعدائهم عن فرقتهم ! لكم شاهدت فرنسيين
يختطفون وهم على مدى مرمى بنادق زملائهم ، ثم جردوا وذبحوا أمام
فرقتنا قبل أن يكون لدى زملائهم الوقت لنجدتهم .

وكم دهشنا ، ونحن نراهم يهربون أمامنا على الرغم من نفوذهم
المددى علينا فى حين أننا شاهدناهم فى مرات أخرى وعلى العكس
من ذلك يهاجموننا بشراسة برغم أنهم كانوا فى موقف أضعف بالنسبة
لنا ، وتفسير ذلك أنه لم يكن مع جنودنا فى الحالات الأولى أى أمتعة
يمكن لها أن تغرى عدوا لا يقاتل الا للحصول على مغنم ، بينما كنا فى
الحالات الأخرى نصحب قوافل تثير لعاب شهيتهم التى لا تشبع ، ذلك
أنه لا ينبغى علينا أن ننظر للعربان مثلما ننظر للأمم الأوروبية ! فالدول
الأوروبية تسمى منتصرا من ساد ميدان القتال ، بينما من الممكن عند

العرب أن يعد نصرا أن تلوذ بالفرار بشرط ألا تفقد من الرجال إلا أقل مما تفقد العدو ، وبشرط أن نحصل على بعض الأسلاب . وكثيرا ماأخذنا فيهم ، فقد كنا نزن جباننا ذلك الذى يهرب منا بينما هم ينظرون اليه فى معسكرهم — ربما — على أنه بطل .

وحيث ليست لديهم لا مدفعية ولا مشاة فإن أقل سور كفىل بايقاف زحفهم ، لذلك فإن معظم المدن فى مصر ، قد أحاطت نفسها — حتى نحى من غاراتهم — بسور عال يبلغ سمكه طوية واحدة ، ويكنى ذلك كى يجعل من الأمر فى نظر العربان حصنا لا يمكن الاستيلاء عليه إلا باستخدام القوة المسلحة ، عندئذ يضطرون للقيام بحصار المكان ، وهو نوع من الممارك لايتفق مع تلهفهم وعجلتهم، لذلك فأنهم سرعان مايوافقون على الاعتماد فى قتال الحصول على بعض الهدايا .

ولنفس هذا الغرض يقيم الفلاحون فى هذه البلاد ، هنا وهناك، وسط الحقول المزروعة أحواضا من الطين على شكل أبراج يعلوها سطح مزود بمنراس . ويزرع هؤلاء البؤساء وعيونهم يقطنة : وهم لا يتركون سلاحهم مطلقا ، ويزرعون وهم يرتجفون بك الأرض النى عليها أن تطعمهم ، وما أن يلمحوا البدو قادمين حتى يسوقوا — على وجه السرعة — حيواناتهم إلى أكثر الأبراج قربا ، ويتسلقونه على درجات صغيرة محفورة فى جسمه الخارجى ، ومن سطح هذا البرج يذودون عن ممتلكاتهم ويبعدون عدوهم بطلقات البنادق .

وعندما تقوم حرب بين قبيلة وأخرى فإن العرب لا يتخذون مطلقا من أسراهم عبيدا ، فهم يطلقون سراهم بعد أن يسلبوهم امتعتهم ، وإذا ما استبقوا بعضهم فأنما ليتخذوا منهم رهائن ، لكنهم لا يسلكون نفس المسالك مع الأجناس الأخرى وإنما هم فى هذه الحالة كذلك — يحتفظون بعدد قليل من الأسرى ، لكن هؤلاء الأسرى يكونون بمثابة عبيد . يستخدمون فى أعمال البيت وبخاصة فى طحن الحبوب ، وهذا النوع من العمل يضعهم مباشرة تحت إمرة النساء فى القبيلة : ونستطيع أن نميزهم عن العبيد المشترين ، وهم كذلك قليلو العدد — هؤلاء الآخرون زواج فى غالب الأحيان ، يشترون وهم صغار ، ويعاملون بقدر من الرأفة كما لو كانت تربطهم بالقبيلة روابط الدم . وعندما يصسبحون

كبارا ، يتبعون ساداتهم الى الحروب ويحصلون في الغالب على حريتهم
مكافاة لهم على شجاعتهم ، ويحصلون كذلك على عطاء من الامتعة الضرورية
لحالتهم الجديدة ، بل انهم في بعض الأحيان يقتسمون نركة سيدهم مع
ابنائهم ، وفي معظم الأحوال يعترف بهم كورثة وحيدين لساداتهم اذا
لم يكن (١٠) لهؤلاء الآخرين أبناء ، حتى ولو كان لهم اهل عديدون وعندما
يصبحون أفرادا في القبيلة ، يكون بمقدورهم أن يتوصلوا هم وأحفادهم
الى مرتبة الشيخ . وبهذا يكون الأمر هنا أقرب الى التبنى منه
الى العبودية .

وأخيرا فان البدو لا يرغمون الأسرى الذين يحصلون عليهم في
الحروب على اعتناق الاسلام لكنهم يرغمون على ذلك العبيد الذين
يشترونهم . ولا يعنى الأمر انهم شديدون التدقيق في مسألة الدين ،
فقلما يكون هؤلاء مسلمين الا بالاسم ، وتنظر اليهم بقية الشعوب التي
ندين بهذه الديانة على انهم غير مؤمنين . والختان ، هو الممارسة
الدينية الوحيدة التي تحظى بالاحترام بينهم ، ومن المعروف انها كانت
تمارس قبل مولد محمد « صلى الله عليه وسلم » بزمان طويل . أما الوضع
الذي أمر به هذا النبي فلا يمكن المواظبة عليه في الصحراوات حيث
المياه نادرة وثمينة لحد كبير . وعلى الرغم من أن القرآن قد فرض
الصلاة خمس مرات في اليوم الواحد ، فان هؤلاء لا يؤدون الصلاة في
معظم الأحيان الا مرة عند شروق الشمس ومرة أخرى عند الغروب .
بل وربما كانوا يخلطون بين ذلك وبين التقديس الذي يولونه لكل النجوم ،
ولعل ذلك شيء قد بقي من ديانتهم القديمة تلك التي كانت بسيطة
بقدر ما كانت طبيعية . وهم يعبدون كائنا ساميا ، وينظرون الى
الاجسام السماوية كوسطاء بينهم وبينه وهي التي تبدو وسط سماء بهذا
الجمال وعلى هذه الدرجة من الصفاء وكأنها تدل على عظمة الله
التي تتبدى هنا بقدر من الروعة أكبر مما تبدو به في بقية مظاهر
الطبيعة (١١) .

(١٠) نجد في التوراة عادات مشابهة ، فقد كان ابراهيم ينظر الى
ابن خادمه كوارثه الوحيد قبل أن تجعل منه هاجر أبا (سفر التكوين ،
الاصحاح الخامس ، الآية ٣٧) على الرغم من أن ابراهيم كان ينتمى الى
اسرة كبيرة العدد .

ولا يرى مطلقاً في معسكرات العربان مكان مخصص للصلاة . فكل امرئ يؤديها حيث شاء . ويسلك في هذا الأمر على النحو الذي سمع به ، اذ ليس ثمة رجال دين او ائمة على الاطلاق ، ولكن ثمة قاضيا ، وان كان هذا الفقيه الذي ينبغي أن يحفظ القرآن ويعرف القوانين والتفاسير لا يعرف حتى القراءة . يقول شيخ القبيلة لأحد العربان : انت قاض . فيكون كذلك . ولتد أخذوا بهذه الاجراءات بدافع سياسي ولارضاء جيرانهم ، لكن ما يميزهم على وجه الخصوص عن بقية المسلمين هو أنهم لا يكونون لا حقدا ولا احتقارا للأديان الأخرى ، بل ويقال انه لا تزال توجد داخل الجزيرة العربية قبائل يهودية ينظر إليها أبناء البدو المسلمين ، على أنهم اخوة لهم .

وفي بعض الأحيان ، ومن المستحسن أن يحدث ذلك فوق الأماكن المرتفعة ، يذبح العربان خروفا او جملا صغرا ، وبذكر اسم الله ، ويوزعون على الفقراء جزءا من لحم الضحية (١٢) .

وتوقير المسلمين للحيثية أمر شائع ، ولا يستطيع العبيد ان يطلقوا لحاهم . وحلاقة ذقن رجل حر أمر مهين لكرامته : لذلك يقسم البدو بلحاهم وهم ممسكون بها بأيديهم ، وفي احيان أخرى يقسمون براسهم ، لكن أكثر الايمان تقديسا وأكثرها قوة ، هو القسم الذي لا يلجأون اليه الا في الحالات ذات الأهمية القصوى ، ويلفظ به مع رفع طرف الرداء والامساك ببعضو التذكير ، وعادة القسم بالأعضاء التناسلية يعود الى زمن جد بعيد فلقد قال ابراهيم لخدمه « ضع يدك تحت فخذي ، واتسم أن تذهب الى بلاد ما بين النهرين لتتخذ زوجة لاسحاق ابني » *

(١٢) ذبح الأضحيات فوق الأماكن المرتفعة تقليد شائع عند العرب منذ الأزمنة الضاربة في القدم ، فعلى أحد الجبال قاد أحد شيوخهم ابنه ، لكي يذبحه قربانا الى الله (سفر التكوين ، الاصحاح الـ ٢٢) وتقدم التوراة العديد من الأمثلة المشابهة .

* هذه ترجمة للنص الفرنسي واليك النص كما جاء في التوراة :
« وقال ابراهيم لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له ، ضع يدك تحت فخذي ، فأستحلفك بالرب اله السماء واله الأرض الا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين انا ساكن بينهم ، بل الى ارضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني اسحاق » — وهكذا تزوج اسحاق من رفقة بنت بتوئيل ابن أخى ابراهيم — سفر التكوين — الاصحاح الرابع والعشرون .
(المترجم)

وللتعاويز والتمايم نفوذها الكبير على العقليّة الساذجة لهؤلاء القوم البسطاء ، حيث يحمل الكثيرون منهم كيسا صغيرا من الجلد ، مدلى فى رقبتة أو تحت إبطه ، ويحتوى على قطعة من الورق كتبت عليها كلمات غامضة على يد درويش بل وفى كثير من الأحيان على يد مسيحيين أو يهود وهم الذين ينظر اليهم البدو على أنهم أكثر علما من المسلمين فى تلك الأمور التى تتصل بالتمايم والرقى . وقد شاهدت بعضا منهم يحملون كذلك بعض أحجار عليها نقوش بحروف كوفية لا يفهمونها على الإطلاق بل وكذلك بعض التعاويز المصرية القديمة ، وفى النهاية فإنهم يولون ثقتهم الكبيرة فى التميمة التى عملت خصيصا لمرض أصابهم أكثر مما يولون هذه الثقة لكل فنون الطب وأسراره . ويحرصون على وضعها فوق الجزء المصاب من الجسم ، وقد ينير الأمر ضحك البعض ، وأنا مقر بذلك ، ولكن ، هل ينبغى لمثل هذه الأمور أن تثير سخريتنا بينما نحن برغم كل حضارتنا مازلنا أسرى لخرافات مشابهة .

وعندما تنمو شجرة بالقرب من مقبرة ، أو فى أية ظروف قد تضىء عليها نوعا من مظهر المعجزة ، فإنها قد تحمل البدو على الاعتقاد بأن بها روح جنى ، وتصبح منذ ذلك الوقت أمرا مقدسا ، بحيث لا يمكن انتهاك حرمتها بقطع فرع منها أو حتى بقدفها بحجر ، ويلقون بها شعر الرأس وشعر الجسم ومزقا من القماش ، وقطعا من الورق خطت عليها حروف غريبة وكلمات سحرية ، ويأملون من وراء الطقوس التى يصحبون بها هذا الفعل أن يسخروا القدر لصالحهم وأن يوثعوا الضرر والأذى بأعدائهم ، وقد شاهدت وسط الصحراء ، بين القاهرة والسويس ، شجرة ضخمة من أشجار الأكاسيا مغطاة بمزق من القماش ، ويعبر بالقرب من هذه الشجرة عادة القافلة الكبيرة التى تتوجه كل عام الى مكة « للحج » ويقوم العرب بهذا الأمر فى تقديس كبير ، وقلما يفوت الحجاج أن يذروا هناك نذورهم إذا ما كتبت لهم النجاة من أخطار السفر ، وذلك بأن يعلقوا فى فروعها جزءا من ملابسهم .

كنت أود لو أستطيع أن أقدم هنا تفاصيل الحفلات الدينية التى تصاحب عند كل الشعوب بعض المناسبات الهامة فى حياة الناس ، لكنى لن أتحدث هنا - حيث أنى سأقتصر فى هذه الدراسة على الوثائق

التي لمستها وتلك التي تحققت منها بنفسى — عن حفلات الزواج والميلاد،
وتحت بند الأخلاقيات والمعاداة المدنية .

يتزوج العريان فى سن جد مبكرة ، وهم شديدا الغيرة على نساءهم ،
فالخنجر مشرع عند أقل هفوة خيانة ، وهم لا يخفون على الإطلاق نيتهم
فى استعادة أى من نساءهم يقعن سبيا فى الحرب لتضمهن أحضان
المنتصر ، وتستطيع الفتاة التى مرت بهذه المحنة أن تعثر على زوج وكأن
شيئا لم يحدث لها ، ومع ذلك فإن هذه الفتاة فى حالات أخرى ، اذا
لم تبين بكارتها ليلة زفافها — ستطرد الى أهلها مجللة بالخزى ، ويبتظر
هؤلاء الأهل بفارغ الصبر فى خيمة الزوج قطعة القماش المخضبة
بالجم والتي تشهد بتعقل ابنتهم واستقامتها ، بل ويعرضونها أحيانا خارج
الخيمة لأنظار الجمهور ، ثم تطويها الزوجة الشابة بعناية وتحفظ بها
طيلة حياتها .

ولا يعرف شباب العريان هذه السوء شديدة الانتشار لسوء
الحظ فى أوربا والتي تحطم قوى الأخصاب عند ابنائها، وتقضى على البهجة
التي ينبغى أن تقرب بين البشر وتحيل الحياة الى كآبة منفرة ، تصيب
صاحبها بالانطواء ، وقتامة المزاج وتجعل منه أنانيا فظا وتتسبب
له فى أمراض الوهن والعجز القاسية بل وإلى موت مؤس مالم يؤد حب
النساء الى علاج سريع له ، لكن هذه السوء تحل محلها هنا سوء
أخرى عرفت فى الماضى عند اليونان ، وكانت شائعة فى كل الأمم
الرعوية ، تلك هى عادة أن يتبادلوا الحب فيما بينهم ويحدث هذا على
وجه الخصوص أثناء مسيراتهم الطويلة حيث ليس ثمة من مجتمع يحيط
بهم سوى طعانهم .. وهناك ، يغمسون فى أمور تبعث على الخجل .

ويؤدى الزواج الى اختفاء أو على الأقل الى التخفيف من هذه الملائد
الائمة . والعريان كما سبق القول يتزوجون فى سن جد مبكرة ، وليس
ثمة ما يملونه أكثر من الحصول على الكثير من الأطفال فتلك هى
الوسيلة الأكيدة للنفوذ والثروة . ومولد طفل ، هو حدث يملؤهم
بالفرح الطاغى ، ويسبب هذا الحب الأبوى الكبير فانهم يضيفون
الى اسمهم اسم مولودهم : فاذا كان الأب يسمى محمدا وابنه يسمى

علما فان اسم الاول يصبح هكذا : محمد ابو على ، او ابو على فقط ،
وهو ما يعنى والد على .

ويحبل الشبان من جانبهم اعظم احترام لواهبهم الحياة ، كما
سحرمون كل الشيوخ على وجه العموم ، فينهضون عند قدومهم ، وينصتون
اليهم باحترام شديد . بل وبكفون عن التدخين فى حضرتهم الا اذا طلب
اليهم ان يواصلوا التدخين . وهكذا تتأسس حكومة القبيلة على هذا
الخضوع التلقائى لحكمة السنن وخبرة الأيام ، وعلى حب الآباء
لابنائهم .. وهذا هو ما سبق ان لاحظنا من قبل حول هذا الموضوع .

والعربان رشيقتو الاجسام ، خفيفوا الحركة اكثر من كونهم اشداء ،
تتميز اجسامهم بالنحافة ، لكنها نحافة الصحة ، وثمة نوع من التشابه
الكبير فى شكل قامتهم ، اذ قلما تشذ عن طول يتراوح من خمسة اقدام
وبوصفين الى خمسة اقدام واربع بوصات ، ولا نرى بينهم مطلقا
— كما نرى عندما — اقزاما الى جوار عمالقة ، او متعددين الى جانب
اشداء مفتولى العضل كما لا يرى بينهم على الاطلاق من هو كسيح منذ
مولده .. فهناك تتقارب القوى الفيزيائية ، كما تتقارب الصفات
الاخلاقية والعادات الاجتماعية بقدر من المساواة لا مثيل له فى مكان
آخر من العالم .

والعربان بيض الوجوه : لكن الشمس لوحث بشرتهم لحد كبير ،
حيث يشمد اثرها اذ تنعكس اشعتها بفعل الرمال : ولون لحيتهم وشعرهم
وعيونهم اسود ، اما اسنانهم فناعمة البياض متناسقة ، فى العادة ،
وجميلة وملحمهم روحانى ورقابهم كثرة العضل ، واكتافهم وصدورهم
مریضة ، لكن الركبة كبيرة بعض الشيء ، ولعل هذا قد نتج عن
طريقتهم فى الجلوس على الأرض حيث يشابك سيقانهم من تحتهم .

وعيون النساء اكثر اتساعا من عيون الرجال لكنها سوداء بالمثل ،
كذلك فان اسنانهم بيضاء متناسقة . وقامتون هيفاء مرنة ، اما اذرعهم
وايديهم وسيقانهم واقدامهم فعلى درجة من الجمال تصلح معها اية
واحدة ففهن ان سعد انموذجا « موديل » ، لكن ملامحهن فيما عدا عيونهن
قليلة التعبير ، تنقصها الحيوية ، وهو امر ينبغى ان نعود به نون جدال

الى عادة اخفاء الوجه تحت النقاب بعناية لا بولبها لى جزء آخر من جسمهن ، وانفهن كبير ، وفمهن واسع ، وتصبح الكثرات منهن تبهجات بالفعل عندما يغطين وجوههن بوشم يجعلهن قريبات الشبه بهنود امريكا.

وسرعان ما تتهدل صدورهن ، وهو الذى كان ناضجا وجملا عندما كانت المرأة ما تزال فتاة فى سن العاشرة او الثانية عشرة ، وما ان تتجب الواحدة منهن طفلا حتى يستطيل صدرها بدرجة كبيرة ، ومما يساعد فى تشويهه اكثر فاكثر انهن لا يبذلن اية عناية لحمله او اخفائه ، لذلك فالجيلات من نسائهن فى حكم النادرات ، ومع ذلك فهناك بعض الجيلات يمكن لك ان تلمحهن وبخاصة بين صغيرات السن منهن .

وتتميز هؤلاء النسوة جميعا بخصوبة هائلة ، وعندما لا ينجب سيدة متزوجة فانها تلقى الاحتقار ولا يتردد زوجها فى تطليقها ، او على الاقل ، فى اتخاذ زوجة اخرى ، ذلك ان الطلاق وتمدد الزوجات امران مسموح بهما .

ومن اصعب الامور عليك ان تستطيع تمييز شيوخ العرب من شبانهم عن طريق ملابسهم ، فهم يرتدون بصفة اساسية اقل هذه الملابس خشونة وتنفيرا ، اصف الى ذلك ان رداء العربان لا ينفير ، على الاطلاق ، اذ يظل هو نفس ما كانه فى الازمنة الخوالى ، وينبغى ان يقود هذا الى الاعتقاد بان الامر انما هو نوع من التقدير الذى تحظى به الشيخوخة ، اما عندنا ، فعلى العكس من ذلك ، فاهواء الموضة تتغير كل يوم . . ومن ثم تاتى سن معينة يجد المرء نفسه فيها لايسغى اهواء « موضة » جديدة ، فيثبت على بذلة لا تعود تتغير طيلة السنوات الاخيرة من عمره ، لذلك فسرعان ما تعد ملابسهم مضحكة حيث يكون الشباب وهو الذى يبعث البهجة فى كل شىء ، قد كف عن استخدامها . ومن جهة اخرى فان الموضة فى اوربا لا تؤدى فقط الى تنويع الملابس ، بل انها تبسط سطوتها على كل ضروب الحياة ، وينتج عن ذلك فى غالب الاحيان تناقض قاس بين الشباب وبين الشيخوخة ! فملابس الالباء تبدو فى عين الابناء مضحكة ، بينما لا يكف الالباء عن انتقاد الزمن الحاضر ولا يملون من الاسف على الزمن الذى فات ، ويتبادلون فيها

بينهم الماراة فيقولون : غيبا مضى كنا نفعل كذا .. وهذه الكلمات التي قد يلفظها البعض بسخريه ومد يلفظها الآخرون بأسى ، يبدو كما لو كانت تعيد الى الأذهان ذكرى زمن سابق على الوقت الحاضر بقرون عدة ، بينما هى فى اغلب الأحيان لا تتعلق الا بفترة مضت منذ حوالى العشرين عاما . لكن الأمر ليس نفس الأمر عند أهم الشرق ، فالعادات ثابتة لا تحول . يقول العرب هكذا كان يفعل آبائنا وعلمنا أن نحذوا حذوهم . ومع ذلك فلا بد أن ننتفى على أنه اذا كان مثل هذا الأمر فى معظم الأحيان ، افضل من ذلك التغير الذى يحدث بلا انقطاع شأن له أيضا عيوبه ! ذلك ان شيئا لن ينطور بمرور الوقت .

ويرتدى العربان جلبابا بالاع الاتساع من التماش أو من الصوف ، وهم يشدون حول وسطهم بواسطة حزام عريض . ويرتدون تحتها كملايس داخلية سروالا من التيل . وهم يخلقون رعوسهم بالموسى ويغطونها بعمامة ، ويطلقون لحبيهم ، وتظل عارية رقابهم وأذرعهم وسيقانهم . وفى معظم الأحيان يرتدى العربان الذين يقطنون صحراء مصر الغربية فوق ملايسهم معطفا أبيض اللون « عباءة » من تماش صوفى شديد الرقة . وقد شاهدت عربانا آخرين فى مناطق تحيط بمدينة السويس يقفون فوق ظهورهم أثناء الشتاء جلدا ثقيلًا من جلود الخراف يعتقدون قدّميه الأماميتين فوق الصدر ويدلى الذيل الى الأرض وهو الأمر الذى يشبه تمام الشبه تلك الطريقة التى يبدو لنا هرقل بها وهو يرتدى جلد أسد ، ويبدو هذا المعطف البدائى على درجة من الجاذبية والروعة ، أما ملايس السيدات فتكون عادة من رداء طويل يستخدم فى نفس الوقت فستانا ، ومن سروال وعمامة وحجابين ، أولهما وهو الأوسع يوضع فوق الرأس أما الآخر وهو أقل اتساعا فيوضع فوق الوجه أسفل العينين مباشرة ، ويثبت بقصاصتى قماش تعتدان خلف الرأس . وثمة أطواق من الفضة — وهى فى اغلب الأحيان من الزجاج الأزرق — تحيط بالذراعين والساقين أما الحلّى التى يتزين بها ، فهى الخواتم والأقراط المصنوعة من النحاس أو الفضة ونادرا ما تكون من الذهب ، وبعضهن يثقبن إحدى فتحتى الأثف لتتدلى منها حلقة فوق الفم .

ونظن النسوة من كافة الفئات انهن يتزين عندما يصبغن بالأصفر باطن القدمين واليدين « بالحناء » وهو أمر بدا لى على الدوام بالغ القبح ، لكننى سأقول عكس هذا الراى بخصوص عاداتهن فى احاطة جفونهن بخط أسود يمتد قليلا عند ركن الجفنين فقد كان تأثير ذلك على الدوام طيبا بالنسبة لى ، فالعين تكتسب بذلك حيوية وتبدو نجلاء وأكثر اتساعا ، ويمكن أن نستنتج من الخطوط التى نراها محفورة حول عيون التماثيل المصرية ان هذه كانت نفس عادة النسوة فى مصر القديمة .

ومنقولات البدوى كما لابد أن يتخيل المرء تتضائل الى حد الضرورة المباشرة : راحة ، رقيقة من الحديد لتحميم حبوب، القمح أو لانضاج الخبز ، اناء لصنع القهوة « كنكة » ، دلو من الجلد لصب المياه ، بعض القرب ، قصعات من الخشب فناجين صغيرة لشرب البن ، قدر ، حصيرة تستعمل سجادة وفراشا ، وفى بعض الأحيان نول لنسج الأقمشة الخشنة ، الأسلحة التى سبق أن تحدثنا عنها ، ماسورة طولها من ٤ — ٥ أقدام ، قليل من الملابس ، نوع من الماندولين (١٣) طبله وهى عبارة عن اناء من الفخار المحروق لا قاع له ويغطى من احدى فتحتيه بجلد مشدود بقوة .. هذا هو كل ما يضعه على وجه التقريب خيمة البدوى ، وهذه الخيمة ترتفع الى ٥ — ٦ أقدام ، وهى مربعة الشكل ومصنوعة من قماش غامق خشن يصنعه العربان بأنفسهم من وبر الجمال . أما الجزء الخارجى من الخيمة ، وهو الذى يصنع سقفها ، فهو قليل الانحدار ويتخذ فى غالب الأحيان شكلا أفقيا ، ونمة فاصل من نفس القماش يفصل داخل الخيمة حجرة الحريم عن حجرة الرجال .

(١٣) استخدمت كلمتا ماندولين وكمبان ، على الرغم من أن هذه الآلات تختلف كثيرا عن تلك التى تطلق عليها هذه الأسماء فى فرنسا . وقد أطلقت كلمة ماندولين على تلك الآلة التى تهتز أوتارها بواسطة قطعة صغيرة من قرن أو من خشب ، وكلمة كمبان على تلك الآلة التى يعزف على أوتارها بواسطة قوس ، وبإمكان من يرغب فى معرفة هذه الأشياء ، بتفصيل أكثر دقة ، أن يعود الى الدراسات التى نشرها المسيو فيوتو Villoteau عن الموسيقى ، فى نفس هذا المجلد (من الطبعة الأولى الفرنسية والسابع فى الترجمة العربية) .

(م ١٩ — وصف مصر)

وتتناثر كل خيام العرب بلا نظام الواحدة بعد الأخرى ، ولكن فى نفس الوقت بطريقة تجعلها تحوى فيما بينها فراغا فسيحا يستخدم كميدان عام وكمربط للقطعان ، وإذا ما شاعوا أن يرحلوا فإن كل عائلة تعبىء منقولاتها الخفيفة فى قماش خيمتها وتحملها فوق جملها ونساق القطعان فى مقدمة الركب ، يتبعها النسوة والأطفال والشيوخ ، ويسير بعض هؤلاء على قدميه ويمتطى البعض الآخر الجمل أو الحمر ، وهناك بعض الرجال ، على صهوات جيادهم ، يرشدون ويقودون المسيرة ولا شئ يبقى فى المؤخرة ، وسرعان ما تأتى الرياح لتمحو آخر أثر لهذه المدينة المؤقتة .

والعربان قوم بالغو القناعة اذ تكفيهم بضع بلحات وحفنة من القمح أو الشعير المحمص غذاء ليوم كامل : بل لقد رأيت البعض منهم فى أعماق الصحراء يكتفون ببعض من الفول النوى كانوا يأخذونه من طعام جمالهم ، وبأكلونه دون أية تجهيزات سوى أن يكسروه الى قطع صغيرة بواسطة حجر حتى يتمكنوا من مضغه بسهولة أكبر ، وهكذا ، فسدت أوقيات من الطعام أو سبع هى كل ما يستهلكه البدوى من طعام طيلة اليوم فى الصحراء ، وهم يأكلون أكثر من ذلك بقليل عندما يحلون بأرض خصبة ، ومع ذلك فإن زهادنا ، وهم المعتادون على فترات الصيام الطويل ، لا يستطيعون بحال أن يقتربوا من بساطة هؤلاء وقناعتهم ، هؤلاء يشربون أقل من القليل ، ويتحملون العطش لأيام بأكملها ، وبلا جدال فانه نتيجة لهذه القناعة المستمرة فإن اغراضاتهم ، نتيجة لهذه القناعة الدائمة ، جد قليلة (١٤) .

(١٤) يمكن أن يعد انعدام العرق عندهم بشكل مطلق فيما اعتقد واحدا من الأسباب وفى نفس الوقت واحدا من النتائج لقناعتهم ، فإذا كانوا لا يعرقون مطلقا فإن الأمر لا يعود فقط لأنهم يأكلون قليلا وانما لأن جلدتهم يجف بسبب تعرضهم لشمس حارقة ، وهم لا يرتدون الا ملابس شديدة الخفة ، وبسبب جفاف جلودهم وخشونتها تضيق مساهمهم وتسد بشكل تام . وحيث أنهم يتعرضون لقدر قليل من الفقد من طريق العرق فإن حاجتهم للطعام لاستعادة قواهم تقل تبعا لذلك ، لكننى أمسك عن الخوض فى الأمر أكثر من ذلك مفضلا أن أترك الأمر ليحسمه الفسيولوجيون .

واليكم ما يأكله العربان عادة : فطائر صغيرة من الذرة أو القمح لم تنضج لحد كاف ، أرز ، بلح ، عدس ، فول ، لحم ولكن فى أضيق الحدود ، لبن طازج أو رائب ، زبد ، جبن شديد الجفاف ، مالح ولاذع الطعم يصنعونه دوما من لبن الفرس والبقر والجاموس والحمير والماعز بلا تفرقة ، ولا يشربون سوى الماء والبن بدون سكر ، وهم يحولون القمح الى دقيق بواسطة رعى شقائها من حجارة أو يسحقونه ببساطة فى حجر مقعر على شكل مدقة (هاون) ، بنفس الطريقة التى يصنع بها الرسامون ألوانهم .

وبعد عجن الدقيق ، يبسط العجين على سطح من الحديد المحمى من قبل فوق النار داخل حفرة فى الرمال ويغطى الجميع بالرماد الساخن ، ويجذب الخبز قبل أن يبلغ بكثير درجة النضوج التى نعطيها له فى فرنسا . وهذه عادة استمرت فى الصحراء منذ زمن لا يمكن تذكره « انضجوا الخبز تحت الرماد » هكذا كان يقول أبراهام لسارة .

ويستخدم نفس هذا اللوح الحديدى الذى ينضج فوقه الخبز فى تحميص حبوب القمح والشعير التى يأكلها العرب عادة بدلا من الخبز .

أما روث الماشية المجفف فى الشمس ، فهو على وجه التقريب ، الوقود الوحيد الذى يستخدمونه ، ومن العسير عليهم فى الصحراء أن يتزودوا بوقود غيره .

وفى وجبة الاحتفالات يقدم عادة خروف بأكله .

وقد تناولت العشاء ذات يوم مع بعض البدو ، ولقد استخدم هؤلاء لحتى على الطعام وسائل قد لا تقع موقع الاستنكار من أكثرنا تأدبا نحن الأوروبيين وهأنذا أقص هذه الحكاية التى سوف تسهم فى تعريفنا بمضيفى من زوايا عدة :

كنت مكلفا أثناء شتاء العام السابع (١٧٩٩) بعبور وادى التيه ، الذى لم يكن قد سبق لأى من جنودنا أن اجتازوه من قبل . ورحلت من القاهرة مع سرية تتكون من خمسة وعشرين رجلا من المشاة ، وكان مع كل جندى من الخبز مايكفيه لمدة أربعة أيام ، وكان معنا جملان يحملان

المياه التى قدردنا اننا سنحتاج اليها . وعندما وصلنا عند غروب الشمس قرب مدخل الوادى ، على مشارف الأرض المنزرعة ، قررت أن نمضى الليل فى هذا المكان ، وتمدد الجنود على الرمال ، وبينما هم يأكلون خبزهم ، مغموسا فى قليل من الماء ، كان خيالهم الذى استثاره اسم الوادى ، قد جعلهم يتخيلون آلاف المخاطر الخرافية وارادت أن أتبين — يتوجهى الى قرية كنا غير بعيدين عنها ، ما ان كان بمقدورى أن أتزود من هناك بمرشد يدلنا على الطريق : أخذت بنديقتى وسرت وحيدا ، ولكن سرعان ما دفعتنى الرغبة فى التعرف على مدخل الوادى الى القيام بدورة كبيرة ، ابتعدت معها دون ادراك منى عن سريقتى ، وما أن تسلفت بعض التلال التى حجبتهى كلية عن الأنظار . حتى وجدت نفسى فجأة أمام مخيم عربى : فكرت فى الانسحاب لكنى تبينت أن بعض البدو من رابكى الخيول قد قطعوا على كل خط رجعة ، فقررت أن أجعلهم يدفعون ثمن حياتى غاليا . كنت مسلحا بشكل جيد ، اذ كان معى بخلاف بنديقتى المحشوة وسونكيها ، مسدسان ممتازان ، ونادرا ما يحدث أن أخطىء هدفى عند التصويب . شهرت بنديقتى ، لكنى أردت فى نفس الوقت أن أجرب — وأنا رجل جريء صاحب حيلة — ما ان كنت بمستطيع أن أتفادى معركة غير متكافئة لحد كسر ، فأعطيت اشارة للعربان الذين كانوا يحدقون فى أن يقتربوا منى ، وتوجهت فى نفس الوقت اليهم ، بادى الثقة ، وما أن أصبحت على مسافة تكفى كى يسمعوا خلالها صوتى ، حتى طلبت اليهم أن يصحبونى الى شيوخ قبيلتهم لأتحدث اليه . بدأ عليهم أنهم دهشوا لطلبى ، وتبادلوا النظرات فيما بينهم ، فكررت اليهم **بلهجة** حازمة طلبى ، فأشاروا الى أن أتبعهم ، وسرعان ما أصبحنا فى داخل المخيم ، ونبحث الكلاب عند اقترابنا .

كنت أرى هنا وهناك عددا من الخيول المسرجة ، مربوطة بالقرب من الخيام ، ولاحظت فى دهشة أن العديد من النسوة كن يغطين وجوههن بعناية تماثل ما كان يمكن أن تصنعه زوجات الفلاحين فى موقف كهذا . توقفنا أمام خيمة الشيخ التى لم تكن تختلف فى كثير عن بقية الخيام الا فى كونها أكثر اتساعا بعض الشيء . دخلت فى شىء من التوجس ، فوجدت الشيخ ومعه اثنان من العربان ، وهم منهمكون جميعا فى التدخين وشرب البن . كانوا جالسين على الأرض حول قليل

من النار استقر فوقها الغلاى ، وكان دخان هذا الموقد ، وكذلك دخان **النارجيلات** ، بالإضافة الى السحنة الجادة والمهيبة لهؤلاء الرجال الثلاثة ، وكذا المسدسات والخناجر النى كانوا ينسلحون بها . . كان كل هذا يتطابق مع الفكرة التى كانت لدينا عن مغارات اللصوص . . القيت عليهم بتحية الاسلام : السلام عليكم ، فردوا السلام دون أن يخرجوا عما فى أيديهم ، ثم اضافوا وهم يقدمون الى قدحا من القهوة « اجلس واشرب » استجبت على الفور ، ففد كنت أعرف أنه نوع من الحماية لك أن تشرب أو تأكل معهم ، وقتلت للشيخ : « عرفت أنك تعسكر هنا فتركت قافلتى على مسافة وأتيت وحدى بثقة ، طالبا اليك دليلا ليقودنى حتى البحر الأحمر عن طريق وادى النيه ، ويمكنك أن تثق بأنه سينال أجرا طيبا » واضفت : « ليست معى الآن نقود لكننى سأدفع اليه مقدما نصف الأجر الذى سنتفق عليه ما أن أعود الى سريتى » ، فأجابنى « ستحصل على دليل فأنأ فى سلم مع الفرنسيين » وأخبرنى بعد ذلك أن الفرنسيين قد تركوا له أراضى وقرية البساتين التى كان يعسكر بالقرب منها وأن قبيلته هى قبيلة طرابين . وبينما نحن نتحدث ، لاحظت أن نساء الشيخ كن يزحن قليلا حتى يريننى فاصل القماش الذى يفصل حجرتهن عن حجرتنا ، ولابد أنه كان أمرا مثيرا لفضولهن أن يرين واحدا من الفرنسيين الذين قص عليهن بالضرورة محاربوهن مئات الحكايات الخرافية عنهم والذين كانت ملابسهم ولغتهم وأسلحتهم تختلف اختلافا بينا عما تعودن . استأذنت فى الانصراف ، بعد أن تيقنت أن دليلا سيأتى فى الغد ليلحق بى فى المكان الذى أوضحت له ، وعدت الى معسكرى مغتبطا اننى قد توصلت الى هذه النتيجة السارة . وعندما عدت الى القاهرة ، بعد ذلك بشهر . قصصت مغامرتى على كثير من زملائى ، واتفقنا معا على تنظيم رحلة لرؤية هذا المخيم . وفى يوم الرحلة ، كنا اثنى عشر رجلا جبدى النسلح ، نركب جيادا ممتازة ، ويسبقنا سياسنا (سايس)^{١٥} : الذين كانوا حسب عادة أهل البلاد بجرون

(١٥) السياس (سايس) خدم مصريون . وهم فى الوقت نفسه معنسون بأمر الخيل ويجرون بجوار سادبهم وهم لا يعرفون التعب ويحملون معهم فى معظم الأحيان وبخلاف عصاهم بندقية مخدمهم .

على أقدامهم ، وبأيديهم عصى طويلة . سرت وحدى فى المقدمة بى أنزع كل شك من الطرايين حول مشروع زيارتنا .. وعلى الفور ، تعرفوا على ، وعندما وصل زملائي بعد ذلك بقليل ، لقوا ترحيبا طيبا .

وبعد ان استرحنا وتجولنا خلال مخيمهم ، وشربنا معهم بعض أقداح البن ، شرعنا فى الرحيل على الرغم من الحاح كبار القبيلة الذين أرادوا استبقائنا كي نشاركهم الطعام من الخروف الذى ذبحوه عند وصولنا ، لكننا ، بتصنعنا الأوربي ، شكرناهم مدعين أن لدينا أعمالا لا تمكننا أن نبقى لأكثر من ذلك ، ولاحظت أنهم لم يستريحوا لرفضنا ، ومع ذلك ، فبعد أن تبادلوا بعض الكلمات فيما بينهم بصوت خفيض ، استعادوا ملمحهم البشوش الذى كان لهم حتى ذلك الوقت ، وقال لنا الشيخ وهو يمتطى حصانه مع بعض العربان ، انه ذاهب معنا ليدلنا على طريق أفضل من ذلك الذى نعرفه . وما أن خرجنا من المخيم حتى افتعل مناوشة ، وقضينا نحن بعض وقت فى ملاحظة المهارة التى يوجهون بها خيولهم وينقادون بها الجريد (١٦) . كنت قد شاهدت هذا الأمر مرات عديدة ، وحيث أننى شغوف بهذا النوع من الألعاب ، فأننى لم أستطع أن أمنع نفسى من المشاركة فيها ، فدخلت بينهم ، واستمر اللعب طيلة مسيرتنا .. وفى النهاية وصلنا الى شواطئ النيل ، حيث غابة صغيرة من النخيل ، وهناك فوجئنا بوجود وجبة معدة ببذخ على حصى مبسوطة على الأرض ، فقال الشيخ :

(١٦) والجريد . عصا يبلغ طولها ٤ - ٥ أقدام وتستخدم كرمح ، ويفضل العرب عادة الفروع الخضراء من النخيل لأنها جد ثقيلة . ويستطيع الرجل وهو واقف أن يرمى الجريد على بعد أكثر من ٥٠ قدما ، أما اذا كان ممطيا حصانه ويعددو بأقصى سرعته فانه يستطيع أن يلقي بها لأبعد من ذلك بكثير ، وهناك من بينهم من يستطيع أن يقذف بها بقوة لدرجة يمكن لهذه العصا معها أن تنسبب فى حدوث جرح خطير ، بل وفى قتل من لا يستطيع تفاديها . وقد حدث لى ذات مرة أن وقعت على الأرض دون أن أعرف واحدا ممن كنت ألعب معهم ، وفى نفس اليوم تلقيت ضربة بالجريد منعتنى لشهر كامل من أن استخدم ذراعى .

« ها نحن نجد وجبة فى طريقنا .. بإمكاننا أن نتناولها معا دون أن نضيع عليكم مزيدا من الوقت » فترجلنا ، وبدانا فرنسيين وعربا ، ونحن جالسين على الأرض نأكل بشهية طيبة .. كان ثمة لبن فى آنية كبيرة ، ودجاج ، وجبن أبيض ، وعسل ، وبعض الفطائر وخبز ، ووسط كل ذلك خروف بأكمله فوق تل من الأرز لم يكد ينضج ، وبدون شوك ولا ملاعق ، وباستخدام أيدينا مثل العربان ، كنا ننزع قطع اللحم ، ونأكل كيفما اتفق من نفس الأطباق . وإذا كان قد سبق لنا أن تندرنا على عدم مهارة العرب فى استخدام الشوكة فى طعامهم فقد كان بإمكانهم فى ذلك اليوم أن يندروا من الطريقة المبتسرة التى كنا نقلدهم بها ، وكان بعضهم يغمس اللحم بالعسل فحاولنا أن نفعل نفس الشيء ولكننا وجدنا الطعم غر مستساغ لنا ، وشربنا مباح النيل الرائعة وقد بردوها بالقتل (١٧) . . كانت وجبة بالغة المرح على الرغم من أن نصف المدعوين كانوا يجدون مشقة فى فهم النصف الآخر .

ولقد انتهى مضيفونا من الطعام قبلنا ، وعندما كان يشبع أحدهم كان ينهض قائلا : شبعنا والحمد لله .

وعندما نهضنا جميعا اتخذ خدمنا وكذلك خدم العرب أماكنهم ، وقال الشيخ بصوت عال حسب عادة العرب « يا أبناء البلاد ، تقدموا وكلوا » وعندئذ اتخذ بعض فقراء الملاحين الذين جذبهم الجوع أو الفضول أماكنهم حول الحصير ، ولاحظت أن أقل شيء يشبعهم وأنهم يفسحون بسرعة أماكنهم لآخرين وسرعان ما اخفى كل شيء . ركبنا الجياد من جديد مع البدو وتفرقنا كأصدقاء قدامى بعد أن تبادلنا التحية العربية علامة على المودة ، وهى عبارة عن التلامس عدة مرات باليد اليمنى ووضعها عدة مرات فوق الصدر مع قول . خذ بالك من نفسك ، حماك الله ؟ وهى مجاملة لا يمل المرء مطلقا من ترديدها .

منذ ذلك اليوم وأنا أعود على الدوام لرؤية الطرابيين ، ولقد أخذت عنهم معظم الأفكار التى أدونها اليوم . وعندما كلفت بعد ذلك بعمليات

(١٧) القتل آنية فخارية ، غير مطلية ، تنسج المباش من خلال مسامها ، وتوضع فى الظل فى تيار الهواء ، ويؤدى البحر الذى يحدث فوق جسمها الخارجى الى تبريد المياه التى تحويها .

كثيرة جعلتني اجتاز صحراوات مصر السفلى أو العليا وانتنى الفرصة أن
أعرف على قبائل أخرى ولاحظت في كل مكان نفس العادات ونفس
السمات والموارد والاحتياجات المشتابة ، ومع أن هذه الجولات كانت مرهقة
بالنسبة لى ، فإن رغبتى فى التعرف جيدا على هذه الشعوب المفردة
— كانت تجعلنى أقوم بها بسرور ، واضيف بأننى كنت على
الدوام أتوغل فى الصحراء رغم أنه كان ينقصنى تقريبا كل شيء ، اذ لم
أكن أحمل معى الا قليلا من البسكويت وبعض البلح وقدرا من الماء يكفى
لكى لا أهلك من العطش ، وكنت أفضل ذلك على أن أبقى فى مدن مصر
وسط الوفرة والرخاء فجو الصحراء صحى لدرجة قصوى ، ونادرا
ما يبلغها الطاعون ، أما أمراض العيون فتقليلة هناك ، ويكاد يكون
الجدري هو المرض الوحيد الذى ينبغى على المرء أن يخشاه فى الصحراء .
وبالرغم من هذا الجو الصحى ، الذى لا يقدر بثمن بالنسبة لأحوال
المناطق المجاورة فإنه من العسير علينا أن نتقنع أن رمالا قاحلة كهذه
يمكن أن تقتسم الى ملكيات مميزة ! ومع ذلك فلقد اقتسمت القبائل العربية
هذه الرمال ، كما أنها تكن لهذه المناطق الموحشة لحد الرعب نفس مايمكنه
المواطن الفرنسى من الحب للحقول اليانعة ، والظلال الوارفة فى وطنه ،
وهم ينافحون ويؤودون عنها ضد العدو بنفس القدر من الجدارة
التي تدافع بها الأمم الأخرى عن أراضيها شديدة الخصوبة . وامتلاك
بئر هو على وجه الخصوص كما كان فى زمن البطارقة المبريين أمر بالغ
الأهمية ولا بد أن ندرك بأن الحدود فى بلد ليست مزروعة ولا تقطعها
الأنهار أو مجارى المياه ، كما لا تغطيها المباني والمنشآت ستكون بالضرورة
عسيرة التحديد . لذلك تتولد على الدوام الاحن ، بين القبائل من أجل
المراعى ومن أجل المكوس التي تفرض على القوافل . .

وتبرق السماء اللازوردية بالضوء خلال النهار ، كما أنها شديدة
الصفاء خلال هدأة الليل ، ومع ذلك فالأمطار تسقط على المناطق الجبلية
بقدر أكبر قليلا من القدر الذى تسقط به فى بقية أنحاء مصر — وهو
قدر ضئيل — كما أن رياح السموم تعكر فى بعض الأحيان صفاء الجو .

وتهب السموم أو الرياح المسممة من الجنوب الغربى ، وسرعته
ليست ثابتة ، فهي تسرع وتبطئ من لحظة لأخرى ، وترفع معها الى

بمسافة جد عالية دوامات الرمال التى تردم — كما حدث أكثر من مرة —
قوافل ، بل جيوشا بأكملها ، وينسب الى هذه العواصف الهوج سبب
ضياغ الجبش الذى أرسله تمبيز لتأديب سكان واحة آمون «سيوة»
وهذه الدوامات الضخمة ، وهى نادرة لحسن الحظ ، أقل حدوثا فى
صحراوات مصر الشرقية عنها فى صحراواتها الغربية حيث الرمال
هنا أكثر حركة ولكن السموم ، حنى عندما لا تثير أية دوامات أمامها
تعد كارثة رهيبه ، اذ هى محملة على الدوام بالرمل الدقيقه والساخنة ،
وهى تحجب ضوء الشمس ، وتعطى للجو لونا كائيا ، ونصل بالحرارة
الى درجة غير محتملة ، وتجفف النباتات بل وتقتل الانسان والحيوان
مالم يتجنبوا فى لحظة هبوب الزوايع أن ينشقوها وهم يغطون وجوههم
أو يستديرون عنها برعوسهم . . وهذه الخواص الضارة والشريرة لهذه
الرياح هى التى جعلت الناس يطلقون فى الصحراء عليها اسم السموم ،
وهى تسمى داخل مصر — حيث هى أقل خطورة — الخماسين ذلك أن
الناس يشعرون بهبوبها لمدة الخمسين يوما التى تواكب الربيع .

وهناك ظاهرة أخرى تقدمها الصحراء ، وهى تلك التى وصفها
وشرحها المسيو مونج بذلك الوضع الذى هو صفة مميزة لكل انتاج هذا
العالم الشهير . فهناك يظن المرء أنه يرى على بعد حوالى الفرسخ
مساحة هائلة من المياه . بل أن الأجسام التى ترى على هذا البعد ترى
صورا معكوسة لها فى أسفلها ، أنه السراب كاملا ، وكم من المرات هلك
مسافرون بؤساء استدرجهم هذا المظهر الخادع ، فهلكوا فى ميثة
قاسية وهم يسعون الى الارتواء من عطشهم من هذه البحيرة — الوهم
الذى تتراجع أمامهم على الدوام ، فى حين يظن زملاؤهم فى مؤخرة الركب
أن هؤلاء قد وصلوا الى تحقيق بغيتهم ، ويغبطونهم على ما يظنونهم قد
وصلوا اليه . وتعود هذه الظاهرة الى انكسار الضوء عند اختراقه
للطبقات السفلى من الهواء الذى تتخلل كثافته على سطح الأرض بفعل
حرارة الرمال .

وتستخدم الغزالة الرشيقه ، ذات الخفر ، والحياء والعيون السود
اليتظة ، فى معظم الأحيان كصورة يرسمها العاشق العربى لحبوبته
الجميلة ، أما النعامة السريعة ؛ والحراب البطيئة ، فهما الحيوانان

الوحيدان اللذان رأيتهما في الصحراء (١٨) ، وفي معظم الأحيان ، كنا نرى حول الخيام كلابا قوية البنية ، كستنائية الشعر ، لا يملكها فرد بعينه ، وانما تعيش في حالة شبه وحشية وهذه لاتصاب مطلقا بالسعار ، على الرغم من الحرارة الشديدة والحرمان شبه التام من المياه ، وهي تعيش على جثث الحيوانات الميتة والقاذورات الدنسة . . الامر الذي يساهم في الحفاظ على صحة الجو من حول المخيمات ، وبالإضافة الى ذلك فان هذه الكلاب التي تستطيع أن تميز الأغراب من أبناء القبيلة تعد حراسا أماميين تسارع عن طريق نباحها بتقديم الإنذار عندما يلوح أى خطر ، وتوجد كذلك عند بعض جماعات من العربان كلاب سلوقية « كلاب صيد » من سلالة جميلة . . لكنها لا تعيش طليقة مثل الأولين ، فلها سادة يمسكون بها مقيدة في معظم الأحيان ويستخدمونها في مطاردة النعام والغزلان .

وتضطر القوافل التي تعبر الصحراء الى دفع الكوس للقبائل المالكة للأراضي التي تمر بها خوفا من أن تهاجم وتسلب امتعتها ويؤخذ أفرادها عبيدا وسبائيا أو يشتتونها في الصحراء ، ومع أننا كنا على الدوام نستنكر هذه العادة ، الا انها في حقيقة الامر تنفق كثيرا مع نظام الضرائب عند بقية الأمم ، ليست لنا نحن أيضا قوانين صارمة بخصوص جوازات السفر وتحصيل الجمارك على البضائع الأجنبية التي تعبر أراضيها ؟ السنا نعاقب بالمصادرة والسجن والسلاسل بل وبالوت نفسه أولئك الذين يلجأون الى الخديعة أو الى القوة للتخلص منها ؟

وأرض القبيلة ملك مشاع لكل الأفراد الذين يكونونها . وإذا كانت هذه الأرض جرداء ، فان كل واحد يقود قطعانه الى حيث يشاء ، أما اذا كانت خصيبة فانهم يستزرعونها بواسطة الفلاحين أو يستزرعونها في غيبة هؤلاء بواسطة أسرهم وعبيدهم وخدمهم ، ويقسم العائد بعدالة شديدة بين الأسر المختلفة .

(١٨) توجد في الصحراوات حيوانات مفترسة أخرى مثل ابن آوى والذئب الأفريقي والضبع . . الخ ، لكنني لا أتحدث هنا إلا عما شاهدته بعيني .

وبخلاف الصحراء التى هى ملك كامل لهم ، ينظر البدو لأنفسهم كحكام شرعيين لحر ، وينظرون الى الأتراك والمماليك باعتبارهم غاصبين ونيجة لذلك فقد اقتسموا هذه المنطقة ، واخذت كل قبيلة تحصل فى المنطقة التى الت اليها بعض الضرائب العينية ، وبذلك يتخذ الفلاحون التعساء لأنفسهم حماة يدافعون عنهم ضد القبائل الأخرى التى ترغب فى انتهابهم ، بل ويشترون كذلك فى معظم الأحيان ملاذا يلجأون اليه عند الحاجة للاحماء من طغيان الحكومة ومن الجشع النهم لسادتهم .

أما الملكيات الخاصة عند العربان فهى الأثاث والآنية والقطعان ومنتجات بعض المهن ، مثل صناعة بعض الأنسجة الخشنة والزبد والجبن وبيع الجياد والجمال وإكراء الجمال للقوافل — كما تتمثل هذه المهن أيضا حسب المكان فى تجارة بعض البضائع مثل الفحم ، والسنامكى ، والملح البحرى والأسماك المقددة والنظرون والصودا والشبة والجدائل المستخدمة فى صناعة الحصر .

ويقتنى العرب كثيرا من الجمال ، وهذا الحيوان ذو نفع كبير لهم ولولاه ما استطاعوا سكنى الصحراوات ولاستسلموا « لحياة الخضوع » لذلك يقال فى معظم الأحيان أن الله — أو الطبيعة — قد خلقه خصيصا كى يجعل الصحراوات قابلة لسكنى البشر . وهو قول لا يعادل خطأه الا الغرور البادى فيه (١٩) .

(١٩) تعيش الجمال على نحو طيب فى الصحراء لأن تكوينها يجعلها لا تحس بحاجة لا تستطيع الوفاء بها ، لكن القول بأنها خلقت خصيصا من أجل الصحراء ، بل ولكى تجعل الصحراء أهلة بالانسان ، إنما هى فكرة تضدر عن غرور كبير . ومع ذلك فهذه الطريقة فى التعبير والشروح قد تبناها فلاسفة وعلماء طبيعة يتميزون عن أولئك الذين تركوا أنفسهم ينساقون بفعل مشاعرهم الى تجاوز الحقيقة الباردة . وعندما يتأملون فى تفاصيل تطابق مدهش لحيوان أو نبات فانهم يقولون لأنفسهم : ان الطبيعة الخيرة قد منحت هذا العنصر كى يؤدى هذه الوظيفة الأساسية للحياة أو لقد أعطته هذه الوسيلة للدفاع كى تمنعه من الانقراض على يد أعدائه ! الا يكون من الأبسط أن نقول : انه يعيش لأن له هذا العضو أو لأن له هذه الوسيلة للدفاع فقد استطاع أن يقاوم أعداءه ، ولولا ذلك لما ظهر مطلقا على ظهر الأرض أو لكان سرعان ما اختفى منها ، فأين كانت هذه الجودة الخيرة المزعومة للطبيعة بخصوص الأنواع التى انقرضت بشكل تام .

وعندما يجد العربي نفسه بلا ماء ولا حب ولا غطاء ، طريداً في الصحراء ، وعندما يرى جواده وأبقاره وخرافه تنفق من التعب أو الجوع فليسوف تبقى له جماله وليسوف نكفيه . فهي تحمله على ظهورها ، وتطعمه من لبنها وتتحمل الجوع والعطش وتواجه هذه العزلة الشاسعة لتحمله شر أعدائه .

وتكاد الجمال لا تحتاج الى الراحة ، وهي تقترض في طريقها بعض النباتات الشوكية التي قد يعاقبها حيوان آخر ، ويطعمها العربان عادة بالقش المهروس « التبن » والفول ونوى البلح . وفي أثناء رحلة قمت بها في عرض الصحراء لم تشرب الجمال التي كانت معي الا في اليوم السابع .

وليس للجمال الكبيرة سوى سنام واحد ، ومشيتها المعتادة هي : الخطو ، ووثع عدوها ثقيل ولا يمكنها أن تستمر فيه لوقت طويل ، ويقودها العربان بواسطة زمام « مقود » وعندما تسير الجمال في شكل قافلة فإنهم يربطونها الواحد بالآخر من ذيولها ، ويستطيع شخص واحد في العادة أن يعنى بستة جمال ، وتحمل الجمال على ظهورها كل الأحمال ، لأن الإنسان لا يعرف في الصحراء لا العربات ولا الزلاجات ، وينقسم الحمل على جنبى الجمل بواسطة برذعة مزودة بالحبال ، ومن النادر أن يبلغ وزن الحمولة أكثر من مائتي كيلوجرام الا اذا كانت المسافة التي على الجمل أن يقطعها بالغة القصر .

ومتوسط السرعة لقافلة تتكون من مائة جمل محملة على هذا النحو، وتسير بخطو معتاد ، حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة متر في الساعة ، وقد يقطع الجمل اذا سار بمفرده أكثر من ربع هذه المسافة زيادة على ذلك في هذه المدة نفسها .

وثمة نوع أكثر ضعفاً وأكثر رشاقة وأكثر خفة عند الجرى يسميه العرب ، الهجين ، ولا يستخدم هذا الحيوان الا للركوب ، ويقوده العرب بواسطة حبل مربوط في حلقة مدلاة من منخاره ، وليس له الا سنام واحد كالجمال ، يوضع عليه السرج ، وعدوه في العادة أكثر رقة ويكاد

يبلغ عدو الحصان ، ومهما كان عدو الحصان بالغ السرعة فان الهجين سيلحق به اذا ما طال الطريق .

وعندما يراد تحميل جمل أو ركوبه فان الانسان يضطر بسبب ارتفاعه الى جعله ينيخ ، ومن أجل ذلك يعودونه على طاعة بعض الأوامر التي يبلغونها اليه عن طريق اطلاق أصوات خشنّة من الحلق تكاد تشبه صوت الانسان عندما يتغرغر ، ويبدأ الحيوان أولا بأن يطوى الركبتين . وساقيه الأماميتين تحته ثم بدع الساقين الخلفيتين تنزلتان الى الامام لتسجدا بعد ذلك مكانهما الى جانبيه ؛ وتلامس بطنه الارض .

وعلى المرء عندما يركبه أن يتخذ مكانه بمهارة على السرج وأن ينحني الى الخلف وإلى الامام ، لأن الجمل ينهض — ما أن تضع قدمك في الركاب — بشكل فجائي على قدميه الخلفيتين ثم على قدميه الأماميتين بطريقة تجعلك تميل أولا ناحية رأسه ، الى الامام ، ثم تلقى بك بعد ذلك الى الخلف . وعلى المرء أن يعرف كيف يسيطر على هاتين الحركتين المتعارضتين ، وهما شديدتان . وتتتابعان بسرعة . ولحم الجمال طيب المذاق ، ويكاد يكون له نفس مذاق لحم البقر ، وهو مفضل بشكل خاص على لحم الحصان .

وتتمتع الخيول العربية الأصلية بسمعة طيبة ، وهي تنقسم الى جنسين متميزين : العبادية والنبيلة ، وتسمى الأخيرة : حيل ، وهي أكثر قدرة في صحراوات مصر منها في صحراوات الحجاز وسوريا . ولا يمكن لحصان أن يعرف بأنه نبيل الا اذا كان أبوه وأمه كذلك في وقت معا ، وقول مثل هذا الرأي في حصان ما سيكون له اثره الكبير في تقدير سعره فان الناس يحرصون عندما يراد اتصال فرس نبيلة بحصان من نفس النوع أن يسجلوا بذلك حجة في حضرة شهود ، وتصحب هذه الحجة على الدوام حركة بيع الخيول ، ويعلقها الناس في رقاب الخيل داخل جراب صغير من الجلد ، وهي تحتوي عادة على كتابة غامضة مخصصة لجلب السعادة للحصان وفارسه . والعرب غير معتادين على الاطلاق أن يخصوا خيولهم ، أو أن يقطعوا ذيولها أو آذانها ، اذ لا يلجأ الناس الى تشويه هذا الحيوان النبيل على هذا النحو الا في أوروبا،

فالأسلوب الذى سيطر بشكل مستبد فوق هذا الجزء من العالم قد خضع الحيوانات نفسها لهفوات شاذة .

وابتداء من سن الـ ١٨ شهرا ، بأخذ العرب فى تعويد خيولهم حمل الركاب ، وعندما تبلغ هذه سن العامين يدعون أطفالهم يركبونها ، ولا تستطيع الخيل فى هذه السن الا أن نخطو أو أن تعدو ، وهى تأكل فى النهار القش المهروس وعند غروب الشمس تأكل من ٦-٥ أرطال من الشعير ، ولا يقدم لها العشب مطلبا ، وهى لا تشرب فى اليوم الا مرة واحدة ، ويقل هذا بثلاث مرات عما يشربه الحصان الفرنسى .

وتضعف ساقا الخيول العربية الأماميتان وهى فى سن مبكرة . ويعود ذلك لسببين رئيسيين : الأول ، هو الوضع المتقدم للغاية للسرّج ، والثانى هو الطريقة التى يوقف بها العرب خيلهم وهى تجرى بأقصى سرعة ، اذا يجذبون اللجام بقوة ، فيرفع الحصان ساقيه الأماميتين ، ويحرف على قدميه الخلفيتين فتصطدما بالأماميتين . وهكذا يتوقف فجأة وهو فى أقصى سرعته .

ويستخدم العربان شكائم جافة لحد كبير ، ولذلك فانهم يضطرون عندما يدفعون خيولهم بأقصى سرعة أن يطلقوا أيديهم كليّة ، وعندما يستحثونها على مواصلة السرعة فانهم يضايقونها لحد كبير .

ولسرّج العربان ، وهو نفس الحال فى السرج الذى يستخدمه الماليك ، مسند يبلغ ارتفاعه من ٨ - ١٠ بوصات ، وهو يشبه ظهر الأريكة الى حد كبير ولهذا السرج فى مقدمته قربوس فى سمك الذراع ، يرتفع رأسيا من ٥ - ٦ بوصات ، أما الركاب فيتكون من لوح من الفحاس ، مقوس من الجانبين بطريقة تجعل منه متكناً للقدم . مسطح الشكل ، وأكثر طولاً وعرضاً من القدم نفسها وهو محدب بعض الشيء وشكله رباعى ، وزواياه التى تجاور خصرى الحصان مقواه بالصلب ، وتغنى هذه عن استخدام المهاميز .

وهذا النوع من السروج مناسب للغاية . فعندما تكون ساقا الفارس فى ركابين قصيرين على هذا النحو ، فانه يستطيع أن ينهض واقفا عندما

يجرى بأقصى سرعة أو عندما يقاتل . وحيث أنه يستطيع أن يستند الى مسند سرجه فإنه يجد نفسه مهما يكن مقاتلا غير كفاء ، طليق الحركة ، مسيطرا على كل حركاته (٢٠) .

وعندما ينتهى العربان من سباق عملوه فإنهم يحرصون قبل ربط خيولهم على أن يسيروا بها فى خطو بطيء لمدة نصف ساعة حتى ولو لم تكن هذه الخيول تشعر بالحر من جراء الجرى ، ثم يدعونها مدة نصف ساعة بلا طعام .

ولا يرى المرء عند العربان لا جيادا كبيرة الحجم ولا جيادا صغيرة . اذ تكاد تبلغ قامة كل منها ٤ اقدام و٩ بوصات ، ويقابل المرء بعضا منها — كما يحدث فى كل مكان — وقد نزع عنها السن والمرض كل حيوية ، لكنه لن يقابل مطلقا كما هو الحال عندنا حصانا شائها أو رخوا لا يستطيع برغم عافيته وقوته ان يعدو ، اذ هو ثقيل لا يفيد الا فى جر العربات أو حمل الأثقال . جرب وضع سرج على ظهر حصان عربى عجوز يدور بالطاحونة منذ سنوات عدة ، عندئذ ستراه ينهض ليعدو الى حلبة السباق ، ويضع نفسه فى خدمة سيد جديد ، يمكنه أن يظل يستخدمه — مادام به رمق من حياة — كحصان عظيم .

والحصان العربى ، فى معظم الأحيان ، بالغ الرقة ، واعتقد أن وداعته تعود جزئيا الى الشيود الكثيرة التى تحمل بها سيقانه منذ سنه الباكرة ، وقد كنت فى كثير من الأحيان أرى عربيا متعبا أمام حصانه ممسكا إياه من راسفه ، ويدخن بهدوء **نارجيلته** ، بينما يظل الحصان ، الذى أهله القرب من بعض الفرسات . . بلا حراك ، يعبر فقط بصهيله عن نفاد صبره .

وتعرف الخيول العربية بدقة سيقانها ، وصغر حوافرها وخفة

(٢٠) يدين الممالك بجزء كبير من هذا التفوق الملحوظ ، الذى كان لفرسانهم على فرساننا فى بداية اقامتنا فى مصر ، لشكل سروجهم ، فقد كنا على نحو ما نقاتل ونحن جالسون، وكانوا همقاتلون وهم واقفون، فكانت المعركة بذلك غير متكافئة .

رأسها وبقلة سرعتها عن سرعة خيولنا التي تستخدم في السباق ، ومع ذلك فالخيول العربية أكثر مرونة بشكل لا يمكن المقارنة معه ، فهي تعدو فجأة وبأقصى سرعة اذ بإمكان المرء أن يضعها على مبعدة ٦ - ٧ خطوات من حاجز ما ثم يجعلها تعبر عدوا هذا الحاجز بعد هذه المسافة الصغرى، كما أن بإمكانه أن يجعلها تدور حول نفسها وفي كافة الاتجاهات بأيسر من اليسر وأن يضيق من الدوائر التي ندور فيها لحد يبعث على الدهشة دون أن يقلل ذلك من سرعتها، وهذه المرونة المذهلة وكذا السهولة القصوى التي يوقفونها بها فجأة عندها تندفع حتى ليلا مس بطنها الأرض، تجعلانها ثمينة لحد لا يتدر بنمن في حالات القتال جسدا لجسد ، ولذلك فهي مرغوبة بشكل كبير من الأمم المجاورة ، وهكذا فتجارة الخيل واحدة من أهم تجارات العرب ، ولهذا السبب يفضلون الاحتفاظ بالفرسات، ويقال أنهم يفضلون ركوبها عن ركوب الجياد لأنها اقل سهيلاً ، كما أن أسفارها الليلية اقل صعباً ، وهذه ميزة لا يمكن اهمالها عند شعب تعتمد حروبه على المفاجأة الشديدة لعدوه .

والبدو قليلو التعليم، ويكاد لا يقابل المرء من بينهم سوى بعض الشيوخ الذين قد يعرفون القراءة ، ومع ذلك فإن لديهم الكثير من تلك المعارف التي يعطيها طول الملاحظة، فهم يعرفون على سبيل المثال كيف يستقرشدون بالنجوم وهم يسيرون في الليل وسط أراضيهم الجرداء والمتشابهة والتي لم يشق بها طريق واحد ، وهم يحددون الوقت الذي تبلغ فيه الشمس درجة الزوال ، ويقسمون النهار بواسطة قياسهم لطول الظل ، وتتطابق القاعدة التي يستخدمونها بحسب الفصول المختلفة لحد كبير مع خط طول البلد الذي يسكنونه ، ولهم بعض الممارسات في مجال الطب ، كما لا يمكن على الإطلاق الاستهانة بفن البيطار عندهم ، وهم يعرفون عادات حيوانات الصحراء والنباتات التي تمتاز ببعض الخاصيات **النافعة** ، وقبل أن يكتشف علماء النبات عندنا بوقت طويل أجناس النباتات ، كان العرب يستخدمون تسميات مذكرة ومؤنثة لتمييز أشجار النخيل التي لا تنتج سوى الزهور من تلك التي تنتج الزهور والثمار ، وكانوا يعرفون أن ذرات الأوليات **الزينة** لأخصاب الأخريات ، وعندما يريدون أثناء حملاتهم السريعة ايقاع الأذى بأعدائهم فانهم يكتفون بقطع النخلات الذكور وهذه على الدوام قليلة العدد .

والعرب البدو ذوو خيال مطبوع ، متوهج وجاد ، وهم يتحدثون على الدوام بأسلوب مليء بالكنايات والاستعارات ، فهذه اللغة هي لغة طفولة الشعوب ، كما انها لغة طفولة الرجال : قلب من التجريد وكثير من الصور . وعند الشعوب التي نسميها نحن شعوبا متوحشة فان الانسان لا تضايقه الا الاحداث ، اذ ليس هناك هذا الحشد من القوانين والقواعد والقيود من كل نوع ، تلك التي تعوقه على الاطلاق عن استخدام ملكاته ، بل انه هناك ليس مضطرا للرضوخ للأغلبية ، فحيث أن احتياجاته قليلة ، فانه يهرب اذا ما كدره امره ، وبماكانه أن يجد لنفسه مأوى في أى مكان وفي كل مكان ، كما أن مشاعره لا يصيبها ذلك الانهيار ، الذي يصيب مشاعرنا ، بفعل هذا التوافق والتطابق في الحياة التي ، وان كانت لا تخلو من قلق ومضايقات ، فانها على الأقل خالية من تلك الاخطار الكبرى التي نجتازها دون اختيار منا لأفعالنا . اما عندنا نحن ، فان البعض منا تشغلهم شئون الدفاع المشترك ، بينما يقوم الآخرون بالزراعة ، ويقوم فريق ثالث باعداد الخبز الذي يطعمنا والأمشة التي تكسونا ، فنحن باقتسامنا العمل على هذا النحو نزود أنفسنا دون شك بمباهج أكثر ، لكننا في نفس الوقت نستعيد أنفسنا . وعلى العكس من ذلك فالانسان في المجتمع البدائي قليلا ما يعتمد على رفاهته . وحيث أنه يشعر في كل لحظة باحتياجات كبيرة وبأخطار كثيرة ، فان روحه أكثر قلقا وعواطفه أشد جموحا فلماذا اذن لاتعكس لغته أسلوبه في الحياة . انه نادرا مايستخدم الكلمة بمعناها الأصلية ، الكلمة المجردة ، انما هو يكس الصور والتشبيهات ، لأنه انما يعبر عن عواطفه هكذا . . وهكذا أيضا فهو غير معتاد على قمع عواطفه هو . . انه لن يقول « أن هذه السيدة جميلة ، وهي تتصف بهذه الميزة أو تلك ، وسأحبيبها ضد أعدائها » لكنه سيقول لنفسه : « انها جميلة كأول ضوء نهار ، كالقمر عندما تنعكس صورته على سطح البحار ، لها رقعة النسيم العليل في قبض الصيف ، يتدلى شعرها على كتفيها العاجيتين في توججات ماء رقراق ، ان هذا الشعر ليشبه أغصان نخلة غضة ، وتشبه عيناها عيون الغزلان ، اما صدرها فيشبه يحمورين « نوع من الايائل » توأمين يرعيان بين الزنابق : سناظر بجوارها كلبؤة غضوب تدافع عن صفارها ، (م ٢٠ - وصف مصر)

وسأرعاهما بسيفي ، وسأجعل منه بمثابة حصن لها يعز اقتحامه .
الخ . الخ » .

وهذه اللغة ، التي ليست عند الشعوب المتحضرة سوى لغة عدد صغير من الأشخاص الموهوبين بخيال متقد ، هي لغة الغالبية عند العرب الذين لا يزالون برغم أصلهم الضارب في القدم في طور طفولة الحضارة ، والذين تشبه حياتهم حياة الشعوب الأولى .

وقد يجادلني البعض دون شك بأن الأسلوب المجازي لا يزال هو اسلوب كل أمم الشرق التي وصلت الى مرحلة انهيارت فيها حضارتها وخضعت للاستبداد المطلق ، هذا صحيح ، لكن هذه ليست المرة الأولى التي تتشابه فيها الشيخوخة مع الطفولة مع الاختلافات اللازمة لكلا الطورين من الحياة ، فكلا الحالتين يسهل تحديدها ، انها نفس الموجة من الأفكار التي تتدافع في الصدور لكنها في الحالة الأولى «الطفولة» حية مبهجة ، بينما هي في الحالة الثانية متهدجة وحزينة ، ونفس الشيء يمكن أن يقال بالنسبة للاندفاع غير المنتظم للخيال عند الانسان الحر والذي نلاحظه بسهولة بين تلك اللغة المليئة بالتكلف ، وتلك التي تمالئ المخاوف . ففي الحالة الأولى ، تعبر اللغة في محسناتها عن تلك الرغبة التي يريد المرء أن يبلغها ، بينما تظل اللغة في الحالة الثانية تحوم وتدور دون أن تجرؤ على الاقتراب مباشرة من أهدافها .

وحب البدو للشعر هو نتيجة طبيعية لكل ما انتهينا اليه الآن ، ويتمتع شعراؤهم بهذا الاحترام والتقدير الذي كنا نكنه في الماضي لشعراء البطولة عندنا ، ذلك أن شعراء العرب اليوم هم ما كانه أولئك في الماضي ، أي موزعو الأمجاد . . وأى امرئ هذا الذي لن يكون مولعا ببلوغ المجد ؟ وفي بعض الأحيان تخصص أشعارهم للحب ، وغالبا ما يجلس الواحد منهم أمام خيمته وقت الغسق ونسيم المساء ينعش النفوس ، يدعوها للمباهج السهلة ، ويغريها بالترويح بعد نهار شاق ، وعلى النغمات المنبعثة من أوتار ربابته يهرع العربان جماعات ويجلسون من حوله على الرمال ، متشابكي السيقان ، يعبرونه آذانا صاغية ، أما هو ، فبعد أن يجرب ببعض النغمات آلتة لبضع لحظات ، يبدأ ، وعيناه

شخصتان نحو السماء ، أو خفيضتان الى الأرض ، وفي هيئة من يحاول أن يتذكر وقائع الأزمنة الخوالى ، يبدأ يغنى انتصارات قبيلته ، وللمفاخر التى صنعها شجاع شتم ، أو لتلك المآسى التى حانت بعاشقين (٢١) . وكم من مرة لم لاحظ فيها وأنا جالس بينهم أن الشمس قد اختفت وراء الأفق فى الصحراء ! كانت اشعة الغسق تضيء الوجه المتقد للشاعر المغنى وتضع فى دائرة الضوء حركاته المعبرة ، بينما كان المستمعون يمدون أجسامهم الى الأمام ، ويصفون فى صمت ، وبدأوا جميعا وقد استغرقتهم الرواية التى يقصها يتركون دون أن يدروا يارجيلتهم الطويلة ، وأخذت ترسم على وجوههم البرونزية أمارات الرقة والأعجاب والفخر ، ولنتخيل كل هؤلاء الرجال المتدثرين فى خيلاء على أفضل نحو يستطيعون تتذلى منهم لحيتهم السوداء وتفتر شفاههم عن أسنانهم العاجية البيضاء وتمتلىء عيونهم السوداء بحيوية دافقة ، يهز شالهم وعباءتهم وأرديتهم الطويلة نسيم الليل ، وبالقرب منهم تريض أسلحتهم ، وتحيط بهم من كل جانب تلك الصحراء الصنوت ، بينما لا يقطع صوت الطبيعة الا صوت ذلك الرجل الملهم . . . وبعيدا بعيدا ، يالى صوت سهيل الخيول المرسجة استعدادا للمعارك ، وهى تضرب الأرض، بقدمها ، معبرة عن ضجرها بقيودها ، بينما تنيح الجمال الصبورة على ركبتيها وتمضغ فى وقار بعض النباتات الشوكية تحاول أن تصل الى الأسماك شكاياتها الحزينة . ولنرسم وسط هذه اللوحة ، رجلا فرنسيا بملابس بلاده ، مقبولا بكل ثقة ، وعلى الرحب والسعة ، من كل رجال القبيلة . . . عندئذ ستتكون لدينا صورة لمشهد صحراوي كان على الدوام مثار فضولى . . . وعندما كانت تتوقف الأغنيات ، كانوا يشعلون من جديد نارجيلاتهم من الموقد الموضوع وسط الدائرة ، وهناك فى غلاى كبير كانت تعد القهوة ، وتدور أقدام مليئة بهذا المشروب من يد ليد

(٢١) وهكذا فعن طريق أغنيات تنتقل من عصر لعصر، نقلت الشعوب تاريخها ، من قبل أن يخترع الانسان هذا الفن الدعوي ، فن تجسيد الكلمات بالرسم ، ومخاطبة العين بالكتابة ، لذلك فقد كانت الكتابات الأولى شعرية ، لأنه كان على الانسان أن يبدأ بنقل ما كان يعرفه من الذاكرة ! ولأن الكلمات — التى كانت تغنى على الدوام — قياسا على ذلك كانت كلها منظومة .

لتعبد الى المرء قوته المنهكة ، وتزوده بخدر لذيذ دون أن يغيب عن وعينا
كما تفعل بنا مشروباتنا القوية .. وهكذا يعود النشاط ، وتنبه الحواس ،
ويلتهب الخيال ، وتمتد السهرة أوقاتا أخرى ، ثم يتفرق الناس وفى
مخيلتهم تجول ذكريات المجد ، وذكريات الحب التى تبهج الأحلام ..

ولدى العرب عدد هائل من الحكايات على نمط ألف ليلة وليلة (٢٢)،
يلعب فيها العمالقة والجنيات دورا كبيرا ولا ينبغي على الإطلاق أن
ندهش من ذلك فحياة المقاتلين مليئة بالمغامرات ، وهذا هو الأمر الذى
يحدد ميلهم نحو الحكايات الرائعة ، ليست لدى الجنود الفرنسيين ،
كذلك ، حكايات من هذا النوع ، لا يغيب في واحدة منها ذكر الشيطان أو
السحرة (٢٣) .

(٢٢) إذا كانت الحكايات التى جمعت تحت هذا العنوان تبهج القارئ
العادى ، فأنها مئثار اهتمام أكبر ، لأولئك الذين زاروا الشرق ،
فالتقاليد والعادات ، والأثاث ، بل والبلد نفسه ، كل ذلك قد وصف
بأكبر قدر من الدقة والصدق .

(٢٣) فى معسكراتنا ، وبعد أن يختار كل امرئ المكان الذى
سيهجع فيه وبعد أن تصف الحقائق والأمتعة على الأرض لتستخدم
كمخدرات ، يرقد الجميع ثم تصدر عن أحد الجنود صيحة عالية ، كما
لو كان ليقول .. هل تريدون أن تصفوا الى ؟ . فإذا ما سمع من كل
الأركان الصيحات التى تعلن الموافقة يبدأ ، كان ياما كان فى سالف
الأزمان .. وفى هذا النوع من الحكايات ، يدور الأمر حول أميرة شابة
جميلة كانت تحتقر كل السادة الشبان المتأنقين فى بلاطها وكذلك كل
رجال الطبقة الحاكمة ذوى النفوذ ، وتصبح عاشقة لجندي بسيط وتتزوج
وتغسّدق عليه الثرى والجاه والثروة ، ويتوسّع الراوى فى امتدادح
الشجاعة والمميزات الأخرى ، فيجعل له يصارع ويهزم الشيطان نفسه،
ويشرب براميل من الخمر دون أن يغيب **وعيه** ويصل به لمرتبة هيرقل
فى غرامياته ، ويتفنن فى وصف مفاتن محبوبته بأسلوب جسى لا يخفى
منها شيئا ، ويصحب ذلك كله بايوان مغلظة ، وهذا ما يعجب الجنود،
ذلك أن خيالهم سوف يمنهم للحظات بمصير مثابه لمصير رجل يشبههم،
ولكن النعاس سرعان ما يتغلب على مباهج الرواية بسبب تعبهم ، ولهذا
السبب يعنى الراوى بأن يتأكد أنهم يصغون اليه بأن يطلق من لحظة
لأخرى نفس صيحته الأولى ، وتطمئن صيحات المستمعين ، وعندما
تصبح الصيحات التى ترد عليه قليلة أو عندما لا تعود تسمع فإنه سرعان
ما يستغرق فى النوم مثلهم .

وقد يدهش المرء للوهلة الأولى من تلك اللوعة والرقعة اللتين ييثهما الشعراء العرب في تعبيراتهم. عندما يتغنون للحب ، ولكن لماذا ؟ هل نريد أن نقول بأن مثل هذه العاطفة المحمودة لا ينبغي أن تسود عند ابناء أمة لا تختلف فيها حياة النساء عن حياة العبيد ؟ انساء هل يمكن للرجل والمرأة هكذا خاضعة لمشيئته أن يجعل منها مالكة لمصيره . ؟ قد يبدو أن مثل هذه الأسئلة تقوم على أسس قوية لكن انقسام الفكر سرعان ما يجعلها في حكم العدم ، حقا أن النساء عند أمم الشرق يحرين في عزلة تامة حيث يحرم عليهن مجتمع الرجال ، وعندما يخرجن فثمة حجاب صفيق يخفيهن عن كل النظرات . لهذا كان من المفترض أن تكون مغامرات الحب هنا شديدة الندرة ، لكن كثرة وزيادة التحفظ والاحتياطات القوية ضد أقوى العواطف وابعدها عن الخضوع والسيطرة . . كل هذا يجعلها أكثر قوة وحدة ، فإذا ما لمح شاب أثناء لقاء عابر ملامح سيدة جميلة أو صورتها له خياله على هذا النحو ، فإن الصعاب ستؤجج رغبته وتبدأ التعبيرات الملتهبة ترسم كل مايشعر به .

وفي واقع الأمر ، فإذا بهم أن تكون النساء أكثر أو أقل ارتباطا بأزواجهن ، ينلن احتراما أكبر أو أقل في محيط الأسرة ، ذلك أن الأمر ليس أمر من يمتلك ، ولكن أمر من يقتبط بالتملك ، ويبالغ في قدرة المملوك ويتحدث عنه بحماسة مشبوبة .

أما عندنا ، فحيث أننا نرى أكبر عدد من النساء ونعيش معهن في مجتمعهم فلا بد أننا قد تحصنا ضد مفاتنهن ، ان لنا بالتطوع رغبانا لكنها أكثر غموضا ، وإذا ما تسلطت هذه الرغبات على المرء منسا لبعض الوقت وهو بمفرده فسادرا ما يطول به الأمر ، اذ سرعان ما تنجذب عواطفنا مفاتن أخرى لسيدات أخريات . . وهكذا فسوف نغنى لذاق الحب في فرنسا ، وللواعجه عند العرب ؛ حيث أن لتطرفات الأنين والشكوى مباحها . .

وزيادة على ذلك فالنساء عند عربان الصحراوات عادة أكثر اعتبارا منهن عند بقية أمم الشرق ، بل لقد راينا زوجات الشيخ يحكمن القبيلة بعد موت زوجهن ، وهناك حادثة كنا نشهدا عليها تبرهن بشكل طيب .

أن تسدر النساء العربيات ليس مطلقاً على هذه الدرجة من العسف الذى كنا نظنهن عادة عليها . فقد حدث أن ناجاً بعض البدو المنصورة وذبحوا حوالى المائة من جنود الخيالة الذين كانوا يحرسون هذا الموقع واصطحبوا معهم سيدة ايطالية كانت زوجة العريف الذى لقي حتفه فى هذه المعركة . وعندما حل السلام ، ائترطناً ضرورة أن نستعيد هذه المرأة فوافق البدو على ذلك لكنها هى التى لم تشأ أن تفيد من هذه المسادة من بنود المعاهدة وفضلت أن تبقى بينهم . وراودنا الشك فى أن الشيخ الذى تزوجها كان قد لمحها فى شوارع المنصورة عندما دخلها ذات يوم متخنيا فى زى فلاح فهام بها حباً حتى أنه عندما عاد الى مخيمه جمع أعوانه ، واستثار حماسهم منياً اياهم بالمفائم والأسلاب .

وأختتم مذكرتى هذه بأن آمل أن تكون الوثائق التى تحتويها بذات نفع ولو ضئيل ، وسيكون هذا هو الجزاء الأوحد الذى سيعود على بفضل سباحة قرائى .

الدراسة التاسعة

كيف فرّج اليهود من مصر القديمة

تأليف: دى بوا - إيميه

« العنوان الأصلي للدراسة : مذكرة موجزة عن إقامة العبرانيين في مصر ، وعن هروبهم الى الصحراء (١) ، تأليف دى بوا — إيميه مراسل المجمع العلمى الفرنسى ، وعضو شعبة العلوم والفنون بمصر ، وعضو أكاديمية العلوم فى تورينو ، والفارس الحائز على وسلم الشرف »

(١) قدمت هذه الدراسة الى شعبة مصر فى أول أكتوبر عام ١٨١٠ باعتبارها مكملة لدراسة أخرى للمؤلف حول القبائل العربية فى صحراوات مصر ، ثم سحبها المؤلف بعد ذلك ليدخل عليها بعض التعديلات ، وأرسلها الى اللجنة فى أكتوبر ١٨١٣ .

الفصل الأول

مقدمة

اشتهر المصريون ، فى عهدنا بعض ملوكهم ، بمهارتهم فى فنون القتال ؛ كما حازوا شهرة أكبر من ذلك بكثير بفضل حكمة قوانينهم ، واتساع معارفهم ، فلقد ولدت غالبية العلوم والفنون بين أيديهم . وحين قاموا — هم — بتحضير اليونان ، فقد غدوا أساتذة لأوربا .

ولقد اختلفت هذه الأمة الشهيرة ، كما اختلفت مئات الأمم غيرها ، فى حين يظل يعيش حتى اليوم شعب كان عبدا للفراغة ؛ ومع أنه قد بات مشتتا فوق الكرة الأرضية كلها ، خاضعا لكل صنوف الحكومات ، فقد احتفظ بكل عاداته وشرائعه ، ولغته وملامحه ؛ وفى الوقت الذى تجد أقوى الأمم فى أوربا نفسها غير واثقة من أصلها ، وفى حين يجهل الفرنسي الذى انتزع النصر من فونتنوى وفيينا وبرلين وموسكو وروما أن كانت الدماء التى تتدفق فى عروقه هى نفسها التى تتدفق فى عروق أعدائه ، وفى حين لا يعرف أكان أجداده من الفرنج أو من الغاليين ، اكانوا يقطنون ضفاف السين أو التبر أو الدانوب ، فإن أبسط يهودى يتوز ذلك الشيء ، الذى قد يكون مدعاة فخار للمتحكيمن فيه ، أى أنه يمتلك أصلا ينتمى لجنس قديم ؛ أن بإمكانه أن يقول ، سواء كان قد ولد فى بولونيا أو فى أسبانيا ، لقد كان أجدادى يقطنون حقول سوريا وصحراوات مصر فى وقت لم تكن قد وجدت فيه بعد روما ولا أثينا ولا اسبرطة ولا أى من تلك المدن التى تشكل مباهج العصور القديمة وأمجادها .

وتعود هذه الظاهرة السياسية الى قسوة تلك الشرائع والمؤسسات التى أقامها موسى فأنه بعزله شعبه هكذا ، وبشكل تام ، عن بقية البشر ، قد جعل من تشيخته أمرا سهلا ، لكنه فى الوقت نفسه جعل فناءه كذلك

مستحيلا ؛ ان اليهود — منتصرين — لم يستطيعوا (بفعل هذه الأنظمة) ان يجعلوا من قوتهم أقوى من قوى الأمم التى أخضعوها ، أما عندما كانت تحقيق بهم الهزيمة فلم يكن بمقدورهم ان يختلطوا بالمنتصرين .

وتعود غالبية النقائص التى تعاب عليهم اليوم الى حالة الازلال التى انتهوا اليها فى كل مكان ؛ وحيث أنه لا دور لهم فى ادارة شئون الدولة ، كما أنه ليس بمقدورهم ان يملكوا الأراضى ولا أن يتمتعوا بحرية العمل الحقلى ، تلك التى تربى الروح والوجدان ، بل ولأنهم — فوق ذلك — يضطرون لأن يقيموا فى أحياء منفصلة فى داخل المدن ، تغلق عليهم بواباتها كل مساء ، وأن يعيشوا فيها مكسدين بعضهم فوق بعضهم الآخر ، والا يخرطوا فى أى فن شريف ، فلم يعد يتبقى لهم من عمل يقومون به الا ان يشتروا وان يبيعوا ؛ أما الذهب ، ذلك الذى يمنحهم الوسائل لاذلال قاهريهم ، الذهب الذى لا يزال يعطيهم بعض ضروب المتعة ، فمقد بات هو الهدف الوحيد لموحيهم ، وليست هناك شهوة تستطيع أن تتلفه الإنسان فى جسده وروحه أكثر من هذه .

وقد يكون من غير المجدى ان نحاول أن نثبت أن عيوبهم هذه تعود الى شرائعهم وتنظيماتهم ؛ ولنتأمل للحظة المسيحيين الخاضعين لسيطرة الأتراك ؛ فنفس الأسباب قد سربت الى هؤلاء نفس المساوىء ؛ فالإنسان ، ولو كان حرا مليئا بالشجاعة ، ربما يصبح ، مهما تكن الدماء التى تتدفق فى عروقه ، مخائلا ورعديدا حين يصير عبدا مهانا .

وفى البلدان التى تحسن فيها الأفكار والفلسفات ، والديانة البسيطة من قدر اليهود ، ينهض من بينهم — هناك — رجال فضلاء وأدباء متميزون ولقد رأينا فى أيامنا هذه إسرائيليين يقاتلون بعظمة تحت راية فرنسا ،

اذن فعلينا الان نخط من قدر أمة لاتحتاج ، كى تصبح جديرة بالاحترام ، الا لأن نحترم ؛ ودينها فضلا عن ذلك ، هو قاعدة لديننا ؛ وعلمنا الان نثنى بصفة خاصة انها اظهرت وسط المحن والالام خاصية عظيمة ، وانه اذا كان العفو يعد شرفا للقوة فإن المشاعر الرقيقة تكون شرفا للضعف ؛ ونسوق مثلا على ذلك لا ينسى ، لقد تجرأت اورشليم على قتال روما التى كان يرتعد امامها اعلى ملوك الأرض ؛ ثم اقام اليهود المهزومون ، فى روما ،

بأيديهم المسجلة بالقيود الحديدية النصب الضخم وقوس تيتوس * Titus
الذى تخلد نقوشه البازرة ذكرى سقوط المدينة المقدسة ، حسن ، لقد
انقضت حتى اليوم سبعة عشر قرنا لم يمر خلالها مطلقا ، من تحت هذا
القوس الذى يكرس هزيمتهم ، أحد من أحفادهم أولئك الذين ظلوا على
الدوام يحفظون ذكرى هذه الاهانة ؛ وعن طريق منفذ ضيق شقوه لأنفسهم
تريبا من هذا المبنى ، كان اليهود يخرجون من الفورم * Forum
قبل أن تؤدي عمليات الهدم والتنقيب التى تمت هناك الى فتح منافذ اتصال
أخرى .

و ذات يوم ، كنت أتأمل فى هذه النقوش البازرة لهذا القوس ،
شعنا ذا سبعة شعب يزين المسيرة الظاهرة للإمبراطور ، ومر بالقرب
منى رجل عبرانى ؛ تعرفت عليه من تلك الملامح التى لم يستطع أى طقس
أن ينال منها ، واظننى قرأت فى نظراته التى القى بها على هذا المبنى ،
أبيات الشعر هذه ، التى وضعها شاعر كبير :

أى صهيون ، يامن يستحق الرثاء ؛
ماذا صنعت بمجدك ؟
فالعالم كله مأخوذ بعظمتك ؛
أما أنت ؛ فلم تعد سوى غبار ؛
ولم يعد يبقى لنا من هذا المجد ،
الا الذكريات الحزينة ،

« استير ، الفصل الأول ، المشهد الثانى »

وقلت لنفسى ؛ كم من الأسئلة يمكن أن يلقيها هذا العبرانى على ،
لو عرف أننى أقمت بمصر ، وأننى أقمت خيمتى فى أرض جاسان ؛ وعبرت
البحر الأحمر سيرا على قدمى ، وتجولت هنا وهناك ؛ وسرت على غير
هدى فى الصحراوات التى يحيط بها جبلا حوريب وسيناء !

* إمبراطور روما من ٧٩ الى ٨١ ، وكان يطلق عليه اسم « ملاذا
البشر » ، وكان واحدا من الحكام الذين يسعون باخلاص شديد لتخفيف
آلام شعبيهم ، وحين لم تواته الفرصة فى أحد الأيام لتقديم الخير صباح
لقد ضاع يوم من حياته ، وفى عهده حدثت كارثة بركان فيزوف (عام ٧٩)
(المترجم)
(*) ميدان عام فى روما حيث كان الشعب يتجمع ليناقد المسائل
العامة . (المترجم) .

ومع ذلك فأي انسان هو ، مهما تكن معتقداته ، ذلك الذى لن يُهْمَر بأسئلته على رحالة وطئت أقدامه أرض المعجزات والأمجاد هذه ؟ وهل هناك ملاحظة ، ولتكن اصطناعية لآى مدى ، يكون من شأنها أن تعود بنا الى التقليل فى تاريخ الاسرائيليين .. دون أن يستمع اليها الانسان بشغف ؟ وعلى هذا ، فمع يقينى بأن من شأن هذا أن يسترعى كل انتباه ، فسأحكى ما أطلته على عملية التنقيب فى المواقع ، حول اقامة العبرانيين فى أرض جاسان ، وحول هروبهم الى الصحراء ، وستوثب الفائدة من وراء هذا الموضوع من ثنايا ما أحكيه .

عن الأسفار

أسفار موسى هى مجموعة الكتب الخمسة التى خطها موسى ، سفر التكوين ، سفر الخروج ، سفر اللاويين ، سفر العدد ، وسفر التثنية .

وعلى الرغم من التناقضات التى يعتقدها بعض النقاد أنهم قد وجدوها فى هذه الأسفار (٢) ، وعلى الرغم من اختلاف آرائهم حول زمن نشرها ، فإن الجميع مضطرون للاعتراف بأنها أقدم أثر مكتوب قد وصل إلينا ، كما أنهم لا يستطيعون ، مهما تكن طبيعة آرائهم الدينية ، أن يرفضوا مانجده فى هذه الكتب من فائدة كبيرة ترتبط بالتاريخ لشعب كان رعويا جوابا ، ثم زارعا ، ثم جماعة من العبيد ، ثم عاد مرة أخرى الى حالة التجوال ليصبح بعد ذلك غازيا . أن تغيرات شبيهة تستخدم عند التعريف بالجنس البشرى ، لأنها تشكل تاريخه ، فى الوقت الذى تكون فيه تاريخا لشعب بعينه .

(٢) فضلا عن ذلك فما هى غالبية هذه التناقضات التى تم اكتشافها بكثير من الطنطنة والتعذر ؟ بعض أخطاء من الناسخين ، وعدة تفسيرات عارضة هى من اجتهد المترجمين ، ثم لا شئ أكثر ، اليس من الأسهل على سبيل المثال أن نتقبل فكرة أن رجلا ينسخ فى سوريا ، فى غرب الأردن ، نصوص الأسفار ، قد أمكنه أن يضع عبارة فيها أمام هذا النهر فى موضع ما كان مذكورا فى الأصل على أنه الى ماوراء ، وأن يشير الى مقاطعات قديمة بأسمائها الحديثة ، وأن يذكر كذلك أسماء المدن التى أنشئت فيها بعد ذلك ؟

وفى الوقت نفسه ، فاننا عند تصدينا لمادة من هذا النوع ، نحاذر أن نخرج أى رأى : فليقرانا المسيحى واليهودى والمسلم والربانى دون أن يستشعر أى حرج أو اهانة ؛ فلسنا هنا بصدد كتاب دينى ، ولكننا ننظر اليه كوقائع تاريخية ، وجغرافية ، ومبادئ أخلاقية وروحية .

ومع ذلك فلماذا لا يتقبل أولئك الذين يرون أنهم ليسوا فى حاجة الا لعقيدتهم الدينية حتى أنهم يؤمنون ايماناً مطلقاً بكل ما جاء فى الأسفار ، لماذا لا يتقبلون عن طيب خاطر أن هناك بعض الوقائع (التى تروىها هذه الكتب) تعز على التصديق حين تستخدم طرق أخرى للتفكير ؟ أما هؤلاء الذين تدفعهم شكوكهم الى تنحية كل عمل يكتشفون فيه بعضاً من الخطأ ووضعه فى مرتبة الأساطير ، والى النظر الى وقائع بالغة البساطة باعتبارها أموراً مبهمه تكتنفها الشكوك مجرد أنها تختلط — فى نظرهم — بظواهر تنتمى الى ما وراء الطبيعة — لماذا نراهم غاضبين حين يحاول بعض تبديد شئ من شكوكهم ؟ وأما أولئك الذين يتعرفون على الله فى نظام الطبيعة الرائع فلماذا — هم بدورهم فى النهاية — يكابرون ، عن غير حق ، فيعتقدوا أن أسباباً روحية يمكنها أن تمارس تأثيرها على المادة ، وأن الصلوات وأن الدموع تستطيع أن تغير شيئاً ما من نواميس العالم الفيزيقي ؛ ولماذا يسعى هؤلاء الذين لا يمكنهم أن يتقبلوا أن يكون اله الكون شبيهاً بالهة هوميروس ليصارع بدوره فى سبيل أشخاص زائلين أو أمور فانية ، لالقاء الملامة على أبحاثنا ، اذا ما سمعت هذه الأبحاث الى أن تجلو أمامهم تاريخ شعب فريد . وذلك بأن تقدم لهم بعضاً من المعجزات التى ترفضها وتتأبها عقولهم باعتبارها شيئاً من المصادفات السعيدة التى تجود بها ظواهر الطبيعة ؟

عن الرعاية الرجل

لم يجد الإنسان ، فى أكثر مناطق العالم بدائية يمكن أن تصل اليها قدماءه ، أشباهه منعزلين ، بشكل تام ، كل منهم عن الآخرين ؛ لكنه وجدهم مجتمعين فى شكل قبائل تتفاوت أحكامها ؛ واذا لم يكن لدينا فى هذا الصدد من زعم اجماعى مثل ما لدى الرحالة فإن فكرة المائل قد تقودنا فى قضيتنا هذه اذا ما لاحظنا بعناية ما يدور فى عالم الحيوان ، واذا ما قارنا

التنظيم عند هذه الحيوانات بتنظيمنا ، وعاداتنا الطبيعية وخصالنا الروحية والجسدية بميولاتها التي سوف نجدها عند الحيوان .

وتحمل هذه الاعتبارات نفسها ، اذا ما اضيفت الى الشهادات التاريخية ، على الظن بأن الانسان كان صيادا وراعيا قبل أن يكون مزارعا ، وأنه قد ساح في الأرض قبل أن يكون لنفسه فيها مقر ثابتة ، وان الناس في كل مكان خصيب التربة ، رقيق الطقس ، صحو الهواء لدرجة كبيرة ، قد تزايدوا بسرعة هائلة ، بعد أن مروا ، من باب أولى ، من الحالتين الأوليين (الصيد والرعى) الى الثالثة (الزراعة) .

وفي هذه الحالة الجديدة خلق الانسان لنفسه ، وقد أصبح أقل انشغالا بأمور غذائه والدفاع عن نفسه ، احتياجات جديدة ؛ اصطناعية بلا جدال ، لكنه يلذ له أن يفى بها ، فارتقى بالفنون ، وزاد من عددها ، واخترع العلوم ؛ وعندما داخله الزهو من تسامى معارفه بدأ يحتقر جهل المتوحشين (البدائيين) ، ورد الأخير على الاحتقار باحتقار مماثل فذاق الأول ، لأكثر من مرة ، ما تستطيعه القوة والشجاعة ، وليدنى الاستقلال والفخر .

وبسبب هاتين الحالتين بالغت التعارض تولدت أحتداد واضحة وحروب دائمة بين الشعوب الرعوية والشعوب المزارعة . وفوق ذلك ، فلقد ساهم هذا الأمر نفسه في تناقص الأولين لأنهم في حالة انتصارهم يأخذون عادات المهزومين ، ويرغمون — في حالة هزيمتهم — على هجر أنماط حياتهم ؛ وكان يمكن أن يندثر هؤلاء الرعاة — على المدى الطويل — كلية لو لم تكن توجد على ظهر الأرض أقاليم تحولت حولتها ، أو عدم صحتها ، دون تقدم أحوال سكانها ، وحيث لا يستطيع الانسان أن يعيش الا بمعونة القطعان ، مع تغيره المستمر لمكانه ، ولو لم توجد في النهاية أماكن يجد فيها هذا الانسان المأوى الأمين ضد جيوش الأمم بالغة القوة . أما هذه الأماكن ، فلقد كانت ، من بين مناطق أخرى ، صحراوات مصر والجزيرة العربية وسوريا وبلاد ما بين النهرين التي سكنها فيما مضى قبائل العبرانيين ، والتي لا تزال تقطنها حتى اليوم قبائل الرعاة الرحل .

ان الحالة الطبيعية لهذه البلاد لا تقدم جاذبية من أى نوع لقدوم غزوات أجنبية ، كما أنها لا تدع فرصة للاختيار بين عدد كبير من الأنماط.

لا فى طرق المعيشة ولا فى العادات أو العلاقات السياسية لساكنها ؛
أذن فعلى الرء أن يعتر هنا على عادات وتقاليد تاريخ ضارب فى القدم ؛
أن هذا فى الواقع هو ماحدث ، اذ يبدو تاريخ الأسباط القدماء هو نفسه
تاريخ شيوخ العرب فى أيامنا هذه (٢) .

ابراهيم

فى تلك الصحراوات القاحلة التى انتهينا من الحديث عنها تطلعت
عشائر بأسرها الى تلك الفكرة السامية التى تتحدث عن وجود اله
واحد (٤) . وهناك نشأت هذه الديانة التى انتشرت وسادت فى أكبر
جزء من هذا العالم حاملة اسم اليهودية أو المسيحية أو الاسلام بحسب
التعديلات التى تناولتها .

أما فى أقاليم اليونان الزاهية ، على ضفاف نهري روفيا وسيفيزا *
فقد استطاع الانسان أن يعبد ، تحت أسماء فلورا وخيريس وبومونا ،
الطبيعة وقد جعلتها الورود والمحاصيل والثمار ، كما أمكنه ، متمتعاً ببهاج
الفنون الجميلة ، أن يتضرع اليها باسم منيرفا أو أبوللو ، أما فى قبرص
المعطرة وأيونيا الرخوة ، وسط أجواء تحمل النفس الى الدعة فقد يعبد

(٣) أنظر دراستى عن القبائل العربية فى صحراوات مصر ، الدولة
الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٧٧ (الدراسة السابقة من هذا المجلد) ؟
لكننى أكتفى بأن أضيف هنا الى القائمة التى قدمتها عن بعض العادات
الشائعة عند الشعبين ، عادة تمزيق هؤلاء وأولئك للابسهم واهالة
التراب على وجوههم علامة على الحزن الشديد .

(٤) تقدم لنا القبائل العربية التى أخذت على عاتقها ، بعد أن
تجمعت فى شكل دولة تحمل اسم الوهابيين ، أن تقوم وأن تنقى الدين
الاسلامى (من الشوائب التى شئبته) ، برهانا جديدا لما نقوله الآن ؛
فلقد توصل هؤلاء الرجال الخشنون ، فى بساطتهم هذه ، الى نفس نقطة
المعتقد الدينى الذى توصل اليه غالبية الرجال المتحضرين فى أرقى أهم
الأرض ، أى الألوهية الخالصة ؛ فالوهابيون لا يدعون لله شريكا قط ،
ولا يبتهلون الا اليه ؛ أما محمد وموسى والمسيح فليسوا بالنسبة لهم سوى
حكماء (أنبياء) ، أما الأمجاد الدينية التى يردّها الناس الى هؤلاء
(وقد يعنى هنا التوسل بهم مثلا ، أو تعظيمهم — المترجم) فليست
فى نظر هؤلاء الوهابيين سوى وثنية ،

(المترجم)

* فى البلوبونيز

فى قسّمات وملامح أجمل النساء اللذة البنى تجر الى جنس يسحر الالباب،
وحيث كان يحصل على مباهجه بمئات الطرق فقد كان يجد فى كل بهجة
الها محسناً مختلفاً .

وتحت سماء أقل حظاً أمكن أهالى تراقيا ، كما استطاع الجرمانيون،
الذين كانوا هؤلاء وأولئك قد تعودوا فى صيدهم وحروبهم الدائمة
على سفع دماء فرائسهم أو نظرائهم ، كل يوم ، أن يجدوا مقر رب الحرب
فى هذه الغابات المعتمة التى تبدو همهمة الريح فيها كما لو كانت صيحات
شاكية تتوجع من الآلام .

لكن ، أكان شعب رعوى ، يضرب فى سهول فسيحة من الرمال ،
بمستطیع أن يعبد الأرض مع خواصه العديدة وأحداثه المتنوعة فى حين
كانت تبدو الأرض بالنسبة له شحيحة للغاية وإحادية الشكل ؟ أكان
بوسعه ، وهو يجهل ترف الفنون أن يؤله خالقها (أى مظاهر الطبيعة
التي تؤدى الى نشأتها) ؟ وفى الوقت نفسه الذى نجد فيه انسانيا
ورقيقا ، يعيش على لبن قطعانه ، أكان فى مقدوره أن يعبد اله الحرب
شأنه شأن المتوحش الذى لا يلجأ الا لقوته عندما تجابهه مخاطر الأيام ،
والذى يتغذى على لحم ينبض (بالحياة) ويروى غلته بالدماء ؟ كلا ، وانما
النجوم وحدها هى التى تبعث على اعجابه : فالشمس التى تحبى وتوقظ
المخلوقات هى التى تعطى القوة لأجسامهم كما تنشط أفكارهم ؛ هكذا تأله
القمر وتألهت النجوم التى تضيء ليالى الصحراء ، تلك الليالى الممتعة للغاية
بعد حرارة النهار الملهبة ؛ وديانة كهذه كانت اقرب بكثير من أية ديانة أخرى
لكى تسبو بالانسان حتى يدرك الكائن الأسمى .

وفى واقع الأمر ، فكل شئ فى السماء لا نهائى ، يشملته نظام يدعو
الى الاعجاب ويبدو بوضوح للوهلة الأولى ؛ أما هنا على الأرض فكل
شئ محدود ، يبدو وكأنه متروك لقدر أعمى ، هنا البحر ، والأرض ،
والهواء ، والظواهر التى تصدر عنها والتى لا يمكن للمرء أن يتنبأ بها؛ و
ضروب الجمال فى الريف ، وفنون المدن ، والشهوات الانسانية فهذه كلها
أمور محددة ومتميزة لحد يكون من العسير معه عليها أن تولد فكرة السبب
الأوحد ، محرك الكون : وعلى العكس من ذلك ، فان مراقبة النجوم تكشف

التشابه القائم بينها على أوسع نطاق ، وسرعان ماتبدو حركتها المنتظمة التي تخلع النقلاب عن مواضعها نتيجة لارادة عليا ، ودائمة .

اذن فقد كانت الآلهة التي اصطنعها الانسان لنفسه حين ثبت عينيه على الأرض اما طيبة واما شريرة ، تدعو الى المحبة او تبعث على الأسيء، لكنها كانت على الدوام متعددة كذلك كانت سلطتها محددة ، أما حين رفع الانسان بصره نحو السماء ، فقد اهتدى الى اله واحد ، لا نهاية لقوته وحكمته : فكرة سامية ، وهى حين تضع كل البشر على مسافة متساوية من الكائن الأسمى ، فانما تجعل من العبد المكبل بالأغلال حرا ، مالم تكن الخرافة والعبودية قد امتهنتا بعد ، وبالدرجة الكافية ، روحه حتى ليرى فى أولئك الذين يزعمون لأنفسهم أنهم سادته ، صورة من الرب .

أما ابرام ، ابراهيم او ابراهيم ، كما شاء الناس أن يسموه ، فيبدو انه هو الذى بشر ، بأكبر قدر من الحماسة عرفته العرب ، بوجود اله واحد ، ليجعل عبادته تحل محل عبادة النجوم (٥)؛ ولقد كان المجد الخالد هو جزاء هذا الصنيع الطيب ؛ ففى حين لاتكاد تعرف اليوم ، اللهم الا لأشخاص معدودين ، أسماء مثل انيلا * وجنكيز خان ، وكل أولئك الملوك الذين ظنوا أنهم قد ملئوا العالم بأسمائهم ، فان راعيا صحراويا بسيطا ظل موضع تقديس من كل شعوب الأرض برغم كل القسرون التي انقضت منذ تحول جسده الى رماد ؛ فالطفل الذى يبدأ فى تعلم القراءة يتأثر بالفعل اسمه ، كما أن المسيحى واليهودى والمسلم يطلقون على الاله الذى يعبدونه اسم رب ابراهيم ، صحيح ان بعض العلماء النابيهين يعتقدون أن غالبية

(٥) كانت بعض القبائل بالفعل تعبد « العلى » ومن بينها شعب شاليم (سفر التكوين ، الاصحاح ١٤) ، وان كان ابراهيم قد أعطى روعة خاصة لهذه العقيدة ، عندما خلصها من كل ما كان من شأنه أن يشوه بساطتها .

* انيلا ملك الهون الذى انتصر فى عام ٤١٥ على أباطرة المشرق والمغرب ودمر بلاد الغال (وهى المنطقة المحيطة بجبال الألب وتشمل شمال ايطاليا والبلاد الواقعة بين جبال الألب والبرانس وبين المحيط ونهر الرين ، وكانت تسكنها شعوب كثيرة مقاتلة) ولكنه لقى الهزيمة فى سهول قطالونيا عام ٤٥١ بالقرب من شالون ومات على ضفاف الدانوب عام ٤٥٣ (المترجم)

(م ٢١ - وصف مصر)

الشخصيات الشهيرة في الأزمنة البطولية ؛ الألسيد والجازون * وحتى ابراهيم وموسى والمسيح نفسه هم كائنات مجازية ، لا يرون في تاريخها الا تاريخ الأجرام السماوية ، ومهما يكن حظ افتراضاتهم هذه من الحذق فليس بمقدورنا ان نقبلها لأنها تبدو لنا متعارضة مع مسيرة العقل الانساني ، ومع ما نلمسه نحن كل يوم ، لقد كانت للانسان أساطيره قبل ان تكون له علاقة بعلم الفلك . بل ان ما حدث ، في معظم الأحيان ، هو ان النجوم ومجموعات النجوم كانت تسمى ، ولا تزال ، بأسماء تذكر بأحداث تمت على الأرض ، وفي النهاية ، فان الانسان حين يؤله كائنات بسيطة فانية ، ويغطي فعالها بقناع من الرمز ، حين ينسب اليها أعمالا لا يمكنها ان تتحقق الا على يد الطبيعة ذاتها وتلك نتيجة للمصادفة الدينية (ما يؤدي اليه الدين من قابلية خاصة للتصديق أو الايمان) ، تلك التي تسهب أو تضخم من أفعال البشر الذين تجعل منهم آلهة أو أولياء أو أنبياء وتنسب الي مقدرتهم أو الى وساطتهم عددا كبيرا من الأحداث المتخيلة أو الحقيقية .

لقد اختلطت الخرافات بالتاريخ في كل مكان ، فلقد راقت الأعجوبة للبشر على الدوام ، ولسوف تظل تغريهم الى الأبد ، ولدينا كل يوم الوف الأمثلة على ذلك . فلنتعلم كيف ننحيا بحكمة عن كل رواية ، ولكن لنحذر في الوقت نفسه من أن نقع في تطرف آخر ، مقابل ، بأن ننكر في رعونة بالغة الوقائع التي تختلط بأحداث خارقة ، وماذا نقول في هذا الذي يخلص من رفضه أن يصدق أن راية الصليب قد ظهرت في الأجواء عندما زحف قسطنطين ضد ماكرايس * * ان هذين الحاكمين لم يوجدوا على

* Les Alcides ، أحماد هيرقل ، و Les Jasons هم أبناء جازون ابن ايزون ملك يولكوس Iolcos ؛ وكان جازون قد قاد أبطال الأغرقيق (الأرجوتوت) للحصول على جزات الذهب من كولشيد ، وهناك أحبته ميديا ابنة ملك كولشيد الساحرة وهربت معه وتزوجها ، لكنه هجرها ليتزوج من خريوس ابنة سبزييف ، وانتقام ميديا لنفسها بأن عملت على دمار سبزييف وخريوس وطفليها . (المترجم)

* * * ماكرايس هو امبراطور روما من عام ٣٠٦ الى ٣١٢ وقد غرق في نهر التير بعد أن منى بالهزيمة عند أسوار روما على يد قوات قسطنطين الأول امبراطور روما من ٣٠٦ الى ٣٣٧ ؛ وأدى انتصار الأخير الى انتاعه بضرورة جعل المسيحية دينا رسميا للإمبراطورية ، ثم أصدر في عام ٣١٣ مراسيم ميلانو التي تنص على حرية العقيدة الدينية ، ثم نقل عاصمته الى بيزنطة (القسطنطينية) ، (المترجم)

الاطلاق؟ أما عن إبراهيم، فإن ما يحول بصفة خاصة دون أن ننظر إليه باعتباره مخلوقاً رمزياً يمكن أن يرمز حسب فكرة قديمة عن نشأة الكون إلى بعض خواص المادة أو بعض خصوصيات الذكاء الأسمى، هو أنه لم يحدث أن اتخذ منه أحد في أي مكان على الإطلاق لها أو واحداً من سلالة الهة، ورغم أن زهو كثير من الشعوب كان شغوفاً بذلك، ورغم أن عبادة الأوثان التي انغمسوا فيها كانت تحبذ مثل هذه الفكرة؛ وأخيراً فإن اسم إبراهيم قد جذب إلى مكة، منذ زمان ضارب في القدم، شعوب الجزيرة العربية، فقتبر محمد نفسه في المدينة ليس بالنسبة للمسلمين أنفسهم سوى شيء ثانوي في طقوس الحج بالمقارنة مع الكعبة، فهذا (المعبد) في رأي العرب، هو أول بيت رفع للناس لعبادة الإله الحق، وهم ينسبون بناءه إلى إبراهيم وإسماعيل، ويبدو أن ديودور الصقلي كان على معرفة به عندما يذكر أنه «يوجد على شاطئ البحر الأحمر معبد شهير يقدسه كل العرب» (١). وحين أبطل محمد عبادة النجوم، وأزال الأوثان (٢).

(٦) Biblioth. hist. lib III.

(٧) كان الحجر الأسود، وينتظمه اليوم جدار في إحدى زوايا الكعبة، هو الوثن الوحيد (كذا!) من أوثان الكعبة الذي حظى باحترام محمد، وسبب ذلك بلا ريب هو أن هذا الحجر لم يكن يجسد أي شكل إنساني أو حيواني، ومن المحتمل أن يكون هذا الحجر الخام أو غير المصقول كان مخصصاً — قبل مجيء العقيدة الإسلامية — لعبادة الشمس ومن المعروف أن للشمس كانت تعبد في سوريا على هذه الصورة، وأن روما قد شهدت في عصر هليوجابال حجراً أسود بسيطاً يتصدره إلهة إيطاليا واليونان التي كانت تحسد في أعظم أعمال النحت، فوق جبال بالاتان. وقد يكون من المنير أن نبحت عن الدافع الذي قد يكون وراء عبادة أرواح النجوم وأكثرها بريفاً ولعناً في أكثر الأشكال خشونة وأكثر الألوان قتامة؛ فلعل هذه الأحجار كانت نيازك سماوية، وبهذا يكون الناس قد تصوروا أن كرة ملتهبة تهبط من السماء تصبح ضجة مفزعة لأبد أن تكون قطعة من الشمس ولابد كذلك أن تنال الاحترام والولاء من البشر الفانيين؛ وبالمثل فإنهم قد رمزوا بها في كثير من الأديان إلى الأشياء بالغة الحقايرة والدناءة عندما يظنون أن هذه الأشياء تنتمي إلى الهة أو قديس.

التي أقامها الناس لها بين جدران الكعبة المقدسة ، فقد احترم الأثر القديم الخاص بهذين الأبوين ؛ كما كرس القرآن عملية الحج القديم الى مكة تخليدا لاسميهما القديمين والمقدسين ، ولعله قد تم كذلك بقصد سياسى يهدف الى ربط الأمم التي ستدين للإسلام عن طريق هذه التجمعات المهيبة؛ فجعل القرآن من الحج فريضة دينية على كل مسلم .

كذلك كان العبرانيون ينظرون لإبراهيم باعتباره زعيما لجنسهم ، وهو مايتطابق مع شهادة العرب الذين يشكل العبرانيون ، فى رأينا ، واحدة من أقدم قبائلهم (٨) . وتتباهى أهم كثيرة فى الشرق ، فى الحقيقة،

= ولا يزال حجر الكعبة (الأسود) حتى اليوم موضع تقديس من جانب المتعدين المسلمين ، فعلى الحجاج أن يطوفوا به سبع مرات ؛ أما أولئك الذين لا يستطيعون أن يقبلوه فبجاهدون كى يلمسوه باليد على الأقل ؛ وهو من بين كل « الأحجار » المعروفة أكثرها قدما أكثرها حظا من التبجيل والاحترام .

تعقيب : بنهار زعم المؤلف من أساسه اذا مااستعدنا قصة إعادة بناء الكعبة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد تم ذلك قبل بعثه بالرسالة ، وعلى يد قبائل قريش مجتمعة وبادر الرسول الكريم بوضع الحجر فى مكانه حسما للخلاف بين هذه القبائل .. الى آخر القصة المعروفة ، أما ازالة الأوثان فلم يتيسر للرسول (ص) الا فى العام الثامن من الهجرة . عند فتحه لمكة ، ولم يكن الحجر الأسود أحد هذه الأوثان كما يزعم المؤلف الذى تبدو معلوماته عن الاسلام وتاريخه باللغة القصور . والقصة الحقيقية للحجر الأسود ، كما فسر لى أحد العلماء الاجلاء، هو أنه حجر أسود بين أحجار بيضاء . وانه يحدد بدء الطواف بالكعبة وييسر بالتالى تعداد مرات الطواف بدقة ، وهذا شرط أساسى فى مناسك الحج .

(المترجم)

٨- نجد فى التوراة ان غالبية العشائر الرحل التي كانت تقطن صحراوات سوريا والجزيرة العربية سواء كانت تنتمى الى اسماعيل أو الى عيسو ، كانت تشترك فى أصلها مع العبريين أو كانت تتحد معهم برباط الدم ، ولا تزال تشهد شيطان الفرات ، كما شهدت شواطئ النيل والأردن ، حتى يومنا هذا قبائل من الرحل يعرفون بهذا الاسم النوعى : العرب البدو ، ويحيون على وجه الدقة نفس حياة الأسباط أو العشائر الأول ؛ ومع ولأن العبرانيين قد سكنوا جزءا من أرض السكلاانيين يعدون من السكلاان كما أن البدو الذين أشرنا اليهم للتو ليسو فرسا ولا مصريين ولا سوريين ؛ فضلا عن ذلك ، فلا يهمننا كثيرا أن نعرف ما ان كان العبرانيين هم من نسل العرب أو كان العرب هم الذين جاءوا من أصلا ب اليهود ؛ وكفيينا ان نعرف أن لهم أصلا مشتركا ، وتقاليده وعادات متشابهة .

بان ابراهيم هو واحد من اجدادها ؛ واذا نحينا جانبا الراى القائل بأن هذه الشخصية ، لهذا السبب ، لم توجد قط ، كما عبر عن ذلك بعض المؤلفين ، فاننا نرى فيه ، على العكس من ذلك ، شهادة على شهرة لم تكن لتنتشر قط عند الكثير من الأمم لو لم يكن لها من أساس واقعى ؛ فلتقد تنازعت مدن كثيرة على شرف انتساب هوميروس بمولده اليها ، فهل يمكن القول بأن هذا الشاعر ، لهذا السبب ، لم يكن موجودا قط ؟ من ذا الذى لايعرف زهو وخيلاء البشر ؟ والشعوب ، مثلها مثل الأفراد بصفة خاصة ، يهتبلون بنهم واضح أثل الشواهد احتمالا لبلاوغ اصل قديم ضارب فى القدم ، وبعد أن ينجحوا فى خداع الغير ينتهى بهم الأمر أن يخدعوا انفسهم ؛ والخطأ الذى يحظى بالاعجاب سرعان ما لا يعد بعد خطأ .

ويتطابق تاريخ ابراهيم كما قرأناه فى كتب العبرانيين ، فى نقاطه الأساسية ، مع كتابات المؤلفين العرب والفرس . ومع ذلك ففى حين يقدم سفر التكوين لوحة ساذجة وأمينة عن حياة أحد مشايخ الصحراء ، فان هؤلاء المؤلفين قد خلطوا ذلك بأساطير تجافى العقل ؛ وهكذا نجد ابراهيم ، طبقا لأقوالهم ، قد رفض حين جاء الى الدنيا صدر امه ووجد فى أصابعه هو غذاء ربانيا . فمن أحد أصابعه كان يتدفق اللبن ومن أصبع آخر تدفق العسل ؛ وعندما بلغ شهره الخامس عشر كانت له قامة رجل يبلغ من العمر خمسة عشر عاما ، وحكمة ومعرفة رجل ناضج ؛ وحين أصبح ملاذا للفقراء واستنفذ مخازن حبوبه بفعل الصدقات الكثيرة التى كان يقدمها تحول الرمل من أجله الى دقيق ؛ وقد أمره الله أن يأخذ أربعة من الطير وأن يمزقها اربا وأن يوزع هذه الأشلاء فوق أربعة جبال وأن يناديها فتجمعت أشلاء الطيور على صوته وطارت نحوه ؛ وحين ألقى به فى لهيب متقد فقد لاطفته النار بدلا من أن تلتهمه ❀ .

ومع ذلك فوسط هذه الحكايات الطفلية ، الصبائية بخيالها الفاسد لدى الشرقيين ، فهناك نص يتميز بنبل وبساطته وسمو العقيدة التى يكرسها جاء فيه : « وبينما كان ابراهيم يمشى مع أبيه اثناء الليل ، وهو بعد طفل ،

❀ يلاحظ القارئ ولا بد أننا بازاء كاتب يرفض فكرة المعجزة تماما ، وهو على هذا الأساس يرفض الأخذ بكثير مما نعده نحن من المسلمات . (المترجم)

رأى فى السماء نجوماً من بينها ، مع نجوم أخرى كوكب الزهرة الذى كان يعبده كثيرون ، وتفكر ! قد يكون هذا هو الرب سيد العالم ، ولكن بعد بعض من الوقت والروية قال لنفسه : أرى هذا النجم يغرب ويختفى ، فلا يكون هذا اذن هو مدبر الكون ، ونظر كذلك للقمر فى تمامه ثم قال : لعل هذا هو خالق كل شيء وهو نتيجة لذلك ربى ، ولكنه عندما رآه ينزل عند الأبق مثل الكواكب الأخرى أصدر عليه الحكم نفسه . وبعد أن مكف على التأمل والتفكير بنية الليل بطوله ، وجد نفسه بالقرب من بابل عند شروق الشمس ، ووجد أعداداً لا حصر لها من الناس كانوا يعبدون هذا النجم ويسجدون له مما جعله يقول : هذا كائن يبعث ولا يبد على الاعجاب وسأخذ منه خالقاً وسيدا لكل الكون ؛ ولكنى تبين أنى ينحدر ويتخذ طريق الغروب كما تفعل النجوم الأخرى ، ليست الشمس اذن خالقي ولا الهى ولا ربى . وبعد ذلك رأى ابراهيم النمرود جالسا على عرش بالغ الارتفاع وحوله يصطف ، وفقاً لأمرهم ، فرقة من العبيد رائعى الشكل من هذا الجنس وذاك ، وسأل ابراهيم على الفور : من هذا الشخص الذى يعلو الآخرين على هذا النحو ، فأجابه والده : هذا هو رب كل الذين تراهم محيطين به وكل هؤلاء القوم يرون فيه ربهم . وعندئذ تأمل ابراهيم النمرود ، وكان بالغ القبح وقال لهم : كيف يمكن أن يكون هذا الذى تدعونه ربكم قد صنع مخلوقات تفوقه فى جمالها ؟ وكانت هذه هى المرة الأولى التى بدأ فيها ابراهيم يسعى كى يحرر أباه من أوهام الوثنية ، ويدعوه الى وحدانية الله خالق كل شيء . ٨

الفصل الثاني

عن العبرانيين حتى عصر دخولهم مصر (١٠)

كان العبرانيون في أقدم مراحل تاريخهم ، يشكلون جزءا من هذه الشعوب الجوبة التي - على الرغم من كونها ذات أسماء مختلفة ، ومع عادات وتقاليد متشابهة - لم تكن تكف عن الاستحواذ على بعض مناطق فيما بين الفرات والنيل .

وهم يستمدون اسمهم من عابر ، وهو اسم أحد أجداد إبراهيم ؛ وقد ظلت عادة اتخاذ اسم أحد رؤساء القوم القدامى وخلعه على الأبناء شائعة لدى العرب المحدثين .

وحيث كان هؤلاء العبرانيون قد انغمسوا ، شأنهم شأن البدو ، في الحياة الرعوية ، وكونوا مثلهم منشآت زراعية قليلة الدوام ، فقد تركوا أرض كلدان كي يمشوا الى منطقة من أرض ما بين النهرين تابعة لسوريا ؛ وكانوا في ذلك الوقت وثنيين ؛ وكان تارح ، والد إبراهيم ، من ناحور وأران ، على رأس قبائلهم . وعند موته انقسم القوم : فظل بعض فيما بين النهرين تحت حكم ناحور ، وواصل الآخرون مسيرتهم الى ما وراء الفرات ، إبراهيم ولوط ، ولدا أران ، وتكرر حدوث انقسامات مماثلة عند الشعوب الرحل ؛ ونستطيع هنا أن نلحق بالأسباب التي حثمت حدوث الانقسامات هناك تلك الديانة الجديدة التي كان قد بشر بها إبراهيم . وهي ديانة لم يتبنها في الواقع أولئك العبرانيون الذين ظلوا في

(١٠) نرجو من الذين سيقراؤنا ألا يغيب عن ناظرهم مطلقا أننا لسنا هنا بصدد أن نبرهن على أن هذا الرجل أو ذاك قد وجد ، أو أن هذا الحدث أو ذاك قد وقع في حقيقة الأمر ، ولكننا نريد أن نقول فقط أنه من المحتمل ، أو على الأقل ، من الممكن أن تكون الأمور قد جاءت على هذا النحو الذي نسوقه نحن .

ببلاد ما بين النهرين . وقد أشار سفر التكوين الى هذا الدافع الذى يكمن وراء الانقسام ، اذ نرى فى هذا السفر أن ابراهيم قد انفصل عن أخيه (١١) حتى يستجيب لوحى مقدس . وفى هذا تتطابق التقاليد العربية والفارسية ، وطبقا لذلك فقد حدث أن ابراهيم ، كى يحافظ على عقيدته وينأى بها عن اضطهادات الوثنيين ، قد انسحب الى جوف الصحراء . ومع ذلك فقد ظل يسيطر هذا الوفاق الأفضل بين القبائل التى انقسمت على هذا النحو ، ويكفى للتدليل على ذلك زواج ابن ابراهيم (اسحاق) من (رفقة) بنت بتوئيل بن ناحور ، وزواج يعقوب من بنات لايان بن بتوئيل (١٢) .

وتقدم ابراهيم فى البداية نحو الجنوب عبر أرض السوريين ، وبعد ذلك دخل مصر ثم عاد الى سوريا . وهناك انفصل عن (لوط) ابن أخيه ، وبعد مرور وقت قصير انتزعه من أيدي أعدائه (أعداء لوط) ، وينظر بعض الكتاب الى المعركة التى شنها ابراهيم فى هذه المناسبة باعتبارها عارية من أى ترجيح ، وبرغم ذلك فليس فى هذا الأمر ما يمكن أن يهدد خارقا بالنسبة لشخص عبر صحراوات سوريا وعرف تقاليد الشعوب التى تقطنها . وفى واقع الأمر فإن ما هو أكثر من ذلك طبيعة — أى أنه أمر عادى للنسابة — أن نرى رؤساء أو ملوكا أمثال ملوك ورؤساء شنعار وعيلام والاسار (بشده على اللام) وجوبيم يشنون الحرب على ملوك سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم وبالع (أو صوغر) . وهذه الأسماء الأخيرة هى أسماء مدن ذائعة الشهرة ويمكن الظن بأن الأسماء الأخرى تشير الى بعض قصائل من الفرق الآشورية تقيم بين أربعة شعوب تخضع على الدوام لهذه الإمبراطورية (الآشورية) ، كان شيوخ المدن والقرى والقبائل يتحاربون فيما بينهم ؛ وكان شيخ فريق ما من البدو يعيش لأكثر من مرة فى حياته فى حالة حرب مع سلطان إمبراطورية الترك القوية ، ومع

(١١) « وقال الرب لابرام أذهب من أرضك وعشيرتك ، ومن بيت أبك الى الأرض التى أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك . وتكون بركة وأبارك مباركك ولاعذك العنه » سفر التكوين الأصحاح الثانى عشر .

(١٢) توجد عند العرب البدو هذه العادة نفسها ، عادة تفصيل الأصهار على أشخاص من العائلة نفسها .

ذلك ، فهما تكن قوة الأمراء الذين اخضعوا البنتابول الأردني (١٣) ، فقد استطاع ابراهيم ، باتحاده مع ثلاثة من مشايخ الصحراء هم عائر واشكول وممرا الأموري أن يفاجيء وأن يلحق الهزيمة بالمنتصرين . ويقدم لنا النسايرخ عددا لا حصر له من أحداث ومسابهة ؛ فقد استطاع خالد ، على رأس ثلاثة آلاف عربى أن يحطم ويشنت فى عصر هرقل وبعد معركة من أشد معارك النسايرخ بأسا وعنادا جيشا يتكون من عشرين الفا من الرجال من خيرة جيوش الامبراطورية (الرومانية) ؛ واستطاع على بك ضاهر فى عصر اقرب ، بضمسمائة من البدو أن يلحق الهزيمة بخمسة وعشرين الفا من الدروز ؛ وعلى ضفاف الأردن ، عند سفح تل طابور ، شنت ٥٠٠ را جندى فرنسى بقيادة كليبر Kleber ، أمامهم جيشا « يفهمى الى مائة شعب مختلف » كما يقول أهل البلاد « ويساوى فى عدده نجوم السماء ورمال البحر » (١٤) .

وفى الحقيقة فان اسم ملك الذى تمنحه التوراة لرئيس مدينة بمفردها أو شيخ قبيلة واحدة قد أمكنه أن يتوج قصة انتصار ابراهام بهائلة مبهرة ، فنحن ننسب لهذه الكلمة معنى المقدرة العظيمة (والملك الشاسع) ، لكن الكلمات نفسها لاتعنى فى كل الأحوال الأشياء نفسها ، وتظل معانيها تتغير فى مختلف البلدان ؛ فشيوخ بضعة الوف من الرجال فى الشرق قد يتسمى باسم أمير الأمراء (أو ملك الملوك) ؛ وفى حين أن لقب ملك هو مانطلقه نحن على لويس الرابع عشر أو بطل ترموفيل Thermophyles

(١٣) منطقة خماسية المدن (أى بها خمس مدن) ، ويطلق اسم البنتابول على العديد من تجمعات مدن مماثلة ، ويتكون البنتابول الأردني من مدن : سدوم ، عمورة ، أدمة ، صبوييم ، بالع (التى هى صوغر كما تذكر التوراة) .

(١٤) قدر هذا الجيش بنحو خمسين الف رجل أكثرهم من الفرس . إذ أو الأبواب الحارة ، مهر شهير فى تساليا ، حاول عنده ليونيداس الأسبرطى ومعه ثلاثمائة من الأسبرطيين أن يوقف جيش الفرس بقيادة كسر كسيس ؛ وحيث لم يتخيل الأخير أن هذه الحفنة من الرجال تعجز حقا أن تقطع عليه الطريق فقد كتب الى ليونيداس رسالة لاتضم الا هاتين الكلمتين : « سلم اسلحتك » فكتب اليه الأسبرطى تحت كلماته « تعال خذها » ؛ ولكن أحد الخونة أرشد الفرس الى مهر وسط الأعراس يسمح لهم بالاحاطة بالجبل الذى كان يتحصن فيه ليونيداس ؛ وحين تبين الأخير أن من المستحيل عليه أن يتفادى الموت ، دعا رفاته الى وجبة طعام متقشفة ثم قال لهم « فى هذه الليلة سننتشى عند بلوتون اله الموتى » . (المترجم)

فأثنه يخلع في الساحل الأفريقي على رئيس بضع ضياع صغيرة من ضيعات الزنوج ؛ وبالمثل فقد تلقى شيشرون التحية من الفرق العسكرية التي أطلقت عليه لقب امبراطور بعد حملته على صقلية ، ومع ذلك فليس هناك من يخلط بين سطوة هذا المواطن الفاضل وبين القوة الغاشمة لأولئك الطفلة الذين رفعوا عروشهم عالية فوق أنقاض جمهورية روما .

وبعد أن خلص ابراهيم لوطا ، عاد الى بلوطات ممرا الأمور ؛ وقد حدث بعد سنوات عديدة من الوقت الذي حددته التوراة لدمار سدوم وعمورة الذي ربما قد تسبب في حدوثه صاعقة رعد أو ثورة بركان .

وتتطابق الرواية التي تحكى إقامة ابراهيم بعد ذلك في أرض أبيمالك ملك الفلسطينيين وما قدمه اليه هذا الزعيم العبراني من ثيران وماز ، مع ما يحدث في أيامنا هذه عندما تريد قبائل جوبة أن تقيم في أرض لا تملكها .

وتد خلف ابراهيم أبناء عديدين أشهرهم اسماعيل واسحق . وند أصبح الأول بفعل جسارته زعيما لقبائل عديدة تشكل اليوم الأمة العربية، وحملت في ذلك الوقت طبقا لتقاليد الصحراوات اسمه وتنادوا باعتباره ابنائه (١٥) ، أما الثاني فقد أعقب والده ، وترجع جولانه وحروبه وتحالفاته وأخيرا سيرة حياته الى الوجود الخاص والسياسي لزعيم من زعماء البدو .

وبعد موت أسحق، انفصل ولداه يعقوب وعيسو، وتسمت القبائل التي أتبعته الأخير بعد ذلك (أو نسله كما تذكر التوراة) اسم الأدويين ؛ أما يعقوب فقد استحوذ على الجزء الأكبر من ميراث أبيه ، وتسمى الرعاة الذين ظلوا محيطين به ، وبشكل نهائي، باسم العبرانيين أو الاسرائيليين . وتجيء التسمية الأخيرة من اسراييل ، وهي الكنية التي كان يحملها يعقوب منذ عودته من بلاد ما بين النهرين .

(١٥) انظر دراستنا عن القبائل العربية في صحراوات مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٨٠ (وهي الدراسة السابقة من هذا المجلد) .

وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا ، أشهرهم يوسف ، ولن استعيد هنا قصته المؤثرة ، فكل الناس يعرفونها ، ويعرفون أنها تعبر بشكل تام عن تقاليد وعادات شعوب الشرق . وفيما بعد أصبحت أسماء ولديه وأخوته تشير الى اسباط بنى اسرائيل .

كان يعقوب قد أصبح شيخا كبيرا حين الجأته المجاعة الى ترك ضواحي بير سبع والذهاب الى مصر حيث حصل من فرعون على اذن بأن يستقر في أرض جاسان .

وكانت أسرة ملوك الرعاة تشغل في ذلك الوقت عرش مصر ؛ ونعتقد أننا نجد الدليل على نجاة الحق والتطير للذين كان يمكن أن يستعمرها الحكام من العنصر المصري بالنسبة لرعاة القطعان -- في الرحيب الذي لفيه ابراهيم من قبل ، وفي تنشئة يوسف - وبالسماح ليعقوب وابنائهم بالاقامة في مصر . ١٦

(١٦) مائيتون ؛ يوسيفوس ، رد على ابيون ، الكتاب الأول ، الفصل الخامس .

وقد كان مائيتون مصرياً من طبقة الكهان ، وكان يشغل منصب كبير كهنة هليوبوليس والحافظ للأرشيف المقدس ، عندما كتب تاريخ مصر ، ويبدو لنا مؤلف كهذا أنه يستحق على أقل تقدير نفس القدر من الثقة التي تحظى به مؤلفات هيروت وديودور ، برغم قدمها ؛ فهما تكن المجاملة التي أبداها السكبان المصريون نحو هيروت كبيرة ، فان المعلومات التي جمعها منهم عن تاريخ مصر لا يمكنها أن تقارن بمؤلف مستند مباشرة من المخطوطات الأصلية عن طريق رجل يستطيع ، حيث هو موكل بحفظها ، أن يقارن بينها وأن يرجع اليها وأن يدرسها بعناية دون أن يكون في عجلة من أمره ، شأن مسافر متسرع يريد أن يعرف كل شيء عن البلد الذي يجتازه ، تاريخه ، فلسفته ، عاداته ، جغرافيته ، تاريخه الطبيعي . الخ .

ويتهم المسيو لارشيه Larchet المترجم الضليع لهيرودوت ، مدفوعاً بشعور من عاطفة تشجيع عند رجل يتجاوز دوره كترجم ، يتهم مائيتون بالجهل في كل مرة لا يكون فيها هذا المؤرخ على وفاق مع هيروت ؛ دون أن يسترعى انتباهه أن مائيتون كان يعرف مؤلفات هذا الأخير ، وأنه اكتشف فيها أخطاء عديدة ، وأنه بهذه الطريقة على الأقل لم يتعد عما جاء بها بسبب جهله . وأخيراً فان المسيو لارشيه ينسب معرفة اللغة المصرية القديمة لمواطن من هاليكارناس وينكرها على كبير كهان هليوبوليس ؛ ويعطى هذا الحق لأول لأن هذا الرحالة يقرر أن الكهنة

وسوف تساعدنا هذه الملاحظة على تعويض النقص الخطير الذى نجده فى الكتب المقدسة منذ موت يوسف وحتى مولد موسى ؛ وان كان لابد لنا أن نحاول فى هذه اللحظة السريعة حول نشأة وسقوط أسرة الملوك الرعاة فى مصر ، أن نلقى بصيصا من الضوء على هذا الجزء القديم من تاريخ العبرانيين .

عن فتح مصر على يد الرعاة ، وعن العبرانيين

منذ وفاة يوسف حتى هروبهم الى الصحراء

نتم هجرات الشعوب فى معظم الأحيان فرارا من عدو يحمل اليها معه القيود ، أكثر مما تتم سعيا وراء مناخ أفضل ؛ وفى معظم الأحيان كذلك ، يقوم هؤلاء الفارون ، حين يصبحون غزاة بالضرورة ، بتأسيس امبراطوريات قوية .

ولسكن عندما يدفع حب السيطرة والمجد والثروة ، وحده ، أمة ما بأن تحمل السلاح ، فانها قد تستطيع أن توسع املكها بشكل هائل ، لكنها لا تفادى وطنها ، فالارتباط بمسقط الرأس أمر اكيد فى كل زمان ومكان ، وعندما تشكل الأقاليم المغلوبة والمستعمرات البعيدة دولا مستقلة فانها تحتفظ بعلاقات من المودة والاحترام مع الوطن الأم ، تستطيع المصالح أن تعكرها فى بعض الأحيان لكنها لا تقدر أن تنهيتها بشكل تام الا بعد شرون طويلة .

المصريين قد قرعوا له حوليات بلادهم كما لو لم يكن بمقدور هؤلاء الكهان أن يشرحوا له باليونانية النصوص باللغة الأهمية من المخطوطات التى أتاحوا له رؤيتها ، ثم ينكرها على مانيتون بسبب العصر الذى كان يعيش فيه ومعنى ذلك فان أثر رشيد (حجر رشيد) يبرهن على أن اللغة القديمة فى عصر البطالة ، بل حتى الكتابة الهيروغليفية نفسها ، كانت لاتزال معروفة من كهان مصر .

وأخيرا فان هذا الاعتراض الذى تكرر مرات كثيرة من أن مانيتون لم يستطع أن يرجع الى الحوليات المقدسة التى انتزعها ارتكسركسيس — أوخوس حين ضرب هذا الأمير مصر فى الأولياد السابع والخمسين يسقط من تلقاء نفسه اذا التفتنا الى أن ديودور ، الذى يقص علينا هذه الواقعة ، يضيف بأن باجواس ، المقرب من ارتكسركسيس قد رد الى الكهان المصريين وثائقهم ، فى مقابل مبلغ كبير من المال .

وحين يخبرنا التاريخ بأن مصر قد غزاها جيش من الرعاة قادم من جهة الشرق . فانه لا يحيطنا علما بما ان كانت هى روح الغزو أو هى ضرورة دفع عدو قوى هى التى حملت هذا الشعب الرعوى على غزو الاراضى الخصيبة التى يرويها النيل ؛ وان كان المرء يستطيع طبقا للمبادئ السابقة أن يستخلص أن فتوحات الآشوريين ، بامتدادها الى جنوب الفرات ، كان لابد لها أن تدفع الى مصر بالقبائل العربية البدوية ، التى تشغل جزءا من سوريا والجزيرة العربية . ويتطابق هذا الرأى مع شهادة مانيتون ، حين يقرر أن أول ملك من ملوك الرعاة حكم مصر قد وضع الجزء الأكبر من جيشه على الجبهة السورية لأنه كان يخشى قوة الآشوريين .

وقد تبنى الرعاة العرب ، دون جدوى ، خلال امتلاكهم الطويل لمصر ، غالبية طقوس الديانة المصرية ، لكن احتفاظهم ببعض عقائدهم ، وبصفة خاصة تحالفهم مع قبائل الصحراء الذين واصلوا التضحية لآلهتهم بحبوانات يقدسها المصريون ، جعل المواطنين من أهل البلاد ينظرون اليهم بكراهية وازدراء .

وقد أدى انتشار أحد الأمراض ، هو البرص أو الجذام ، الذى أصبح أكثر شيوعا فى مصر لأن المنتصرين كانوا — ربما — يجهلون مبادئ الصحة التى تدعو اليها الديانة المصرية للتقليل من عمل طقس غير صحى — أدى بالتداعى من أهل البلاد أن يطلقوا عليه اسم مرض الرعاة ، وهو الشئ نفسه الذى فعله أهالى نابولى عندما أطلقوا اسم أممتا ، فى القرن الخامس عشر على مرض وافد ، وذلك بفعل ماكانوا يكونونه لنساء من أحقاد . وقد أوقع اسما « المجذومون أو الأنجاس » ، اللذان كان المصريون يستخدمونهما سرا للإشارة الى المنتصرين عليهم ، المؤرخين فى أخطاء خطيرة حين اعتقد هؤلاء أن الأمر هنا يشترى بالفعل الى أناس أصيبوا بالجذام ، كما لو كان باستطاعة ذوى العاهات والمرضى أن يكونوا هيكل أمة وينشئوا جيوشا قوية !

أما ملوك مصر الشرعيين ، الذين لا ذوا بالصعيد ، فقد كانوا هناك دولة مستقلة ؛ ثم نزل احدهم ويدعى اليسفراجمو توفيس ، ولعل ذلك قد تم بمساعدة من الأثيوبيين وبدعوة من الساخطين ، نزل نحو مقيس ،

وأحرز انتصارات هائلة على العرب واضطروهم الى أن يركزوا قواهم في أفاريس ، وهي مدينة بالقوة تقع في أقصى الشرق من مصر السفلى *

وباختصار ، فيمكن القول بأنه منذ هذه الفترة قد انتهى عهد ملوك الرعاة في مصر ، بعد مرور نحو خمسة قرون من تأسيس أسرهم وتربعها فوق عرش الفراعنة ، وإذا كان كهنة ممفيس وهليوبوليس أو طيبة قد لزموا الصمت بشكل تام عن هؤلاء الملوك عند حديثهم الى هيرودوت فقد كان ذلك دون ريب لأنهم كانوا يضعون في عداد ملوك مصر أولئك الأمراء من الجنس المصري الذين حكموا مصر خلال الفترة نفسها من الزمن ، اذ كانوا يعتبرون هؤلاء الذين صمتوا عنهم ملوكا غاصبين .

أما تحيموسيس (أحمس) ، ابن وخليفة اليسفراجمو توفيس ، فقد حاصر في أفاريس بقايا جيش الرعاة ، وعندما لم يتمكن من الاستيلاء عليها ، وافق أن تخرج الحامية من أرض مصر مع كل ماكانت تملكه .

وقد عبر هؤلاء الرعاة صحراء سوريا ، ولما كانوا يخشون بأس الآشوريين — وكان هؤلاء بالقوة في آسيا — فقد استقروا في جبال الجودية حيث أسسوا مدينة جيروزاليم (أو : أورشليم) (١٧) ؛ وإن كان هذا الفريق من الأمة التي أدى استحواذها على مصر لفترة طويلة ، الى تبعثرها بالضرورة في كل البلدان ، قد اضطر للخضوع وإن يستسلم بدوره لما يمليه عليه قانون المنتصر .

* يقول الأستاذ محمد رمزي في قاموسه الجغرافي للبلدان المصرية، الجزء الأول الخاص بالمدن المدرسة ، من مدينة أفاريس : أواريس مدينة أنشأها الهكسوس جنوبى بيلوز (الفرما) ، وأسموها هات أورات Hat Awrat ، ومنها اسمها أواريس ، وقد اتخذها رمسيس الثانى سكنا ومعسكرا له ، وسماها برمسيس أو مدينة رعمسيس . وقد اندثرت الآن وحل محلها تل الحبر أو الهير ؛ وظن بعض الباحثين أنها هي مدينة تيكو التى أسماها الرومان هيروبوليس ومكانها الآن تل المسخوطة . (المترجم)

(١٧) كانت هذه المدينة في واقع الأمر موجودة حين دخل الاسرائيليون ، بعد وفاة موسى ، أرض كنعان ، لكنهم لم يستحوذوا عليها. بشكل مطلق الا في عهد داود .

أما العبرانيون ، الذين كانوا قد وجدوا قبل ذلك فى مصر ، مأوى وحماية ، بسبب أصلهم المشترك وتطابق عاداتهم وتقاليدهم مع عادات وتقاليد الرعاة (العرب) فقد واصلوا سكناً هذه المنطقة ، وجرت عليهم نفس أقدار المهزومين ، وانسحب عليهم ما كان يكنه الوطنيون من أحقاد نحو هؤلاء الرعاة ، وأخذ الوطنيون يشيرون الى هؤلاء وأولئك ، دون مواربة ، باسم الانجاس أو المجذومين .

وقد ظل الانجاس ، وهى تسمية كان يندرج تحتها كذلك المصريون الذين تمثلوا بعض ممارسات الرعاة الدينية ، يتمتعون فى مصر ، مع ذلك ، بقدر محدود من الحرية حتى عصر أمينوفيس ، والد سيزوستريس الشهير ؛ بل لعل القوم قد تركوا كذلك لعدد من القبائل مقاطعات صغيرة ، ضئيلة الأهمية ، على تخوم صحراء ، أو فى مستنقعات مصر السفلى ، وهو أمر لا يزال يتم حتى اليوم مع البدو . وقد آمن أمينوفيس ، يدفعه فى ذلك الكهان ، انه سوف يتقرب الى الآلهة ، باضطهاده للرعاة ، وكل المصريين الذين لم تعد عقيدتهم — فى رأيه — خالصة نقية ، فجمع عددا كبيرا منهم ، استخدمهم فى قطع الأحجار من جبل المقطم .

وبعد ذلك ، دفعت بعض المخاوف الأسطورية، والمتطيرة ، أمينوفيس لأن يسمح لكل هؤلاء البؤساء بالانسحاب الى أرض جاسان ؛ وهناك اختاروا رئيسا لهم ، واحداً من كهنة هليوبوليس اسمه أوزريسيف ، كان قد نفى معهم بسبب آرائه الدينية دون شك ؛ ولحق به وانضم اليه كهان مصريون آخرون كانوا يشاطرونه معتقداته ، وتبع هؤلاء كل الأشخاص الذين يريدون الفرار من اضطهادات واقعة أو يخشون من حدوث اضطهادات جديدة ، لأنهم يفكرون بالطريقة نفسها ، وقد أعطى أوزريسيف لهذه الألوف من المنشئين المصريين ، وللقوم من جنس الرعاة ، ديانة خاصة كانت بالضرورة خليطاً من ديانتى هذين الشعبين ، وأمر هؤلاء الايتصاهروا الا فيما بينهم ، ولكى يحول دون حدوث أى صلح بين هؤلاء وبين المصريين ، أباح لاتباعه أن يأكلوا حيوانات كانت تعد مقدسة عند هذا الشعب وأصدر تعليماته لهم بهدم تماثيل آلهة مصر .

وقد كانت النتيجة الحتمية للاضطهادات الدينية من جانب أمينوفيس، والحروب والثورات ونوبات الغزو الأجنبى التى نبهت عنها اق افسطرس

عدد كبير من العائلات أن تبحث لأنفسها ، ومعها آلهتها عن وطن جديد . وعلى هذا ، يكون هذا الوقت هو الفترة المحتملة التى نشأت خلالها مستعمرات عديدة فى بلاد الإغريق ؛ فإن رأى البعض أن هذه الديانة لم تكن هى ، على وجه الدقة ، نفس الديانة المصرية القديمة فإننا نضطر الى الظن بأن مؤسسيها كانوا من هؤلاء الرعاة القدماء الذين لم يقتنوا جميعا — وهذا مرجح — معتقدات أوزريسيف ، والسذين كانت لهم ، بالضرورة ، فى عاداتهم أوجه شبه مع الفينيقيين والمصريين (١٨) ، باعتبارهم

(١٨) فى واقع الأمر فإن الاحتمال ضئيل فى أن يكون المصريون قد أسسوا المستعمرات العديدة التى تنسب اليهم عادة ، فهم الذين أغلقوا لوقت طويل للغاية أبوابهم فى وجه تجارة البحر الأبيض المتوسط اذ كانوا ينفرون من هذا البحر ويكنون له الكراهية ، كما أنهم أخيرا كانوا يرتبطون بروابط كثيرة بمسقط رأسهم ، لأنهم أثرياء ، تجمعهم دولة وحكومة ، وتتحكم فيهم الأساطير الدينية ؛ لكن الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة للرعاة ، فامة تتكون من قبائل متفرقة يصعب عليها أن تظل متحدة ؛ فالرؤساء القلقون أو الساخطون ينزلون بأنفسهم ، ويسعون لأن ينشئوا لأنفسهم مؤسسات أو أنظمة خاصة بهم ، ولم يكن الرعاة الذين فتحوا مصر يتعلقون ببلد أكثر مما يتعلقون بآخر ، لقد كانوا رحلا ومقاتلين ، وسرعان ما قدر عليهم أن يعملوا بالملاحة ، على طريقة هؤلاء العرب — وهم من نفس جنسهم ، وقدموا من نفس صحراواتهم — الذين حملوا معهم الى أسبانيا ، فى القرن الثامن (الميلادى) ، الفنون والعلوم التى أرادوا هم أنفسهم قبل ذلك بوقت قصير أن يمحوها كل أثر لها ، حين حرقوا مكتبة البطالمة [سبق لنا أن دحضنا هذا الافتراء عندما نقلنا رأى جاستون فيبيت بهذا الخصوص عندما ورد مثل هذا الزعم فى دراسة جراتيان لوبير عن مدينة الاسكندرية ؛ انظر المجلد الثالث من الترجمة العربية — المترجم] .

اذن فببدو ما لا ريب فيه ان هؤلاء السذين نقلوا الى اليونان فنون مصر ، هم هؤلاء الرعاة الذين أدى بهم استحواذهم الطويل على مصر لأن يمثلوا هذه الفنون . وهذا رأى هو نفس رأى فريرييه Fréret وهو لا يسلب قط عن مصر العليمة مجد أنها أمدت اليونان بالبذور الأولى لحضارتهم ، وهى بذور ثمينة دون شك ، لكنها قد تطورت وتقدمت بسرعة بالغة تحت سماء اليونان الناضرة ، موطن ربات الفن والجمال حيث ارتقى الجنس البشرى لأسمى درجات النبل والحرية والسعادة .

ينتمون أصلا الى الشرق ، وتطبعوا بهذه الخصال على ضفاف النيل بفعل سلسلة طويلة من الاجيال ، واذا لم يكن كتاب آريوس ، ملك لاسيديمونيا الى اونيئاس كبير احبار اليهود ، مزيفا قط ، فانه ياتى ليدعم هذا الراى ، الذى يعطى العبرانيين وبعض أمم الاغريق ، أصلا مشتركا (١٩) .

واخيرا فان علينا أن نجعل مولد موسى يتم فى عهد امينوفيس هذا ، وان نضع فيه أيضا أول الاضطهادات التى لحقت بالعبرانيين ، والذى تشير اليه التوراة .

وقد دفع الخوف من سطوة فرعون ، وكذلك ، ودون جدال، الرغبة فى الانتقام ، أوزر سيف لأن يطلب من رعاة الجودية أن يلحقوا به ، ليذبحوا معا لفتح مصر ؛ وذكرهم بأنهم كانوا من قبل قد تملكوا هذه البلدان الثرية، وبأن قسدا لحقت بهم (هناك) اهانات ينبغي الاقتصاص فيها ، وهرع اهالى اورشليم الى افاريس استجابة لنداء اخوتهم ، وانضموا اليهم ، وحملوا على مصر « فلم يكن ثمة ضرب من ضروب القسوة لم يرتكبهه ، كما يقول مانيتون ، ولم يكتفوا بأحراق المدن والكنور وتحطيم صور الالهة ، وانما قتلوا حتى الحيوانات المقدسة ، وأرغموا الكهان المصريين والعرفانين بأن يكونوا هم ذابحيها ، ثم أطلقوهم بعد ذلك عراة كما ولدتهم أمهاتهم » .

وانسحب امينوفيس الى ماوراء الشلالات على حدود مملكته ، وثبت هناك بدعم من الأثيوبيين مدة ثلاثة عشر عاما يناوىء الرعاة ؛ وفى

(١٩) واليكم ترجمة هذا الكتاب كما أورده المؤرخ يوسفسوس « من ملك الاسبطيين (أصل لأكيدايمونيا) آريوس أويناي — تحيةوسلاما. حدث أن وجدت فى بعض النقوش أن اليهود وأهل لأكيدايمونيا ينتمون لجنس واحد. وان الآخرين ليسوا بغرباء عن نسل ابراهام . لذلك فمن الأوفق — مادامنا أخوة — أن نطلعونا على كل ما ترغبون فيه ، ونحن من جانبنا سنفعل الشيء ذاته ، ولسوف نعتبر شئونكم مثل شئوننا سواء بسواء ، وبالمثل سوف تكون بيننا وبينكم علاقات مشتركة ؛ وان ديموتيليس الذى يحمل هذه الرسالة هو الذى سيقوم بحمل رسائلنا ؛ وهذه الرسالة مدونة فى صفحة مربعة الشكل وتحمل خاتما هو عبارة عن نسر يصارع ثعبانا » .

(م ٢٢ — وصف مصر)

نهاية هذه المدة جمع قوات كبيرة ، ونزل الى مصر السفلى وهزم
اوزرسيف ، وطارده ، ودفع نحو سوريا شتات جيشه .

واذا ما صدقنا زواية مانيتون ، فلا بد ان يكون اوزرسيف هو موسى
نفسه ، ولابد ان يعترف المرء ان التشابه بينهما شديد ، بل قد يكفى
الافتراض بأن الجودية كانت قد تم غزوها على يد قبائل أخرى ، في
الوقت الذى كان سكانها فيه يخربون مصر كي نفسر اقامة الاسرائيليين
الطويلة (تيههم) في الصحراء ، وكذا الحروب التى كان عليهم ان يخوضوها
كى يعودوا الى سوريا بعد ان تم طردهم من ارض جاسسان . ومع ذلك ،
فاذا ما قبلنا ، فيها يتصل بالوقائع الأساسية ، ان يكون هذا الراى محددًا
للإطار العام لذلك الذى جاء فى أسفار موسى الخمسة ، فينبغى القول
ايضا بأنه سيظل يوجد فى قصة موسى ، اذا ما تبيننا هذا الراى ، عدد
هائل من الأحداث لابد ان نلقى بها جنبًا الى جنب مع الأساطير . وغضلاً
عن ذلك ، فمن السهل ان نوائم بشكل أفضل بين ما جاء بكتب العبرانيين
وبين ما جاءت به كتب التاريخ الدنيوية ؛ وهكذا نستطيع ، على سبيل المثال ،
القول ، مرتكرين على أسس كافية بأن جزءًا من الرعاة الذين هزمهم
امينوفيس قد ظلوا أسرى فى مصر ، حيث فرضت عليهم أقسى درجات
العبودية ، وان القبائل الاسرائيلية ، قد تلفت فاذا بها ضمن
هؤلاء العبيد .

فلنقبل اذن الفكرة القائلة بأن العبريين كانوا لا يزالون يقطنون مصر
حين اعتلى سيزوستريس العرش .

ومع ذلك فان المباهج التى تتبع بها المصريون فى عهد هذا الملك
الشهير تحول دون ان ننسب لعهد تلك الكوارث التى خربت هذه المملكة
وادت الى تخليص شعوب الله . لقد كان سيزوستريس شديد البأس ،
لحد لا يستطيع معه ان يخشى من هؤلاء العبيد البؤساء ، الذين عرف كيف
بغيد منهم حين استخدمهم فى اقامة الجسور وحفر الترع وبناء المدن ،
وهى أعمال خلدهت بأكثر مما خلدهت فتوحاته .

وقد خلفه ابنه الذى يسميه هرودوت مبرون فى حين يسميه ديودور
سيزوستريس . الثانى ؛ لكن الابن لم يرث لا فضال ولا مواهب والده ،

ويصوره التاريخ أميرا ضعيفا ، متطبرا ، يؤمن بالخرافات ، وقاسيا . ويبدو أن يد الرب ، على حد قول المؤرخين الدنيويين أنفسهم ، قد ثقلت عليه ، ففاض النهر بدرجة غير مألوفة ودمر القرى والحقول وانزعجت العواصف والأعاصير والسيول الشعب ، وأصيب الأمير بعمى البصيرة حتى غمت عليه هذه العلامات التي تنذر بغضب السماء (٢٠) .

ونعتقد نحن من جانبنا أن في عهد هذا الأمير - ولابد - تمت عملية هروب العبرانيين الى الصحراء .

هروب العبرانيين الى الصحراء

بعد الهزيمة الماحقة التي حاقت بالرعاة ، أرغم العبريون على ترك الحياة الرعوية ، وبعد أن كانوا بدوا تحولوا الى ملاحين (٢١) وأرهتوا بالأعمال ، ولكنهم لم يستطيعوا طيلة العهد الطويل والمجيد لسيوزستريس أن يتملصوا من العبودية ، ومع ذلك ، فحين لفوا بعض المعاملة الإنسانية بلا ريب ، تضاعفت أعدادهم وحيث قد بدأوا يستوعبون حالتهم الجديدة ، فقد كان كل يوم يمر ، يجعل من العسير عليهم أكثر من ذي قبل أن يخرجوا (من مصر) ، ثم ارتقى فيرون العرش وأثقل كاهل العبرانيين بنير من حديد (٢٢) ، فلم يجد هؤلاء البؤساء الذين كانوا يثنون في صمت أية نهاية لآلامهم الى أن ظهر بينهم واحد من أولئك الرجال غير العاديين الذين يبذلون وكائما قد جاءوا خصيصا لتغيير أقدار أمتهم ، وكان موسى عند طفولته قد جرفه الماء ، وكان هذا في عصر امينوفيس ، وانقذت ابنته حياة الطفل العبراني ، لكنها لم تكف بما قدمته اليه من رعاية واحسان ، وانما امرت بتعليمه كل حكمة المصريين وعلومهم ، ومن المعروف أن العلوم والفنون في مصر كانت في ذلك الوقت في أوج ازدهارها ، واذ اضطر

(٢٠) هيرودوت ، الكتاب الثاني ؛ ديودور ، الكتاب الأول .

(٢١) لاتزال تغيرات مماثلة تحدث في بعض الأحيان في مصر ، بين القبائل العربية التي استقرت فيها ، انظر دراستي عن القبائل العربية في صحاروات مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٧٩ . وانظر كذلك دراسة جومار عن العرب والعربان في مصر الوسطى ، من هذا المجلد - المترجم] .

(٢٢) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث ، الآية ٧ .

موسى بعد موت تلك التى أحسنت اليه لأن ينجو بنفسه لاثذا بالصحراء لقتله أحد المصريين فقد فر الى البحر الأحمر ليقيم بين عرب مديان (مدين)؛ وذكره نمط حياة هذه القبيلة بلا ريب بالزمن الذى كان إبراهيم فيه يتجول فى عزلة بقطعائه؛ وبدت له الحرية والاستقلال ، برغم ضروب المخاطر وصنوف الحرمان أفضل كثيرا من العبودية مع الوفرة والسكينة؛ وصمم مشروعه النبيل لقطع أغلال العبرانيين .

وعند قمة جبل حوريب ، وسط البروق والرعود ، وعلى مشهد البحر الهائج والصحراء الصموت ، تأمل طويلا ، لمى عزلته بعيدا عن البشر ، مشروعاته الواسعة (٢٣) ؛ وفى النهاية رجع الى أخوانه ودعاهم للهروب ، وتذرع فى ذلك عند فرعون بأنهم سيقدمون أضحية فى الصحراء: « فدعا فرعون موسى وهارون وقال اذهبوا اذبحوا لالهكم فى هذه الأرض، فقال موسى لا يصلح أن نفعل هكذا ، لأننا انما نذبح رجس المصريين للرب. الهنا ، أن ذبحنا رجس. المصريين أمام عيونهم أقلا نرجمونا ؟ » (٢٤) .

وتردد الملك : هل يعطى الاذن المطلوب منه أم يرفضه ، هل يخفف من شتاوات العبرانيين أم يضاعف منها ، ويتأرجح الملك بين هذا الموقف وذاك تبعا لدرجة الفزع الذى ينتابه كلما توالى الكوارث التى كانت تفكك وتدمر دولته * وعلى الدوام فان افكار الانسان المسبقة وخرافاته تربط أقداره بنظام الكون .

ولقد وردت فى ذلك الجزء من الكتب المقدسة الذى تناول هذه الفترة وقائع كثيرة ، لكنها برغم خروجها عن كل مألوف ، تتوافق مع روايات المؤرخين الدنيويين (٢٥) ومع الحالة الراهنة لهذه البلاد ؛ فلا يزال الحواة

(٢٣) نجد فى حياة محمد [ص] خصوصية مماثلة ، فقد كان ينشد العزلة فى غار فى جبل حراء ، ويمضى هناك خمسة عشر يوما (كذا) فى حياة العزلة قبل أن يعلن نبوته . وليست هذه وحدها فقط هى نقطة التشابه التى نجدها بين هذين المشرعين (كذا) .

(٢٤) سفر الخروج ، الاصحاح الثامن ، الآيتان ٢٦ و ٢٧ .
* بسبب غضب الرب عليه لرفضه السماح بخروج بنى اسرائيل من مصر كما يشرح ذلك سفر الخروج . (المترجم).
(٢٥) هيرودوت ، ديودور . الخ .

هناك حتى اليوم يأتون مع الثعابين بأشياء خارقة تعد من قبيل المعجزات، فهم يستدعونها وينومونها ويخدرونها حتى يظن أنها قد ماتت ، ويعلمونها كذلك كيف تنهض واقفة وتتبع سبيلها على هذه الحال ، ثم يخبئونها في ثنايا ثيابهم ويتلفعون بها حول رقابهم دون أن يخشوا أن تلدغهم ؛ ولعل جراح مصر التي لا تندمل تتمثل في مياه النيل ، الصفراء والخضراء ، المعركة والضارة في بعض الأوقات ، والتي يمكنها على نحو يكاد يكون ثابتا ، وحين تتغير أحوالها بفترة عاما ما ، أن تروع الشعب ، كما تتمثل في الحشرات من كل نوع * تلك التي تكثر بوفرة في بعض الأحيان في مصر وبطريقة مفرقة في كل مكان تشتد فيه الحرارة والرطوبة (٢٦) ؛

* يتحدث سفر الخروج عن أن الرب قد ابتلى مصر بالضفادع التي كثرت حتى ملأت البيوت والأنهار ثم ابتلاها بعد ذلك بالبعوض . الخ . (المرجم)

(٢٦) يمكنني أن أذكر هنا ، نقلا عن المؤرخين العرب ، سنوات كثيرة كانت فيها الضفادع والثعابين وفيرة حتى ظن الناس أنها تتساقط من السماء ، واكتفى بأن أورد هنا واقعة كان المقرئ نفسه شاهدا عليها ، وقد كتب في هذا الخصوص : أنه في العام ٧٩١ والأعوام التالية تزايد الدود الذي كان يهاجم الكتب والأقمشة الصوفية بشكل كبير في المنطقة المحيطة بمرعى الزيات الواقع خارج القاهرة بين المطرية وسرياقوس ؛ وقد أكد له رجل أهل للثقة أن هذه الحشرات قد قرضت له ١٥٠٠ قطعة قماش تشكل ~~خمسة~~ أكثر من خمسة عشر جملا ، وحين دهش المقرئ من حادثة شاذة لهذا الحد فقد اتخذ طبقا لعادته كل الاحتياطات اللازمة كي يتأكد من الحقيقة . فشهد بعيني رأسه أن الخسارة التي سببتها الديدان لم يكن (تقديرها) مبالغا فيه ، وأنها دمرت في الجهات التي نحدث عنها كمية كبيرة من الخشب والأقمشة ، وقد شاهد بالقرب من المطرية جدران حديقة بها صدوع وتشققات طويلة ومهمة أحسندها هذه « الحيوانات » الصغيرة . وفي نحو العام ٨٢١ تكررت هذه الكارثة في حي الحسينية الواقع خارج القاهرة ؛ فبعد أن أتت الديدان على كل مايؤكل وما يلبس الخ ، وهو ما سبب للسكان خسائر لا يمكن حسابها ، هاجمت البيوت وقرضت العوارض التي تصنع السقوف حتى أصبحت هذه العوارض جوفاء تماما ، وأسرع الملاك بهدم البيوت التي غزتها الديدان حتى كاد الحي أن يكون قد دمر دمارا تاما . ثم مدت هذه الحشرات نطاق دمارها حتى بلغت البيوت التي تجاور بابي النصر والفتوح . ولم تكن تلفيائها هناك أقل عنها في المدينة ومكة حيث قرضت الديدان سقف الكعبة — عن ترجمة ايتان كارتمير .

وفى الطاعون الذى يخرّب هذه البلاد من وقت لآخر ، ويبعدو فى معظم الأحيان وكأنّما يصّر على انقضاء جنس دون آخر ، وفى الرعود والبرد (بفتحة على الراء) ، نادى الحدوث حتى أنه لا يسمع بحدوثهما هناك ، وقد لا يحدثان سوى مرة واحدة على مدار قرن بأكمله ، فهما اذا حدثا لن يسببا بنوى الفزع الشديد ؛ وأخيرا فى أسراب الجراد التى تأتي من جوف الصحراوات ثم فى الظلام المؤقت الذى تسببه الدوامات الترابية التى ترفعها وتحملها رياح الخماسين ، وفى هذه الرياح المؤذية نفسها والتى لا يحس بها الناس فى كل أنحاء مصر ، دفعة واحدة (٢٧) .

فلنجنب إذن من وصف النكبات التى حلت بمصر تلك المبالغيات الشعرية المسموح بها ، لشخص يحلو له أن يسترسل فى وصف الظواهر التى استخدمها لتخليص شعبه وسوف ترى كل سطوة لها قد خبت ، ومع ذلك فإن تتابع أحداث كثيرة غير مألوفة ، برغم كونها مع ذلك ظواهر طبيعية ، مع مالها من نتائج على قلب فرعون القاسى ، يمكنه أن يعد برهانا قويا على حماية الرب .

فهذا الحاكم فى الواقع لم يستطع أن يقاوم شكاوى رعيته التى كانت تنسب آلامها ومصائبها ، بعد أن أصابها طاعون فتاك ، الى رقيات « الأنجاس » المؤذية فاعتقدت الرعية أن ابعاد هؤلاء ، سيجعل الآلهة أكثر لطفا بها : « فدعا — أى فرعون — موسى وهارون ليلا ، وقال قوموا اخرجوا من بين شعبى أنتما وبنو اسرائيل جميعا » (٢٨) .

(٢٧) عندما تهب الخماسين ، تصبح الشمس ذات صفرة كابية ، وتنحبس أشعتها ، وتزيد العتمة فى بعض الأحيان حتى يظن المرء أننا قد بتنا فى ليل شديد الحلكة ، على النحو الذى رأينا بأنفسنا عند منتصف النهار ، فى قننا ، إحدى مدن الصعيد ، ويورد بعض المؤرخين العرب ، أنه عندما غزا السلطان سليم مصر ، فإن السماء قد وهبتة نفس « الخدمة » التى قدمتها لموسى ، فقد حجبت سحبات كبيرة سوداء ، مسيرة جيشه ، عن عدوه طومان باى .

(٢٨) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى عشر ، الآية ٣١ .

مسيرة العبرانيين فى الصحراء حتى المنطقة التى عبروا عندها البحر الأحمر

رحل الاسرائيليون من أرض جاسان ، ولا يمكن أن تكون هذه المنطقة سوى منطقة السبع إبيار الممتدة الى الشرق من مصر نحو سوريا ، لأننا نقرأ فى سفر التكوين (الاصحاح السادس والأربعين) انه عندما غادر يعقوب ضواحي غزة كى يذهب الى مصر ، أرسل يقول ليوسف الذى كان يقيم فى ممفيس أن يأتى للقيائه « فأرسل يهوذا أمامه الى يوسف ليرى الطريق أمامه الى جاسان ثم جاءوا الى أرض جاسان » وقد ترجم النص على هذا النحو فى التوراة اللاتينية « وأرسل يعقوب يهوذا أمامه الى يوسف لينبئه بمجيئه لكى يأتى هو أمامه فى أرض جاسان » ؛ ففسد كانت أرض جاسان أذن تقع على الطريق بين ممفيس وغزة ، وقد منحت للاسرائيليين بالطريقة نفسها التى منحناها بها ، أثناء إقامتنا فى مصر ، لثلاث قبائل عربية^(٢٩) ، جاءت ، كما جاء العبرانيون ، من سوريا .

أما وقد عرفنا نقطة البدء ، فسوف يكون من السهل علينا أن نتتبع مسيرة الاسرائيليين ؛ كان موسى يريد أن يقودهم الى ضواحي جبل سيناء ، وكان واثقا أنه سيقابل بالترحاب من عرب مدين ، لأنه عاش طويلا بينهم ، وتزوج من (صفورة) ابنة كاهنهم يثرون ، وكان طريقه المباشر يقتضى المرور شمال البحر الأحمر ، لكنه خشى ان هو اقتراب أكثر مما ينبغى من بلاد الفلسطينيين أن منهض ضد الاسرائيليين حروب تجعلهم يأسفون لفراقهم مصر ويعتزمون العودة اليها (٣٠) : ولذلك ففسد

* Vulgate هى الترجمة اللاتينية للتوراة ، وهى المستعملة فى الكنيسة الكاتوليكية ؛ وقام بالجزء الأكبر من هذه الترجمة سان جيروم ، وقد قرر مجمع الثلاثين فى العام ١٥٤٦ أن يعد هذا النص المرجع الأوحد للتوراة . (المترجم)

(٢٩) وهذه القبائل الثلاث هى : ترابين (أو طرابين) الكبرى ، عرب طحا (أو عرب طه ؟) ، والأناجر ، وكان هؤلاء فى ذلك الوقت فى حرب مع باشا غزة الذى كان قد دبر لاغتيال كبار شيوخهم .

(٣٠) سفر الخروج : الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٧] وهذا هو نصها : « وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة ، لأن الله قال لئلا يندم الشعب اذا رأوا حربا ويرجعوا الى مصر » [.

أثر موسى أن يسير بحذاء الساحل الغربى للخليج العربى * ، وتجنب بذلك ، فى الوقت نفسه ، أن يثير ، لأكثر من اللازم ، وفى وقت مبكر ، الريبة فى عزمه على الهروب ، لدى فرعون ، الذى أعطاه الاذن بأن يقود شعب الله فى الصحراء لتقديم الأضحيات ، ولهذا فإن موسى ، كما جاء فى سفر الخروج نفسه قد أمر بأن يقوم العبرانيون فى مسيرتهم بلفة طويلة ، وصحبهم ، متخذين طريق الصحراء التى تقع بالقرب من البحر الأحمر (٣١) .

لكن الوضع الحالى للخليج العربى سوف يحول فى الواقع دون تصور كيف وجد الاسرائيليون أنفسهم على الفور على شواطئه عندخروجهم من أرض جاسان ، ان لم يكن المرء على بينة من أن الخليج ، فى الفترة المتأخرة التى نحن بصدها ، كان يمتد الى مسافة قريبة من منطقة السبع ابيار : وتأتى طبيعة الأرض بين هذه النقطة وبين مدينة السويس ، مع ترسيبات القواقع البحرية ، وعدد لا حصر له من ملاحظات جغرافية أخرى ، تضاف اليها شهادات القدماء — لتعطى لهذا الرأى ، على أقل تقدير ، أكبر قدر من الترجيح (٣٢) وهكذا يمكننا أن نتصور كيف

* البحر الأحمر .

(٣١) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٨ [وهذا نصها : « فادار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف »] .
(٣٢) وهذا دليل جديد على صحة رأبى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر . انظر دراستى حول هذا الموضوع ، الدولة الحديثة ، المجلد الاول ، ص ١٨٧ [المجلد الثالث من الترجمة العربية] ولكنى اكتفى هنا بنقل هذه الفكرة من نيبور Niebuhr ، والتى لم أكن أعرفها فى حينها ، والتى تتفق مع أفكارى : « ويقول الرحالة دانوا Danois : ان شاطئ البحر قد تغير هنا كما حدث له فى أماكن أخرى ؛ ويقابل المرء على كل ساحل الجزيرة العربية آثار انحسار البحر ، فعلى سبيل المثال مخا التى يقول عنها كل القدماء بأنها كانت ميناء العربية السعيدة (اليمن) تشع اليوم بعيدا عن البحر بفراسخ عدة ، ونرى اليوم بالقرب من ألوحة وجدة تلالا كبيرة تمتلئ بالمرجان والقواقع من الأنواع نفسها التى نراها حية فى الخليج العربى (البحر الأحمر) ، وتوجد بالقرب من السويس تكلسات من كل هذه الأشياء . وقد رأيت على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ، نحو الغرب من هذه المدينة أكمة من القواقع الحية فوق صخرة لاتغطيتها المياه الا بفعل حركة المد والجزر . وهى عالية لحد لاتبلغها معه مياه هذه الحركة ، اذن فمنذ الوفاءة من السنين كان الخليج العربى أكبر اتساعا ، كما كان يمتد لأكثر من ذلك تجاه الشمال ، وبصفة خاصة ذراعه القريبة من السويس ؛ لأن الشط عند هذا الطرف من الخليج بالغ الانخفاض » .

سار الاسرائيليون ، فى ذلك الوقت ثلاثة ايام بالقرب من البحر الاحمر لى يصلوا الى النقطة التى يحدد عندها الأثر طريقهم الذى شسقتهم لهم المعجزة بين الأمواج .

كان محطهم الأول يسمى سكوت ، وهى كلمة تعنى الخيمة ، ويمكنها أن تدفع الى الظن بأن هذا الاسم لاينطبق أبداً على مدينة قديمة وانما على مجرد معسكر . وزيادة على ذلك ، فهناك خرائب عديدة على حواف الأرض التى هجرها البحر ، وهذه أو تلك يمكنها أن تنتهى الى سكوت وفى اليوم التالى عسكروا فى ايتام عند طرف « البرية » (٣٢) .

ويدفعنى هذا الموقع لأن أجزم أنه بير السويس (٣٤) ، الذى يقع فى الحقيقة ، وكما يبدو ، عند طرف الصحراء اذا كتفت قادما من جهة السبع ابيار ، لأن البحر ، باتخاذ شكل مرفق يتجه الى الغرب ، يبدو ، عند اتصاله بسلسلة جبل عتاقة العالية ، وكأنه يشكل النهاية الجنوبية للصحراء : فضلا عن ذلك ، فإن المياه العذبة بالغة الندرة فى كل هذه المنطقة ، كما أن الآبار ، ولا بد ، هى التى تحدد النقاط التى تحط عندها القوافل .

وبعد ذلك تحدث الرب الى موسى قائلا : « كلم بنى اسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون » (٣٥)

(٣٣) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ٢٠ .

(٣٤) بير السويس تعنى البئر الموجودة بمدينة السويس ؛ ويقع هذا المكان على مسافة نحو الفريسخ الى الشمال الغربى من السويس ؛ وهو يشتمل على سورين صغيرين متلاصقين ، ومهشمين جزئيا ، وينسب بناؤهما الى السلطان سليم الأول . ووسط واحد من هذين السورين توجد بئر لمياهها مذاق غير مستساغ تفوح منها رائحة هيدروجين كبريتى . ولا تستخدمها فى العسادة الا الحيوانات ، ولكننى شربت منها دون أن أشعر بقرف ، وكذلك فعلت البرية التى صحبتها معى . فقد وصلنا الى هنا بالعى الظما وبعد نهار شديد القبط ومسيرة مرهقة على الأقدام ، وقضينا منه الثمانية عشرة ساعة الأخيرة دون أن نشرب . ويلمح المراء خارج السور بقايا مجرى مائى كان يستخدم فيما مضى فى توصيل مياه البئر الى السويس .

(٣٥) سفر الخروج ، الاصحاح الرابع عشر ، الآية ٢ .

ومن السهل أن نتبين سبب هذا الارتداد إلى الخلف ، فلعل فم الحيروث أن يكون مكانا حصينا به حامية مصرية . وفى الواقع فإن المرء يرى أن الاسرائيليين لم يدخلوه قط ، وإنما عسكروا تجاهه على شاطئ البحر ، وهناك كان عليهم أن يعبروا ، وأمكنت حاجتهم للماء العذب أن تدفعهم إلى اجتياز هذه النقطة فى اليوم التالى ؛ وبمعنى آخر ، فعلى بعد نحو ثلاثة فراسخ من بير السويس ، مع الارتداد نحو وادى السبع أبيار ، نجد قسرا قديما وحصينا يسمى الها جيروث (العجروث) ؛ وفى النص العبرى نجد أن المقطع Phi (فى) ينفصل بصفة دائمة عن كلمة الحيروث ، بل لقد حذف تماما فى الآية الثامنة من الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد * . ويعتقد أن كلمة Phi أو Pi (فى أو بى) كانت هى أداة التعريف فى اللغة المصرية ثم ظلت كذلك فى اللغة القبطية . إذن فقد كان المحط الثالث يسمى هاهيروث ؛ وهذا التشابه مع كلمة هاجيروث (العجروث) لابد فى رأى أن يسترعى الانتباه .

عبور البحر الأحمر

تجاه الهاجيروث ، على وجه التقريب ، تكونت نحو الجنوب الشرقي ، كتلة الرمال التى اقتطعت من البحر الأحمر هذا الحوض الواسع الذى نجده اليوم الى الشمال من هذا البحر . والذى لاتزال تربته ، وهى أدنى بكثير من أدنى حركات المد والجزر ، تحمل كل الخواص الدالة على أثر المياه ، ومع ذلك فقد كان من الضرورى ، قبل أن تكون هذه الكتلة من الرمال قد ارتفعت لحد يكفى لصنع بحيرة من الطرف الشمالى للخليج العربى ، أن يتبقى فى هذا المكان مستنقع ظل الحوض فيه مستحيلا ، لوقت طويل ، حتى عند حدوث نوبات المد الواطئة .

ومن المحتمل أن يكون الاسرائيليون قد اتبعوا موسى عند هذه المخاضة ؛ فهذا الرجل الشهير ، الذى تربى على حكمة وعلوم المصريين ، والذى لاذ لوقت طويل بشواطئ البحر الأحمر ، كان يعرف إمكانية عبورها

* وتقول هذه الآية : « ثم ارتحلوا من أمام الحيروث وعبروا وسط البحر الى البرية .. الخ » .

وهنا نلاحظ غياب كلمة فم التى يشير اليها المؤلف بالمقطع فى أو بى الوارد فى الآية الأولى من الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين (المترجم)

سيراً على الأقدام من عند هذه النقطة ، فى حين كان على عبيد بؤساء ، غارقين فى أحط درجات الجهالة ، والذين لم يخرجوا قط من مصر من قبل ، أن يعتقدوا ، عند ظهور الجيش المعادى من جانب ، ووجود البحر من الجانب الآخر ، أن خط الرجعة قد قطع عليهم (٢٦) ؛ ويورد هـالافروس جوزيف (٢٧) أن الاسرائيليين كانوا محصورين بين الجيش المصرى والبحر وصخور وعرة ؛ وينفق هذا الوصف تماماً مع الوضع الذى أنسبه للجيش الاسرائيلى ، اذ أن سلسلة الجبال التى يلمحها المرء الى الجنوب تتوغل فيما يبدو حتى الشط .

ولقد كان مع فرعون ، فى جيشه ، دون ريب ، أشخاص كثيرون ، لم يكونوا ليجهلوها النقاط التى يمكن اجتياز البحر عندها ، ومع ذلك ، فإذا اكتفى فرعون بأنه قد أصبح على مرأى من الاسرائيليين ، فقد كان من الطبيعى للغاية أن ينشد الراحة للفرق العسكرية التى أرهقتها مسيرة لا بد انها كانت بالغة التعجل دون أن يخشى ، مجرد خشنة ، أن يتمكن هؤلاء البؤساء الشاردون ومعهم زوجاتهم وأطفالهم ، من الافلات منه ؛ أما موسى ، فقد أفاد من الضباب أو دوامات الرمال التى يتحدث عنها الكتاب المقدس ويسميتها « غبارا » ليخفى مسيرته عن العدو ، كما أمكنه أن يستغل نوبة المد الوطئية لكى يخوض البحر على رأس العبرانيين . وقد اعترض بعض بأن عدد هؤلاء كان كبيراً لحد لا يمكنهم من اجتياز البحر فى تلك المسافة من الزمن ، التى تفصل بين حركة مد وأخرى ؛ ومع ذلك فلا بد أن نتوخى الحذر عند وقوفنا على روايات المؤرخين ، عندما يحتمل أن تكون هذه قد جاءت متأثرة بفعل الكبرياء القومى (٢٨) . وفى هذا الصدد ، على سبيل المثال ، فإن مائعرفه عن طبيعة الصحراء والقبائل التى تسكنها ، يحملنا على الاعتقاد أن بعض اليهود ، من أولئك المتحمسين للغاية لجد أمثهم ، سوف يستبيحون لأنفسهم ، فى الأصحاح الأول

(٢٦) كذلك توجد فى البحر الأحمر ، تجاه السويس ، مخاضة يتردد عليها البدو ، وتجهلها غالبية سكان مصر .
(37) Antiquités Judaïques, liv. II Ch, 6.

(٢٨) فلنستبدل ، على سبيل المثال بكلمة ملك كلمة شيخ ، عندئذ سوف يمكننا أن نتصور كيف يستطيع يشوع أن يهزم فى معركة واحدة ٣١ ملكاً (انظر سفر يشوع) .

من سفر العدد واحدة من هذه التحريفات التى يعترف الكرادلة والمجامع المقدسة بإمكانية وجودها فى الأسفار الخمسة. (٢٩) ؛ وتكفى ظروف نشر هذه الأسفار نفسها لتوليد الشكوك ، ان لم يكن بخصوص الوقائع الأساسية ، فعلى الأقل بخصوص التفاصيل ، لاسيما عندما يتعلق الأمر ، كما هو الحال هنا ، بدقة العدد ؛ فمن المعروف فى واقع الأمر أن كتاب الشريعة قد نشر لأول مرة فى أرض مواب « فى عبر الأردن ، فى أرض مواب ابتداء موسى يشرح هذه الشريعة » (٤٠) . أى بعد أربعين عاما من خروج العبرانيين من أرض مصر (٤١) ، ولم يكن قد ظل على قيد الحياة ، عندئذ ، فى كل إسرائيل ، ممن شهدوا الوقائع التى وردت بالأسفار (الخمسة) سوى اثنين هما : يشوع بن نون وكالب بن يفتة (٤٢) ، اللذان كانا متعاونين على الدوام مع موسى (٤٣) الذى باركهما وجعل منهما وارثى سلطته ، لقد كان الأبناء الذين لم يكونوا بعد يعرفون كيف يميزون أن يتصرفوا الخير والشر ، حين كان آباؤهم يعسكرون فى صحراء مازان ، كانوا — وحدهم — الذين نالوا من الرب الاذن بدخول

(٣٩) عندما كان مصلحو القرن السادس عشر يسعون لاحراج بلاط روما بأن يجابهوه على الدوام بالكتب المقدسة ، كان رجال الكنيسة ، من حائزى ثقة البابا والمقربين اليه يقولون بصوت عال : ان هذه النصوص تستمد قداستها من تبنى الكنيسة لها ؛ ولم يقتصر التشيع لهذه الفكرة على رجال خاوى الذكر ، بل ان قاصدا رسوليا فى مجمع الثلاثين ، هو الكاردينال وارمى Warmie لم يخش من مقبة أن يعلن فى مؤلف مطبوع انه لو لم تكن الكنيسة قد احتضنت الكتاب المقدس وبشرت به كمشروع كنسى لما استحق هذا الكتاب الكثير من الاعتبار أو طبقا لنص كلماته : « ذلك أنه من المؤكد أن مؤلفنا (الكتب المقدسة) هذا كان سيفدو عملا ضئيل الأهمية ، لولا أن سلطة الكنيسة قد علمتنا أن هذه الكتب المقدسة كتب أصيلة » ؛ وفى النهاية ، فإن أكثر آباء الكنيسة علما من أمثال أوريجين وسان أوغسطين لا يأخذون بالمعنى الحرفى للتوراة على إطلاقه ، ويرون فيها ورد فيها رموزا واستعارات .

(٤٠) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٥ ؛ والاصحاح ٢٩ الآية الأولى ، الاصحاح ٣١ ، الآيتان ٩ ، ٢٤ .

(٤١) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٣ .

(٤٢) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآيات ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ .

(٤٣) سفر العدد ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٦ .

الأرض الموعودة (٤٤) ، فهل كان بمقدور هؤلاء ، وقد أصبحوا رجالا ، أن يعرفوا حقيقة أعداد قبائلهم عندما غادرت مصر ، وأن ينحو جانبا شهادة رجل كان هو نبيهم ، وفى الوقت نفسه مشرعهم وحاكمهم المطلق المرهوب (٤٥) أولسنا نعرف بأية سهولة يتبنى الرجل المتمدين ، كما يفعل الرجل المتوحش ، أكثر المبالغات بعدا عن العقل إذا كان الأمر يتعلق بقوة أمته وعدد من هزمتهم من الأعداء ؟ وأخيرا ، فإن شريعة موسى فى اورشليم كما فى البصرة قد هجرت فى غالبية الأوقات من أجل عبادة آلهة مزيفة ، ولقد ضاعت السكتب المقدسة الأولى ثم عثر عليها من جديد ، واستوجب الأمر مرات عديدة تجديد الشعب اليهودى عهده مع الرب . لذلك فلا ينبغى أن يخالفنا الشك فى أن بعض تغييرات طفيفة قد حدثت للأسفار ، وأن بعض الأخطاء فى الأرقام على وجه الخصوص تتسرب إليها حين يكون للكبراء القومى بعض المنفعة من وراء الترويج لها (٤٥) .

وبمجرد أن علم الفرعون أن العبرانيين قد اجتازوا البحر ، أخذ فى ملاحقتهم ، واقتفت قواته ، مدفوعة بالحماسة التى تؤججها خطواتهم دون أن تلقى بالالماء البحر الذى لن يدع لها الوقت الكافى لبلوغ الشط المقابل ، فأنقذ المد بعضا منهم وابتلع آخرين . وعلينا أن نضع فى الاعتبار تلك

(٤٤) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٣٩ .

(٤٥) حين تعبر الأعداد عن نفسها بالأرقام فمن الممكن أن تقترب أكبر الأخطاء من مجرد جرة قلم ، وخصوصا إذا كان لهذه الأرقام تشابه كبير فيما بينها ولها فى الوقت نفسه قيم شديدة الاختلاف . ويضاف إلى أخطاء النسخ هذه خطأ من نوع آخر ؛ وإذا شئنا على سبيل المثال أن نبين إلى أى حد يمكن أن يؤدى سهو مترجم ما ، أو سعيه وراء كل ما هو عجيب أو غير مألوف ، إلى تحريف مؤلف ما ، فلنفتح التوراة اللاتينية ، سفر الخروج ، الاصحاح الثانى والثلاثين ، وسنجد فيه أن موسى بعد حادثة عبادة العجل الذهبى قد أمر بقتل ٢٣ (ثلاثة وعشرين) ألفا من الاسرائيليين ، فى حين نجد الأمر فى النص العبرى ، وفى الترجمة السبعينية يتناول ٣ (ثلاثة) آلاف رجل ، وهو تقدير كبير مع ذلك ، وهناك خطأ آخر أكبر ، وهو الذى اقترعه المترجم نفسه حين قدر بـ ٥٠٠٧٠ (خمسين ألفا وسبعين) عدد سكان بيشان المصروبين بالموت عند عودة التايوت فى حين كان عليه أن يقول أن من بين هؤلاء الآلاف الخمسين هلك سبعون ، وقد نقلت هذه الأرقام (ثلاثة وعشرين ألفا ، وخمسين ألفا وسبعين) إلى ترجمات أخرى نقلت عن التوراة اللاتينية ، ولعلها قد تذكر ذات يوم ، دليلا على دقة الأعداد ؛ وهذا مثال يوضح كيف يتخذ الخطأ بتكراره ، شكل الحقيقة .

الرياح القوية التي كانت تهب في ذلك الوقت (٤٦) . وبذلك لن تعترينا
الدهشة لان جزءا من المصريين قد ابلعتهم الأمواج (٤٧) .

يبلغ المد عند السويس نحو المترين ؛ وفي أوقات العواصف ، حين
تهب بشدة رياح الجنوب ترتفع لدى يبلغ في بعض الأحيان ستة وعشرين
ديسمترا ؛ وهذا أكثر من كاف لكي يفرق المد جيشا كبيرا ؛ فإذا كان
جيش المصريين لم يهلك قط بأجمعه ، وهو ما يوضحه فيما يبدو صمت
المؤرخين الحنويين ، فيمكن افتراض أن هذا الجيش ، وقد أزعجه حجم
الخصائر التي لحقت به ، ولأنه قد بدا يخشى في ذات الوقت أن يكشف
نفسه في صحراء لا يعرفها بالقدر الكافي ، لم يحاول قط أن يخوض البحر
الأحمر عند نوبة المد المنخفض (الجزر) التالية .

وهكذا أمكن الاسرائيليين أن يترنموا بهذا النشيد :

- ١ - « أرنب للرب فقد تعظم ، الفرس وراكبه طرحهما في البحر ؛
- ٢ - « الرب قوتى ونشيدى ، وقد صار خلاصى ، هذا الهى فأمجده ،
اله أبى فارفعه ؛
- ٣ - « الرب رجل الحرب ، الرب اسمه ؛
- ٤ - « مركبات فرعون وجيشه ألغاهما في البحر ، ففرق أفضل جنوده
المركبة في بحر سوف ؛
- ٥ - « تغطيههم اللجج ، قد هبطوا في الأعماق كحجر ؛
- ٦ - « يمينك يا رب معتزة بالقدرة ، يمينك يا رب تحطم العدو ؛
- ٧ - « وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك ، ترسل سخطك فيأكلهم كالقش ؛ .

(٤٦) سفر الخروج ، الأصحاح ١٤ ، الآية ٢١ .
(٤٧) في العام السابع من نشأة الجمهورية الفرنسية ، شاهدنا
الجنرال بوناپرت ، وهو عائد من عيون موسى ، يريد أن يعبر البحر عند
المخاضة الواقعة قريبا من السويس بدلا من تلمس الخطوط الكنتورية
لقمة الخليج ؛ وهو الأمر الذي يختصر طريقه لمسافة تزيد على الفرسخين ؛
حدث هذا في أول الليل ، وكان المد يعلو ، ثم ازدادت سرعة تيارات المد
لدرجة لم يعد الانتظار معها ممكنا ؛ وتعرض الجنرال ومن معه لأشد
الأخطار ؛ في وقت كان معهم أدلاء من أهل البلاد .

- ٨ - « وبريح أنفك تراكمت المياه ، انتصبت الجارى كرابية ، تجمدت اللجج فى قلب البحر ؛
- ٩ - « قال العدو اتبع ادرك أقسم غنيمة ، تمتلئ منهم نفسى ، أجرد سيفى ، تفتنيهم يدى ؛
- ١٠ - « أنفخت بريحك غغطاهم البحر ، غاصوا كالرصاص فى مياه غامرة ؛
- ١١ - « من مثلك بين الالهة يا رب ، من مثلك معتزاً فى القداسة ، مخوفاً بالتساويح ، صانعاً عجائب ،
- ١٢ - « تمد يمينك فمتبلعهم الأرض ؛
- ١٣ - ترشد برأفتك الشعب الذى فديته. تهديه بقوتك إلى مسكن قدسك ؛
- ١٤ - « يسمع الشعب فيرتعدون ، تأخذ الرعدة سكان فلسطين ؛
- ١٥ - « حينئذ يندهش أمراء أدوم ، اقوياء موآب يأخذهم الرجفة ، يذوب جميع سكان كنعان ؛
- ١٦ - « تقع عليهم الهيبة والرعب ، بعظمة ذراعك يصمتون كالبحر حتى يعبر شعبك يا رب ، حتى يعبر الشعب الذى اقتنيتيه ؛
- ١٧ - « تجيء بهم وتفرسهم فى جبل ميراثك ، المكان الذى صنعه يارب لسكنك المقدس الذى هيأته يداك يا رب ؛
- ١٨ - « الرب يملك الى الدهر والى الأبد ؛
- ١٩ - « فان خيل فرعون دخلت بمركباته وفرسانه الى البحر ، ورد الرب عليهم ماء البحر ، أما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر . (٤٨)
- هكذا كانوا يشكرون السمو على خلاصهم ، كانت مريم النبية (أخت هارون) ، وكانت نساء إسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط يكررن على صوت دفوفهن :
- « رنموا للرب فانه قد تعظم ، الفرس وراكبه طرحهما فى البحر . »

فلو شاعت بعض العقول المدققة ان تتبين معنى هذا التعبير الذى جاء فى التوراة : « فدخل بنو اسرائيل فى وسط البحر على اليابسة ، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم » (٤٩) لجاءها الرد بأن الأمر لا يعدو ان يكون أسلوبا مجازيا للتعبير عن أنهم كانوا يعبرون النهر عند مخاضة ، ولما لم يكن ينبغى لهم ان يبتعدوا لا ذات اليمين ولا ذات الشمال ، فقد كانوا محصورين بفعل المياه فى مساحة بعينها كما لو كانوا بين بحرين . هكذا . ان ترائيم شاعر ما لا يصح ان نفسر بقدر أكبر من الصرامة ، كما أن الآية الخامسة من الاصحاح ١٥ والتي أوردناها من قبل ، تبين لنا كيف ان المصريين قد سقطوا فى قاع البحر ، وليسست المياه هى التى عاودت سقوطها فوقهم (أو انطبقتها عليهم) (٥٠) .

وقد احتفظ الأثر لدى العربان البدو بذكرى عبور البحر الأحمر ، فنجد على شاطئه الشرقى - على بعد ثمانية عشر ألف متر الى الجنوب من النقطة التى افترض أن الاسرائيليين قد عبروها - عيون مياه تسمى حتى اليوم عيون موسى .

ويعتقد بوكوك Pococke ان العبرانيين قد خاضوا البحر تجاه هذه العيون ، ولا يعطى سندا لقولته هذه الا أن هناك اثرا عن ذلك لا يزال موجودا لدى البدو ؛ ومع ذلك فلو كان علينا أن نصدق فى هذا الصدد ما يقول سكان الصحراء .

لتحدد المسلك المؤدى إلى موقع العيون الذى نسالهم عنه .

ويرجع الدكتور شو Shaw بنقطة العبور هذه الى الجنوب بدرجة أبعد ، ويجعلها محددة تجاه وادى التيه ، وهناك من المؤلفين من يعتقدون أن بحرا واسعا وعميقا هو الذى تتجلى فيه أكثر من غيره قدرة الاله .

(٤٩) سفر الخروج ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٢٢ .
(٥٠) يترتب على أخذنا تعبيرات الشعراء الأقدمين بمعناها الحرفى أن يختلط بالتاريخ كثير من الخرافات البعيدة عن كل عقل ، ومع ذلك فليست هذه هى غلطة الشعراء بقدر ما هو خطأ تفكيرنا ؛ فعبارات مثل : امفيون الذى بنى طيبة على أنغام قيثارته ، وأريحا التى انهدمت على صوت قرع دفوف بنى اسرائيل ، انما هى عبارات من السهل أن نعطيها المعنى الصحيح لها بقدر ما هو سهل أن نشرح هذا البيت من الشعر للشاعر الفرنسى بوالو Boileau : كوندية ، هذا الذى يكفى مجرد ذكر اسمه ، لاستقاط الحصون .

وفى مقابل ذلك ، فهناك آخرون يظنون أن بنى اسرائيل لم يعبروا البحر من شاطئ لآخر ، وانما هم — بعد أن دخلوا سريره (مجراه) فى حالة الـد المنخفض ، انسحبوا نحو الأرض مع بدء ارتفاع نوبة المد ، مواصلين مسيرتهم فوق منحى بيضاوى الشكل ، من جهة المياه ؛ وهذا رأى لا ينعض على أسانس ، وانما يبرهن فقط كيف يصبح المرء عرضة للخطأ حين يعمل محض خياله ، وفى جهل تام بالمواقع .

وهناك آخرون كثيرون كانوا أكثر توفيقا فى شرحهم عبور البحر الأحمر عن طريق المستنقعات ؛ فيتحدث أوزيب (٥١) Eusèbe * عن شخص يدعى أرتابانوس Artapanus قد أورد هذا الزأى ناسبا إياه لسكان ممفيس ؛ وعندما خشى المؤرخ يوسيفوس أن تبدو روايته عن عبور البحر الأحمر بعيدة عن التصديق لدرجة كبيرة فقد قرر أن الشئ نفسه قد حدث للمقدونيين عندما عبروا بحر بامفيلى Pamphylie ** تحت قيادة الاسكندر ، وأضاف « ومع ذلك فاننى أترك لكل امرئ أن يحكم على الأمر كما يشاء » . وهذا الاعتراف من جانب أحد الأبحار ، وواحد من أكثر أعضاء الاكليروس اليهودى علما ، انما هو اعتراف ثمين للغاية لأنه يبين لنا ما كان عليه عندئذ رأى هذه الهيئة الدينية ؛ ولذلك فان لوما شديدا قد وجه الى يوسيفوس بسبب صراحته هذه ، من جانب أناس ظنوا ، برغم كونهم مسيحيين ، أن عليهم أن يبدوا أكثر منه فى يهوديته ، وهو ما يستحيل على المرء أن يأخذ به عند قراءته لهذا المؤرخ ، ومن بين المحدثين ، نجد نيبور Niebuhr ولوكيرك le Clerc يحددان السويىس موقعا لهذا الحدث بسبب المخاضة التى تقع أمام هذه المدينة ، ولم يك بمقدور هذين الرجلين أن يعتقدوا ، مثلى ، أن العبور قد تم لأبعد من ذلك ، قليلا ، نحو الشمال ، وعند نقطة لا يشغلها البحر اليوم ، لأن

(51) Proepar, evang. lib IV, Cap. 17.

* أما أوزيب فهو مطران قيسارية ، وله مؤلف ضخـم عن التاريخ الكنسى ، (٢٦٥ الى ٣٤٠ م) (المترجم)
 ** إحدى مقاطعات آسيا الصغرى قديما وهى اليوم مقاطعة اضااليا ، وهو هنا يشير الى خليج يحمل نفس الاسم . (المترجم)
 (تم ٢٣ — وصف مصر)

الحدود القديمة للبحر الأحمر لم تكن معروفة لهما ، ولأنه لم تكن قد حدثت بعد أية عمليات تغدين في هذا الجزء من البرزخ ؛ وفوق ذلك فهذان الرايان لا يختلفان فيما بينهما الا بقدر طفيف للغاية حتى يمكن للمرء أن يقبني ، دون تفرقة، هذا الراي أو ذلك، فلقد كان موقع حصن هاجيروت أو الحيروث الذي ضرب أمامه الاسرائيليون خيامهم ، بالإضافة الى أن البحر في الفترة المتأخرة كان في الأرجح أكثر عمقا تجاه السويس مما هو عليه اليوم . كان هذا كله هو الذي قد حسن اختياري (٥٢) .

وهكذا رأينا ، ماهو ، في نظري، التفسير الأكثر طبيعية لعملية عبور البحر الأحمر ، فأما أولئك الذين يضعون الحدث في صف الخرافات فسوف يتفقون معنا ، على أقل تقدير ، أن يحتمل أن يكون الأمر قد حدث على هذا النحو ، وأما أولئك الذين يعتقدون بصحة وقوعه فلا تثريب عليهم ، دون ريب ، أن لم يجدوا من الضروري أن ينقلب نظام السكون كي نتعرف على قدرة الله في تخليص العبرانيين ، وفي الحاق الخسارة بالمصريين .

المياه المرة تصبح مياه عذبة

« ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر سوف وخرجوا الى برية شور ، فمساروا ثلاثة أيام في البرية ولم يجدوا ماء ، فجاءوا الى مارة ، ولم يقدرُوا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر ، لذلك دعى اسمها مارة ، فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب ، فصرخ الى الرب فأراه السرب شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذبا » (٥٣) .

لو أن موسى قد كان يعلم خاصية هذا الشجر أثناء هربه الأول الى الصحراء لظل هذا السر محفوظة لديه (أو معروفا منه) ، ولوجدناه

(٥٢) لا بد أن البحر قد كان في ذلك الوقت ، أمام السويس ، أكثر عمقا مما هو عليه الآن ، مادامت كتلة الرمال التي تحول دون امتداده نحو الشمال بحوالي خمسين الف متر لم تكن بعد عالية بالقدر الذي يكفى لابقائه داخل حدوده الحالية . أنظر دراستي عن الحدود القديمة للبحر الأحمر ، الدولة الحية ، المجلد الأول ، ص ١٨٧ . (المجلد الثالث من الترجمة العربية) .

(٥٣) سفر الخروج ، الاصحاح ١٥ ، الآيات ٢٢ الى ٢٥ .

عند البدو الذين لهم بلا جدال مصطحة كبيرة في جعل الماء صالحا في صحراء تنقصها المياه الصالحة بدرجة كبيرة ؛ إذن فعلينا في هذا الموضع أن ننقل ما قاله المؤرخ يوسف^{٥٤} واليك نص ما قاله حول هذه القضية (٥٤) ؛ وبعد أن مشى الاسرائيليون طويلا ، وصلوا عند حلول المساء الى مكان يسمى مارا ، وسمى كذلك بسبب مرارة مياحه ، وحيث كانوا منهكين للغاية فقد وقع اختيارهم على التوقف هناك في الوقت الذي كانت تنقصهم فيه المؤن ، ذلك لأنهم وجدوا هناك بئرا جعلتهم يأمون ، ورغم أنها لم تكن لتستطيع أن تفي بحاجة مثل هذه الألوف العديدة ، في بعض الانفراج في احتياجاتهم ، كما أن هذه البئر قد واستهم ، لاسيما وقد قيل لهم انه لا توجد آبار مطلقا على طول طريقهم. لكن هذه المياه جاءت مرة حتى انه لا البشر ، ولا الخيول ، ولا الحيوانات الأخرى ، أمكنها أن تشرب منها . يالها من مفارقة تدعو للاسى ، قد جعلت الشعب كله في حالة من اليأس ووضعت موسى أمام صعوبة اليمة وعجيبة ، فالاعداء الذين عليه أن يهزمهم هذه المرة ليسوا من أولئك الذين يمكن تفهمهم بفعل بذل سخي ؛ انهم الجوع والعطش اللذان قد جعلوا ، وحدهما ، هذه الألوف كبيرة العدد من الرجال والنساء والأطفال يشرفون على الهلاك ؛ وفي الوقت نفسه لم يكن موسى ليعرف نصيحة ما يأخذ بها ، واستشعر هو الآلام الآخرين جميعا باعتبارها آلامه الخاصة إذ كان الجميع يلتجئون اليه ، فالأمهات يستعطفنه أن يكون شفوقا بأطفالهن ، والأزواج يلتمسون منه أن يحنو على زوجاتهم ، وكل امرئ يتضرع اليه كي يبحث عن بعض علاج لهذا الألم العظيم . وبينما هو في مثل هذه الحاجة الماسة اتجه الى الله يطلب عقوه ورحمته وأن يحيل بقدرته وفضله هذه المياه المرة الى مياه حلوة ، فأنبأه الله أنه قد منحه هذا الفضل ؛ عندئذ أخذ موسى قطعة من الخشب ، وشقها الى اثنتين ، وبعد أنلقى بها في البئر قال للشعب ؛ ان الرب قد استجاب لدعواته ، وانه سينزع عن هذه المياه كل ما فيها من مرارة أو طعم غير مستساغ ، شريطة أن ينفذوا ما يأمرهم به . ثم طلب اليهم ما ينبغي أن يعملوه فأمر أشدهم قوة وأمتهم بنية بأن يسحبوا جزءا كبيرا من ماء البئر مؤكدا لهم أن الماء الذي

(54) Antiquités Judaïques, liv. III, Chap. 1.

يوسف أو جوزيف أو يوسفوس ، وهي طرق ثلاث لكتابة اسم واحد يشير الى المؤرخ نفسه (المترجم) .

سيبقى سيكون صالحا للشرب . فاطاعوه ، فجنوا بعد ذلك ثمرة الوعد الذى أعطاه لهم » — عن ترجمة المسيو أرنو دأنديى Arnaud d Andilly

هذا اذن هو تفسير المعجزة ؛ فمن المعروف انه بافراغ احدى الآبار، صبح المياه التى تتبقى عادة أفضل بكثير ؛ وتتطابق هذه الملاحظة مع قوانين الطبيعة ، فضلا عن ذلك فقد وأتتنا الفرصة أن نكررها مرات عدة فى مصر ؛ ففى المناطق الصحراوية التى أقمنا فيها بعض التحصينات، أصبحت المياه المائلة للملوحة ، والننتة فى معظم الأحيان ، أفضل على الدوام بعد مرور بعض الوقت على اغترافها .

عن السحاب وعمود النار

وعن بعض الظواهر الأخرى المثيرة للانتباه

هناك معجزة أخرى اخذت تتبدى للعبيرانيين منذ خروجهم من مصر، وظلوا يحظون برؤيتها بعد عبورهم البحر الأحمر ؛ لقد بدا الرب لهم نهارا فى صورة سحاب وليلا فى شكل عمود نار ؛ وعلى هذا النحو سار فى مقدمتهم ليرشدهم الى طريقهم . . ثم يجلس فوق مظلة حين يعسكرون . ليس ثمة احتمال فى وجود بعض أخطاء ، أو سوء فهم ، من جانب الشراح المتبحرين فى التوراة ؟ وهل يمكن أن يستدعى موسى مثل هذه الشواهد عند مسيرة العبرانيين ، ليقدمها كمعجزة ؟ الأمر المؤكد هنا هو أن التوافل تستخدم فى بعض الأحيان ، أثناء سيرها الليلي ، شعلات ضخمة يحملها الأدلاء يسبقون بها الموكب ، واليكم حول هذا الموضوع ، نصى ننقله عن العدد ٢٤ من بريد مصر Courrier de l'Egypte ، وهى الصحيفة التى كانت تطبع فى القاهرة (أثناء الحملة الفرنسية) :

« فى العاشر من نيفوز ، رحلنا من السويس ، واتجه الجزء الأكبر من القافلة نحو الجرود ، ومضى القائد العام وفى صحبته الجنرالات برتييه Berthier ، ودمارتان Dommartin ، وكافاريللى Cafarelli ، والمواطنان مونج Monge وبرتوليه Berthollet — الى الطرف الشمالى الأقصى للخليج ، كى يتبينوا على الطبيعة ما ان كانت توجد أى آثار لتلك التربة التى ترسمها الخرائط باعتبارها كانت تقسيم اتصالا بين النيل والبحر الأحمر ، وفى الواقع ، فقد تم العثور على مثل هذه الآثار ، وكان أول .

من ثبتيها هو الجنرال بونابرت نفسه . ثم سارت الفرقة لمسافة أربعة فراسخ في مجرى التربة نفسها ؛ وفي الوقت نفسه ، فمع السير في هذا الاتجاه ، أبتعدت هذه الفرقة كثيرا عن المعجود ، حيث كان عليها أن تعود لتلحق ببقيّة القافلة حيث الماء والمؤن والأطعمة ، كان الليل يقترب ، وكان موقع المعجود بالنسبة لها غير معروف ؛ وتعرض من في الفرقة لخطر أن يضلوا الطريق .

وصحب كل من الجنرالين بونابرت وبرتييه رجلاً فوق حصانه ، وسارا في المقدمة ، واتجها بأقصى سرعتيهما نحو النقطة التي كانت تغيب عندها الشمس ، وساقهم هذا الاتجاه لحسن الحظ الى المعجود ، وأمر القائد العام بإطلاق قذيفة مدفع ، وباشتعال النار فوق أبراج القصر ، وبأن توضع فوق بعض النقاط العالية من الطريق الذي انتهى هو من اجتيازه مشاعل (أو فوانيس) من تلك التي لتزود بها القوافل على الدوام لتكون علامات على الطريق أثناء الليل ؛ وهذه الشعلات بالغة البساطة ، فالشعلة منها اسطوانية الشكل ، توضع بها نار قوية ولائمة ، إذ توقد بها قطع بالغة الجفاف من خشب السنط ؛ وهذه المشاعل مثبتة في الجزء العلوي منها بغصا يصل طولها خمسة الى ستة أقدام ، وتفرس في الأرض حين يراد التوقف ؛ فإذا شاعت القافلة ان تسير خلال الليل ، يمشي في مقدمتها رجال عديون يحملون شعلات مماثلة ، ويحرصون على بقائها عالية ليلاصق كل مسافر ناراها ،

وعند المساء ، التأم شمل الجميع (هـ) .

سيقال ، بلا جدال ، ان ليست هذه قط شعلات تماثل تلك التي تكون المسحاب وصبود النار للذين تشير اليهما التوراة ، ذلك اننا نقرأ في التوراة ، في الآية ٢١ من الأصحاح الثالث عشر من سفر الخروج أن الرب كان يسير امام العبرانيين . ومع ذلك فهل يتحتم علينا أن نأخذ هذا التعبير بمعناه الحرفي في حين يعرف المرء أن شعبا شديد التدين

يجعل كل شيء من صنع الرب ، وأن الاسرائيليين ، بشكل خاص كانوا يتقبلون في الشعر ، وفي النثر ذاته ، كل المبالغات التي تتجاوز كل حد؟ ولدينا نحن ، حيث تضع اللغة الكثير من التحفظ والتعقل أو القيود ، السنا نجد أناسا يتسمون ملائكة أو كائنات مقدسة أو مخلوقات سماوية؟ لنضع انفسنا لحظة في مكان العبرانيين ؛ اجنبي يسير على رأسنا ليهدينا السبيل في صحراء مجهولة منا ، الشعلة التي يحملها في الهواء تلقى خلال النهار دخانا ، وخلال الليل لهيبا يهتدى على ضوءه رجالنا . الأمر المؤكد أن لن يكون ثمة مأهو أبسط ولا أيسر من أن نقص ذلك بأسلوب يخلو من الشعاعية . ومع ذلك فمطينا إلا نواجه الأمر في ذاته ، ولنتدبر نتائجه ، وعندئذ سوف نغير من لغتنا ، ولسوف نقول : كيف هبط علينا هذا الرجل في الوقت نفسه الذي نحتاج إليه فيه أشد الاحتياج؟ كم نحن محظوظون أن وهبنا إياه ! انه رجل مبارك ، انه ملاك ، انه اله !

وحيث يتعاطف كل شيء ، بالنسبة ففسنها في لغة الحماسة ، تحول الشعلة الى عمود من النار ، الى عمود من السحاب ، الى مجد الرب (٥٦) .

ومما يدل على أن موسى لم يكن يريد أن يقدم هذه الواقعة باعتبارها أمرا خارقا للطبيعة انه يخبرنا بأن حماه ، هذا العربي من مديان (مدين) * هو الذي قاد الاسرائيليين ، واليكم ماتقرؤه حول هذا الموضوع في سفر العدد ، الاصحاح العاشر :

آية ٢٩ : « وقال موسى لجوياب بن رعوثيل المدياني ، حمى موسى ، اننسا راحلون الى المكان الذي ثال الرب اعطيكم اياه ، اذهب معنا فنحن نحسن اليك ، لأن الرب قد تكلم عن اسرائيل بالاحسان ؛

آية ٣٠ : « فقال له لا اذهب ، بل الى ارضي وإلى عشيرتي امضي ؛

آية ٣١ : « فقال لا تتركنا لأنه بما أنك تعرف منازلنا في البرية تكون

لننا كميون ؛

(٥٦) أطلق القديس يوحنا على مطارنة الكنائس الآسيوية المتبعة اسم ملائكة هذه الكنائس : « وقال ابن الرب اكتب الى ملاك كنيسة ايفيزوس » .

* وهي إحدى المدن الآيونية على بحر أيجه . (المترجم).

آية ٣٢ : « وان ذهبت معنا فبنفس الاحسان الذى يحسن الرب
الينا نحسن نحن اليك ؛

آية ٣٣ : « فارتحلوا من جبل الرب مسيرة ثلاثة ايام وتابوت عهد
الرب راحل امامهم مسيرة ثلاثة ايام ليلتمس لهم منزلا » .

وبالتأكيد ، فلو ان ملاك الرب كان حقيقة هو الذى يمشى امام
العبرانيين لكان موسى فى غير حاجة الى حمية ليكون مرشدا لهم ولما
كان وعده بالكثير من « الاحسان » - أى الثروات - ليحمله على البقاء
بالقرب منه .

أما هذه العبارات : ان الرب او ملائكته كانوا يقودون جيش اسرائيل
فى شكل دخان او لهيب فيقتصر معناها على ان تابوت العهد كان محمولا
فى مقدمة المسيرة (٥٧) .

أما هذه الوسيلة فى ارشاد الفرق أو الجيوش ، عن طريق اشارات
نارية توضع أثناء نوبات الراحة فوق خيمة القائد ، فأمر لا يخص
العبرانيين وحدهم . فمن المعروف أنها كانت مستعملة عند الفرس ، كما
أننا سنسوف نقرأ هنا باهتمام النص التالى عند كينت - كورس .
Quinte - Curce بسبب تشابهه الشديد مع ما جاء بالأصحاحين
التاسع والعاشر من سفر العدد . يقول كينت كورس عند حديثه عن

(٥٧) التابوت عبارة عن صندوق من خشب السنط، تكسوه صفيائح
من ذهب ، ويبلغ طوله ذراعين ونصف الذراع ، وعرضه ذراعا واحداً
ونصف الذراع وبارتفاع يماثل عرضه ؛ وقد حفظت فيه ألواح الشريعة؛
ويسمى غطاء التابوت المائدة ، ويعلوه اكليل من الذهب ، يشكل جناحاه
المبسوطتان مايشبه متعبدين يفترض أن تجلس عليهما ذات الرب غير
المرئية ، سفر العدد ، الأصحاح السابع ، الآية ٨٩ . وكان جانب التابوت،
من ناحية الطول ، مزودين بحلقتين كانت تدخل فيهما العصوان اللتان
تستخدمان فى حمله فوق الاكتاف ، ويمكننا أن نرى فى أطللس العصور
القديمية ، اللوحة الثانية ، المجلد الأول ، الشكل ٤ ، رسما بارزا فى جزيرة
فيله يماثل التابوت لدرجة كبيرة ، وهو ما سبق أن لاحظته من قبل المسيو
لانكريه Lancret فى دراسته عن وصف جزيرة فيله ، ص ٢٧ .

* مؤرخ لاتينى عاش فى القرن الميلادى الأول وله مؤلف كبير عن
تاريخ الاسكندر . (المترجم) .

الاسكندر : « وعنده حين يريد أن يقض معسكرا ، كانت الطبول تعطى الاشارة ، ومع ذلك ، فحيث كانت الضجة فى معظم الأحيان تحول دون سماع دقات الطبول ، فقد كان الاسكندر يأمر بأن توضع على خيمته عصا يستطيع أن يلمحها الجميع وأن ترفع فوقها شارة الرحيل : وكانت هذه نارا أثناء الليل ودخانا أثناء النهار » (٥٨) .

ونقرأ فى الاصحاح التاسع من سفر العدد :

آية ١٥ : « وفى يوم اقامة المسكن غطت السحابة المسكن خيمة الشهادة ، وفى المساء كان على المسكن كمنظر نار الى الصباح ؛

آية ١٦ : « هكذا كان دائما ، السحابة تغطيه ، ومنظر النار ليلا ؛

آية ١٧ : « ومثى ارتفعت السحابة عن الخيمة كان بعد ذلك بنو اسرائيل يرتحلون ؛ وفى المكان حيث حلت السحابة هناك كان بنو اسرائيل ينزلون » .

وفى الاصحاح العاشر :

آية ١ : « وكلم الرب موسى قائلا ؛

آية ٢ : « اصنع لك بوقين من فضة ، مسحولين تعملهما فيكونان لك لناداة الجماعة ولارتحال المحلات ؛

آية ٣ : « فاذا ضربوا بهما يجتمع اليك كل الجماعة الى باب خيمة الاجتماع » .

ولا يمكن المرء بالتأكيد أن يجد تشابها أكبر بين عادات الامتين فيما يتصل بمسيرة لهما .

معجزات أخرى كثيرة يمكن تفسيرها بشكل طبيعى مماثل لما تم مع المعجزات السابقة . كذلك فان السماء ، الذى يكون منهكا بعد رحلة طويلة يتساقط الكثيرون منه فى الأيدي عند شاطئ البحر ، فى الفصول

لنفسها التى كان العبرانيون يستخدمونها خلالها طعاما لهم . ونقرأ عند ديودور الصقلى أن مصريين منفيين لادانتهم بالسرقة فى عهد اكينزائيس، فى صحراء برزخ السويس ، كانوا يتغذون بالطريقة نفسها ، أما المن ، فما برح يحصد من شجرات لعلها كانت فى الماضى وفيرة العدد فى المناطق المحيطة بجبل سسيناء ، أما النار اليونانية ، فهى مثال على أن الشرقيين قد عرفوا ، فى فترات سابقة ، كيف يشعلون النار ، وكيف يستخدمونها على هذا النحو الخيف .

ومع ذلك فإن كل هذه التفسيرات لا تتعارض فى شىء مع رأى القائل بأن من المستطاع أن يكون الرب قد جاء لمساعدة شعبه ؛ فهذا الاتفاق المعارض أو الفجائى لأحداث مواتيية ، والتى ليس بمقدور أحد أن يكررها ، يمكن أن ينظر إليه باعتباره (فى حد ذاته) معجزة ، وفضلا عن ذلك فلا ينبغى أن نتوقف عند هذا الأمر أكثر من ذلك ، ولنصل مباشرة الى تلك اللحظة التى أقام فيها الاسرائيليون ، دون جلبة ، فى الصحراء، بعد أن هزموا العماليق فى رالميديم .

الشريعة تنزل على جبل سسيناء (٥٩)

كانت كل الشعوب القاطنة فى ضواحي جبل سسيناء على يقين من أن الرب يقيم هناك ؛ ذلك أنه يكاد ينظر الى الجبال العالية فى كل مكان ، باعتبارها المقر الاعتيادى للالهة ؛ وهذا أمر طبيعى ، فليس هناك واحد منا لم يستشعر عند سفح هذه السكت الصخرية العظيمة ضعفه ، وهو أمر ينتج عنه خشوع وتأمل يهيئان لاتبعات روح الأسمكار الدينية ، وفضلا عن ذلك فإن الجبال تكون مسرحا لعدد كبير من الظواهر المفزعة ، التى تبدو كما لو كانت جهازا هائلا فى أيدى آلهة جبارة ؛ ولقد ملح الخوف ، بأكثر مما فعلته المعرفة ، البشر اولى أفكارهم عن الالهوية، فمن قممها تندفع السيول المدمرة ، كما تتكون فى باطنها وعلى ضجيج الانفجارات التى تزلزل وتقلب باطن الأرض ، الأحجار الملتهبة ، والمعادن المنصهرة التى تبلع المدن وتدمرها حين تخرج فى شكل شواظى من نار

(٥٩) يسمى العرب هذا الجبل باسم جبل موسى .

وانهيار من حمم ؛ كذلك ، على ذراها ، ترمجر الرياح العاتيات ، وتتراكم السحب التى تتخذ من الأشكال مايبعث على الرهبة ، وتتفجر الرعود الهائلة وسط البروق التى تبدو وكأنها ستصقق الوديان (٦٠) .

على مشهد عاصفة مماثلة ، أراد موسى أن يصدح خيال الاسرائيليين حتى ينتهى باقناعهم بصحة تلك العلاقة القائمة بينه وبين الرب ، لم تكن سماء مصر قد قدمت لهم من قبل ، شيئا شبيها بذلك ، فهى تتوهج بالضوء الباهر اثناء النهار ، وبأجل لون لازوردى اثناء الليلالى الهادئة ، ولا تحجبها قط أية سحب معتمة ؛ وفى الربيع فقط نرى بعضا من سحب بالغة الارتشاع تدفعها بسرعة ريح الشمال ، لقمضى سريعا كى تتركهم فوق جبال الحبشة العالية ، حيث تتحول الى أمطار ينشأ بسقوطها عدد لا حصر له من الأخوار التى تصب فى النيل مكونة فيضان هذا النهر . اما الخماسين أو الريح المسممة (ريح السموم) ، بدوامنها الترابية الملهبة وأعمدتها الرملية فتعكر وحدها صفو الجو ، ومع ذلك ، وبخلاف أنها لا تهب على مصر الا مرة أو مرتين على مدار العام فانها هناك ضارة أو مؤذية أكثر منها مفزعة ، فهى تمارس على الحيوانات والنباتات آثارها الضارة ، وتسبب أمراضها ، بل قد تقتلها أحيانا ، فان ذلك يحدث فى معظم الأحيان بالطريقة التى تحدث بها آثار السموم ، تلك التى تعمل دون جلبة ، دون عنف ظاهرى ؛ وبالإضافة الى ذلك ، فبإمكاننا ، أن نحكم عليها بدواماتها تلك بأنها بنت الأرض أكثر منها وليدة للسماء ، لذلك

(٦٠) عندما قرأت فى المجمع العلمى بالقاهرة ، فى السادس عشر من برومير من العنمام التاسع ، مذكرتى هذه عن عبور الاسرائيليين للبحر الأحمر ، وعن اقامتهم عند سفح جبل سيناء ، أعلنت أن هذا الجبل يمكن أن يكون بركاننا خامدا ؛ فالأحجار البركانية الضخام التى كنت رأيتهما فى صابورات السفن (الصابورة : ثقل يوضع فى سفينة لحفظ توازنها) عند مدينة الطور تلك التى كانت تصل الى السويس والقصر ؛ كما أن الوصف الذى يعطيه موسى للحظة تجلى الرب فوق جبل سيناء قد رجحت عندي هذا الرأى ؛ وبعد وقت من قراءة دراستى توجه اثنان من رفاق رحلتنا هما السيدان كوتل Coutelle وروزيير Rozière الى كهف فى جبل سيناء ، وتبين لهما أن الجبل جرانيتى وليس به أى اثر لبركان ، ومع ذلك فان الأعاصير أو العواصف ، تتفق بنفس القدر مع مايمكن أن تحدثه ثورة بركانية كهلك التى جاءت فى رواية موسى .

فإن نحن نعتقد أن قدماء المصريين قد اتخذوا منها رمزا للقذوة السيئة . وعلى هذا يكون من السهل علينا أن نتصور كيف كان العبرانيون مأخوذون بفعل رعب ديني عند أول مرة يرون فيها البروق تشق ظلمات السحب ، ويسمعون فيها هزيم الصواعق فوق الجبال العالية ، تتزايد أصداؤه وتمتد لأبعد مدى قيعاته (٦١) . وفي الواقع فإن السحب نقدم لمن يرصدها أشكال شياطين بالغة الغرابة ، كما أن حركتها ، وأشكال المسخ التي تقدمها قد أفزعته في معظم الأحيان والهبث خيال الضعفاء من الرجال أو جهالهم ، فقد رأى بعض فيها علامة على غضب السماء ورأى آخرون فيها آلهتهم ذاتها أو أرواح أجدادهم الهائمة ، أما الرعد ، فقد جعلت منه كل الشعوب سيد الكون ، وهذا نحن نرى ، ورغم تقدم العلوم والفنون الذي يهيئه التعلم ، أن كثيرا من الناس يابرحوا يخافونه بأكثر مما يخافون الأخطار الوشيكة أو الداهية ، والسبب في ذلك بالغ البساطة ؛ أن من الممكن لنا أن نصارع ضد هذه الأخطار في الوقت الذي لانملك فيه وسيلة ما لدفع أخطار الرعد . وزيادة على ذلك ، فكل ضجة هائلة تولد الاحساس بوجود قوة عظيمة ، كما يجعل منها الخيال صرخة غضب هائلة تصدر من كائن عظيم وتنادر في حالة غضب وهياج .

لقد ظل موسى لوقت طويل يرمى قطعان حمية فوق جبل سيناء ، وهناك كان شاهدا على ظواهر وأشكال سامية شكلتها الرعود والمواصف فوق هذا الجبل الشامخ ؛ وبلا ريب فإن ذكرى ما كان هذا الرجل المساهر قد استشعره منها هي التي دفعتة الى استغلالها في تحقيق ما يريه .

وننقل هنا نصا خرفيا من جزء من الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج ؛

آية ١ ، ٢ « في الشهر الثالث بعد خروج بني اسرائيل من ارض

(٦١) اثناء تربية نحو أربع سنوات قضيتها في مصر ، لم أسمع سوى مرة واحدة صوت الرعد ؛ ومع ذلك فقد كان هذا الصوت ضعيفا حتى أن كثيرا من الأشخاص ، ممن كانوا معي ، لم يلحظوه قط .

مصر ، فى ذلك اليوم جَاءوا الى برية سيناء ؛ ارتحلوا من رفيديم وجاءوا الى برية سيناء فنزلوا فى البرية . هناك نزل اسرائيل مقابل الجبل ؛

آية ٣ : « واما موسى فصعد الى الله ، فناداه الرب من الجبل قائلا : هكذا تقول لبيت يعقوب ، وتخبر بنى اسرائيل ؛

آية ٧ : « فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب ووضع قدامهم كل هذه الكلمات التى اوصاه بها الرب ؛

الآيات من ٨ الى ١٢ : « فأجاب جميع الشعب معا وقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل ، فرد موسى كلام الشعب الى الرب ؛ فقال الرب لموسى ها انا آت اليك فى ظلام السحاب لكى يسمع الشعب حينما اتكلم معك فيؤمنوا بك أيضا الى الابد ، واخبر موسى الرب بكلام الشعب فقال الرب لموسى اذهب الى الشعب وقدمهم اليوم وغدا وليغسلوا ثيابهم ؛ ويكونوا مستعدين لليوم الثالث . لانه فى اليوم الثالث ينزل الرب امام عيون جميع الشعب على جبل سيناء ؛ وتقيم للشعب حدودا من كل ناحية قائلا احترزوا من أن تصعدوا الى الجبل أن تمسوا طرفه . كل من يمس الجبل يقتل قتلا » .

وفى واقع الأمر ، فليس من العسير أن يتنبأ بحدوث الرعد قبل مواعده ببضع ساعات (٦٢) ؛ فالحبارة وسكان الجبال العالية يبرهنون لنسب كل يوم على صحة ذلك اذا تحملهم غريزة البقاء على أن يلاحظوا بعناية كل نذر الظواهر الجوية التى يخشونها ، وقد تطلب الأمر من موسى - وقد عمل لمدة طويلة راعيا فوق جبل سيناء - أن يقوم هناك بتأملات

(٦٢) تتضح نذر الثورات البركانية كذلك ، وبطريقة تكاد تكون شبه مؤكدة ، عن طريق توهج المستنقعات والأبخرة التى تحمل روائح كبريتية وكذلك عن طريق الهواء الثقيل والحر ، والأصوات تحت الأرضية وجفاف الآبار ، ونقص - وفى بعض الأحيان التوقف التام - للدخان الذى يتصاعد عادة من فوهات البراكين القديمة ، وكذلك عن طريق الفزع الذى يملك الحيوانات فتعبر عن قلقها بصرخاتها وسيرها المتخبط والقلق، وتشعل الطيور نفوس الشئ فتطير هنا وهناك - هذه كلها علامات على قرب حدوث العواصف أو الأعاصير أو الزوابع ، كما انها فى الوقت نفسه نذر بحدوث هذه الكارثة الرهيبة (ثورة البراكين) .

وملاحظات مماثلة . أما عن الفترة المحددة والتي تتباعد قليلا عن الايام الثلاثة التي حددها موسى في الآيات من ١١ الى ١٥ فان علينا أن نعتقد ان موسى ، عند حديثه الى العبرانيين ، كان يعطى لكلماته غموض الوحي القائم بالوساطة بين الناس وبين الرب ، والسدى يكرر ذلك دون أن يصيبه الفشل ، وان كان يدون نبوءاته (الغامضة تلك) — ما أن تمضي الحوادث ، بطريقة واضحة محددة (٦٢) .

ونواصل مرة أخرى النقل عن الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج :

آية ١٦ : « وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح ان صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذي في المحلة ؛

آية ١٧ : « وأخرج موسى الشعب من المحلة للملاقاة الله ، فوقفوا في أسفل الجبل ؛

آية ١٨ : « وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل ان الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون ، وارتجف كل الجبل جدا » .

الايتان ٢٠ ، ٢١ : « ونزل الرب على جبل سيناء الى رأس الجبل، ودعا الله موسى الى رأس الجبل فصعد موسى ؛ فقال الرب لموسى انحدر حذر الشعب لئلا يفتحوا الى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون » .

السنا نضع أيدينا الآن على وصف بالغ الدقة للرعء ؟ السنا نرى كم كان موسى يخشى أن يأتي أحد أبناء شعبه ليجده وسط السحب التي تغطي قمة الجبل ، لكنه لن يجد هناك الرب المقدس الذي اصطنع له ذكاء موسى وحكمته ، وقابلية هؤلاء للايمان والتصديق مكانا هناك .

واما موسى فقد اقترب الى الضباب حيث كان الله ، هكذا تخبرنا الآية ٢١ من الاصحاح العشرين من سفر الخروج .

(٦٣) انظر بالاضافة الى ذلك ماسبق أن ذكرناه في الجزء الخاص بعبور البحر الأحمر عن نشر الأسفار .

ويتعرف المرء كذلك — ولا يزال — في هذا الاصحاح نفسه على الدوائع التي حدث بموسى أن يقود الاسرائيليين الى جبل سيناء، اذ يقول لهم : « انه الله انما جاء لى يمتحنكم ولكي تكون مخافته امام وجوهكم حتى لا تخطئوا » .

« انتم رايتم اننى — اى انا الرب — من السماء قد تكلمت معكم » *

وبعد ذلك ، وبعد أن منع موسى أن يتبعه أحد ، ذهب فوق الجبل ، وأمضى هناك أربعين يوما ، وخط خلال هذه العزلة لوحى الوصايا وقدمهما الى الشعب باعتبارهما حسب قوله « المكتوبين بأصبع الرب » **

وبهذه الطريقة نفسها فرض غالبية المشرعين الاحترام الكبير لشرائعهم ؛ نوما Numa يستلهم حورية الماء والغاب اجريا ، والملك جبريل يملئ القرآن على محمد ، ومانكو كاباكا Manco Capac يتحدث باسم الشمس ، وليكورج ، نفسه ، حتى ليكورج Lycrgue الحكيم يبحث عن دعم لشرائعه في وحى معبد دلفى ، ان هؤلاء الرجال العظام ، الاكبر مهارة والاكثر علما من عامة الناس *** يفيدون من ظواهر الطبيعة المعروفة لهم جيدا كي يحيطوا انفسهم بالمهابة والقداسة . السنا نرى كريستوف كولومبوس ، في زمن اكثر حداثة ، وحين كان يهلك جوعا ، يذير البسطاء ، سكان جمايكا ، بانهم ، ان لم يجلبوا الاطعمة الى معسكر الاسبان ، فسوف تعاقبهم يد الله ، ثم حدث كسوف الشمس الذي كان يتوقعه فخر القوم سجدا من الرعب ، وأطاعوه .

* اقتباس من الآيتين ٢٠ ، ٢٢ من الاصحاح العشرين من سفر الخروج . (المترجم)

** سفر التثنية ، الاصحاح التاسع ، الآية ١٠ (المترجم) .
*** ينظر المؤلف الى الجميع بلا استثناء باعتبارهم مشرعين وبذلك يطبق فكرته على المشرع الحقيقي والمشرع المفترض وجوده وكذلك الانبياء . وفكرته هنا تعميمية لا تصح حد ، قد تصلح دليلا على حذقه هو ولكنها لاتعد دليلا على صدق ما يذهب اليه . وقد وضع من سياق مقاله ثلة معرفته . ويكاد يكون جهله — بالاسلام ونبيه العظيم . اما الذين يفسر اليهم هنا فهم :

حقا ! ان طفولة الشعوب تمتلئ على الدوام بالمعجزات (٦٤) .

= نوما Numa : ثانى ملوك روما كما تحكى الاساطير (٧١٤ - ٦٧١ ق.م) وكانت السلطة فى ذلك الوقت فى يد الرؤساء أو السيناتوريين ، اما الملك فكان يقوم بدور الكاهن الأكبر . ولكى يلزم شعبه وقومه الهجى فى ذلك الوقت بالاخلاق القوية وجد ان من الضرورى له ان يبدو فى صورة من يستلهم كلماته من غير حكمة البشر فادعى انه يلتقى فى الليل بايجريا ، الحورية المقدسة التى تلهمه الرشد والنصيحة ، وأفلح بذلك فى توحيد دين قبائل روما وتقويت وحدة الدولة وزاد استقرارها .

مانكو كاباكا Manco Capac : مؤسس امبراطورية بيرو وأول ملوك الانكا ؛ عاش فى القرن العاشر الميلادى .

ليكورج Lycurgue يقول عنه هيودوت انه ابن عم الملك كاريولوس ملك اسبرطة ، تلقى من الوحي فى دلفى بعض مراسيم يراها البعض قوانين ليكورج نفسها ويراها آخرون تصديقا ربانيا على قوانين ليكورج . وقد وجد باعتباره مشرعا أن أفضل طريقة لتغيير عادات الناس القائمة ولادخال عادات جديدة أن يقدم قوانينه باعتبارها أوامر من عند السماء . وفى حين يجزم بعض المؤرخين بأنه واضع قوانين اسبرطة يرى كثيرون انه شخصية خيالية ، ولعل هذه الشرائع لم تكن من وضع رجل واحد بعينه ، ولكنها طائفة من العادات تحولت الى قوانين وسميت باسم الشخص الذى قام بجمعها وتدوينها . (المترجم) .

(٦٤) ليس هناك ما هو أسهل من خداع الطبقة الدنيا من الشعب عن طريق معجزات مزعومة حتى عند الشعوب المتحضرة . الم يهرع القوم فى إيطاليا ، فى أيامنا هذه ، ليحيطوا بصورة العذراء المقدسة التى كانوا « يرونها » وهى تحرك عينيها ؛ ولهذا السبب لم يكن القساوسة يكفون انفسهم عناء تحريك أى جهاز لاتمام « المعجزة » ؛ كانوا يكتفون بالقول : هل ترون ؟ ويجب الجميع . نعم . نحن نرى .

وكم يكون الخيال قادرا على الخلق !

موت موسى

بعد أن سار الاسرائيليون لبعض الوقت على غير هدى ، وعلى طريقة
العربان ، فى المناطق المحيطة بجبل سيناء ، حاولوا التوغل فى اراضى
سوريا الى الغرب من البحر الميت .

كان موسى قد استنهض عزيبتهم مخبرا اياهم ان الرب قد اعطى
لنسل ابراهيم ارض كنعان . ومع ذلك فقد رفضوا. عند وصولهم الى حدود
هذه الدولة ان يهضوا لأبعد من ذلك فقد افزعته تقارير جواسيسهم ، ثم
عادوا فطلبوا أن يدخلوا المعركة بعد أن استنفرتهم ملائكة موسى ، وحده
هذا الرجل الذى كان شاهدا على ما ابدوه من فزع منذ وقت قصير أنهم
سيهزمون لو تجاسروا على الهجوم برغم منعه اياهم من ذلك ؛ ولم يستمعوا
اليه ، وحاقت بهم الهزيمة التامة (٦٥) . وأدرك موسى من هزيمتهم تلك ،
ومن عصيانهم الذى تفجر قبل ذلك بقليل ، ان الاسرائيليين ، لم يصبحوا
بعد ، مفرسين بالقتال ولا منظمين بالقدر الكافى حتى يمكنهم ان
يستقروا بالقوة القاهرة فى ارض السوريين ؛ فانتظر فى الصحراء
ثمانية وثلاثين عاما حتى مات غالبية العبرانيين الذين ولدوا بمصر . ولقد
سمعهم مرات عديدة يأسفون على قيودهم ، وشعر كم هو عسير أن يولد
روحا قومية لدى رجال ربما كانوا ينتمون لأجناس مفرقة ، وولدوا فوق
ذلك فى اغلال العبودية . واستغل من جانبه كل هذا الوقت فى تطويعهم
لشرائع تتناسب مع أوضاعهم وما يهدف هو اليه . ولقد نجح فى ذلك .
وحين يتخيل المرء صعوبة هذه المحاولة من جانب موسى ، فإنه يجد مايفريه
على أن يضع هذا المشرع فى مقدمة كل المشرعين الآخرين ، ليس فقط
لأنه انتزع عبيدا من سلاطتهم وانما — كذلك — لأنه جعل منهم أمة شهيرة
غير قابلة للفناء ، واذا كانت فتوحاته وفتوحات من خلفوه لا يمكنها من
ناحية الاتساع والأهمية أن تقارن بفتوحات محمد وخلفائه ، فى ظروف تكاف
تكون متشابهة ، فقد تم الأمر على هذا النحو لأن موسى كان يجابه فى
رؤيته أمة قوية وشعبا مفرسنة بالقتال تشغل ارض سوريا وفارس

ومصر وبلاد العرب ، أما عند ظهور محمد ، فقد كانت امبراطورية الرومان العملاقة وكذلك امبراطورية الفرس قد بليتتا من القدم بعد ان اقتسمتا العالم ، وكانت الشعوب التي أخضعها هؤلاء والتي سئمت اغلالها تظن انها تحطم اغلالها بانتقالها من سيطرة سيد قديم الى أيدي سادة جدد * وكذلك فان موسى كى يخلق من عبود دولة متماسكة قد اضطرت ان يوحى اليهم بالهلع من الأجانب وهو شعور ظلوا يحملونه بين جوانحهم حتى أنهم يفضلون ان يستأصلوا شأفة عدوهم عن أن يهزموه ، بل أنهم يزدرون المعتنقين الجدد لدينهم حتى فى ذرايعهم ، فلا يعطون الا للجبل العاشر من هؤلاء الحق فى دخول جماعة الرب . فى حين أن محمدا ، بعد أن أخضع للإسلام كل العرب — وكان لدى هؤلاء شعور قوى بالغ الوضوح منذ زمان بعيد ، قد أمكنه أن يستخدم القوة والاقتناع لحشد انصار جدد مائحا اياهم كل الحقوق المقررة للمؤمنين القدامى ، وبهذه الطريقة ضاعف قواته الظاهرة بجنود من الأمم التي فتحها. *

وقد عكف موسى ، كما سبق لنا القول ، لأكثر من ثمانية وثلاثين عاما منذ انتصار الكنعانيين (٦٦) ، على تطويع العبرانيين لشرائعه ، وفى النهاية حاول من جديد أن يستقر فى سوريا ، وزحف نحو الشرق من البحر الميت ، متخذا هذه المرة ، طريقا مختلفا عن الطريق الذى كان قد اتبعه عند حملته الأولى ، متجنباً فى كل الأحوال أن يمر بأرض ملك ادوم الذى كان يخشى بأسه (٦٧) ، وضمن موسى لنفسه ، من هذه الناحية دعم أو على الأقل حيدة كثير من العشائر حين أذاع أن العبرانيين يشتركون معهم فى أصل واحد ، وحين وعد بأحترام أملاكهم وبأن يدفع حتى ثمن الماء الذى سيشربه هو وقومه عند عبورهم بلادهم (٦٨) .

* لا يمكن أى منصف أن يقبل هذه الأفكار على إطلاقها ، بالإضافة الى أن الكثير مما جاء فى كلامه مردود عليه ولا يمكن تفسيره الا بالتحمّل أو تجاهل معطيات التاريخ ، وهو أمر يؤسف له من جانب رجل يتسم بروح متحررة ، وباطلاع واسع . (المترجم) .

* وهكذا تتحول الميزات والفضائل الى عيوب ومآخذ عند من يريدون التحامل على الاسلام بأية وسيلة (المترجم) .
(٦٦) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٤٦ ؛ والاصحاح الثانى ، الآية ١٤ .

(٦٧) سفر العدد ، الاصحاح العشرون .

(٦٨) سفر التثنية ، الاصحاح الثانى .

(م ٢٤ — وصف مصر)

وعندما شنت عليه معارك أثناء مسيرته ، فقد انتزع انتصارات عديدة لا بأس بها ، واستولى على منطقة خصيبة تقع الى الشمال من نهر الأردن ؛ وهنالك ، حيث شعر بقواه تخور ، شاء أن يجعل من موته أمرا مفيدا في تحقيق مآربه ، فأعلن للشعب أن الرب قد رفض أن يدخله الأرض الموعودة لأنه قد شك مرة واحدة ، واحدة فقط ، في قدرته * وأعلن باسم الرب الخالد أن يشوع بن نون قد صار خليفة له ؛ وبعد أن صعد موسى جبال عباريم ونبو ائشار بيده للعبرانيين الى الأرض التي سبكاقتهم بها الرب جزاء فضائلهم ولا سيما عقيدتهم الدينية .

وهانذا استحضر صورة هذا الرجل المسن ، الجدير بالمدح ، في ملامح موسى الذي رسمه ميكل انجلو في كنيسة القديس بطرس في روما ؛ جبهته التي جمعتها السنون لا تنم إلا عن الهدوء ، أما عيناه فتحتفظان ببريقهما مع القدر الأكبر من الرقة والحنو ؛ ولقد احترمت يد الزمن عظمة تقاطيعه ، أما أسنانه البيضاء كالعاج (٦٩) فتظنها لحية كثيفة تتدلى فوق صدره ، هذا هو يمشى ببطء ولكن في ثقة ، أما شحوب لونه ونظراته الشائخة الى السماء فتنبئ عودها أنه تارك الأرض كي يذهب الى مقام أكثر قداسة ، يحيط به المقاتلون والنساء والأطفال ؛ بل والعبيد ، كلهم قلقون ، لكنه بصوته الملهم يقتبأ لهم بأقدارهم التي يحملها لهم المستقبل ، ويباركهم ؛ ويجثو الشعب على ركبتيه ؛ وحين يعلن لهم عن موته الوشيك يتفجر النحيب وتنساب الدموع ؛ في كل مكان ؛ ويقول لهم كلمة الوداع الأخير ثم يبتعد ؛ يندفع الناس ليتبعوه ؛ لكنّه بحركة واحدة من يده الخائرة يلزمهم : « أماكنهم ؟ من يتجاسر على عصيان

* اقرأ في التوراة : « فقال الرب لموسى وهارون : من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقدسانى أمام أعين بني اسرائيل ، لذلك لا تدخلان هذه الجماعة الى الأرض التي أعطيتهم اياها » سفر العدد ، الأصحاح ٢٠ ، الآية ١٢ .

وكذلك : لأنكما خنتما في وسط بني اسرائيل عند ماء مريبة قادش في بركة صين إذ لم /تقدسانى في وسط بني اسرائيل فانك تنظر الأرض من قبالتها ولكنك لا تدخل الى هناك ، الى الأرض التي أعطيتها لبني اسرائيل .

سفر التثنية ، الأصحاح ٣٢ ، الآية ٥٢ . (المترجم)

(٦٩) « وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهب نضارته » سفر التثنية . الأصحاح الرابع والثلاثون ، الآية ٧ .

هذا الرجل الذى اصطفته السماء فى اللحظة نفسها التى يذهب فيها كى يتحد بالذات الخالدة ؟ ولم يره أحد بعد ذلك يعاود الظهور ، أما يوشع المخلص الوحيد لما كان يهدف اليه ، وكذلك بلا ريب لقراره الأخير ، فيقود الاسرائيليين من جديد فى عربات موآب حيث يظلون بكونه ثلاثين يوما ؛ مثرعا ونبيا وأبا .

ومع ذلك فلن أمضى لأبعد من ذلك فى بحثى ، فالجيل الذى عبر الأردن كان غريبا عن مصر ، وقد لا يتصل تاريخه بقدر كاف بخطوة هذا المؤلف * لكننى أختتم بهذه الفكرة ؛ ان كل ما انتهينا الى استخلاصه من الأسفار الخمسة انما هو احتمال وقريب كذلك من الصحة ؛ ويتطابق أو يتفق بشكل تام مع روايات المؤرخين الدنيويين لدرجة يستحيل معها ان تكون هذه الأحداث أسطورة ، كما شاء بعض ان يزعم ذلك بقعل خيال عزرا أو حلقيا * * * اللذين كانا يعملان خيالهما لمقاصد سياسية ودينية . فضلا عن ذلك فلعل هذين الجدين اليهوديين قد اصطنعا — مع ذلك — للعبرانيين اجدادا أثرياء وأقوياء ، ولعلهما قد قصرا حديثهما على الانتصارات وليس عن الهزائم ؛ فحين ي اخترع انسان ما تاريخ أمة ؛ فان الكبرياء القومى هنا هو الذى يملى عليه كل جملة يقولها .

* وصف مصر .

* * * Esdras أو Helcias ونلمس هنا خلطا فى الأسماء وقع فيه المؤلف ، فنحن فى الواقع بصدد رجل واحد هو عزرا بن سرايا بن عزريا بن حلقيا ، أحد مصلى وباعثى القومية اليهودية عند نهاية الأسر البابلى ، وهو كما تصنفه التوراة « كاتب ماهر فى شريعة موسى » ، عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد وهو حفيد الكاهن الأكبر الذى كان نبوخذ نصر قد أمر بأعدامه بعد استيلائه على اورشليم ، وبعد عودة اليهود من الأسر ، بعد أن سمح لهم بذلك الملك كورش أصبح حاكما للجودية ، وظل صاحب نفوذ قوى على قومه ، وقد أمرهم بالتخلص من زوجاتهم غير اليهوديات باعتبارهن « من شعوب الرجاسات » وأن عليهم الا يتزوجوا بها بأجنبية كى لا يزيدوا « على اثم اسرائيل » . ويرى بعض المؤرخين أنه هو واضع « أخبار الأيام الاول » و « أخبار الأيام الثانى » المتضمن لسفر الملوك الذى قام هو كذلك بوضعه ، كما يقال أنه قد غير الكتابة العبرية القديمة واستبدل بها الحروف العبرية الحديثة وهى نفسها الحروف الكلدانية (المترجم) .

الدراسة العاشرة :

حصار القبائل العربية التي تقطن بين مصر وفلسطين أنسيه جويير

العنوان الأصلي للدراسة هو :

حصار شامل للقبائل العربية التي تقطن بين
مصر وفلسطين ابتداء من خان يونس وغزة
حتى نهر العاصي ، والجزء الشمالي من
الصحراء التي تفصل مكة عن سوريا .

أصبحت اليوم تقاليد وعادات العرب الذين يهيمن منذ زمان لاتعيه
الذاكرة فى صنجراوات مصر وسوريا ، معروفة بشكل كاف ، ولقد نقل
الينا مؤرخو وفلاسفة وجغرافيو العصور القديمة ، فى هذا الخصوص ،
تفاصيل لاتختلف فى كثير عن تلك التى نقرأها فى مؤلفات الرحالة المحدثين ،
لكن الأسماء الحالية للقبائل وقوتها العسكرية المفترضة ، والأماكن التى
تقطنها ، لا توجد فى أى مؤلف من هذه المؤلفات ، بكل التحديد والدقة
المرغوبين .

وإذا لم نول بالآلا للظلام الدامس الذى يبدو وكأنه مقدر على هذه
المعثائر نصف المتوحشة ، وانعدام اتصالاتنا بهم ، فقد يبدو أمرا ضئيل
الأهمية فى الواقع أن نتعرف على كل الخصوصيات الماسة بهم ، اللهم
الا اذا كان من شأن هذه الخصوصيات أن تلقى بصيصا من الضوء على
جغرافية صحراواتهم بحيث تصبح بذات فائدة للرحالة الذين يأتون من
بعدنا ، ذلك أن العرب ، وهم بطبيعتهم متعجرفون ومتغطرسون ،
لايرحبون الا بأولئك الذين يقدرونهم ويحترمونها ، خاصة ، أولئك الذين
يعرفونهم ، لذلك فقد ظننت أن حصرا لهذه القبائل العربية ، أى لهذه
الجماعات الرحل التى تقطن البلاد الواقعة بين نهر النيل ونهر العاصى ،
أن يكون أمرا عديم الجدوى . ولكى يكون لهذا العمل ، ذلك النوع الوحيد
من التقدير الذى نرجو أن يناله ، فقد قارنا بعناية فائقة هذه المعلومات
التي هياها لنا رجال من أهل البلاد لاجئين الى فرنسا بتلك المعلومات التى
جمعت فى نفس أماكن حدوثها أثناء الرحلتين المختلفتين (اللتين قمنا
بهما) ، وقد دونا أسماء الأعلام بالحروف العربية والفرنسية ، وتفادينا
بشكل خاص أن ندرج ، سواء فى العمود الخاص بالأسماء ، أو بالعمود
الخاص بالملاحظات كل ما قد يكون عرضة لعدم الدقة وكل ما قد يكون
مزعما للشك .

بيان بالقبائل العربية في مصر السفلى

اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الترايين أو ترايين	وادي التيه ؛ ضواحي غزة وبخاصة المنطقة المسماة دير التين	٥٠٠ فارس
عرب السواركة	نفس الصحراوات حتى جبل الطور	مجهول
عرب الطور	تسكن هذه القبيلة كما يوحى بذلك اسمها ضواحي جبل الطور	٤٠٠ فارس
عرب محارب أو نفعيات	ضواحي بلبيس والقرين	أكثر من ٤٠٠ فارس
عرب التهانية عرب الطرابنس عرب بن البرائق	تسكن هذه القبائل الثلاث الضواحي الرملية والقاحلة لخان يونس	من ٢٠٠ الى ٣٠٠ فارس
عرب الحناجرة	المجرء الى جنوب خان يونس	العدد مجهول

المصادر والمراجع	ملاحظات
استخلصت هذه المعلومات بمعرفتنا ومن نفس الأماكن التي توجد بها القبيلة .	كانت هذه القبيلة التي يعرفها كل من زاروا مصر في الأزمنة الأخيرة ، أكبر عددا فيما مضى عما هي عليه الآن . فهي واحدة من تلك القبائل التي عانت من غضبة على بك عندما عزم هذا الزعيم الملوكي على تخليص مصر من العربان .
هذه المعلومات مستخلصة من مذكرات في حوزتنا وصلت إلينا عن طريق المرحوم ميخائيل صباغ الناسخ العربي بالمكتبة الملكية .	هذه القبيلة في تحالف مع القبيلة السابقة ، وكان اسم شيخها في عام ١٧٩٩ يسمى ابن معوى .
من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها ومذكرات د. روفائيل أعدت حديثا ونشرها مايو Mayeux	ينقل عرب الطور إلى القاهرة الفحمة وفواكه هذا الجبل وكذلك بعض سلع الهند القادمة عن طريق السويس .
من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها ومن مذكرات ميخائيل صباغ .	لا ينبغي أن نخلط بين هذه القبيلة وقبيلة أخرى تحمل نفس الاسم وسنتناولها فيما بعد .
من مذكرات في حوزتنا نقلها إلينا السوري خليل مسعد .	على الرغم من أن هذه القبائل تابعة لحكومة غزة إلا أنها تعتبر قبائل مصرية بسبب رحلاتها العديدة إلى القاهرة . وفي عام ١٧٩٩ لم يكن لها سوى شيخ واحد يسمى أبو شكال وحيدى .
شرحه

اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب القطاب	ضواحي القاهرة ، الى مسيرة يوم من شرق الجنوب من هذه المدينة	٦٠٠ فارس على الأقل
عرب البساطين	على بعد ثلاثة فراسخ من القاهرة	قليلو العدد
» الحويطات	تجاور القبيلة السابقة	٤٠٠ فارس
» الصوالحة	ضواحي العريش والى الشمال منها	٤٠٠ فارس
» نصف حرام	شواطىء بحيرة صغيرة تسمى بركة الحج بالقرب من القاهرة	٥٠٠ فارس
» البيصار	ضواحي مصر العتيقة	٣٠٠ فارس
» العايدى	ضواحي القاهرة ، على مسيرة يوم الى الشرق من المدينة	١٠٠٠ فارس
» الحبابية	على مسيرة يوم ونصف من القاهرة فى الصحراء	٦٠٠ فارس
» نصف ساعد	نفس المكان	٣٠٠ فارس
» بلى	شرحه	٣٠٠ فارس
» الزفانى	شرحه	٢٠٠ فارس
» الطميلات	واد يحمل نفس الاسم كانت تمر به فيها مضى ترعة السويىس المسماة خليج أمير المؤمنين	٥٠٠ فارس

المصادر والمراجع	ملاحظات
من مذكرات المرحوم ميخائيل صباغ
شرحه ، وكذلك من مذكرات الدكتور روفائيل
من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها . شرحه	كانت لهذه القبيلة علاقات كثيرة ودية مع الفرنسيين الصوالحة متحالفون مع القبيلة السابقة . وكان شيخها الذي تعرفنا به شخصيا في عام ١٧٩٩ يسمى الشيخ محمد بن صالح
شرحه	
شرحه ، ومن مؤلف المسيو مايو Mayeux	يوجد المرء بالمثل عربانا يحملون نفس الاسم بالقرب من أهرام الجيزة .
من مذكرات ميخائيل صباغ	تنقسم هذه القبيلة الكبيرة العدد الى فروع كثيرة أسماؤها مجهولة لنا .
شرحه ، ومن معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها .	كانت هذه القبائل الأربع وبخاصة القبيلتين الأخيرتين في حالة حرب ضد الفرنسيين .
من مذكرات ميخائيل صباغ ، ومن معلومات استخلصناها بمعرفتنا

عرب

العدد المفترض	أماكن إقامتها	اسم القبيلة
مجهولة العدد	مناطق التل ، وعراق المنشية	عرب العايد » قلازين » الجبارات » العمارين
• • •	بين غزة وجبل الخليل وهو مقر القبيلة القديمة يهوذا وتعد الخليل مدينة مقدسة منذ زمان طويل باعتبارها مكان قبر ابراهيم	» بكير
٣٠٠٠ فارس على الأقل	بين العريش وغزة وفي الصحراء الواقعة الى الجنوب الشرقي من هذه المدينة الأخيرة	» الوحيدات
٣٠٠-٢٠٠ فارس	ضواحي الرملة واللد (ديوسبوليس القديمة)	» الأمانة
٢٠٠ فارس	شواطئ النهر الذي يجري الى الشمال من يافا والمرتفعات التي تطل على هذه المدينة	» أبو كشك

المصادر والمراجع	ملاحظات
مستخلصة من مذكرات السورى خليل مسعد	كان شيخ القبائل فى عام ١٧٧٩ يسمى ابن حسين الدايمى وحيدى
شرحه
من معلومات استخلصناها من نفس اماكنها ، وكذلك من مذكرات د. روفائيل .	تسيطر هذه القبيلة القوية على كل البلاد الواقعة اسفل خط عرض ٣١ بين البحر المتوسط والبحر الميت وينتمى اليها على الدوام شيوخ القبائل المجاورة وتنقسم الى عدة فروع أشهرها عادة عرب عايشة أو عايشية الذين يقطنون بالقرب من غزة .
من معلومات استخلصناها من نفس اماكنها وكذلك من مذكرات السورى خليل مسعد .	يقوم الإمارة عادة بحراسة الأشخاص الذاهبين للحج الى بيت المقدس وفى عام ١٧٩٩ كان شيخهم يسمى سلامة الأمير .
مستخلصة من معلومات نقلها اليها يعقوب حبيب شيخ الشيفا عمر فى سوريا .	كان شيخ هذه القبيلة فى عام ١٧٩٩ يسمى أحمد بكير .

العدد المفترض	اماكن اقامتها	اسم القبيلة
تليلو العدد	نفس المناطق	عرب السلاح (أو باعة الملح) عرب عدوان » المسعودى
» »	ضواحي القدس الشريف	
» »	تجاور القبيلة السابقة وتعيش كذلك على شواطئ نهر الأردن	
» »	يعيش هؤلاء العرب في القوافل التي تقابلها بالقرب من قيسارية فلسطين ويرون على السدوام يتجولون في أطلال هذا المثر القديم للمسيحيين	» النعميات
تليلو العدد لحد كبير	نفس المناطق	» السعدية
» »	» »	» الحوارث
» »	المناطق الواقعة بين قيسارية وروحة وشواطئ البحر حتى طنطورة	» النعميات
٢٠٠ فارس	البلاد الواقعة بين المرج وروحة أي سهل جبرائيل القديم أو سهل ازديلون المشهور بخصوبته ومراعيه	» براريش
٢٠٠ فارس	جبل الكرمل	» المساعيد
٢٠٠ فارس	المناطق الخلفية الجبلية من بلدة نابلس ، وهي شكيم القديمة في بلاد السامرة	» زبيدات
تليلو العدد	البلاد الواقعة بين يافا ونابلس التي كانت تسكنها قديما قبيلة أنزاييم	» السنائرة

المصادر والمراجع	ملاحظات
من مؤلف الميسيو مايو
من مذكرات الشيخ يعقوب حبيب
» » » »
شرحه وكذلك من معلومات حصلنا عليها بأنفسنا .	كان نسخهم في عام ١٧٩٩ يسمى عبد الله السراب .
شرحه
»
»
»	نستخلص ان هذه القبيلة هي نفس القبيلة التي يشير اليها روفائيل باسم باراريش في مذكراته .
»
»
»
»

اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الغابة	المناطق النى تشكل ممتلكات قبيلة منسى	شرحه
» الصقر	الصحراء الواسعة التى تمتد من شرق البحر الميت والتى كانت فيما مضى موطنًا للرعاة المؤابيين .	٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ فارس
» الحلف	ضواحي صفد	قليلو العدد
» العوج	مكان يسمى العوجة	شرحه
» التركمان	من قاتون حتى جسر ابن عامر	شرحه
» الصقر بادية	ابتداء من هذا الجسر حتى بيسان وهى مدينة بيتشان القديمة فى نابلس	العدد مجهول
» السمكية	بين جسر بنات معقوب والتقنيطرة	كثرة العدد
» السميرات	نفس المناطق	شرحه
» الجمائين	شرحه	»
» تركمات الثلجية	ضواحي القنيطرة من جهة الشرق وهى بلدة كثيرة الاشجار .	العدد مجهول

المصادر والمراجع	ملاحظات
شرحہ ، وكذلك مذكرة الدكتور روفايل .	وكما يدل عليها اسمها فان البلاد التي تقطنها كثيرة الاشجار .
معلومات استخلصناها في نفس اماكنها ومن معلومات قدمها يعقوب حبيب وكذلك من خريطة المسيو بولتر Poultr	تقوم هذه القبيلة القوية الشكية بجولات متعددة في بلاد صفد التي كانت قديما جزءا من ممتلكات قبيلة نفتالي وحتى اسوار نابلس وعكا وصور .
من معلومات الشيخ يعقوب
شرحہ ، وكذلك من معلومات السوري خليل مسعد	كان شيخ هؤلاء العربان في عام ١٧٩٩ يسمى ابو كثك شأنها شان القبيلة التي نحمل نفس الاسم والتي ذكرناها آنفا :
شرحہ	لا يشترك هؤلاء التركمان الا في الاسم مع القبائل التي تسكن سهل انطاكية وضواحي الجنوب الغربي لدمشق وبلدة عنينة .
يعقوب حبيب ومن معلومات استخلصناها في نفس اماكنها . ومن الجغرافى القديم دانفل d'Anville ج ٢ ، ص ١٧٧	يسكن هؤلاء العرب البلاد التي كانت فيما مضى تشكل جزءا من قبيلتي يساكر وزبولون ، وقد حاربوا وكذلك العرب الذين سنذكرهم بعد ذلك الفرنسيين فوق تل طابور .
يعقوب حبيب
د. روفائيل
د. روفائيل والشيخ يعقوب .	يتحدث هؤلاء العربية والتركية
شرحہ

العدد المفترض	أماكن إقامتها	اسم القبيلة
كبرية العدد	ابتداء من القنيطرة حتى منطقة تسمى الجيدور	عرب نعيمات الشرقية
١٠٠٠ غارس	جنوب بحيرة طبرية بين صفد وجسر بنات يعقوب	» خيط بوادي
العدد مجهول	ضواحي أريحا أو جيركو القديمة	» مساعيد امارة
شرحه	الشواطئ الغربية للبحر الميت والجبال الواقعة الى شمال القدس الشريف	وعرب الوهايب
»	من القدس الشريف حتى نهر الأردن	عرب كاظم امارة
»	شواطئ نهر الأردن حتى بيسان	» التمايصة
العدد مجهول	نفس الأماكن	» الفهيدات
تليلو العدد	الجبل الذي يشرف على بحيرة طبرية الى الشرق	» الثعالبة
»	نفس المناطق حتى نهر الأردن	» البشائوه
٣٠٠ فارس	شواطئ البحيرة الصغيرة المسماة الحولة	» المشايخة
٣٠٠ فارس	شواطئ بحيرة طبرية الى الشمال حتى البلاد التي يشغلها العرب السابقون (الغور) وهي بلاد صخرية	» الغور
العدد مجهول	نفس الأماكن	» صخور الغور
شرحه	ابتداء من شفا الغور حتى الجزء الأوسط من تل طابور	» الفوارنة
»	الى الغرب من القبيلة السابقة	» الصبيح
		» الدكاثرات

المصادر والمراجع	ملاحظات
معلومات استخلصناها من نفس أماكنها وكذلك الشيخ يعقوب . شرحه ، وبخصوص العدد ، من مذكرة د. روفائيل .	هؤلاء العرب أنرياء في مواشيهم
يعقوب حبيب	المناطق التي نتجول فيها هذه القبائل العربية تشكل جزءا من أملاك قبيلة بنيامين
شرحه
»
»	كان هذا السهل يشكل جزءا من ممتلكات قبيلة منسى .
شرحه وكذلك د. روفائيل
شرحه
»
الشيخ يعقوب
خليل مسعود
شرحه

عرب

العدد المفترض	أماكن إقامتها	اسم القبيلة
العدد مجهول	ضواحي حاصبيا وظهر الهضبة السورية التي نناخم بلاد المتاوله	عرب النمرات وعرب محمداً
كثير العدد	ضواحي البلقاء والسلط	» العباد
العدد مجهول	صحراء بلقة وضواحي شفا الغور والسلط والزرقا	» اهتيم أو » العدوان
شرحه	البلاد المعروفة باسم عمان وجرس الى الشرق من القبيلة السابقة	» الغنيمات
»	نفس المناطق	» المهداوى
»	شرحه	» بنى حسن
	ضواحي ملكه	» بنى كلاب
٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ فارس	البلاد الواقعة بين حمص وحماه وحلب	» الموالى
كثير العدد	سهل يسمى الغوطة ويمتد بين لبنان والهضبة السورية	» الحدايد
قليل العدد	ابتداء من البقاع بالقرب من بعلبك حتى جبل الدروز	» بنى سعيد
الف خيمة	يقضون الصيف فى سوريا والشتاء فى قونية	» الرشوان

المصادر والمراجع	ملاحظات
الشيخ يعقوب حبيب
شرحه
»
»
»
»
»
»
شرحه وكذلك د. روفائيل
شرحه ، أما بخصوص موضع الغوطة ، فعن المكتبة الشرقية Herbelot
شرحه
الشيخ يعقوب ، ومن مؤلف نشر حديثا وعنوانه : Itinéraire d'une partie de l'Asie Mineur	يتحدثون العربية والتركية لكن اسم قبيلتهم عربى بلا شك .

العدد المفترض	أماكن إقامتها	اسم القبيلة
العدد مجهول	شواطئ النهر المسمى النهر الكبير الذى يصب فى البحر بالقرب من اللاذقية	عرب القثلية
كثيرو العدد	ضواحي اللاذقية	عرب القدامسة
» »	شواطئ نهر العاصى	» قره حجلة
» »	الصحراء الواسعة الواقعة بين مكة والفرات واللجاة	» عنزة
قليلة العدد	الصحراء الممتدة الى الجنوب من دمشق	» الهوارى
شرحه	الصحراء التى اشتهرت باسم اللجاة	» عرب السردية
»	الصحراء الواسعة التى تعرف اليوم كما كانت تعرف قديما باسم جبل حوران	» الدمالجة

ملاحظات	المصادر والمراجع
<p>ننبح هاتان القبيلتان مذهب النزاريين</p> <p>.</p> <p>عنزة هو الاسم الأصلي لهذه القبيلة القوية التي تنقسم الى عدد لا حصر له من الفروع أشهرها في سوريا بنى صنخرة .</p> <p>هذه القبيلة ، البالغة الشهرة في سوريا تشغل البلاد التي كان يقطنها فيما مضى العمونيون أو بنو عمون .</p> <p>.</p> <p>.</p>	<p>يعقوب حبيب ، د. روفائيل ، والمؤلف السابق ذكره</p> <p>الشيخ يعقوب حبيب</p> <p>شرحه، د. روفائيل ، خريطة بولتر Poultr الخ الخ .</p> <p>الشيخ يعقوب ؛ خريطة بولتر .</p> <p>شرحه</p> <p>»</p>

ملحق

على الرغم من أنه لا يدخل فى موضوعنا أن نعرف القارىء بالقبائل العربية التى تعسكر فى مصر العليا والوسطى والسفلى ، وكذلك بتلك القبائل التى تتجول فى ضواحي الاسكندرية ، وعلى الرغم من أن المعلومات

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الهوارة	بين أسوان وجرجا	٢٠٠٠ فارس على الأقل
» المعبادة واللبادة	ولاية جرجا	كثيرو العدد
» زناتى	طهطا	٤٠٠ فارس
» هنادى أو الهنادوة	ولاية جرجا	كثيرو العدد
» العطايات	بنفلوط	قليلو العدد
» ابن وافى والطحيوى	الى الشمال من منفلوط	شرحه
» أبو كرايم ومنهم :	ملوى	»
» الجبهة	نواحي بحر يوسف حتى المنيا	»
» التراهونة	تلة	»
» الخوين	ضواحي سبالوط	»
» الفوايد	ولاية بنى سويف	٣٠٠ فارس
» العدديد	شرحه	العدد مجهول
» السحارات	»	شرحه
» المحازى	.	»

[illegible]

العدد المفترض	أماكن اقامتها	اسم القبيلة
شرحه	ولاية المنيا	عرب محارب
»	• • • •	» بنى واصل
		ومنهم :
»	• • • •	» السمالو
»	• • • •	» الفرجان
»	• • • •	» الترائع
العدد مجهول	• • • •	» المزايزى
شرحه	سواحي المنيا	» بنى وائل
٤٠٠ فارس	سواحي الأطفيحية	» بنى حرام
٢٠٠ فارس	سواحي شمال بنى سويف	» الضعفا
٤٠٠ فارس	ولاية البهنسا	» الخويلد
٢٠٠ فارس	نفس الأماكن	» نجما
العدد مجهول	سواحي الجيزة والمناطق القاحلة بجوار الأهرام	» غزالة أو خبيرى
٣٠٠ فارس	مكان يسمى أوسيم بالقرب من الجيزة	» الزيدية

المصادر والمراجع	ملاحظات
شرحه
»
»
»
»
»
مستخلصة من ميخائيل صباغ	كان شيخها في عام ١٧٩٩ يسمى أبو بكر
شرحه
»	على الرغم من قلة عدد هذه القبيلة فهم مرهيون تماما في البهنسا.
»
»
»	كان شيخهم في سنة ١٧٩٩ يسمى أحمد
»	يثقال انهم من نسل الماليك الذين طردهم السلطان سليم من مصر عام ١٥١٧

مصر

العدد المفترض	أماكن إقامتها	اسم القبيلة
٥٠٠ ، ٦٠٠ فارس	ولاية البحيرة	عرب الجويلى
٤٠٠ ، ٥٠٠ فارس	ولاية المنوفية	» ابن بغداد
ضواحي الاسكندرية		
٦٠٠ فارس	نواحي بحيرات الفطرون	» الجوابى
٢٠٠ فارس	نفس الأماكن	» السنهالو
٥٠٠ فارس	المكان المسمى الميمون	» مسينيد
١٠٠٠ الى ١٢٠٠ فارس	ضواحي الجنوب الغربى من الاسكندرية	» اولاد على او بنى على
	وادي الميمون على مسيرة يومين الى الغرب من الاسكندرية	» مطيرد

المصادر والمراجع	ملاحظات
ميخائيل صباغ
شرحه
	وبحيرات النظرون
شرحه، ومن معلومات استخلصناها فى نفس أماكنها	يبدو أن عرب الجوابى من أصل أفريقى ، وهم يقومون بنقل ملح النظرون من البحيرات حتى الاسكندرية والطرانة وينقل البضائع الخاصة بواحة آمون (سيوه)
ميخائيل صباغ
شرحه
شرحه، ومن معلومات استخلصناها من نفس أماكنها	هذه القبيلة قوية بنفسها وبحلفائها ويسكن شيخها قرية تسمى القتلية بنائها أجداده الى جوار الدير المحرق
شرحه

الفهرس

الاهـداء :	٣
المقدمة :	٥
الدراسة الأولى : جولة فى اقليم المريوطية ، تأليف	
جراتيان لوبير	١٧ — ٤٠
الدراسة الثانية : رحلة الى وادى النطرون ، تأليف	
الجنرال أندريوسى	٤١ — ٧٨
الفصل الاول : عن وادى النطرون	٤٥
الفصل الثانى : طبوغرافية البحر الفارغ	٥٥
الفصل الثالث : عن الاديرة القبطية	٦٣
الفصل الرابع : عن عرب الجوابى وعن البدو	٦٨
الدراسة الثالثة : دراسة موجزة عن عيون موسى ، تأليف	
ج . مونج	٧٩ — ٨٦
الدراسة الرابعة : ثمانية وعشرون يوما فى سيناء ، تأليف	
ج . كوتل	٨٧ — ١٣٤
الدراسة الخامسة : رحلة الى بنى سويف والفيوم ، تأليف	
ب . م . مارتان	١٣٥ — ١٩٢
القسم الاول : ولاية بنى سويف	١٤١
القسم الثانى : ولاية الفيوم	١٥٢

الدراسة السادسة : العرب والعربان في مصر الوسطى

تأليف ا. جومار ١٩٣ — ٢٤٤

الفصل الاول : العرب المزارعون

١ — القبائل التي استقرت في مصر منذ زمن بعيد . ١٩٧

٢ — القبائل التي استقرت حديثا . ٢٠٨

الفصل الثاني : العرب المحاربون أو العربان الرعاة

أو الرحل ٢٢٨

الدراسة السابعة : القصير والعبادة ، تأليف دي بوا —

ايبيه ٢٤٥ — ٢٦٠

الدراسة الثامنة : القبائل العربية في صحراوات مصر ،

تأليف دي بوا — ايبيه ٢٦١ — ٣١٠

الدراسة التاسعة : كيف خرج اليهود من مصر القديمة ،

تأليف دي بوا — ايبيه ٣١١ — ٣٧٢

الفصل الاول :

مقدمة : ٣١٣

— عن الاسسغار ٣١٦

— عن الزراعة الرحل ٣١٧

— ابراهيم ٣١٩

الفصل الثاني :

— عن العبرانيين حتى عصر دخولهم مصر ٣٢٧

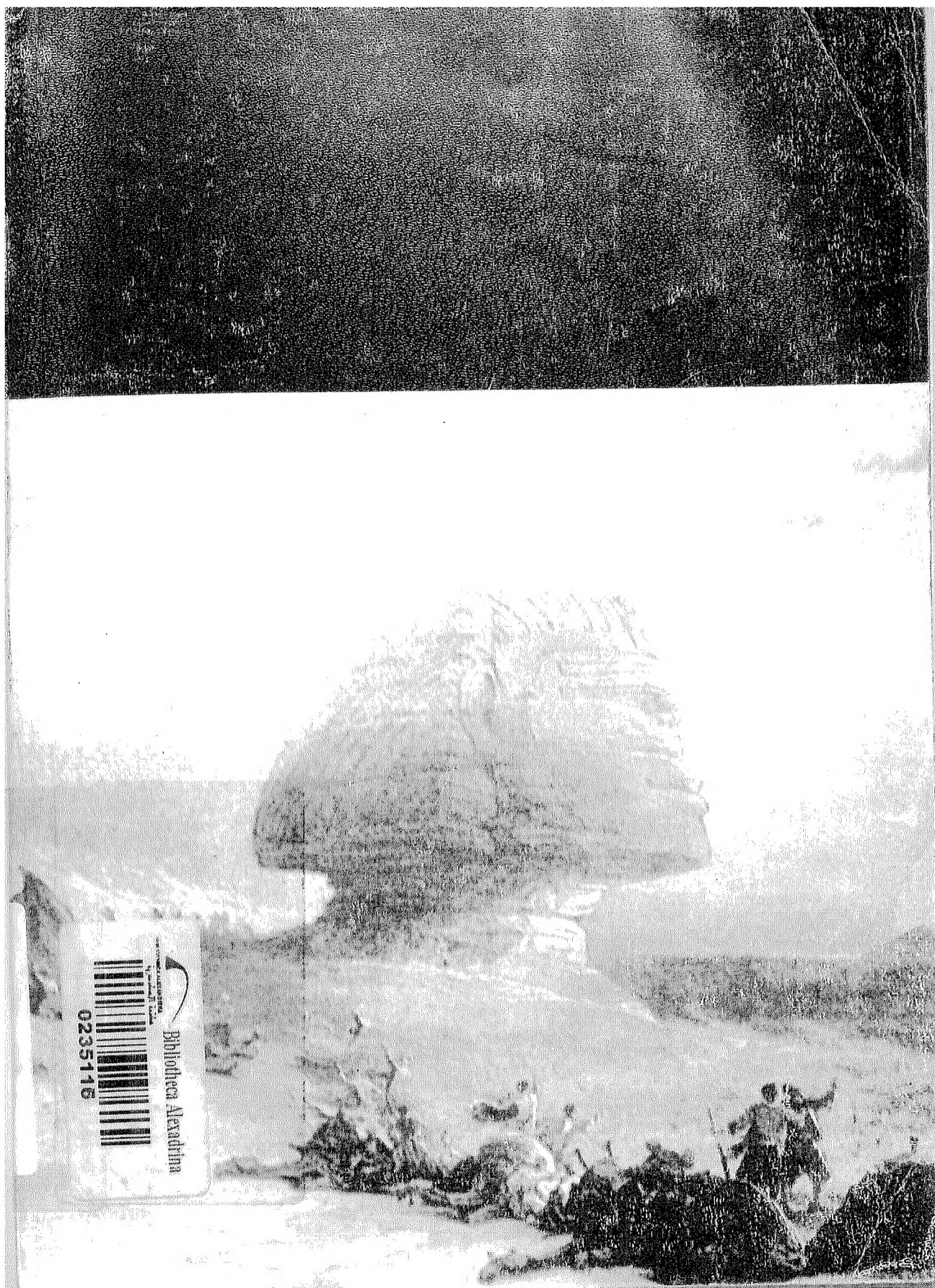
— عن فتح مصر على يد الزعاة وعن العبرانيين منذ وفاة

يوسف حتى هروبهم الى الصحراء ٣٣٢

- هروب العبرانيين الى الصحراء ٣٣٩
- مسيرة العبرانيين في الصحراء حتى المنطقة التي عبروا
عندها البحر الاحمر ٣٤٣
- عبور البحر الاحمر ٣٤٦
- المياه المرة تصبح مياه عذبة ٣٥٤
- عن السحاب وعمود النار وعن بعض الظواهر الأخرى
المثيرة للانباه ٣٥٦
- الشريعة تنزل على جبل سيناء ٣٦١
- موت موسى ٣٦٨

الدراسة العاشرة : حصر للقبائل العربية التي تقطن بين

مصر وفلسطين ، تأليف اميديه جوبير ٣٧٣ — ٤٠٠



0235116



Bibliotheca Alexandrina